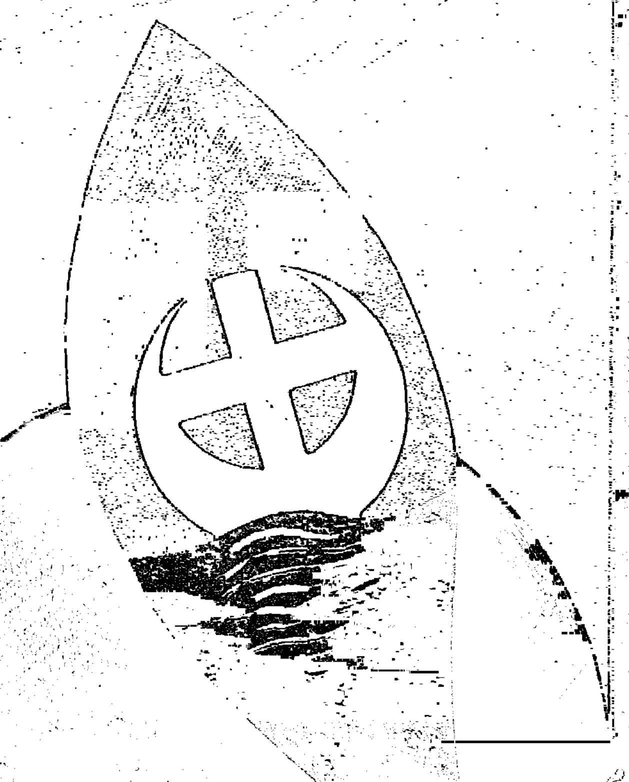
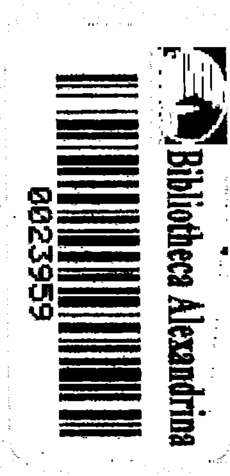
صري الحديث

دكتور أحمد علي المجدوب





الزهراء للإعلام العربي


بسم الله الرحمن الرحيم

الزهراء للإعلام العربي
قســـم النشــر

ص.ب : ١٠٢ مدينة نصر - القاهرة - تلغرافياً : زاهراتيف - تليفون ٦٠١٩٨٨ - ٢٦١١١٠٦ - تلكس ٩٤٠٢١ رائف يوإن فاكس ٢٦١٨٢٤٠
P .O : 102 Madinat Nasr - Cairo - Cable : Zahratif - Tel : 601988 - 2611106 - Telex : 94021 Raef U .N fax 2618240

بسم الله الرحمن الرحيم

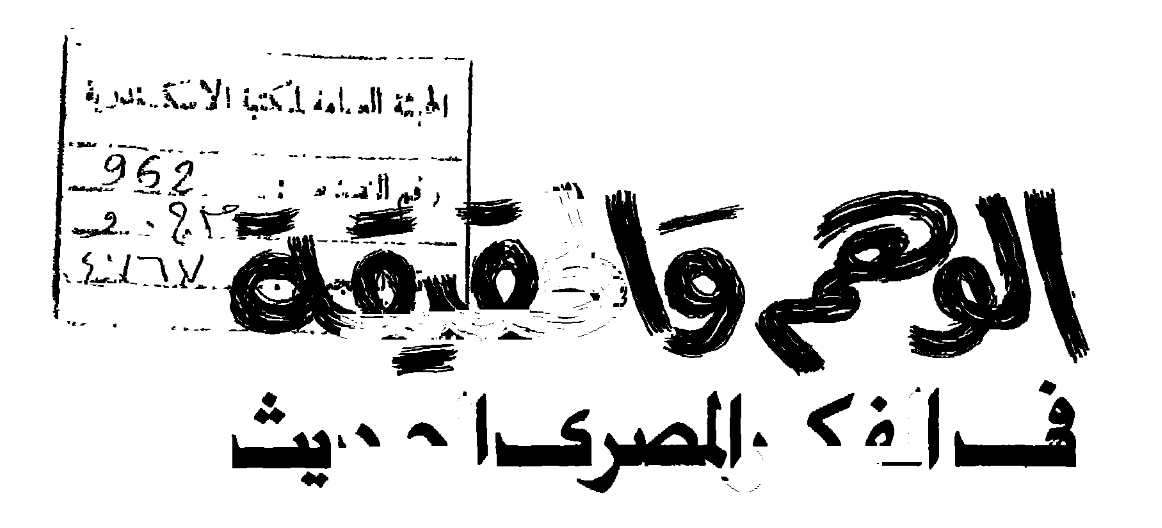
«وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ
وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ»

صدق الله العظيم
فصلت/٣٣

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ ــ ١٩٩٣ م

فبراير ١٩٩٣

الجمع التصويري والتجهيز
بالزهراء للإعلام العربي



الوهم والحقيقة

فى الفكر المصرى الحديث

دكتور أحمد على المجدوب



الزهراء للإعلام العربى

مقـــدمـــة

على الرغم من أن « الفكر » سواء أكان عالميا أم وطنيا لا يخلو من أوهام ، فإنه يمكن القول إن الفكر المصري الحديث يأتي في المقدمة لا من حيث كم الأوهام التي يشتمل عليها فحسب ، بل ومن حيث خطورتها . وإذا مثلنا الفكر بالبناء ، فإن الأوهام التي يحتوي عليها الفكر المصري الحديث هي من هذا البناء ، ليست بمثابة الأساس الذي يقوم عليه هذا البناء وحسب ، بل والدعائم التي تضمن له أن يظل قائما منتصبا ، فبدونها تنهار معظم طوابقه ولا يبقى إلا ما هو أصيل .

والذين سيقرءون هذا الكتاب ستعتريهم الدهشة وهم يرون أن أفكارا كثيرة كانوا يعتقدون أنها صحيحة وراسخة ، ليست في الحقيقة إلا أوهاما رددها البعض ، في أول الأمر ، على استحياء ، أو على سبيل جس النبض ، فلما لم يجدوا من يتصدى لها بالنقد والتفنيد ، تمادوا في غيهم ، فمضوا يرددونها ، تارة شفاهة وأخرى كتابة باعتبارها حقائق لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . وجاء بعدهم من جاراهم في جرأتهم ، بل ونافسهم في ضلالهم فرددها بدوره على أنها كذلك .

وللأسف الشديد فإن كثيرين من المحسوبين على العلم والفكر والثقافة في هذا البلد انضموا إلى أصحاب هذه الأفكار وأنصارها من أصحاب الغرض والمصلحة وراحوا يرددونها بثقة وحماس مدفوعين بالرغبة في الظهور بمظهر العلماء أو المفكرين أو المثقفين ، دون أن يحملوا أنفسهم عناء النظر فيها ، أو يكلفوها مشقة البحث فيما اشتملت عليه وذلك باستخدام الأسلوب العلمي ومناهج البحث المستقرة .

وهنا بالإضافة إلى هؤلاء بعض محترفي الكتابة الذين يحصرون جهدهمَ في التقاط فقرات من هذا الكتاب وصفحات من ذلك الكتاب دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة تمحيص ما ينقلونه ، أو نقد ما يستعيرونه فتأتي كتبهم مجرد ترديد لما افتراه الذين نقلوا عنهم .

وهكذا تفشت الأكاذيب وانتشرت الأوهام ، وكاد تكرارها يؤدي إلى إكسابها مسحة من الحقيقة .

وفضلا عن هؤلاء وأولئك ، توجد فئة لا تقل خطرا على الفكر والعلم والثقافة من سابقتها هي فئة السياسيين أو من يدعون أنهم كذلك . وهؤلاء يمكن أن نميز فيهم بين قسمين ، الأول يضم الانتهازيين الذين لا يعنيهم في كثير أو في قليل ما يترتب على هذه الأوهام من أضرار تصيب « مصر » التي لا يكفون عن التغني باسمها دون أن يتجاوز كلامهم عنها أطراف ألسنتهم ، أما إذا اضطرتهم الظروف إلى مواجهة الأوهام والأكاذيب التي يرددها المغرضون وجدتهم يتجنبون حتى الحديث فيها مفضلين أن يدفنوا رءوسهم في الرمال كالنعامة وهم يرددون بصوت مرتعش أن كل شيء على ما يرام ، بينما الحقيقة خلاف ذلك تماما . ومنهم القسم الثاني الجهلاء الذين اقتحموا ميدان السياسة في غفلة من الزمن ، فهم لا يدركون ما وراء هذه الأوهام من أهداف خطيرة وما يمكن أن يترتب عليها من نتائج أشد خطورة لا تقل بحال من الأحوال عما حدث في فلسطين ولبنان .

وفات الجميع أن هذه الأوهام التي لا يكف مرددوها عن ترويجها في محاولة واضحة الخبث لإضفاء مسحة من الحقيقة عليها لن تلبث أن تصبح ركائز ومنطلقات لادعاءات ومطالبات في غاية الخطورة من شأنها أن تعصف بـ (مصر) عصفا ، وأن تمزقها إربا والعياذ بالله .

وحتى لو أحسنا الظن وجنحنا إلى التفاؤل ، واستبعدنا أن تتحقق النتائج التي يسعى إليها من يروجون لهذه الأوهام ، وهي نتائج مدمرة بلا شك ، فإن استقرار هذه الأوهام في صميم الفكر المصري من شأنه أن يصيب التاريخ الثابت بالاضطراب والخلط لما ستؤدي إليه من قلب للأمور فيصبح الحق باطلا والباطل حقا .

ولذلك فإننا نقول إنه قد آن لنا أن نواجه القضية بصراحة وجرأة قبل أن يستفحل الخطر ، ويصبح من المتعذر تفادي الأضرار ، ولندع المجاملات والنفاق والتظاهر والرياء وكل ما اعتدنا عليه من أساليب غير سوية ولا أخلاقية لم تعد علينا إلا بالخسران المبين ، ولنواجه أصحاب هذه الأوهام بصراحة وبلا أدنى حرج من أجل أن نقيم العلاقات بيننا وبينهم على أسس سليمة ومفاهيم واضحة ومحددة لا تدع

مجالا للخلافات والصدام .

والمواجهة الصريحة تقتضي إعمال النظر في أفكارهم وتمحيصها وإخضاعها للنقد الموضوعي والدراسة العلمية من أجل تقويمها إذا كان فيها شيء من الصحة ، أو استبعادها وتنقية فكرنا منها إذا ما تبين زيفها واصطناعها . وفي كلتا الحالتين ستكون هناك فائدة محققة للطرفين ، فهم إما أن يكونوا قد أخطئوا بحسن نية فيكون في المصارحة تصحيح لأخطائهم وردهم إلى الصواب ، وإما أن يكونوا قد تعمدوا الخطأ فيكون في المصارحة تنبيه لهم إلى أن محاولاتهم مكشوفة وأهدافهم معروفة وبالتالي فإنها لن تتحقق بالطريقة التي تصوروها ، بل ولا بأي طريقة أخرى ، لأن مصر تختلف عن غيرها فهي ليست لبنان وليست فلسطين . وإن من شأن استمرارهم في تنفيذ خطتهم أن يتسببوا في إصابة مصر التي يزعمون أنهم يحبونها بأضرار لا يعلم مداها إلا الله سبحانه وتعالى ، والقضاء على أفضل صيغة للتعايش والمشاركة بين مسلميها وأقباطها لمصلحة قلة أعماها التعصب وافترسها الحقد فجعلها تشتط في أوهامها وتجمح في طموحها الذي أصبح طمعا وشراهة ، لا يعنيها في قليل أو في كثير ما قد يؤدي إليه سلوكها من نتائج خطيرة ، ولا يهمها ما قد يصيب الناس ، مسلمين وأقباطا من أضرار ، وإنما يهمها فقط أن تخدع الأقباط بأحلام وأوهام ، وأن تستغل جماهيرهم المسالمة الطيبة من أجل بلوغ غايات شريرة ، زين لهم الشيطان أنهم بالغوها إذا هم امتطوا صهوة هذه الأوهام وتلك الأحلام .

كذلك فإنه ، فضلا عما يمكن تحقيقه من فائدة عملية نتيجة للمواجهة الصريحة مع هذه القلة الواهمة ، فإن هناك فائدة علمية عظيمة القيمة تتمثل في تنقية تاريخ الفكر المصري الحديث من الأوهام التي دست فيه بمهارة ملحوظة على مدى قرن ونصف قرن تقريبا حتى أصابته بالاضطراب .

وعلى الرغم مما افترضته من احتمال أن يكون دس تلك الأوهام في الفكر المصري الحديث قد حدث بحسن نية ، فإن المتتبع لتطور هذا الفكر يلاحظ أن الطريقة التي تم بها ذلك لا تتفق وحسن النية بحال من الأحوال ، فلا هي تسللت إلى هذا الفكر بشكل عفوي ، ولا علقت به بطريقة عشوائية ، وإنما دُست فيها دسا بعد بحث

دقيق ودراسة متأنية انتهت إلى اختيار المواضع التي إذا دست فيها تلك الأوهام أو الأفكار كما يسمونها بدت وكأنها من نفس النسيج وليست غريبة عنه . وهكذا وجه الواهمون جهودهم ، وبأناة شديدة ، من أجل اصطناع سياق تاريخي يتميز بالاتساق والانسجام حتى يمكن أن ينطلي على الناس .. ففي البدء كانت « القومية المصرية » التي جسدها شعار « مصر للمصريين » رفعه « الجنرال يعقوب » الخائن بعد هروبه من مصر مع الحملة الفرنسية الفاشلة ، ولكنه مات معه ودفن في البحر الأبيض مع جثمانه في بطون الأسماك ، إلى أن ظهر شبحه على استحياء لما استحضره المشعوذون الفرنسيون الذين أحاطوا بمحمد علي وابنه إبراهيم ، لما صح عزم الغرب الصليبي على القضاء على الدولة الإسلامية بأيدي أبنائها ، فأطمعوا محمد علي في الخلافة العثمانية ودفعوه إلى شن الحرب عليها بعد أن كان يحارب مع الخليفة العثماني في اليونان . وبعد أن أوشك المسلمون أن يقضوا على بعضهم في حروب لا مبرر لها ولم يكن لها من نتيجة غير القضاء على قوتهم أمسك الغرب بخناقهم وكبلهم بالأغلال إلى أن تحين اللحظة المناسبة لافتراسهم والقضاء عليهم ماديا وفكريا . وبدأ يمهد للقضاء عليهم فكريا بالحملة التي شنها هو وأنصاره من طلاب البعثات الذين كان محمد علي قد أوفدهم ليتعلموا في أوروبا فاقتنصهم الغرب وملأ رءوسهم بأفكار معادية للإسلام وذلك بواسطة فريق من المعلمين يتكون من أشد الناس عداء للإسلام وكراهية للمسلمين ، وبخاصة هؤلاء الذين كانوا قد فروا من مصر مع الحملة الفاشلة ممن أرضعهم الفرنسيون فكرة « القومية المصرية » ومصر للمصريين كنقيض للدولة الإسلامية والأمة الإسلامية . ولما حاول عباس الأول أن يقف في وجه أعداء الإسلام ويغلق في وجوههم الأبواب التي ينفذون منها لإفساد عقول المسلمين دسوا له السم وولوا مكانه تلميذهم المخلص سعيد باشا الأحمق الذي وضعوا على لسانه نفس الكلمات التي سبق أن وضعوها على لسان يعقوب وأعوانه ، ومن بعد سعيد جاء إسماعيل فردد نفس الكلام وزاد عليه بأن فتح الباب على مصراعيه لشذاذ الآفاق من الأوروبيين الذين وفدوا إلى مصر يعيثون فيها فسادا وينهبون خيراتها ويذلون أهلها ، وتبارى معهم في هذا السبيل « العلمانيون » من أبناء مصر الذين عادوا من البعثات ، وزملاؤهم الذين تلقوا تعليمهم في المدارس الأجنبية ، التي لم يقل دورها

في إفساد عقولهم عن دور المعلمين الفرنسيين وغيرهم الذين تولوا تعليم المبعوثين المصريين في الخارج .

وهكذا أصبحت مصر مهيأة للاحتلال الإنجليزي بعد أن فقدت وحدتها وتضامنها وصلابتها التي مكنتها من طرد الإنجليز من رشيد والإسكندرية يوم أن كان محمد علي منصرفا إلى مطاردة المماليك في الصعيد ، فيومئذ لم يكن هناك مثقفون مشوهو العقول يرتبطون عاطفيا بالغرب ويعتقدون أن الإسلام هو السبب في تأخر المسلمين ويظنون أنهم من نسل الفراعنة وليسوا من نسل العرب الذين شرفهم الله تعالى بحمل رسالة الإسلام إلى الدنيا كلها . ومع ذلك فقد ظل الشعب متمسكا بدينه مخلصا لعقيدته يعض على عروبته وإسلامه بالنواجذ ، ينظر باستنكار شديد إلى هذه الطغمة الآبقة وهي تلوي لسانها وتغير سحنتها وتستبدل جلدها وتتنكر لتقاليدها وتلقي بنفسها تحت أقدام المحتلين طمعا في منصب أو سعيا وراء كسب مالي أو حتى نظرة رضا أو كلمة مديح كاذب من أوربي محتال .

ووفد على مصر من بين من وفدوا أعداد كبيرة من نصارى الشام الذين عهد الغرب الصليبي إليهم بدور يختلف عن الدور الذي عهد به إلى إخوانهم في الشام . وكان دورهم أن ينضموا إلى فريق المنادين بالقومية المصرية ومصر للمصريين ، هذا الفريق الذي جمع بين الأحمق المخدوع ، والانتهازي اللئيم ، والوصولي الطماع ، والتافه الباحث عن دور ، والدعي الذي تتحكم فيه الرغبة في الظهور ، والثرثار الذي وجد في القشور التي قرأها بهذه اللغة الأجنبية أو تلك مادة يثرثر بها . وهكذا اجتمع في هذا الفريق أناس مثل يعقوب صنوع اليهودي وسليم نقاش وأديب اسحق وشبلي شميل وغيرهم من نصارى الشام الذين لا علاقة لهم بمصر وكونها للمصريين أم لغيرهم مع آخرين من المفكرين والعلماء من المسلمين ممن يمكن أن نقول عنهم إن رياح الغرب الشديدة قد « لطشتهم » كما يقول العوام فأفقدتهم الاتزان أو الوعي أو الهدف ، كل حسب ظروفه وطبيعته فمضوا يرددون الأغنية دون أن يفقهوا ما ترمي إليه ، وكثيرا ما كان بعضهم يثوب إلى رشده فيعود إلى الحق ويعلن تمسكه بالوحدة الإسلامية أو الجامعة الإسلامية ، ولكن ذلك لا يستمر طويلا فلا يلبث

أن يخلط ويهرف بكلام لا يختلف عما يهرف به سليم النقاش وشبلي الشميل وأضرابهما . وفيما بعد انضم إلى هذا الفريق آخرون أمثال أحمد لطفي السيد وسعد زغلول وقاسم أمين والشيخ علي عبد الرازق وسلامة موسى وغيرهم .

وهكذا ، ففي الوقت الذي كان فيه نصارى الشام يظهرون أشد الحماس لفكرة « مصر للمصريين » ، كان إخوانهم في الشام يظهرون حماسا أشد لفكرة الدولة العربية المستقلة عن الخلافة الإسلامية ويتغنون بأمجاد العرب وينعون على الأتراك ما وصفوه بأنه استيلاء على ملك العرب ، وهي دعوى باطلة تتعارض مع الإسلام الذي لا يعترف للعرب بالفضل على غيرهم من المسلمين ، ناهيك عن أن يكونوا أصحاب السلطان دون غيرهم ، وإنما الفضل يتبع التقوى وجودا وعدما « لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى » . ليس ذلك وحسب بل إنهم أظهروا غيرة شديدة على اللغة العربية والتاريخ العربي الذي أعاذوا كتابته بحيث يبرز فيه دور نصارى الحيرة والغساسنة ، وكان طبيعيا أن تظاهرهم الإرساليات الأوروبية والقناصل وكل كاره للإسلام معاد للمسلمين ، فأمدوهم بالمطابع وزودوهم بالأموال من أجل أن يعمقوا الخلاف بين العرب والأتراك .

وفي الوقت الذي كان نصارى الشام وغيرهم يقومون بهذا الدور الخطير في مصر والشام كان اليهود وأعوانهم من العلمانيين الأتراك يقومون بدور مماثل في تركيا ذاتها . فقد تعللوا بخيانة العرب للعثمانيين للدعوة إلى حل الدولة الإسلامية والتفرغ لشئون تركيا ، وهي الدعوى التي أدت في النهاية إلى سقوط الخلافة وقيام حكم علماني واضح في عدائه للإسلام يتزعمه مصطفى كمال « أتاتورك » .

وإذا كانت دعوى « مصر للمصريين » والقومية المصرية قد اتسمت في أول أمرها بالارتجال وعدم التحديد ، على الرغم من بعض المحاولات التي بذلت من أجل إيجاد جذور لها ، فإن أول جهد جاد ومنظم ومدروس يبذل من أجل اصطناع أسس تاريخية لهذه الدعوى عن طريق دسها في سياق الفكر المصري والزعم بأنها جزء من هذا الفكر يرجع الفضل فيه إلى الدكتور لويس عوض ، بل إنه يعد أول من طور الفكرة وجعلها أكثر تحديدا ، وعمل بحماس واضح وغيرة شديدة من أجل خلط الأوراق

وقلب المفاهيم توصلا إلى تبرئة « الجنرال » يعقوب من تهمة الخيانة واعتبار ما فعله عملا مشروعا يماثل ما فعله السيد عمر مكرم عندما قاد حركة المقاومة الشعبية ضد الفرنسيين !! وذلك في كتابه الذي عنوانه « تاريخ الفكر المصري الحديث » الذي تكلم فيه عمن أسماهم « المصريين الأصلاء » ومن وصفهم بأنهم « أصحاب الحق الأصليين » الذين ميزهم عمن أسماهم بالدخلاء إلى آخر ما ورد في هذا الكتاب من أوهام ومزاعم وادعاءات ، غلب على ظن الدكتور لويس عوض أنها ستنطلي على الناس ، وغاب عنه أن الضباب الذي نشره الماركسيون في سماء الفكر والثقافة في مصر في الفترة السوداء من تاريخنا التي سيطروا فيها على الهيئات والمؤسسات المسئولة عن عقل الإنسان لا يمكن أن يُخفي نشاطه أو يستر أغراضه من هذا النشاط . وإذا حدث وتحقق ذلك فإنه لن يدوم شأن كل باطل وزور ، فقد زال سلطان الماركسية وافتضح أمرها وظهرت على حقيقتها ، مجرد نبات طفيلي ضار أدخله إلى مصر اليهود وتعهدوه بالرعاية والعناية على أمل أن يقضي على الفكر الأصيل . وبطبيعة الحال ، لم يكن غريبا أن يقوم التحالف بين أتباع الغرب من العلمانيين وأتباع الشرق من الماركسيين ، وأن يساند بعضهم بعضا من أجل تزييف الفكر وإفساد العقول نكاية في الإسلام وكيدا للمسلمين ، فتلقف هؤلاء وهؤلاء أوهام لويس عوض وادعاءاته ومضوا يرددونها في كتبهم ومقالاتهم وفي حسبانهم أن ذلك من شأنه أن يكسبها مسحة من الحقيقة ويفرضها فرضا على العقول والأفكار ، وغاب عن العلمانيين ذوي الأسماء الإسلامية أنهم يشاركون ، وبلا وعي ، في مخطط خطير يجب الإعداد له بذكاء وتؤدة ، وما هذه الأوهام إلا الأساس الفكري له ، أو الأيديولوجية التي يستند إليها الجزء العملي من الخطة . فليس من قبيل المصادفة أو ما يسمى بالخواطر أن تتردد مقولات لويس عوض في كتب الدكتور ميلاد حنا ، والدكتور أنور عبد الملك ، والدكتورة سميرة بحر وغالي شكري وغيرهم وغيرهم من الكتاب الأقباط . كما أننا لا نرى أن ترديد هذه الأوهام والادعاءات حدثت بدافع من الإعجاب بكلماتها البليغة أو عباراتها الجذلة أو صياغتها المتقنة ، وبدون أن يكون هناك هدف أو غاية من وراء هذا الترديد ، وإنما الذي نرجحه أن هؤلاء الكتاب وغيرهم يهدفون إلى وضع أساس فكري وأيديولوجي لخطة عملية ، أو على الأقل يقيمون بأفكارهم هذه حائط مبكى

جديدا يكون حافزا للأقباط لكي يسعوا إلى استرداد ما صورته لهم هذه الأوهام على أنه حقوق ضائعة هم أصحابها . وسواء أكان الهدف هو هذا أو كان ذاك ، فإن الأمر جد خطير لا يحتمل السكوت أو إغضاء الطرف عنه خاصة وأن كل المؤشرات تتجه إلى الاحتمال الأول ، أي وجود خطة ذات أبعاد ولعل منها ما يجري تنفيذه في الداخل مثل إحياء ما يسمى باللغة القبطية وجعلها لغة تخاطب بعد أن جرى اتخاذها لغة شعائر وطقوس ، ومنها اصطناع ما يسمى بالتاريخ القبطي ، فبعد أن كنا لا نعرف عن الفترة التي دخلت فيها المسيحية إلى مصر غير ما يسمى بالفن القبطي ، إذا بنا نقرأ عن حضارة قبطية ومرحلة قبطية ، وهو كلام لا عهد لمن درسوا التاريخ المصري به ، فلم يكن هناك في أي وقت من الأوقات ما يسمى بالحضارة القبطية ولا بالمرحلة القبطية ، وإنما الذي يعرفه كل المؤرخين من الشرق والغرب على السواء أن مصر كانت تحت حكم الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) . ولكن طالما أن الهدف هو تعميق الاختلافات بين المسلمين والأقباط ، فلابد من الكذب والاختلاق والتزوير حتى لا يكون الدين هو وحده المختلف بل واللغة والتاريخ ، ولا يبقى إلا الأرض ، وهذه أمرها هين . هذا هو الهدف من كل ما يردده الأساتذة والدكاترة لويس عوض وميلاد حنا وسميرة بحر وغالي شكري وأنور عبد الملك وغيرهم .

أما الجزء من الخطة الذي يجري تنفيذه في الخارج ، فإن الذين وضعوها اختاروا على ما يبدو فكرة « الشتات » ولكنه على خلاف الشتات اليهودي شتات اختياري الهدف منه تكوين جماعات ضاغطة في المهجر تتحرك عندما تصدر إليها الإشارة بذلك من أجل أن تثير الرأي العام ، سواء في الدول التي تقيم بها ، أو في غيرها واستخدام ذلك لابتزاز الحكومة في مصر . وهو ما حدث في عهد السادات الذي أغضبه أشد الغضب هذا الأسلوب ودفعه إلى الرد بحسم على الرئيس الأمريكي « كارتر » وتحذير المسئولين عن ذلك في مصر . وبطبيعة الحال ، فإن استخدام المهاجرين في الضغط ليس إلا مرحلة من مراحل الخطة ستتلوها مراحل أخرى تهدف إلى « استرداد الحقوق » كاملة .

وهكذا نرى أن الأمر فيما يتعلق بالأوهام أو الأفكار التي أقحمت على الفكر المصري الحديث ليس أمر أفكار سقطت من السياق التاريخي لهذا الفكر أراد البعض إعادتها إلى مكانها ، أو أمر أخطاء وقعت عند التأريخ للفكر المصري الحديث أرادوا تصحيحها ، أو حتى أمر أناس ابتلاهم الله بداء الكذب والتضليل فهم يشبعون رغبتهم عن طريق العبث بالتاريخ ، كما أنهم ليسوا ممن يسهل وقوعهم في الخطإ فهم يرددون كلاما لا يدرون ما فيه من زيف . كلا وألف كلا ، إنهم يدركون حقيقة ما يفعلون ، بل ويصرون عليه ويتمسكون به ضاربين عرض الحائط بكل مصلحة لمصر ولشعبها بمن فيهم من يزعمون أنهم يدافعون عن « حقوقهم الأصلية » . وإذا كنا نستنكر ونرفض ما يصدر عن البعض من المسلمين من تصرفات لا يقرها الإسلام ونقف في وجوههم تارة بالنصح والتوجيه وأخرى بالقوة التي تبلغ أحيانا حدا من الشدة قد يراه البعض غير مبرر ، فإن مصلحة مصر وكل شعبها تقتضي أن نقف في وجه هذه الفئة التي تزيف التاريخ وتسمم الأفكار وتبيع الوهم لطائفة من الشعب لا لشيء إلا لتبلغ هي ذاتها أهدافا غير مشروعة . وأول ما يجب أن نفعله أن نكشف كذب ادعاءاتها وزيف مزاعمها ، وما تقوم به من نشاط خبيث لن يأتي من ورائه خير لأحد .

هذا هو الهدف من هذا الكتاب : أن ندع المجاملات والعواطف جانبا ونواجه الحقائق بدون لف أو دوران حتى لا تفاجئنا العاصفة فتجتاح كل شيء . وأن نبدد الأوهام قبل أن يستفحل خطرها ، ونبين للأقباط وللمسلمين على السواء أن لا أحد يمتلك من الحقوق في هذا البلد أكثر مما يملك غيره ، وأن اللعب بالتاريخ وتزييفه لا يعطي المزيفين أي حقوق يريدون بلوغها بالتزييف ، وأن النموذج اليهودي ليس من السهل أن يتكرر ولا النموذج اللبناني ، لأنه لا سبيل إلى زحزحة الثوابت في التاريخ المصري .

هدانا الله إلى ما فيه خير مصر شعبا وأرضا ، ولتبق مصر كما كانت صاحبة الدور الحضاري وحاملة مشعل التقدم والوحدة والحرية والعدل كما كانت في كل عصورها . وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض** ﴾ .

الفصـــــل الأول

الوهم والحقيقة في علاقة المصريين بإخوانهم المسلمين

تعد العلاقة بين المصريين وإخوانهم المسلمين من أتراك ومماليك ومغاربة وغيرهم من الموضوعات التي أولاها الكتاب والمفكرون والمؤرخون ، من العلمانيين والماركسيين وغير المسلمين ، اهتماما خاصا ينبع من كراهيتهم الشديدة للإسلام ، ورغبتهم القوية ، لا في الإبقاء على انقسام المسلمين فحسب ، بل وتعميق هذا الانقسام عن طريق إشاعة العداء وبث الكراهية بين المسلمين . وإذا كان بعض المؤرخين والمستشرقين الغربيين قد فعلوا ذلك قديما وحديثا ، فإن هذه الفئة من المصريين التي أشرنا إليها لم تكتف بمجاراتهم فيما فعلوه بل أبدت حماسا شديدا لترويج مزاعمهم ونشر ادعاءاتهم ضاربة عرض الحائط بالحقائق التاريخية التي لم يملك المؤرخون الغربيون ، ممن عرفوا بالإنصاف والموضوعية ، إلا أن يعترفوا بها .

ومن هذه الحقائق الثابتة ثبوتا لا شك فيه أن الإسلام لا يفرق بين المسلمين بحسب عروقهم أو عنصرهم أو عصبياتهم . فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، وبالتالي فإن الدولة في الإسلام دولة عامة لا تقتصر على العرب دون غيرهم ، وإنما هي تجمع المسلمين كافة عربا وفرسا وأتراكا وبربرا ، ومن أي عنصر كان ، وكلهم مواطنون لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات .

هكذا كانت الدولة الإسلامية منذ أن قامت في المدينة بعد هجرة الرسول ﷺ إليها ، وإلى أن قضى الاستعمار الأوروبي على الدولة العثمانية في أوائل هذا القرن . وحتى عندما كان بعض الحكام ينفردون بالحكم في هذه الولاية أو تلك ، لما تطرق الضعف إلى الخلافة العباسية ، فإن الحق في المواطنة لم يطرأ عليه تغيير فظل كما هو حقا عاما يتيح للشخص أن يتنقل من إقليم إلى غيره من الأقاليم الداخلة فيما يسمى

بـ (دار الإسلام) ، دون قيود أو شروط ، فكان المصري ، في عهد الدولة الفاطمية يرتحل إلى بغداد حاضرة الخلافة العباسية للزيارة أو للإقامة دون أن يعترضه معترض ، وكذلك العراقي ومثله الكردي والتركي ، لهم ولغيرهم أن يرتحلوا إلى مصر للزيارة أو للإقامة . كل ما في الأمر أن الحكومة هنا كانت غيرها هناك ، وهو الاختلاف الذي لم يكن يسترعي اهتمام أحد من عامة المسلمين . صحيح أن بعض الحكام قد يختلف مذهبهم عن مذهب البعض الآخر من معاصريهم ، كما كان الحال بين العباسيين والفاطميين ، مما كان ينعكس على مواقف كل فريق من الآخر ، إلا أن عامة الناس في طول الأقاليم الإسلامية وعرضها لم يكونوا يعيرون هذا الاختلاف اهتماما ، اللهم إلا إذا تسبب الاختلاف في خلافات لا تلبث أن تؤدي إلى صراعات وحروب ، فإنهم كانوا يولونها من الاهتمام بقدر ما ينشأ عنها من الأخطار ، أو يترتب عليها من الأضرار [1] . وكثيرا ما كانوا ينأون بأنفسهم عن المعارك التي تدور بين المتنافسين ويرفضون الاشتراك فيها كجنود لسبب هام هو رفضهم أن يقاتل المسلم أخاه المسلم ، التزاما منهم بما أمر به الله تعالى . ومن هنا كان لجوء الحكام إلى الاستعانة بجنود حديثي عهد بالإسلام لم يحيطوا بعد بمبادئه وأحكامه في عدد المنازعات التي تنشأ بين المسلمين وأسلوب حلها .

كذلك نلاحظ أن العلماء والفقهاء والأدباء في الدولة العباسية كانوا يتنقلون بين العراق والشام والجزيرة العربية ومصر والمغرب وغير هذه وتلك من أقاليم دار الإسلام دون شروط أو قيود ، على الرغم من الخلاف بين الحكام هنا والحكام هناك . فقد جاء الإمام الشافعي إلى مصر وأقام بها وهو المولود بغزة ، كما ذهب إلى العراق حيث أقام بعض الوقت . وكذلك ابن سينا ، وابن خلدون والمتنبي وابن تيمية وابن القيم الجوزية وغيرهم ، ولم يقل أحد إنهم غرباء أو دخلاء .

والذين يصفون الأتراك والمغاربة والأكراد والمماليك وغيرهم من أبناء الأمة الإسلامية بأنهم غرباء عن مصر ودخلاء عليها يكشفون بقولهم هذا عن منطق سقيم

---

(1) دكتور حسين مجيب المصري ، صلات بين العرب والفرس والترك ، صفحة 613 .

لا يشاركهم فيه إلا بعض العلمانيين أمثال عبد الرحمن الرافعي [1] الذي وصف هؤلاء العلماء بالضيوف ، وهذا خطأ لأنهم في الحقيقة كانوا مواطنين ، كما يعبر هؤلاء عن مشاعر طفولية ساذجة شبيهة بتلك المشاعر التي تصدر عن طفل صغير ، يصرخ ويبكي إذا رأى والديه يوليان أخا له اهتمامهما وما ذلك إلا لأنه يتصور أن والديه لا يجب أن يهتما بسواه لأنهما له وحده . وليس من شك في أن السبب في ذلك ، لدى من يطلقون هذه الأوصاف على أبناء الأمة الإسلامية هو نفس السبب الذي يوجد لدى مثل هذا الطفل ، وهو التدليل والأنانية المفرطة ، فضلا عن الانحراف الفكري والتعصب وغير ذلك من الدوافع التي تكمن وراء تصرفاتهم في هذا الصدد . أما التدليل فيمكن أن نلمسه من استعراضنا للتاريخ ، ومقارنتنا بين ما لقيه سكان الأقاليم التي تعرضت للغزو والفتح من جانب شعوب أخرى ، وبالذات في أوروبا ، وبين ما لقيه المصريون من المسلمين حين فتحوا مصر ، بل بين ما فعله هؤلاء وبين ما سبق للفرس والإغريق والرومان أن فعلوه بالمصريين حين فتحوا بلادهم . ولن نثقل على القارئ بذكر عشرات الأمثلة لما كان يفعله الغزاة بأهل البلاد التي يغزونها ، وإنما سنكتفي ببعض الأمثلة لغزوات وقعت في حقب تاريخية مختلفة ، من بينها تلك الغزوة التي قام بها الأنجلوسكسون لبريطانيا في القرن السابع الميلادي ، وقبل فتح المسلمين لمصر بمدة قصيرة لا تزيد على ربع القرن . كما أنها حدثت في مجتمع ، صدَّع أنصار الغرب رءوسنا بالحديث عن مدنيته وحضارته .

وقعت الغزوة أو الغارة السكسونية على الجانب الشرقي من الجزيرة ، وأسفرت عن تخريب المنطقة كلها . ويصف المؤرخ « جلداس » ما حدث قائلا « فمن ساحل البحر إلى ساحله الآخر اشتعلت النار ، واشتد أوارها في الشرق على يد أولئك الطغام المجرمين ، فدمرت المدن والأقاليم المجاورة ولم يتوقف اشتعالها ولهيبها إلا بعد أن أتت على كل وجه الجزيرة فلعقت بألسنتها الحمراء الغليظة القاسية كل ما صادفها

(1) تاريخ الحركة القومية ، الجزء الأول ، صفحة 48..

حتى ساحل المحيط الغربي ، وتدمرت المنازل بسبب ما توالى عليها من ضربات المناسف وأدوات الحصار ، أما السكان ومن بينهم نظار الكنائس وقساوستها والعاملون بها فأخذتهم السيوف الماضية من كل جانب ، ومن لم يقتل بالسيف منهم احترق بالنيران التي أحاطت بهم من كل جانب . ومن المناظر المريعة ما تراكم في وسط الشوارع من رءوس الأبراج التي هوت من شاخ مواضعها ومن أحجار الأسوار الشاهقة ، والمذابح المقدسة ، وأشلاء الجثث التي تجمدت عليها الدماء ، والتصقت معا كأنما حدث ذلك بفعل معصرة من معاصر النبيذ . ولم يكن لهؤلاء الضحايا من مثوى إلا في خرائب بيوتهم أو بطون الحيوانات والطيور الجارحة » .

ويضيف « جلداس » إلى ذلك قوله : « على أن بقية من هؤلاء التعساء لقيت حتفها بعد أن اشتد تضييق الخناق عليهم بالجبال ، ومن نجا من القتل والذبح من السكان دهمتهم المجاعة فاستسلموا لأعدائهم فأضحوا لهم رقيقا أبد الآبدين واعتبروا نجاتهم من الذبح فضلا كثيرا ، واستبد الفزع والهلع بفريق آخر فالتمسوا لهم مأوى في جهات تقع وراء البحر . وظل آخرون على مقامهم في إقليمهم برغم ما امتلأت به نفوسهم من الخوف والرعب ، فنجوا بأنفسهم بما اتخذوا لهم من مأوى في التلال والجبال الشاهقة وما يحاذي البحر من غابات كثيفة وصخور شديدة الانحدار »[1] .

وفي عام 870 غزا الدانمركيون إنجلترا وكرروا ما سبق للأنجلوسكسون أن ارتكبوه من مذابح وتخريب وتدمير ، واضطر ملك انجلترا إلى أن يبرم معهم معاهدة استقروا بموجبها في بعض أجزاء دولته . كذلك فعل وليم النورماندي عندما غزا إنجلترا في عام 1066 حيث تلا الغزو هجرة النورمانديين إلى إنجلترا وامتزاجهم بسكانها الذين كانوا خليطا من البريطون ، والكلت والأنجلوسكسون والدانمركيين . ومع ذلك لم نسمع أو نقرأ لمحاضر أو لكاتب إنجليزي كلاما يشتمل على ادعاء بوجود من يعتبرون أنفسهم أصحاب الحق الأصليين في إنجلترا ، وأن بعض المواطنين هم من الغرباء

---

(1) تاريخ العالم ، المجلد الرابع ، صفحة 501 .

أو الدخلاء ، لأنهم ليسوا دوي أصول بريطانية أو كلتية (سلتية) كالأنجلوسكسون مثلا أو الدانمركيين أو النورمانديين الذين كانوا آخر من وفد إلى إنجلترا .

وعلى الرغم مما اتسمت به غزوات الأنجلوسكسون والدانمركيين والنورمانديين لبريطانيا من قسوة شديدة ، بل ووحشية ، فإنها تعد بالمقارنة مع غزوات الأوروبيين للأمريكتين وأستراليا وأفريقيا ، مجزرة بسيطة بدأت وانتهت في زمن قصير ، ولم تؤد إلى القضاء على السكان ، كما حدث في الأمريكتين وأستراليا ، حيث أباد الغزاة الأوروبيون السكان الأصليين تقريبا ، ولم يبق منهم إلا عدد قليل ينظر إليهم الأوروبيون كما ينظرون إلى الحيوانات النادرة التي كادت أن تنقرض ، فهم محاصرون في مناطق معزولة يعيشون على فتات موائد الأوروبيين ، لا يلقون رعاية من أي نوع ، اللهم إلا ما يقوم به المبشرون من جهود تهدف إلى صرفهم عن ديانتهم ، وكل ما يرتبط بها من عادات وأعراف وتقاليد ، وإجبارهم على اعتناق المسيحية التي ذبحوا آباءهم باسمها . لذلك لم يظهر من بينهم عالم أو مفكر يسخر قلمه للتعريض والتنديد بما فعله الأوروبيون ناهيك عما فعله هؤلاء في الشام ومصر أثناء الحروب الصليبية ، وما فعلوه في الأندلس بعد سقوط الحكم الإسلامي بها ، وما فعلته الجيوش البابوية في الأقاليم التي اعتنق سكانها البروتستانتية .

وعلى الرغم من ذلك فإن المؤرخين الغربيين ، بعد أن ينتهوا من ذكر التاريخ الدموي لأوروبا ، يعلقون قائلين : إن ذلك هو ما كانت عليه أخلاق العصور القديمة وقيمها . وبطبيعة الحال ، فإننا لا نعترض على هذا التبرير ، إذا كان المقصود به أخلاق الأوروبيين وقيمهم ، وهو ما نعتقد أن الذين يثرثرون بكلمات مثل « أصحاب الحق الأصليين » ، و « الغرباء » و « الدخلاء » وغير ذلك ، لا يقبلونه على إطلاقه ، وإنما يستثنون المسلمين منه ، على الرغم من أنهم لم يبيدوهم ، ولم يغتصبوا نساءهم ويستعبدوا أبناءهم ، ولم يكرهوهم على ترك دينهم واعتناق الإسلام ، ولم يدمروا أرضهم ويحرقوا بيوتهم ويصادروا أموالهم ، وكلها أمور لها مبرراتها إذا كان الذين قاموا بها أوروبيين .

ولكن ، كما رأينا ، فإن هؤلاء الثرثارين ، يستخدمون منطقا آخر ، عجيبا

وعربيا في آن واحد ، هو منطق أصحاب الشقق المفروشة !! الذين يعطون لأنفسهم الحق في الاعتراض على مجيء أي شخص من أسرة المستأجر ليقيم معه . فهم يريدون أن يصوروا الأمر على أن المسلمين لم يجيئوا فاتحين ، وإنما جاءوا بناء على إعلان نشره المصريون يعرضون فيه تأجير مصر مفروشة للعرب ، على شريطة ألا يشركوا معهم غيرهم في الإقامة على أن يحتفظ المصريون بملكية العين المؤجرة لكي يظلوا « أصحاب الحق الأصليين » !! .

هذا هو المنطق الذي يتعامل به أناس يزعمون أنهم علماء ومفكرون وأدباء ، وتعترف الدولة بهم وتفرضهم صحفها على القراء ، وتطبع كتبهم المليئة بالأكاذيب والمغالطات والافتراءات ، بل وتمنحهم الجوائز والأوسمة !!

ومن بين أهم ما يحرص عليه أعداء الإسلام ، حين يدرسون موضوعا من موضوعات التاريخ العربي ، أو المصري ، تشويه العلاقة التي كانت قائمة بين العرب أو المصريين وبين غيرهم من المسلمين ، وعلى وجه الخصوص الأتراك والمماليك الذين يتعمدون إظهارهم في صورة الدخلاء المغتصبين ، ويصفونهم بالقسوة والشراسة والهمجية والتخلف والظلم والجهل وغير ذلك من الصفات التي تحط من شأن الإنسان . وبلغ الهجوم على الأتراك والمماليك أشده في حقبة الستينيات والسبعينيات أثناء سيطرة الماركسيين وحلفائهم من غير المسلمين والعلمانيين على أجهزة الثقافة ووسائل الإعلام ، حيث بلغ الحرص على السخرية منهم والتعريض بهم أشده ، حتى غلب على ظن الناس أن معركة مصر ليست مع الصهيونيين الذين اغتصبوا فلسطين ، ولا مع الغرب الذي يساعدهم ويساندهم ، ولا يدخر وسعا في سبيل إضعاف المسلمين واستغلالهم وإذلالهم ، وإنما مع الأتراك الذين انحاز بهم حكامهم إلى الغرب ، والمماليك الذين أصبحوا في ذمة التاريخ . ولم يكن غريبا أن تعتري الدهشة البعض ممن اعتادوا أن ينظروا إلى الأمور بطريقة سطحية ، فراحوا يتساءلون عن الفائدة التي يمكن أن تعود على الناس من مثل هذه التصرفات ، التي كانت على درجة كبيرة من التفاهة والسفه وفاتهم إدراك الأهداف الخبيثة للفئة المعادية للإسلام ، والتي عهد إليها النظام الحاكم بمقاليد الأمور في المؤسسات الثقافية والإعلامية . وهي الأهداف

التي تنحصر في القضاء نهائيا على أي أمل في قيام علاقة حميمة على أي مستوى ، ومن أي نوع بين مصر والعالم الإسلامي ، وبالذات تركيا ، التي تعد أقرب دولة إسلامية غير عربية إلى مصر ، والتي كانت مقرا لآخر خلافة إسلامية . وهو ما يقتضي إظهار العلاقة التي كانت قائمة بين مصر والخلافة الإسلامية العثمانية في صورة الاستعمار والتسلط والبغي ، ورسم الأتراك في صورة الجهلاء المتخلفين الحمقى المتعصبين لكي يكرههم الناس وينفروا منهم ، ويرتابوا في أي خطوة قد تجري لإيجاد نوع من التقارب بين الشعبين .

وعلى الرغم من أن العلاقة بين مصر ودولة الخلافة كانت قد انتهت واقعيا عقب احتلال بريطانيا لمصر ، وانتهت رسميا بحل الخلافة العثمانية على يد مصطفى كمال « أتاتورك » عام 1924 ، غير أن شبح الوحدة الإسلامية أو الجامعة الإسلامية ظل يؤرق أعداء الإسلام من علمانيين وغيرهم ، الذين كانوا قد قطعوا شوطا طويلا في الدعوة إلى ما يسمى القومية المصرية ، ومصر للمصريين ، وهي الدعوة التي قامت على أساس عنصري يُعتبر المصريون بمقتضاه شعبا مختلفا عن الشعوب العربية ، ترجع أصوله إلى الفرعونية ، وبطبيعة الحال فإنه يختلف كذلك عن الشعوب الإسلامية التي لا يربطه بها إلا الدين ، الذي استبعدوه من بين العناصر اللازمة لقيام الدول . وفيما بعد ظهرت الدعوة إلى القومية العربية ، التي استبعد أصحابها أيضا الدين من بين الأسس التي تستند إليها الوحدة العربية المرتقبة .

وإذا كانت فكرية القومية العربية قد قوبلت بالرفض من جانب الغالبية العظمى من الفئة القبطية المثقفة لسبب يرجع إلى شكهم في حقيقة ما روجه أنصارها من عدم وجود أي علاقة لها بالإسلام ، ولترجيحهم أن ينتهي أمرها إلى أن تصبح نواة لوحدة أو اتحاد إسلامي . إلا أنهم لم يترددوا في الإسهام بجهودهم ، وبحماس ملحوظ من أجل توجيه الاتهامات إلى الدول الإسلامية السابقة وبالذات الدولتين المملوكية والتركية ، بقصد تشويه سمعتها وإظهارها في صورة كريهة لا تستحق سوى البغض ولا تثير غير النفور من جانب العرب . ولما كان المماليك قد أصبحوا في ذمة التاريخ ، فإن نصيبهم من الاتهامات كان أقل من نصيب الأتراك ، الذين لا تزال دولتهم قائمة يحظى

الإسلام فيها بالتقديس والاحترام رغم ما بذله مصطفى كمال وخلفاؤه من جهود لعزله وإضعافه ، مما يجعل من غير المستبعد أن تقوم في المستقبل رابطة من أي نوع بين مصر وتركيا ، فضلا عن الدول العربية تعيد القوة إلى المسلمين وتدفعهم إلى العمل من أجل استعادة أمجادهم .

وقد يبدو هذا الاحتمال مستحيلا ، أو حتى بعيد التحقيق في نظر نسبة كبيرة من الناس ، تضم إلى جانب ذوي النظرة السطحية إلى الأمور ، هؤلاء الذين يفتقرون إلى الخيال والقدرة على استشراف المستقبل ، بالاستعانة بخبرات الماضي ودراسة وتحليل حركة واتجاهات العوامل التي تلعب دورا في تشكيل الحاضر ، وفي مقدمتها الإسلام الذي لعب ويلعب دورا بالغ الأهمية في حياة المسلمين . ولكن الغرب وأنصاره الذين يقيمون بيننا ليسوا من هذا النوع ولا من ذلك ، فعلماؤه المتخصصون في شئون العالم الإسلامي يتميزون بعمق نظرهم إلى الأمور ، ويجيدون استخدام مناهج البحث وأساليب التحليل والتفسير والتنبؤ الذي يقوم على أسس علمية ، ولا يقتصرون فيما يجرونه من دراسات وأبحاث على الحاضر فقط ، بل يضعون تحت أعينهم دائما أحداث الماضي القريب والبعيد ، مما يجعل حكوماتهم تعتمد على نتائج بحوثهم ودراساتهم وكثيرا ما تأخذ بما انتهوا إليه من توصيات عندما تشرع في إصدار قرار ، أو اتخاذ موقف . وإذا كانت الثورة الإيرانية قد وقعت على خلاف توقعاتهم ، فإنها دفعتهم إلى بذل المزيد من الجهد والنشاط من أجل الحيلولة دون تطور حركة اليقظة الإسلامية وبلوغها غاياتها . ومن بين ما تقوم به ، هي وأعوانها ، في هذا السبيل ، تشويه الكيانات السياسية الإسلامية الكبيرة التي قامت في الماضي ووصم قياداتها بالظلم والفساد والتخلف والقسوة ، واختلاق تناقضات ، يزعمون أنها كانت ولا تزال قائمة بين الشعوب الإسلامية ، أو تضخيمها إذا كانت قد وجدت ، والعمل على بعثها ودعمها ، كل ذلك من أجل جعل المسلمين يكرهون أي شكل من أشكال الوحدة أو الاتحاد ، وبعث المخاوف في نفوسهم من أي رابطة سياسية تجمع بينهم .

وإذا كان الغرب يتوخى الدقة والصدق فيما يجريه من دراسات وأبحاث تتناول

أحوال العالم الإسلامي ، فإنه ، وهذا دأبه دائما ، لا يفعل نفس الشيء فيما ينشره من بحوث ودراسات عن التاريخ الإسلامي ، وكذلك يفعل أنصاره فهم يلجئون إلى التضليل والكذب والتمويه بقصد تشويه هذا التاريخ . من ذلك أنهم يتحدثون عن طغيان الحكام المسلمين من مماليك وأتراك وظلمهم للرعية ، دون أن يذكروا شيئا عما كان عليه أباطرتهم وملوكهم وأمراؤهم الذين كانوا أشد طغيانا وأكثر استبدادا وعتوا وظلما . وقد تبلغ ببعض أتباعهم الجرأة حدا لا يتورع فيه عن الاستخفاف بعقول الناس ، فيزعم أن الأتراك لم يظلموا الناس أو يقسوا عليهم فقط ، بل وحالوا دون اتصالهم بالحضارة الغربية المزدهرة مما ضيع عليهم فرصة للتقدم والأخذ بأسباب التحضر !! وهو ما قاله الدكتور لويس عوض وهو يتحدث عن غزو الفرنسيين لمصر عام 1798 . فقد وصف هذا العام بأنه « **عام تشقق سور الترك العظيم الذي ضرب سياجا من حول العالم العربي كله وحال دون اتصاله بالحضارة الأوروبية اتصالا مباشرا ثلاثة قرون كاملة** »[1] أي منذ فتح سليم الأول مصر .

وكنا نود أن يبين لنا الدكتور لويس عوض كيف حال ما أسماه « سور الترك العظيم » دون اتصال العالم العربي بالحضارة الأوروبية اتصالا مباشرا ثلاثة قرون كاملة ، وهي القرون 16 ، 17 و 18 . وما فات العالم العربي من فوائد كان سيحصل عليها نتيجة لهذا الاتصال . ولكن للأسف لم يفعل ، وما كان ليجرؤ على أن يفعل ، لأنه يعلم علم اليقين أن هذا السور لم يحل بين العرب وبين فوائد كانت ستعود عليهم من الاتصال المباشر بالحضارة الأوروبية ، بل حال دون إصابة العرب بأضرار فادحة نتيجة للحروب المتصلة التي كانت الدول الأوروبية تشنها عليهم بقصد فتنتهم عن دينهم والتسلط عليهم وإذلالهم . هذا فضلا عن أنه لم يكن لدى الأوروبيين في هذه القرون الثلاثة ، ولا فيما سبقها من قرون ما يمكن للعرب أن يحققوا من

---

(1) تاريخ الفكر المصري الحديث ، صفحة 75 .

ورائه أي فائدة [1] .

ولكن الدكتور لويس عوض ، جريا على عادته ، أراد أن يوهم قراءه بخلاف ذلك ، لا لشيء سوى أن يجعلهم ينقمون على الأتراك ويكرهونهم لاعتقادهم بأنهم تسببوا في تخلفهم عن أوروبا . لذلك فإنه يجب أن نبين للناس ما تعمد هو إغفاله ، سواء من حيث ما كانت أوروبا تضمره للعرب وللمسلمين ، أو من حيث ما كانت عليه أحوالها السياسية والاجتماعية والفكرية ، نظرا لأن كثيرين ممن لم يقرءوا التاريخ الأوروبي بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب ثم في الشرق ، يتصورون أن أوروبا كانت دائما عظيمة ومتحضرة ومتمدينة ومتفوقة على شعوب الدنيا ، كما هي الآن ، وكما كانت أيام مجد الدولة الرومانية التي تحرص السينما الأمريكية على إبهار الناس بالأفلام التي تتناول أحداثا مما وقع في العصر الروماني ، فضلا عما تقدمه لهم من أفلام تتناول تقدمها العلمي والتقني الحالي وما عليه الإنسان الغربي من امتياز وتفوق .

وسوف نبدأ ببيان الفوائد العظيمة التي حال الأتراك بين العربي وبين جنيها ، حتى من قبل أن يقيموا ما أسماه لويس عوض « سور الترك العظيم » بقرون ، ونستشهد في هذا الصدد بما قاله المؤرخ الإنجليزي « إدوارد جيبون »[2] « منذ الفتوحات الأولى التي تمت في زمن الخلفاء ، يعتبر استقرار الترك في الأناضول أو آسيا الصغرى ، أفدح خسارة يؤسف لها لحقت بالكنيسة والإمبراطورية » . والسبب واضح فقد كانت الهجمات التي شنتها الإمبراطورية الرومانية الشرقية بدعم من الكنيسة تنذر باقتراب نهاية حكم المسلمين في الشام . وبدأت بيزنطة بفرض سيطرتها

---

(1) أما الدكتور غالي شكري فإنه يجعل هذه القرون عشرة وليست ثلاثة ، يقصد بذلك تضليل القارئ إذ يقصر الحضارة الإسلامية على القرون الثلاثة التي حكم فيها العرب . وهو اتجاه عنصري خبيث يرفضه الإسلام
النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث ، صفحة 130 .

(2) اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، المجلد الثالث ، صفحة 177 .

من جديد على جنوب إيطاليا ودالماشيا التي كانت تحت حكم المسلمين ، ثم تلا ذلك استيلاؤها على مناطق أعالي الجزيرة سنة 945 ، ثم استردت كريت عام 961 ، وفي العام التالي استولت على عين زربة ومرعش ثم على قليقية عام 965 ، وتبعتها قبرص ، وفي عام 969 استولى الإمبراطور « نقفور » على شيزر ، وحماة ، وحمص وأشعل النار في أنطرسوس وجبيل واللاذقية ثم استولى على أنطاكية . ويقول ستيفن رينسمان : إن الشروط المهينة التي تضمنتها معاهدة تسليم حلب كانت فيما يبدو تنذر بنهاية حكم المسلمين في الشام[1] .

وفي عام 971 استولى الإمبراطور البيزنطي « يوحنا زمسكيس » على نصيبين ، كما اعترفت الموصل بالتبعية له ، وفي العام التالي أعاد احتلال حمص دون قتال واستولى على بعلبك ، ثم نفذ إلى دمشق فوافقت على دفع الجزية له . ومن دمشق توجه إلى الجليل ثم إلى طبرية والناصرة ، ومنها إلى قيسارية على الساحل وهناك قدمت إليه الرسل من بيت المقدس تلتمس منه أن يجنبهم مخاطر نهب المدينة .

كان هذا هو حال العرب والمسلمين في القرن العاشر الميلادي ، الأمر الذي جعل كلا من نقفور ويوحنا زمسكيس يجرؤان على التصريح بأنهما سوف يدمران الإسلام ويقهران العرب[2] ، بل إن نقفور وجه إنذارا حافلا بالشتائم إلى الخليفة العباسي قبل المضي في حملته سنة 964 ، وهدده بالزحف على مكة ليقيم بها عرش المسيح . واستخدم « يوحنا زمسكيس » نفس اللغة .

ولقد كان موقف الخليفة العباسي في بغداد مما جرى ويجري موقفا مخزيا ، ولم يتحرك لإعلان الجهاد المقدس إلا بعد أن نشبت الثورات في بغداد سنة 974 ، ولكنه مع ذلك لم يفلح في استرداد ما اغتصبه البيزنطيون ، بل ولا في توفير الحماية والأمن للمسلمين الذين أصروا على رفض الأيدي الكريمة التي مدها إليهم البيزنطيون

---

(1) تاريخ الحروب الصليبية ، المجلد الأول ، صفحة 51 .

(2) المرجع السابق ، صفحة 54 ، وانظر أيضا : شاكر أحمد أبو بدر ، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ، صفحة 36 .

لكي يعينوهم على اللحاق بركب حضارتهم ، تلك الأيدي الآثمة الملطخة بدماء الشيوخ والنساء والأطفال الذين اعتاد الأوروبيون الاعتداء عليهم في كل مكان ابتلي بهم وبحضارتهم . وظل البيزنطيون يشنون الهجمات على المسلمين دون رادع أو زاجر إلى أن ظهر الأتراك ، هؤلاء الأجلاف الغلاظ الفضوليون الذين تدخلوا بدون طلب من أحد ، حتى ولا من الضحايا لكي يحولوا دون حصولهم على أقصى فائدة ممكنة من حضارة الغرب !! جاء الأجلاف من وسط آسيا واضطلعوا بشئون الدفاع عن الدولة العباسية التي كان حكامها لا يملكون إلا أن يشجبوا اعتداءات الرومان ، تماما كما يفعل أحفادهم مع إسرائيل . وعندئذ فقط بدأ الخوف ينتاب البيزنطيين ، مما جعلهم يبادرون إلى ضم الأقاليم الأرمنية إليهم لكي يحموا حدودهم الشرقية المعرضة لهجوم الأتراك . أما حدودهم الجنوبية فقد كفلت لهم المعاهدة التي أبرموها مع الفاطميين الحماية اللازمة[1] .

هل عرفنا لماذا ينقمون على الأتراك ويكنون لهم الكراهية ؟ لقد حالوا دون استيلاء البيزنطيين على مكة ، والقضاء على الإسلام وإراحة الغرب منه . فقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يعتنق الأتراك الإسلام في ذلك الوقت من القرن العاشر الميلادي لكي يقوموا بواجب الدفاع عن المسلمين بعد أن استكان العرب إلى حياة الدعة والترف وفقدوا القدرة على القتال ، بل لم يعودوا يرغبون فيه حرصا منهم على الدنيا . فالأتراك لم ينتزعوا من العرب ملكا ، كما أوهمنا بذلك بعض المؤرخين المسلمين الذين تحكمت فيهم عصبيتهم العربية ، وهو ما ردده كثير من المستشرقين والمبشرين ؛ لأن هذا الملك كان في طريقه إلى الزوال على أيدي البيزنطيين أعداء الإسلام ، ولولا الأتراك السلاجقة الذين اتخذ الخليفة العباسي جنودا منهم لانتهى الأمر باحتلال البيزنطيين مكة ، كما كانوا يحلمون . وبعد أن كانوا يعربدون في بلاد المسلمين ، يستولون على مدنهم ويخربون قراهم ويقتلون شيوخهم وأطفالهم ويغتصبون نساءهم ،

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 54 ، وانظر أيضا : شاكر أحمد أبو بدر ، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ، صفحة 36 .

ويصادرون محاصيلهم ، أصبحوا يعانون من حالة رعب دائمة بسبب الهجمات التي أخذ الأتراك يشنونها عليهم وبخاصة في أرمينيا حيث ألحقوا بهم خسائر فادحة .

وتعد معارك البيزنطيين مع الترك السلاجقة من أهم العوامل التي صرفتهم عن التفكير في التوسع في الشام . وقد اشتدت هجماتهم حتى بلغت أوجها في السنوات 1054 ، 1056 ، 1057 ، حيث هاجموا الجهات الواقعة حول بحيرات « فان » وملطية وتوغلوا في داخل الإمبراطورية البيزنطية فبلغوا « سيواس » سنة 1059 ، ثم انتهى الأمر بأن صار للترك السيطرة التامة على « أرمينيا » . وفي السنوات الثلاث من 1068 إلى 1070 ازدادوا توغلا فبلغوا عمورية وقونية وخونية القريبة من ساحل بحر إيجة .

وفي يوم الجمعة 19 أغسطس سنة 1071 ميلادية قضى السلطان السلجوقي « ألب أرسلان » الذي خلف « أرطغول » على آخر أمل للبيزنطيين في استرداد الشام والقضاء على الإسلام ودخول مكة كما كان أباطرتهم يزعمون . فقد لحقت الهزيمة المنكرة بجيش الإمبراطور البيزنطي « رومانوس » الذي كان عدد جنوده يبلغ مائة ألف ، ووقع الإمبراطور نفسه أسيرا في أيدي المسلمين[1] . وكان من نتيجة معركة « مانزيكرت » عجز الإمبراطورية البيزنطية عن أن تلقي بجيش في المعركة ضد المسلمين لسنوات طويلة مقبلة ، فضلا عما ثبت من عجزها عما يسمى بحماية العالم المسيحي في الشرق .

وفي أعقاب هذه المعركة الخالدة والحاسمة في تاريخ المسلمين نزلت القبائل التركية بآسيا الوسطى فاستولت على المدن والقرى التي فر سكانها مذعورين خوفا من أن ينالهم شيء مما كانوا يوقعونه بالمسلمين عندما كانوا يهاجمون مدنهم وقراهم . وذهبت سدى كل المحاولات التي بذلها البيزنطيون لاسترجاع بلادهم التي استولى عليها المسلمون الأتراك و لم يلبث قائد جيشهم الذي أرسلوه لمنازلة الترك أن وقع أسيرا في

---

(1) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، المجلد العاشر ، صفحة 66 .

أيديهم . وبعد ذلك بقليل استولى الأتراك على نيقية التي يقول عنها ستيفن رينسمان إنها تعتبر من أجمل المدن بالعالم المسيحي ، احتراما وتبجيلا ، والتي لا تبعد عن القسطنطينية أكثر من مائة ميل ، وأصبحت عاصمة للسلطنة التركية ، وهكذا لم يستولوا على مكة واستولى المسلمون على « نيقية » المحترمة الجليلة وسوف يستولون على القسطنطينية ذاتها فيما بعد لتتردد من فوق مآذنها الشامخة الأصوات المؤذنة للصلاة .

ولم يبق للإمبراطورية البيزنطية في آسيا الوسطى سوى سواحل البحر الأسود وبعض المدن المعزولة الواقعة على الساحل الجنوبي لآسيا الوسطى ، ومدينة « أنطاكية » المعروفة بمناعة استحكاماتها . غير أن الاتصال بهذه المدن البعيدة لم يكن مكفولا ، وصار معظم الإقليم في يد السلطان سليمان السلجوقي الذي كان يحكمها باسم « ملك شاه » المقيم في بغداد وكانت عاصمة مملكة سليمان الممتدة من البسفور حتى حدود الشام هي مدينة نيقية ، كذلك استولى أمراء أتراك آخرون على عدد آخر من المدن البيزنطية مثل « قيصرية » و « سيولس » وأماسية وأزمير وساحل بحر إيجة .

وفي عام 1085 استرد السلطان سليمان السلجوقي « أنطاكية » من البيزنطيين ومدينة قليقية كما سقطت الرها سنة 1087 في يد قائد تركي آخر هو « بازان » .

والملاحظ أنه طوال الحقبة التي كان للبيزنطيين فيها الغلبة على المسلمين كان الباباوات في روما يتهللون بشرا ، ويفركون أيديهم في سعادة بسبب ما يبلغهم من خسائر تلحق بالمسلمين وأضرار فادحة تصيبهم ، وما تبشر به الانتصارات المستمرة للبيزنطيين من قرب غزو مكة والقضاء على الإسلام . فلما قلب الأتراك الموازين وألحقوا بالبيزنطيين الهزيمة تلو الهزيمة ولم يكتفوا بطردهم من الأقاليم الإسلامية التي سبق لهم الاستيلاء عليها ، بل وطاردوهم إلى أن اختبئوا كالجرذان المذعورة وراء أسوار القسطنطينية ، تحركت البابوية في روما حيث دعا البابا « إيربان الثاني » في شهر مارس 1095 إلى عقد مجمع في مدينة « بياكزا » ناقش فيه الحاضرون مسألة على جانب كبير من الأهمية هي ضرورة تعاون المسيحيين جميعا من أجل العمل على

طرد المسلمين – مما يسمى بالشرق المسيحي – وكان من بين الحاضرين ممثلون للإمبراطور البيزنطي أوفدهم ليطلبوا من البابا أن يمده بالرجال حتى يتمكن من القضاء على الإسلام . ولكن البابا رأى ألا يكتفي بتلبية طلب الإمبراطور ، وإنما وضع خطة أكثر شمولا وأعظم مجدا تتمثل فيما أسماه بالحرب المقدسة .

وهكذا عادت الدعوة إلى طرد المسلمين تنبعث من جديد ولكن هذه المرة ليس من بيزنطة ، ولكن من أوروبا التي رأى « إيربان الثاني » أن تضطلع بهذا الدور الهام .

وفي الاجتماع الذي عقده البابا خارج الكاتدرائية التي لم تتسع للحاضرين ، ارتقى منصة مرتفعة ، ووقف يدعو الناس إلى الذهاب إلى الشرق لطرد المسلمين . ووعدهم بأن ذنوبهم سوف تغفر لهم وأن من سيموت منهم سيعد شهيدا . وكان ذلك في 27 نوفمبر 1095 م .

وقد وضع إيربان قانونا لهذه الحرب الصليبية من بين نصوصه : أن كل ما يجري الاستيلاء عليه من يد المسلمين من المدن لابد للكنائس في الشرق أن تسترد مالها من حقوق وأملاك .

وهكذا بدأت الحملة الصليبية ، ونجح الصليبيون في غزو الشام حيث قتلوا النساء والأطفال والطاعنين في السن من الرجال بشجاعة ليس لها نظير ، وأخذت البابوية تكون الجيوش الجرارة لتبعث بها إلى الشام حتى يمكنها القضاء على الإسلام وإبادة أكبر عدد من المسلمين وظهر بوضوح تداعي العالم العربي الذي بدا وكأنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من اللحظة التي يصير فيها خاضعا ذليلا للصليبيين ، لولا إخواننا الأتراك والأكراد الذين انبروا في حماس شديد وبدافع من إيمان عميق بالإسلام ، للدفاع عن المسلمين . لقد كتبوا في صفحات التاريخ بحروف من نور انتصاراتهم الخالدة على قوى الشر والعدوان في معارك لا يفتأ الغرب يتذكرها فتصيبه غصة [1] ، فلا يملك إلا أن يصب جام غضبه على الأتراك العظام والأكراد الأفذاذ

---

(1) P.M. Holt, Egypt and The Fertile Crescent 1516 - 1929,. P. 15 .

الذين كانوا السبب في فشل خطته لاحتلال البلاد الإسلامية والقضاء على الإسلام . ففي معركة « مرسيفان » التي دارت سنة 1101 قضى الأتراك على أربعة أخماس الجيوش الصليبية التي كانت تجتاز الأناضول في طريقها إلى الشام لإبادة المسلمين وفر قادة هذه الجيوش الصليبية تاركين نساءهم ليقعن في السبي[1] . ثم أوقع الترك هزيمة ثانية بالجيوش الصليبية في معركة « هرقلة » في نفس العام . وهكذا لقيت كل حملة من الحملات الصليبية الثلاث سنة 1101 خاتمة فاجعة ، وأثرت كوارثها في سير الحركة الصليبية بأسرها[2] . وفي سنة 1104 وقعت معركة حران التي أنزل فيها الترك هزيمة ساحقة بالجيوش الصليبية . ويقول ستيفن رينسمان إن هذه المعركة وما سبقها « حطمت أسطورة أن الفرنج لا يقهرون »[3] .

وقد لوحظ أنه حين كان الأتراك يكفون عن مهاجمة الصليبيين كان هؤلاء يلجئون إلى التوسع ويبالغون في إجرامهم فيهاجمون المدن الآمنة ويعملون سيوفهم في رقاب سكانها العزل .

وفي القرن الثاني عشر ظهرت قوة إسلامية جديدة ، هم الأكراد الذين كان يتزعمهم الأمير « زنكي » ، فقد أسهمت هذه القوة الصاعدة في المعارك الضارية التي كانت تدور مع الجيوش الصليبية[4] ، وكان من أهم ما قام به الأمير « زنكي » ضربه الحصار على مدينة « الرها »[5] عام 1144 ثم اقتحامها بجيشه وإنزاله العقاب بالصليبيين حيث عاملهم بنفس الأسلوب الذي اعتادوا أن يعاملوا المسلمين به ، وهو الذبح والتقتيل والتشويه والتدمير ، فلم يبق على أحد من جيشهم ، ثم استولى على « سروج » سنة 1145 . وتردد صدى سقوط « الرها » في كل أوروبا فحزن البابا وأصابه القنوط . كما كان سقوط الرها سببا في إضعاف الروح المعنوية عند الفرنج ،

---

(1) تاريخ الحروب الصليبية ، المجلد الثاني ، صفحة 47 .

(2) المرجع السابق ، صفحة 53 .

(3) المرجع السابق ، صفحة 75 .

(4) Thomas Bois , The Kurds , P . 85 .

(5) هاملتون جب ، صلاح الدين الأيوبي ـ دراسات في التاريخ الإسلامي ، صفحة 51 .

وأثار خوفهم وقلقهم ، فضلا عن أنه كان صدمة كبيرة للمسيحيين في غرب أوروبا[1] إذ أدركوا ، لأول مرة ، أن الأمور لم تسر على نحو سليم في الشرق ، فنهضت حركة تدعو إلى حملة صليبية جديدة .

وبينما كانوا منهمكين في الإعداد للحملة الجديدة كان « نور الدين » بن زنكي قد استعاد كل بلاد « أنطاكية » من أيدي الصليبيين ، فلم تنته سنة 1147 حتى أضحى في يديه : أرتاح ، وكفرلاتا ، والبلاط ، وبسرفوت . وهو ما جعل أوروبا تنظر إلى نور الدين على أنه أكبر عدو للمسيحيين .

أما الحملة الصليبية الجديدة التي تقرر القيام بها لتحقيق ما فشلت فيه الحملات السابقة فقد تزعمها الملك « كونراد » سنة 1147 وروعي في تكوينها أن تكون من الضخامة والقوة بحيث تكون قادرة على تحقيق انتصار حاسم على هؤلاء الأتراك والأكراد الذين وقفوا حائلا دون إحراز الصليبية لأهدافها ، وفي مقدمتها القضاء على الإسلام وإبادة المسلمين . فتألف جيش الحملة من أعداد بالغة الضخامة ، فالمؤرخون الذين هالهم هذا الجيش ، جعلوه مليون محارب[2] . ومع ذلك فقد لقي هذا الجيش العرمرم هزيمة ساحقة على أيدي الأتراك السلاجقة الذين باغتوه أثناء تحركه نحو الشام وشلوا حركته بحيث عجز عن خوض معركة وأصبح كل هم قادته أن ينجوا بأنفسهم من المصير المحتوم ، وبدلا من أن ينجح في الوصول إلى الشام ليعمل الذبح والتقتيل في السكان العزل ، قام الأتراك بذبح جنوده الهمج اللصوص المتعطشين إلى الدماء . ويصف رينسمان ما حدث بقوله : « والواقع أنها لم تكن إلا مذبحة لا معركة »[3] ، وفقد « كونراد » المغوار الذي جاء ليغتصب أرضا ليست له ولا للبابا ستة أعشار جيشه ، أي أكثر من نصف مليون محارب ، وفر عائدا

(1) تاريخ الحروب الصليبية ، المرجع السابق ، صفحة 383 .
(2) المرجع السابق ، صفحة 418 .
(3) المرجع السابق ، صفحة 431 .

إلى نيقية بمن تبقى معه من جنود .

وكذلك فعل الأتراك بالجيش الفرنسي الذي جاء في أعقاب الجيش الألماني ، مما تسبب في فشل الحرب الصليبية الثانية . وبعد أن كان المسلمون يوفدون زعماءهم إلى الأباطرة البيزنطيين ليلتمسوا منهم الرحمة ويتعهدوا بدفع الجزية ، تغير الوضع فأصبح زعماء الصليبيين هم الذين يلتمسون مقابلة القادة المسلمين ليطلبوا منهم الرحمة ، كما فعل « كونت جوسلين » مع نور الدين بن زنكي . وبعد ذلك يأتي في أيامنا السوداء هذه من يجرؤ على وصف نور الدين وأسد الدين شيركوه وصلاح الدين والزعماء الأتراك العظام والمماليك بأنهم دخلاء وغرباء ومستعمرون ، وطبعا نحن نعلم الدافع إلى إطلاق هذه الأوصاف .

ومن المعارك العظيمة التي لا ينساها الغرب للأتراك معركة « ميريو كيفالوم » سنة 1176 ، ففيها تحطمت القوة الحربية الضخمة التي استغرق إقامتها عشرات السنين ، وتحتاج لإعادة بنائها سنوات عديدة أخرى ، والواقع أنه لم يتجدد بناؤها مطلقا . ويقول « رينسمان » [1] إنه لم يعد بوسع الإمبراطور البيزنطي أن يسير إلى الشام ، ولم يبق له شيء من مكانته الكبيرة التي منعت نور الدين في ذروة قوته من الإمعان في الضغط على العالم المسيحي . والواقع أن كارثة « ميريو كيفالوم » بلغت فاجعتها عند الفرنج ما بلغته عند بيزنطة .

وقرب نهاية القرن الثاني عشر ألحق الأتراك هزيمة أخرى ساحقة بجيش ألماني بقيادة الإمبراطور « فردريك بربروسة » كان قد اجتاز أوروبا حيث انضمت إليه أعداد غفيرة من المغامرين واللصوص والقتلة ، وكل أفاق زنيم . ولكنه لم يكد يدخل إلى الدروب السورية حتى انقض عليه المسلمون ففتكوا به وقضوا عليه ، فلم يصل منه إلى أنطاكية في 21 يونيو سنة 1190 سوى جماعة بائسة من الرعاع .

لقد أدت الهزائم المتلاحقة التي أنزلها الأتراك بالأوروبيين إلى أن يحسبوا لهم

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 667 .

ألف حساب . وقال عنهم المؤرخ النورماني المجهول ، مؤلف كتاب أعمال الفرنج (الجسنا) إنهم من أروع العناصر وأكثرها شجاعة ، لو كانوا مسيحيين [1] . ولكن طالما أنهم ليسوا كذلك ، ولأنهم دافعوا عن الإسلام وحالوا دون إبادة المسلمين ، فإنهم يجب أن يوصفوا بأنهم أغبياء وقساة ومتخلفون ! .

أما الضربة القاصمة التي وجهها الأتراك لأوروبا الصليبية والتي لا تنساها لهم أبدا ولا تغفرها ، فهي قضاؤهم على الإمبراطورية البيزنطية واستيلاؤهم على عاصمتها بيزنطة أو القسطنطينية وتحويلها إلى حاضرة إسلامية بدلا من أن يحول الصليبيون مكة إلى مقر لعرش المسيح . والقسطنطينية تعدل مكة عندهم ، وقد تنبأ الرسول ﷺ بفتح المسلمين لها فكان هذا مما ضاعف من غيظهم وحزنهم ، خاصة وأنهم كانوا يروجون في ذلك الوقت وقبله بقليل لخرافة زعموا أنها نبوءة لأحد أنبياء إسرائيل تزعم أن الوحش ، يعني الرسول ﷺ ودينه الإسلام سوف يسقط في أيدي روما بعد 666 سنة من ظهوره ، وظلوا يمنون أنفسهم بتحقق الأسطورة الساذجة إلى أن بدد الأتراك أحلامهم .

فقد استولى الأتراك على القسطنطينية في عام 1453 [2] فأغلقوا بذلك الشرق الأدنى في وجه الأوروبيين ومنعوهم تماما من إرسال جيوشهم للاعتداء على المسلمين والقضاء على الإسلام . ويصف « ستيفان زفايج » ما حدث في أوروبا عشية سقوط القسطنطينية فيقول إن الناس كانوا يبكون ويولولون ، وساد الحزن كل بيت من بيوت أوروبا واعترى الخوف الجميع بما فيهم البابا . وبعد أن كان الملوك والأمراء ورجال الدين يقضون وقتهم في التخطيط والإعداد لإبادة المسلمين والقضاء على الإسلام أمسوا لا يفكرون في شيء غير الدفاع عن بلادهم ضد الهجمات الوشيكة من جانب الأتراك المسلمين الذين أخذوا يتقدمون في أوروبا إلى أن بلغوا أبواب فينا عام 1528 .

---

(1) تاريخ الحروب الصليبية ، المجلد الأول ، صفحة 247 .

(2) دكتور محمد مصطفى صفوت ، السلطان محمد الفاتح ، فاتح القسطنطينية ، صفحة 92 وما يليها .

هؤلاء هم الأتراك ومعاركهم الرائعة ضد الغرب الصليبي في « مانزكيرت » و « ميرسنان » و « هرقلة » و « ميريوكيفالوم » ، ثم في معركة القسطنطينية المجيدة ، التي فاق ما فعله فيها الأتراك حدود الخيال وكشف عن عبقرية عسكرية نادرة حيث قاموا ، ولأول مرة في تاريخ الحروب ، بنقل السفن الكبيرة على الجبال وأنزلوها في الخليج داخل التحصينات التي أقامها البيزنطيون للدفاع عن المدينة فإذا بهم يباغتون عندما انبلج الصبح برؤية السفن الإسلامية داخل الميناء ، ومع ذلك فإن مفكرينا وأدباءنا لا يشعرون بالخجل ، وهم يضربون المثل بما يسمى « حصان طروادة » للتدليل على الذكاء وسعة الحيلة لدى الإغريق ، ولا يذكرون ما فعله الأتراك لا لشيء إلا لأنهم مسلمون من ناحية ، وأغبياء وقساة ومتخلفون من ناحية أخرى ، وهو ما لقنه لهم الغرب وأعوانه ، فضلا عن مركب نقص مستعص أصابهم به الغرب .

ونأتي أخيرا إلى ما سماه لويس عوض بـ (سور الترك العظيم) الذي ضربه الأتراك حول العرب بما فيهم مصر منذ أن فتحوها فحال دون اتصالهم بالحضارة الأوروبية في القرون الثلاثة 16 ، 17 ، 18 مما أدى إلى تخلفها .

لقد فتح سليم الأول سوريا في سنة 1516 وكانت تابعة للسطان المملوكي في القاهرة والذي كان في ذلك الوقت « قنصوه الغوري » ، الذي لحقت به الهزيمة في معركة « مرج دابق » وفي سنة 1517 هزم المماليك بالغرب من القاهرة وضمت مصر إلى الدولة العثمانية .

ويحرص المغرضون على تصوير الأمر على أنه احتلال تركي أو عثماني لمصر ، بينما الحقيقة خلاف ذلك تماما ، فالقاعدة في الإسلام أن المسلمين أمة واحدة مما يقتضي ، على المستوى السياسي ، أن تكون موحدة أو متحدة ، لما في ذلك من عزة ومجد ومنعة . فإذا لم يتيسر قيام كيان واحد قوي يجمع المسلمين كلهم ، فلا بأس من قيام كيانين قويين يتعاونان فيما فيه مصلحة المسلمين ، وأمنهم ومنعتهم . ولقد كانت الدولة المملوكية التي تضم مصر والشام والحجاز دولة قوية ، بل ومجيدة دافعت عن الإسلام وذادت عن دياره وشملت بحمايتها المسلمين . وإذا كان المماليك لم يفعلوا شيئا غير القضاء على الصليبيين في الشام وتطهير البلاد منهم والتصدي

للتتار وإيقاع الهزيمة بهم لكفاهم ذلك فخرا ، فقد كان من شأن انتصار الفريقين ، وبخاصة بعد أن تحالفا ، أن يقضي على الإسلام ويستأصل شأفة المسلمين .

والواقع أن الأتراك العثمانيين لم يكونوا غافلين عن الدور الهام الذي كان المماليك يقومون به في داخل المنطقة العربية من العالم الإسلامي ، ولا عن جهودهم العظيمة في دفع الأخطار عن المسلمين ، في الوقت الذي كانوا هم قد انصرفوا إلى منازلة البيزنطيين وحلفائهم في غرب أوروبا . ولكن الظروف شاءت أن يصاب المسلمون بالهزيمة في الأندلس وأن تظهر إلى عالم الوجود قوتان أوروبيتان جديدتان هما البرتغال وإسبانيا . وقام هنري الملاح بتوجيه ضربته المضادة (1418) وتبعه فاسكودي جاما باكتشاف رأس الرجاء الصالح بمساعدة من أحد الملاحين المسلمين ، وأمكن لأوروبا الاتجار بحرا مع الشرق الأقصى دون وساطة مصر[1] المملوكية التي فقدت من جراء ذلك عائدات ضخمة كانت تحصل عليها من وراء التجارة بين الشرق الأقصى وأوروبا . فاضطربت الأحوال الاقتصادية ، مما أدى بالتالي إلى تدهور الأوضاع فيها .

وكان على رأس أهداف البرتغاليين فرض حصار اقتصادي على مصر من ناحية الجنوب بحيث يؤثر ذلك على قوتها الاقتصادية ويضعف بالتالي من قدرتها الحربية فتصبح عاجزة تماما عن الصمود في وجه أي حرب تشنها عليها البرتغال من ناحية الجنوب ، بعد أن فشلت من قبل كل المحاولات التي قامت بها أوروبا الصليبية من ناحية الشمال حيث البحر المتوسط .

وفضلا عن ذلك فقد كان من ضمن الخطة البرتغالية الهجوم على الحجاز وتدمير المقدسات الإسلامية ، وهو الهدف الذي سبق للصليبيين أن فشلوا في تحقيقه أثناء وجودهم في الشام .

ولم تكن الأحوال في مصر ، في ذلك الوقت على ما يرام ، بل كانت قد بلغت حدا كبيرا من السوء نتيجة لانتشار الأوبئة والقحط ، وما أدى إليه ذلك من غلاء

---

(1) تاريخ العالم ، المجلد السادس ، صفحة 140 .

فاحش عانى منه الناس أشد المعاناة ، بالإضافة إلى ما كان يقوم من منازعات وصراعات بين طوائف المماليك ، كان من نتيجتها تعاقب خمسة من السلاطين خلال خمس سنوات هي المدة التي أعقبت وفاة « قايتباي » الأمر الذي أضعف من هيبة الدولة وشجع القراصنة الأوروبيين على الإغارة على السفن والموانئ المملوكية في البحر المتوسط[1] . ليس ذلك وحسب ، بل إن القرصنة البرتغالية امتدت إلى المحيط الهندي والبحر الأحمر حيث قام (فاسكو دي جاما) بالهجوم على السفن التجارية والسفن التي تحمل الحجاج المسلمين العزل ، فاستولى عليها ونهبها وجرد ركابها مما كانوا يحملونه من أموال ثم قتلهم ، وكان من بين السفن التي استولى عليها سفينة خاصة بالسلطان المملوكي . كذلك قام بإغلاق باب المندب في وجه الملاحة الإسلامية .

وبالنظر إلى أن المماليك لم يكونوا يملكون أسطولا قويا ، لا يقل من حيث الإعداد والتجهيز عن الأسطول البرتغالي فقد عجزوا عن التصدي للبرتغاليين الذين انتهزوا الفرصة فأخذوا يصولون ويجولون في البحر الأحمر والمحيط الهندي . وهناك دليل قوي على أن الأتراك لم يكونوا يطمعون في ضم مصر ، ولا في القضاء على الدولة المملوكية ، بل العكس هو الصحيح فقد كانوا يرغبون أشد الرغبة في أن يروا هذه الدولة قوية مرهوبة الجانب منيعة في وجه الخطر الصليبي . ذلك أنه لما أراد السلطان الغوري أن ينشئ أسطولا قويا يواجه به الأسطول البرتغالي توجه إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني يطلب منه إمداده بالخامات اللازمة لإنشاء وتجهيز الأسطول فما كان من بايزيد إلا أن استجاب على الفور ، وسارع بإرسال الخامات والتجهيزات اللازمة لإنشاء الأسطول[2] .

ولكن السلطان الغوري ما لبث أن تحالف مع الصفويين في فارس ، الذين كانت

---

(1) دكتور محمد عبد العال أحمد ، البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية للسيطرة عليه ص 77 .
(2) شمس الدين محمد بن طولون ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، صفحة 345 .

المعارك مستعرة بينهم وبين العثمانيين . وبلغ به الأمر حدا أمر فيه نائبه في مرعش أن يحض أهاليها على الامتناع عن إمداد الجنود العثمانيين بأية مئونة ، وأخذ يهدد بقطع علاقة كردستان بالعثمانيين ، وتأليب أهلها عليهم . فاعتبر العثمانيون هذا تحديا لهم وعملا خطيرا من شأنه إضعاف الجبهة الإسلامية أمام الخطر الصليبي بدلا من قيام جبهة إسلامية موحدة تتصدى له . وعلى ذلك اتجه تفكير العثمانيين إلى ضم مصر تأمينا لجبهتهم أمام الصليبيين ، خاصة بعد أن مني الأسطول المملوكي بالهزيمة في معركة (ديو) سنة 1509 ، التي وقعت بينه وبين أسطول البرتغال ، الأمر الذي اعتبره العثمانيون نذيرا بوقوع مصر في أيدي البرتغال بما يعنيه ذلك من تهديد مباشر للحجاز التي كانت تابعة للدولة المملوكية . وكان العثمانيون يرغبون في الحصول على شرف حماية الأماكن المقدسة في الحجاز ، وكذلك في انتقال خلافة المسلمين إليهم حتى تتوفر لهم الزعامة الروحية والسياسية اللازمتين لمواجهة الغرب الصليبي ، والواقع أنه لم يكن هناك من هم أجدر منهم بهذا الأمر . يضاف إلى ذلك ما كان لدى آل عثمان من عاطفة دينية متأججة وحب شديد لأهل الحرمين الشريفين . لذلك فإنه ما إن نجح السلطان سليم الأول في فتح مصر وضمها للدولة العثمانية حتى ألقيت الخطبة باسمه بالحرمين الشريفين وقام من جانبه بترتيب صدقة من الحبوب لأهل الحرمين ، واشترى من ماله الخاص أرضا بمصر وخصص محصولها لهذا الغرض . وهو أول من أحدث المحمل الرومي ، وأول من قام بكسوة الكعبة من آل عثمان من ماله نفسه[1] .

وعلى الرغم من أنه توجد أسباب أخرى وراء فتح سليم الأول للشام ومصر من بينها إيواء المماليك للأمراء العثمانيين الفارين ، والصراع بينهم وبين العثمانيين على الإمارات المجاورة ، غير أنها لا تعد عديمة الصلة باستقرار الدولة العثمانية ، ومنعتها باعتبارها القوة الإسلامية الرئيسية التي تواجه الغرب الصليبي . وقد بلغت القومية الإسلامية مداها عند السلطان سليم الأول حتى لقد حاول أن يجعل اللغة الإسلامية

(1) دكتور محمد عبد اللطيف البحراوي ، فتح العثمانيين عدن ، صفحة 86 .

الأولى اللغة العربية لغة قومية للترك[1] .

لذلك وجد الأتراك أنه من الضروري تفويت الفرصة على الغرب الصليبي وضم مصر والشام إلى الدولة العثمانية لتكون جميعا كيانا إسلاميا قويا لديه القدرة على مواجهة أوروبا المتعطشة لدماء المسلمين ، الجادة في الثأر منهم لهزائمها المتكررة .

وما فعله الأتراك سبق أن فعل مثله نور الدين محمود وصلاح الدين ، بل والمماليك أنفسهم ، ألا وهو ضم الشام إلى مصر ، أو مصر إلى الشام لمواجهة الهجمات التي كان يشنها أعداء الإسلام من صليبيين وتتار ، ولم يقل أحد إن ما حدث كان استعمارا أو احتلالا كما يتعمدون أن يصفوا ضم الأتراك لمصر ولغيرها من الأقاليم العربية . بل إن ما فعله الأتراك في هذا الصدد لم يكن إلا عودة إلى الأصل في الدولة الإسلامية ، وهو أنها دولة عامة لا تقتصر على العرب فقط بل تضم كل الأقاليم التي غالبية سكانها من المسلمين سواء كانوا عربا أو فرسا أو أتراكا أو أكرادا أو بربرا . فلا اعتبار هنا للعنصر أو للأرومة أو العرق . ولكن الجماعة التي مردت على النفاق تتعمد أن توحي للبسطاء والعوام أن ما حدث في الدولتين الأموية والعباسية هو حق للعرب دون سواهم ، أي أن يكون الحكم لهم من دون غيرهم . أما إذا كان الحكام من غير العرب كالأكراد والمماليك والأتراك فإن هذا هو الاستعمار بعينه ، وهو رأي يتعارض مع الإسلام كل التعارض .

ولقد رأينا كيف بلغ الضعف والخور والهوان بالخليفة العباسي الحد الذي جعله يقبل الشتائم والتهديدات والإهانات التي وجهها إليه « نقفور » ثم « يوحنا زمسكيس » دون أن يحرك ساكنا بعد أن أصم أذنيه وأغمض عينيه عما كان يحدث للمسلمين من تقتيل وتذبيح وتنكيل واغتصاب . ولم يجمع جيشا أو يعد عدة للرد على المعتدين الذين مضوا في خطتهم الرامية إلى القضاء على الإسلام وإبادة المسلمين . فهل يلام الأتراك والأكراد ويوصفون بالمستعمرين والدخلاء لأنهم آثروا الدفاع عن

---

(1) دكتور أحمد فؤاد متولي ، الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له ، صفحة 79 .

الإسلام وحماية المسلمين ؟! أم أن المنافقين كانوا يريدون منهم أن يصدوا المعتدين ويستردوا المدن والقرى التي استولوا عليها ويطهروا البلاد من رجسهم ويؤمنوا الجبهات المشتركة معهم ثم يقدموا كل ذلك هدية متواضعة على صينية من الذهب إلى الحاكم البليد الإحساس ضعيف الإيمان الذي غرق حتى أذنيه في الملذات لا لشيء إلا لأنه عربي ؟! . إنه كلام لا يتصور صدوره عن قوم عقلاء . وبالنسبة لما قاله غير المسلمين في هذا الصدد فإن له مبرراته ، حيث إنهم لا يكرهون شيئا قدر كراهيتهم لانتصار المسلمين ولذلك فإنهم لا ينسون للأتراك والأكراد والمماليك تدخلهم في الوقت المناسب لمنع الصليبيين من هزيمة العرب ودخول مكة والقضاء على الإسلام .

ومع ذلك فإن الأتراك لما فتحوا مصر وضموها إلى الدولة العثمانية لم يفعلوا أكثر من هذا ، فقد تركوها عمليا في أيدي المماليك على أن يؤدوا مبلغا من المال يمثل إسهام مصر في ميزانية الدولة . فقد عين السلطان سليم المملوك خاير بك حاكما على مصر ، وترك له حامية عثمانية مكونة من أربعة آلاف جندي . كما شكل مجلسا من أمرائه لمعاونة خاير بك في إدارة شئون البلاد . ولم يلبث السلطان سليم أن منح الأمان للمماليك الذين كانوا قد فروا إلى الصحراء بعد الهزيمة . وهذه حقائق لم ينكرها حتى المستشرقون أنفسهم ، فلم يكن للأتراك إذن دور في تخلف مصر والحيلولة بينها وبين الاتصال بأوروبا أو بغيرها . فقد قال البارون « دتوت » في كتابه المسمى « مذكرات عن الترك والتتار » إن السلطان سليم الأول حين انتزع مصر وسوريا من سلاطين المماليك عام 1517 وضع شروطا كانت في صالح المماليك أكثر مما هي في صالحه . فقد قرر أن يحكم كل إقليم من الأقاليم الأربعة والعشرين أحد البكوات المماليك أو أمرائهم ، ويشكل هؤلاء البكوات الأربعة والعشرون ديوانا يرأسه الوالي التركي أو الباشا (الملقب بصاحب الخيول الثلاثة) . وكان هدف الحكومة التركية من وراء هذا التنظيم مقتصرا على جمع الجزية ، وكان الملاك يجمعونها من الفلاحين ، ثم يسلمون جزءا منها للجباة الأقباط ، الذين يسلمون جزءا منها للكُتَّاب ، الذين يسلمون جزءا منها للبكوات ، الذين يسلمون قليلا منها للباشا ، الذي يرسل بالبحر

ما بقي منها للباب العالي[1] . وكانت الدلتا والصعيد خاضعة لحكم المماليك أما الصحراء فكانت خاضعة لحكم شيوخ البدو .

وبعد أن أمن الأتراك جبهتهم في مصر انصرفوا إلى الجهاد الذي نذروا أنفسهم له[2] فقام السلطان سليمان (القانوني) ابن السلطان سليم بالاستيلاء على (بلغراد) في أغسطس سنة 1521 ، ثم استولى على (بودابست) عاصمة المجريين في سبتمبر سنة 1526 وهاجم (فينا) سنة 1530 ، وفي سنة 1538 استأنفوا تأمين العالم الإسلامي في الجنوب ففتحوا عدن ، وفي 1557 فتحوا مصوع وأركيكو ، إلى غير ذلك من المعارك التي خاضوا غمارها في الشرق والغرب وفي الشمال والجنوب على السواء الأمر الذي لم يكن يسمح لهم بالتفكير في ضرب سياج أو إقامة سور حول ما يسمى العالم العربي ليمنعوا اتصاله بأوروبا والإفادة من حضارتها المزعومة والحصول على بعض ثمارها التي تعمد الدكتور لويس عوض عدم ذكرها لا لشيء إلا لأنها لم يكن لها وجود . ذلك لأن الأوضاع في أوروبا في القرون الثلاثة التي أعقبت الفتح العثماني لمصر لم تكن تختلف كثيرا عنها في العالم العربي ، بل كانت في بعض الأحيان أسوأ وهو ما نعرض له فيما يلي :

الأوضاع في أوروبا في القرون 16 ، 17 ، 18 :

قلنا إن الدكتور لويس عوض لم يكن ليذكر شيئا عما أسماه الحضارة الأوروبية التي حرمنا منها « سور الترك العظيم » لأنه يعلم جيدا أن الحضارة الأوروبية في الفترة التي ذكرها لم يكن فيها ما يفيد العرب ولا غير العرب بما في ذلك الشعوب الأوروبية ذاتها . صحيح أن أوروبا كانت قد بدأت تخطو مبتعدة عن مستنقع العصور الوسطى أو عصور الظلام كما يسمونها ، بعد أن اتصلت بالعالم الإسلامي أثناء الحروب الصليبية ، وقبل ذلك الأندلس وجنوب إيطاليا وصقلية ، وتعلمت منه الكثير ،

---

(1) كريستوفر هيرولد ، بونابرت في مصر ، صفحة 14 .

(2) دكتور حسين مجيب المصري ، المرجع السابق ، صفحة 281 .

ولكنها كانت أشبه برجل فقير جاهل ولكنه قوي يجمع إلى الطموح الشديد كثيرا من الرذائل ، منها اللؤم والأنانية والقسوة والجلافة ، فانطلق يسرق ، وينهب ويقتل ويغتصب دون خوف من إله ، أو وازع من ضمير . وكيف يخاف الله ورأس الكنيسة ، الذي هو ظل الله في الأرض يبارك أعماله الإجرامية . أما الضمير ، فإن الطريقة التي تكون بها والعوامل التي ساهمت في تكوينه جعلته لا يستنكر الخسة ولا يأنف القسوة ولا يمتعض من اللؤم والشراهة . وكأي محدث نعمة ، أو غنى حرب انطلقت أوروبا تعوض ما عانته من حرمان وشظف عيش بما نهبته من الشعوب التي أوقعها سوء حظها في طريقها . فإنها بعد أن نهبت ثروات المسلمين أثناء الحروب الصليبية التي استمرت قرابة القرنين ، ما لبثت بعد أقل من قرنين أن حصلت على ثروة عظيمة أتاحتها لها الاكتشافات المتلاحقة . فبعد أن اكتشفت قارة أمريكا الضخمة بكل ما فيها من ثروات ، اكتشفت مساحات عظيمة من الأرض البكر جنوبي المناطق الاستوائية الحارة في أفريقيا ، وأقاليم جزيرية فسيحة في البحار الشرقية يقول عنها « ويلز »[1] ما يلي :

« كانت بأكملها عملية عرض للنهزات أمام أعين الإنسانية لم يسبق لها مثيل في التاريخ أجمع وكأنما ورثت شعوب أوروبا ميراثا فاخرا باذخا . فإن عالمهم تضاعف بغتة أربعة أضعافه . وكان لكل ما يفي بحاجته ويفيض . ولم يكن عليهم إلا أن يتسلموا تلك الأراضي وأن يواصلوا بها عيش الثراء ، وعند ذلك يتبدد ما هم عليه من فقر وتزاحم تبدد الحلم عند اليقظة » .

ويضيف إلى ذلك قوله : « لقد أدخل اكتشاف أمريكا إلى أوروبا قدرا ضخما من المعادن النفيسة ، فصنعت نقودا ، وزادت في العمل ونوعته ، وامتنعت أسباب الشقاء إلى حين . ومر حين من الزمن لم تعد فيه الحياة والعمل شيئا لا يطاق عند الجماهير الفقراء »[2] .

---

(1) معالم تاريخ الإنسانية ، المجلد الرابع ، صفحة 1121

(2) المرجع السابق ، صفحة 1141 .

وهكذا بدأت أوروبا تضع لها تقاليد وترسم لنفسها أسلوب حياة وذلك في بطء شديد . تماما كما يفعل أي غني حرب أو قاطع طريق بعد أن تستقر حياته وتنتظم أموره ويسري في كيانه إحساس بالطمأنينة يستمده من المال المسروق الذي فاضت به خزائنه . كان هذا هو حال أوروبا في القرون الثلاثة التي أشار إليها الدكتور لويس عوض .. وفيما يلي بيان لما كانت عليه الأوضاع في أوروبا في القرون الثلاثة ، في كل المجالات :

في مجال حقوق الإنسان :

تأتي حقوق الإنسان على رأس الموضوعات التي يحلو للمناوئين للوحدة الإسلامية ، الساعين إلى تشويه العلاقة بين المسلمين الخوض فيها واتخاذها حائطا يبكون بجواره على الإنسان المصري تارة والعربي تارة أخرى الذي ظلمه الأتراك والمماليك وأنكروا حقوقه ، ويوهمون الناس أن الأوروبيين كانوا يتمتعون بحقوقهم على خلاف المسلمين ، وهو ما تكذبه الأحداث وتدحضه الوثائق التي سجلها التاريخ . فالإنسان الأوروبي لم يكن يتمتع بأي حق من الحقوق ، حتى ما كان منها أساسيا كحقه في الحياة ، وفي سلامة جسمه ، ناهيك عن حقوقه الأخرى ، مثل حرية العقيدة والحق في ممارسة شعائرها ، وحقه في التعليم ، وحقوقه السياسية .

1 - حريـــة العقيـــدة :

حفلت القرون الثلاثة التي أشار إليها الدكتور لويس عوض بأبشع الجرائم التي ارتكبتها الكنيسة الكاثوليكية ضد معارضيها . ففي الحرب الشرسة التي شنتها عليهم لم تتورع عن استخدام أحط الأساليب وأعنف الإجراءات وأقساها مما تأنف منه الوحوش الضارية . ويحدثنا التاريخ عما حدث في أنحاء أوروبا من جرائم يندى لها الجبين مثل الهجوم الذي شنته قوات البابا على مدينة « مونستر » بمقاطعة وستفاليا في القرن السادس عشر (1535) . فلما تمكنت من اقتحامها قامت على الفور

بالاعتداء على النساء وقتلت الرجال بعد أن عذبتهم تعذيبا مرعبا جدا ، ثم أعدموا في ساحة السوق ، وعلقت جثثهم بعد التمثيل بها في أقفاص مدلاة من برج أحد الكنائس لتشهد أمام العالم أجمع أن الوقار والنظام قد أعيدا إلى « مونستر »[1] .

وتحالفت الكنيسة مع الملوك من أجل القضاء على « البروتستانتية » فمضت الجيوش تهاجم بلا هوادة أو رحمة السكان الآمنين فتعمل فيهم القتل والانتهاب والمذابح ، كما حدث في الأراضي المنخفضة سنة 1567 ، التي هاجمها جيش عرمرم يقوده المدعو (ألفا) هذا الرجل المتعطش للدماء الذي يمكن أن نقدر مدى استهانته بالإنسان وبحقوقه مما كتبه إلى الملك « فيليب الثاني » عام 1573 أثناء حصاره لمدينة (آلكمار) فقد قال : « إذا استوليت على آلكمار فلن أدع فيها على قيد الحياة فردا .. ولسوف أضع النصل في كل رقبة »[2] . وفي القرن السادس عشر أيضا عادت الكنيسة إلى بيع صكوك الغفران بطريقة تتجلى فيها الاستهانة والجرأة المفرطة لما تنطوي عليه من استغلال سيئ للناس واحتيال عليهم .

وفي إنجلترا وقع أغرب حادث يمكن أن يتصوره إنسان عاقل ، وهو انشقاق الكنيسة الإنجليزية على البابوية لسبب غريب هو شدة شهوة الملك « هنري الثامن » إلى النساء والمال فقد شغف بامرأة تدعى « آن بولين » وأراد أن يطلق زوجته ليتزوجها ، ولما رفض البابا ذلك أعلن الملك انشقاق الكنيسة الإنجليزية على البابوية بما أدى إليه ذلك من نكبات وكوارث أصابت المعارضين ، منها الإعدام والتعذيب ومصادرة الممتلكات وتخريب المساكن وإحراق المزارع .

وفي القرن السابع عشر ازدادت حركة اضطهاد الكنيسة الكاثوليكية للبروتستانت ضراوة إلى أن بلغ الأمر ذروته في منتصف القرن بنشوب ما يسمى بحرب الثلاثين . إذ كانت الجيوش الأوروبية المتحاربة تطبق نظام العيش على حساب المواطنين ، الذي

---

(1) ويلز ، المرجع السابق المجلد الثالث ، صفحة 985 .
(2) ويلز ، المرجع السابق ، المجلد الرابع ، صفحة 1073 .

يقضي بأن الحرب تسدد نفقاتها ، مما كان له أسوأ الأثر والنتائج التي بلغت من البشاعة حدا لا يوصف ، فقد ساد الذعر أنحاء الريف الألماني ثلاثين عاما ، وشاعت المجاعة وما يعقبها من طواعين وأوبئة ، واستمر الفلاح التعيس يزرع ويحصد عبثا ، إذ كان الحصاد الطيب للجنود القساة بمثابة المغناطيس ، فجردوا المخازن والحقول والكروم من الخيرات وتركوها خاوية ، ودفع الجوع الناس إلى التهام القمامة والميتة والكلاب والقطط والحشرات وحتى لحم البشر أحيانا . وفي الواقع يذكر المعاصرون انتشار عادة أكل لحوم البشر بوصفها أشأم دليل على انحطاط الأخلاق الذي أحدثته تلك الحرب ، فقد يلتمس للتعساء الذين أكلوا لحم البشر بعض العذر لحاجتهم القصوى ، إلا أن بعض الجنود مارسوا تلك العادة لمحض التلذذ بنشوة القسوة الوحشية التي تبعثها فيهم ، وفي هذا الصدد ذكر شارل دوق لورين ، على سبيل التندر في باريس أن جنوده كانوا يشوون الأطفال أحياء ويأكلونهم[1] .

وبالإضافة إلى الويلات التي أحدثها الجنود النظامية في أثناء حرب الثلاثين سنة كانت الأهوال التي تخللتها من حروب العصابات الجائعة التي ذبحت ونهبت دون تمييز بين صديق أو عدو ، أو بين كاثوليكي وبروتستانتي . وانتشرت عادة أكل لحوم البشر ونبشت القبور لأكل جثث الموتى ، وبلغ الانحلال درجة عجيبة دنيئة ، وحل محل بارونات العصور الوسطى في القرن السادس عشر مغامرون عسكريون ، وهؤلاء تطوروا إلى قادة مرتزقة في حرب الثلاثين سنة ، وانتشر جنودهم عصابات ومناسر من اللصوص وقطاع الطرق .

وتعددت الوسائل التي جرى اتباعها لإجبار الناس على التحول إلى الكاثوليكية . من ذلك أن المعاندين من أهل المدن فرض عليهم إيواء الجنود إذا لم تفلح معهم الحجة الدينية ، أما أهل القرى فمن أمعن منهم في رفض الكاثوليكية ربط إلى أعمدة حجرية بسلاسل من حديد وجلد حتى أذعن ، ووقع الجلد علنا إلا في حالة النساء فكن يجلدن سرا حرصا على اللباقة . وأخيرا صدرت الأوامر عام 1627 بطرد البقية الباقية

---

(1) تاريخ العالم ، المجلد السادس ، صفحة 421 .

التي لم تعتنق الكاثوليكية فأخرجت ثلاثون ألف أسرة من البلاد . وهكذا حقق الكاثوليك أغراضهم ؛ ولذا لم تعد « بوهيميا » مركزا للعلوم والفنون وظلت على حالها هذا حتى القرن التاسع عشر .

و لم يقتصر الأمر على طرد البروتستانت من مواطنهم ومصادرة أملاكهم وقتلهم بمختلف الطرق بل تعداه إلى إلقاء الرجال من النوافذ ، كما حدث في « براج » التي شهدت في يونيو 1621 في أعقاب هزيمة « ملك الشتاء » على يد القائد « كيلي » ، حيث وقعت مذابح تقشعر منها الأبدان . فقد قام الحزب الكاثوليكي الظافر باستئصال جميع النبلاء البروتستانت تقريبا . وكان الإعدام شنقا أو بقطع الرأس هو المألوف في ذلك اليوم ، فقد علقت الرءوس في أعلى برج الجسر على صاريات خشبية ، على حين كان نصيب تعساء آخرين الضرب بالسياط وهم يسيرون حول الميدان ثم يسمرون إلى الصقالات من ألسنتهم .

وفي النمسا صدر الأمر في مارس عام 1621 إلى جميع رجال الدين والمعلمين الكلفنيين أو المنتمين إلى الإخوان البوهيميين أو البيكارديين بمغادرة البلاد في ثلاثة أيام . واستثنت السلطات جماعات اللوثريين في أول الأمر ، ولكن لم يأت عام 1623 حتى أخرجوا كذلك من البلاد . وفي عام 1624 حرم فرديناند العبادات البروتستانتية تحريما باتا وكانت البلاد في الوقت نفسه مكتظة باليسوعيين ، وبدأت عملية تحويل الناس إلى العقيدة الكاثوليكية[1] .

وفي فرنسا التي لا يكف الدكتور لويس عوض عن تصديع رءوسنا بالحديث عن مزاياها وفضائلها ، يذكر التاريخ لملكها لويس الرابع عشر ، في القرن السابع عشر ، أنه لم يدخر وسعا لاضطهاد البروتستانت . وكانت أول خطوة اتخذت ضدهم هي حظر اجتماع مجمعهم السنوي بحجة أنه لم يصرح به في اتفاقية سنة 1598 . ثم تلا ذلك إلزامهم بتشييع جنائزهم ليلا لأن المرسوم لم يسمح لهم صراحة

---

(1) تاريخ العالم ، المجلد السادس ، صفحة 398 .

بتشييعها نهارا .

كذلك قام لويس بهدم الكنائس التي لم توجد في سنة 1598 واحدة بعد الأخرى ، وحرم الأطفال من رعاية آبائهم ليشبوا على الكاثوليكية ، واتخذت تدابير أخرى أقفلت في وجوه البروتستانت جميع المهن الحرة والوظائف الرسمية والنقابات الحرفية ، وأغلقت مدارسهم وحظرت على رعاتهم البقاء في مكان بذاته أكثر من فترة محددة ، وحرمت جميع الكتب التي بدا أنها تهاجم الكنيسة . وصفوة القول أنه حيل بينهم وبين الحياة الاجتماعية والاقتصادية .

وفي سنة 1677 فتح اعتماد خاص لتقديم المساعدات المالية للمتحولين عن البروتستانتية إلى الكاثوليكية . وفي سنة 1681 بدأ الاضطهاد الفعلي بإكراه الأسر البروتستانتية على إطعام فرق الفرسان وإيوائها ، مع تخويل هؤلاء الفرسان حرية العمل مبشرين منفذين كما يشتهون وأسفر هذان الإجراءان عن تحول نفر كبير منهم إلى الكاثوليكية . وفي العام التالي وجه مؤتمر الكنيسة إنذارا إلى البروتستانت بأن عليهم « أن يتوقعوا من الخطوب ما هو أفدح ، وأن ملائكة السلام ستبكي إن لم يستسلموا » . وفي عام 1685 أصدر لويس الرابع عشر قرارا بهدم جميع الكنائس البروتستانتية وتحريم العبادة على المذهب البروتستانتي وبأن يرحل جميع رعاة الكنيسة البروتستانت عن فرنسا في خلال أسبوعين وإلا كان الإعدام عقابهم . أما غيرهم من البروتستانت فقد منعوا من محاولة الهجرة وإلا عوقب النساء بالسجن والرجال بالتسخير في السفن . وبعد سنة 1711 عادت الحكومة إلى اتخاذ إجراءات جديدة ضد البروتستانت فحظرت على الأطباء عيادة المرضى منهم وحرمت عليهم الدفن والزواج[1] .

فإذا كان هذا هو ما فعلته الحكومات الأوروبية بإيعاز من الكنيسة الكاثوليكية ، مع رعاياها الذين اعتنقوا البروتستانتية ، فهل كان الدكتور لويس عوض يريد للعالم

---

(1) روجر سولتو ، تاريخ العالم ، المجلد السادس ، صفحة 701 ، 702 .

العربي ، الذي زعم أن « سور الترك العظيم » قد حال دون اتصالهم بأوروبا بشكل مباشر ، أن يأخذ عنها هذا الذي أصابها فيفعل بالمسيحيين واليهود ما فعلته أوروبا بهم في القرون الثلاثة التي أشار إليها . قد يذكر لويس عوض وغيره بعض الإجراءات التي كانت تتخذ بين الحين والحين ، نحو المسيحيين ، في هذه الدولة الإسلامية أو تلك ، وهي إجراءات وتدابير ، إذا قورنت بما حدث للبروتستانت ولغيرهم من الفرق الدينية في أوروبا ، لا تعد شيئا بالمرة ، بل إنها لا تعد صالحة للمقارنة بأي حال ، فهي في أشد صورها لم تصل إلى إعدام الآلاف وصلبهم وتعليقهم من ألسنتهم وتعذيبهم ببشاعة ليس لها نظير ، واغتصاب نسائهم ، وطردهم بالآلاف ، وحرمانهم من التعليم والعلاج ، وإجبارهم بالقوة على تغيير عقيدتهم . وغير ذلك من الإجراءات اللاإنسانية التي لا يستدعيها مجرد الاختلاف في المذهب وليس الاختلاف الجذري في الدين ذاته .

ولا نظن أن الدكتور لويس عوض الحزين أشد الحزن لقيام « سور الترك العظيم » ، والشامت في الأتراك بعد أن أصابت الغزوة الفرنسية لمصر سورهم بالتشقق ، يجهل ما كان سيصيب الأقباط في مصر من أضرار فادحة على أيدي الكاثوليك الأوروبيين لو أنه قدر لهم أن ينفذوا إلى مصر عن طريق الاتصال المباشر الذي يزعم أن الأتراك حالوا دون حدوثه ، وأن ينقلوا إليها ما بلغوه من تقدم عظيم في مجال الاضطهاد الديني . ونحسبه لا يجهل أن ما كان سيصيب الأقباط منه يفوق كثيرا ما أصاب البروتستانت ، نظرا لأن عداء الكاثوليكية للأورثوذكسية أشد وأعتى من عدائها للبروتستانتية وهو ما ظهر جليا في أكثر من مناسبة قام فيها الأقباط بمد يد المساعدة للكاثوليك ، باعتبارهم إخوة لهم في الدين ، فكانت النتيجة قيام هؤلاء بقتلهم وهو ما حدث عام 1168 لما هاجم الصليبيون بقيادة (أملريك) حصن بلبيس واقتحموه في 4 نوفمبر ، فإنهم لم يكتفوا بذبح من كان به من الجنود ولكنهم ، وهو ما ذكره « ستيفن رينسمان »[1] قتلوا أعدادا كبيرة من الأقباط

---

(1) تاريخ الحروب الصليبية ، المجلد الثاني ، صفحة 615 .

الذين تعاونوا حتى وقتذاك مع إخوانهم المسيحيين (الفرنج) . ويضيف إلى ذلك قوله « وحدث بعد بضعة أيام أن وصل إلى بحيرة المنزلة أسطول صغير للفرنج ، كان معظم بحارته من الغرب ، بعد أن أقلع مصعدا في الفرع التنيسي لنهر النيل ، وانقض بغتة على مدينة « تنيس » وتلا ذلك ما حدث في بلبيس من الرعب والخوف ، وكان القبط أكثر من تعرض للهجوم[1] . فالكاثوليكية قد بلغت من الأنانية حدا يجعلها لا تقبل وجود أي مذهب مخالف لمذهبها ، وتصر على ألّا يكون في الميدان غيرها .

وعداؤها للكنيسة الأرثوذكسية المصرية معروف ، فهي وإن كانت قد عجزت عن أن تطولها بسيوفها نظرا لوجود ما أسماه لويس عوض « سور الترك العظيم » إلا أنها لم تدع أي وسيلة أخرى تمكنها من ضربها والقضاء عليها مثلما فعلوا في أثيوبيا ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وفي مصر أثناء الاحتلال البريطاني ، حيث عملت بجد ونشاط على تحويل عدد كبير من الأقباط إلى الكاثوليكية ونافستها في ذلك الكنيسة البروتستانتية . ومع ذلك فإن المسلمين على الرغم من كل ما فعلوه لحماية الأرثوذكسية ، هم الجديرون ، في رأي الدكتور لويس عوض بكل عداء وتهجم ، ولمز وغمز . وكأنه يأبى إلا أن يؤكد ما ذهب إليه أحد المستشرقين المنصفين من أن تسامح العرب والمسلمين عاد عليهم بالوبال وقوبل بالجحود والنكران من جانب هؤلاء الذين أحسنوا إليهم .

ب - *الحقـوق السيـاسيـة :*

وحول هذا النوع من الحقوق ، نشر الغربيون وأتباعهم من الكتاب العرب أوهاما كثيرة تكاد لكثرة تكرارها أن تبدو كما لو كانت حقائق . فهم لا يملون من الحديث عما يسمى بالاستبداد الشرقي مقابل اللااستبداد الغربي ، ويوحون لقرائهم ، ومن يستمعون إليهم أن الغرب كان منذ نعومة أظفاره ديمقراطيا ينعم فيه الإنسان

---

(1) المرجع السابق ، ص 616 .

بالحرية ويتمتع بحقوقه السياسية وغير السياسية . وهو ما صدقه بعض السذج ومن تجوز عليهم الغفلة ومن لا علم لديهم بما كانت عليه الأوضاع في الغرب إلى ما قبل القرن التاسع عشر ، بل والقرن العشرين .

وإذا كان المسلمون قد حكموا حكما استبداديا منذ القرن الثامن الميلادي وإلى القرن التاسع عشر ، أو إلى ما بعد ذلك ، فإن الأوروبيين كانوا يخضعون لنفس النوع من الحكم الاستبدادي من قبل ظهور الدولة الإسلامية وإلى ما بعد قيام الثورة الفرنسية . ففي القرن السابع عشر أعلن « جيمس الأول » ملك انجلترا (1603) أنه « لما كان من الكفر والتجديف أن يعترض الناس على قدرة الله ، فإن من الوقاحة والاحتقار أن يعترض أحد الرعايا على ما يستطيع الملك أن يفعله ، أو أن يقول إن الملك لا يستطيع أن يفعل هذه أو تلك »[1] . ولقد رأينا ما فعله استبداد الملك هنري الثامن في القرن السادس عشر (حكم من 1509 إلى 1547) الذي وصل به إلى حد فرض عقيدته بالقوة على الشعب الإنجليزي بأسره .

كذلك خضعت فرنسا لحكم استبدادي لا يختلف في شيء عن حكم سلاطين المماليك والأتراك . فقد حكمها لويس الرابع عشر حكما مطلقا . ويقول « روجر سولتو »[2] إن لويس الرابع عشر هو المصدر الوحيد لكل سلطة وقانون . فالقضاة ليسوا إلا مندوبين عنه ، وقد احتفظ لنفسه بالحق النهائي في إبطال أي حكم تصدره أية محكمة ، وفي العفو عن المحكوم عليهم ، وكذلك في إدانة من برأته المحاكم التي من دونه . وكان يستطيع أن يسجن أي فرد من رعاياه ، وقد سجن بعضهم فعلا ، لأسباب يراها هو . ويضيف إلى ذلك قوله : « ولا حاجة لنا إلى القول بأن حرية الكتابة والكلام كانت معدومة في ظل هذا النظام ، وكان الرأي أن الإسراف في التفكير أو القراءة ليس من الأمور المستحبة لرعايا الملك » .

---

(1) ويلز ، المرجع السابق ، المجلد الرابع ، صفحة 1069 .
(2) تاريخ العالم المجلد السادس ، صفحة 667 .

ويقول « هـ . د . ديكنسون »[1] هناك خمسة أمور يتسم بها النظام القديم السابق على الثورة الفرنسية : أولها : الحكم المطلق ممثلا في ملوك فرنسا ووزرائهم . ثانيها : انقسام الشعب الفرنسي إلى طبقات تتعين منزلتها الاجتماعية عن طريق الوراثة ، مع استئثار بعضها بامتيازات قانونية ومالية . وثالثها : ما كانت تتسم به الإدارة من الخلل والاضطراب وانعدام الوحدة والقصور وعدم الكفاية . ورابعها : انعدام الحقوق المدنية وحرية الرأي . وخامسها : نظام البدل .

ويقول « ويلز »[2] عن الأوضاع في فرنسا في عهد لويس الرابع عشر وإلى قيام الثورة الفرنسية عام 1789 : « كان كل من رجال الدين والنبلاء ، بل في الواقع كل إنسان يحمل لقبا – معفين من كثير من الضرائب . وأصبح هذا الظلم في النهاية أمراً لا يطاق . وعلى مثل هذه الأوضاع الآثمة قامت أسس ما عسانا أن نسميها « الملكية العظمى الفرنسية » . ويستطرد قائلا : « وأضاف لويس الرابع عشر إلى ظلم الشعب ، اضطهاد أتباع المذهب البروتستانتي الذين أعمل فيهم التقتيل مما اضطر آلافا منهم إلى الفرار خارج فرنسا . ونفذت إبان حكمه عملية « الدراجوناد Dragonnades » التي تتلخص في إكراه البروتستانت على استضافة الجنود الأجلاف في بيوتهم ، حيث كانوا يعتدون على النساء والبنات دون أن يجرؤ الأزواج والآباء على الاعتراض . وخضع لهذا النوع من العدوان كثير من الرجال وإلا فإنهم يصبحون عرضة للتعذيب بالنار أو الوضع على آلة تسمى « العذراء » تخلع العظام . كما حرم تعليم أبناء البروتستانت »[3] .

وحتى بعد أن قضت الثورة على الحكم الملكي المطلق وأعلنت الجمهورية التي تقوم على أسس ديمقراطية ، ظهر بوضوح أن الأمر لا يتجاوز الشعارات الجوفاء .

---

(1) تاريخ العالم ، المجلد السابع ، صفحة 211 .

(2) المرجع السابق ، صفحة 1095 .

(3) ويلز ، المرجع السابق ، صفحة 1098 .

وإذا أردت أن تضرب مثالا للوحشية والقسوة والهمجية فأمامك ما حدث أثناء هذه الثورة التي وقعت ، كما هو معلوم في نهاية القرن الثامن عشر ، أي في نهاية القرون الثلاثة التي حرمنا فيها الأتراك من أن ننهل من المنهل العذب للحضارة الأوروبية التي دللت أحداث الثورة الفرنسية على أنها لم تكن إلا وهما كبيرا . وأي حضارة هذه التي تنتج نوعا من البشر تخلو قلوبهم من الرحمة والإنسانية ، لا يفرقون بين مذنب وبريء ، ولا بين رجل وامرأة ، ولا بين قوي وضعيف ، يهجمون على السجون وقد تسلحوا بالسيوف والخوازيق والبلط فيخرجون السجناء ليستجوبوهم استجوابا وجيزا ثم يقذفوا بهم إلى الدهماء الواقفين على الأبواب . وهناك الجمهور يتدافع ويتقاتل ليحدث في الضحية جرحا أو يصيبها بطعنة . وكان المحكوم عليهم يطعنون ، ويمزقون إربا ويضربون حتى يقضوا نحبهم ، وكانت رءوسهم تجتز وترفع على الخوازيق وتحمل في أرجاء المدينة وتلقى أجسادهم الممزقة جانبا[1] .

أما « بونابرت » الذي يزعمون إنه كان من دعاة الحرية والديمقراطية والعدالة والمساواة فسوف نرى ما فعله بالديمقراطية والحرية . إنه هو الذي قضى على الديمقراطية والحكم النيابي في فرنسا ، وذلك حينما نادى بنفسه قنصلا أول مدى الحياة سنة 1802 . وحين توج نفسه إمبراطورا على الفرنسيين سنة 1804 . ويحفظ التاريخ مؤامرته التي دبرها من أجل التخلص من المجالس النيابية وذلك حين أدخل في روع الجنود أن أعضاء المجالس التشريعية خونة يبيعون فرنسا بالمال للوزير الإنجليزي . « وليم بت » ، فما كان من الجنود بقيادة « لوسيان بونابرت » وغيره من زعماء المؤامرة إلا أن اقتحموا مجلس الخمسمائة وطردوا أعضاءه منه . أما نابليون الذي أعلن قبل ذلك بثلاثة أيام أن العمل على تقويض أية حكومة نيابية في هذا العصر عصر النور والحرية ، يعتبر خيانة كبرى ، فقام يعمل على تدبير هذه الجناية بحل هذه المجالس وإقامة حكومة « أوتوقراطية » يحجبها عن الناس حجاب شفاف ، وهو عبارة عن حكومة القنصلية . وأصبح نابليون هو القنصل الأول ومعه قنصلان

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 1211 .

كل منهما بمثابة الصفر على الشمال . وقام نابليون فيما بعد بإحياء المجلسين ، ولكنه لم يلبث أن أعمل الفرقة بينهما وسد أفواههما . وبهذا اتخذت ثورة 1789 شكلا ملكيا بعد انقضاء عشرة أعوام على قيامها .

وهكذا يمكن القول إن أوروبا لم تعرف الديمقراطية بصورتها الحالية إلا في القرن التاسع عشر وليس قبل ذلك ، فهي ليست كما يزعمون مهد هذه الديمقراطية والحرية ، ولو كانت كذلك رغم ما بيناه ، فماذا نصف حكم الخلفاء الراشدين ؟! بل إننا نجد تطورا مماثلا لما حدث في فرنسا وفي غيرها من الدول الأوروبية ، حدث في مصر في بداية القرن التاسع عشر ظهرت معالمه بوضوح في وثيقة تولية محمد علي من جانب المشايخ والعلماء ، كان من شأنه ، لو أنه ترك يمضي في طريقه ، أن يؤدي إلى قيام نظام حكم ديمقراطي حقيقي في مصر ، ومن ثم في العالم العربي ، لولا تدخل الفرنسيين الذين أحاطوا بمحمد علي وجعلوا كل همهم تشجيعه على التخلص من معارضيه ، وأن يحكم مصر حكما استبداديا ، لكي يتمكنوا من تنفيذ مخططاتهم وبلوغ أهدافهم .

ج - *حق الإنسان في حياة كريمة :*

في الحقبة التي أشار إليها الدكتور لويس عوض كانت الأغلبية الغالبة من الطبقة الدنيا من السكان في أوروبا ، تعيش عيشة التسول ، أو تحصل على معاشها بممارسة الصناعات الدنيا ، فكان الناس يسكنون أكواخا قذرة خارج المدن . وكثيرا ما كانت أسوار المدينة هي الدعامة الوحيدة لهذه المباني التعسة .

ولم تكن المدن أكثر استقرارا من الريف . وكان أكثرها يعج بالمتسولين . وقد شكا الطبيب الشهير « لستر » في معرض وصفه لأسفاره في فرنسا سنة 1658 من « جيش الفقراء والمعدمين الذين يعوقون تقدمك راجلا كنت أم راكبا » وفي سنة 1662 قدم فقراء باريس التماسا إلى الملك ذكروا فيه كثرة عددهم ، وعجزهم عن العثور على أي عمل ، وأن الأبروشيات مثقلة بمن تعول إثقالا يحول بينها وبين تقديم

الغوث لجميع الفقراء ، أما المستشفيات فقد ضاقت بنزلائها لكثرتهم.

وفي القرن الثامن عشر قام الملاك الكبار للمزارع في بريطانيا بدفع المزارع الصغير والفلاح إلى خارج الأراضي ، واغتصبوا ما يسمى بأرض المشاع ، وتركزت العقارات في أيدي طبقة قوية شرهة ذات امتيازات . وترتب على ما يسمى بـ (قانون السياجات) أن ازداد الأثرياء ثراء والفقراء عددا [1] .

وعلى الرغم من حدوث الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر في بريطانيا ، وما أدت إليه من تقدم صناعي وازدهار تجاري ، فإن ما يسمى بالحضارة الأوروبية التي حال العثمانيون دون استفادة العرب منها بسبب ما أسماه لويس عوض « سور الترك العظيم » لم تكن في الحقيقة تحتوي على عناصر إيجابية تتوفر فيها الفائدة المزعومة . فقد أحدثت الثورة الصناعية انتقالا أليما وهزة عظيمة بين عوام السكان الصامتين غير المتعلمين الذين لا زعيم لهم والذين أصبحوا محرومين من الأملاك حرمانا يتزايد أكثر فأكثر . فأما صغار المزارعين والفلاحين – وقد قضت عليهم قوانين السياجات وأخرجتهم من أرضهم – فإنهم انتقلوا إلى المناطق الصناعية الجديدة وهناك انضموا إلى عائلات أصحاب الحرف الذين عضتهم الفاقة وانحطت مكانتهم في المصانع . وظهرت في الوجود مدن كبيرة مكونة من منازل قذرة .

وفي فرنسا كان نظام رقيق الأرض Serfs سائدا حتى قيام الثورة التي ألغته مع ما ألغت من نظم أخرى منها التعذيب والحبس التعسفي والاضطهادات الدينية ، وإن كانت هي ذاتها لم تتورع عن ممارسة التعذيب والاضطهاد الديني والحبس التعسفي .

وفي ألمانيا ظل نظام الإقطاع قائما حتى أوائل القرن التاسع عشر ، وكذلك الامتيازات ونظام أرقاء الأرض Serfdom .

وإذا كان أنصار الغرب يتهمون المماليك والعثمانيين باستغلال الفلاح المصري وإفقاره فلسنا ندري ما الذي كان سيضيفه اتصالنا بأوروبا في القرون الثلاثة المشار

---

(1) ويلز ، المرجع السابق ، صفحة 1145 .

إليها ، إلى معاناة الفلاح . فقد كان حاله لا يختلف عن حال الفلاحين الأوروبيين . فالفلاح الفرنسي ، على سبيل المثال ، كان يلزم بأداء فرائض باهظة وبإطعام جنود الحكومة وإيوائهم بصورة منتظمة . أما الضرائب فكانت ألوانا شتى . فكان على الفلاح رسوم يؤديها للشريف في إقليمه . كما كان يجري تسخيره لإصلاح الطرق المحلية ويلزم باستخدام مطحن الشريف ومعصرته بالشروط التي يفرضها ، وبالسماح لكلاب صيده بالجري في أرض الفلاح . وكان الفلاح محظوظا إذا لم يفرض عليه الشريف سوى ما يسمح به القانون أو العرف .

فإذا فرغنا من الشريف جاء دور الملك . فقد كان هذا يعفي النبلاء والأشراف من كثير من الضرائب مما جعل العبء الحقيقي لها يقع على كاهل الفلاحين . ولم يكن مفر من أن تؤدى للملك حقوقه ، فإذا قصر أحدهم عوقب عقابا صارما ببيع مقتنياته وإلقائه في السجن . ولم تكن الضرائب المباشرة هي البلاء الوحيد الذي نكب به الفلاح ذلك أن شطرا كبيرا من تكاليف الجيش كان يقع على رأس هذا المسكين ، فقد كان عليه أن يطعم الجند ويأويهم لأنهم كانت تعوزهم المعسكرات ، وكان هؤلاء الجند يعيشون في الريف كأنهم في بلد من بلاد الأعداء . وكانت هناك ضروب أخرى من الإكراه ، كالاستيلاء على الغلال والتبن والخيل ، وكتسخير الفلاحين لأداء الخدمات للجيش ، وكالتجنيد الإجباري ، وقد بلغ الأذى الذي سببه وجود الجند مبلغا استحق معه أن يدرج مع الطاعون والحريق في قائمة الكوارث والمحن .

وبالإضافة إلى كل ذلك فقد كانت هناك « عشور » الكنيسة التي لم تكن خفيفة بحال ولقد تبين أن الحكومة والكنيسة كانتا تستوليان على أكثر من 80 ٪ من دخل الفلاح[1] .

وإذا رغب الفلاح في الالتحاق بعمل في الأوقات التي لا يمارس فيها الزراعة ، ومن أجل أن يؤدي التزاماته ولا يلقى به في السجن فإن ما كان يحصل عليه مقابل

---

(1) تاريخ العالم ، المجلد السادس ، صفحة 680 .

يوم عمل لا يتجاوز سبعة « سوات » أو ثمانية إن لم يكن أقل ، علما بأن الـ (سو) كان يشتري رطلا من الخبز لا أكثر[1] .

أما الحضر الفرنسي ، فإن أجزاء كبيرة من المدن الفرنسية كانت ، إلى ما بعد قيام الثورة ، أحياء فقيرة مليئة بأقوام ممن جردوا من أملاكهم ، وانحلت أخلاقهم وانحطت مرتبتهم وتمررت أرواحهم . وكانت جماهير باريس بوجه خاص في حالة يأس خطرة ، لأن صناعات باريس كانت في معظمها صناعات ترف وكان الشيء الكثير من أعمالها من النوع الطفيلي الذي يعيش على نقائض الطبقة الراقية ورذائلها[2] .

د - العدالة والمساواة :

كان القضاء في فرنسا ، في القرون الثلاثة المشار إليها ، في الدرك الأسفل من الانحطاط ، فقد كانت الوظائف القضائية ، إما أن تورث أو تشترى . وكان القضاة يرتشون بطريقة جعلت الناس يتحدثون عنهم علانية . وفي القرن السابع عشر كان رجال القضاء الفرنسيون باستثناء القليلين منهم ، طبقة من الموظفين محدودي التفكير ، متمسكين بالتقاليد ، غيورين على امتيازاتهم أكبر من غيرتهم على العدالة بوجه عام ، تتفشى بينهم الرشوة ، وليس لهم من الكفاءة إلا حظ متوسط .

وأبلغ دليل على هذه الصفة الأخيرة السهولة المضحكة التي كان الطلاب ينالون بها الدرجات الجامعية في القانون ، وسبيلهم إليها في الأكثر تقديم الهدايا إلى الممتحنين ودليل آخر هو هذه العبارة التي ذكرها أجنبي كان يرقب الأحوال في فرنسا « ولما كانت الوظائف في المحاكم تباع وتشترى فقد امتلأت كراسي القضاء بالجهلة الذين قد تجد منهم حتى أبناء القصابين ، لذلك كانت الأحكام التي يصدرونها أحكاما غبية

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 683 .

(2) ويلز ، المرجع السابق ، صفحة 1207 .

خرقاء ، والملك مغتبط بهذا لأنه يرى هذه الهيئة تقضي على سمعتها بهذه الطريقة ، وهو موقن بأنها لن تستطيع مرة ثانية أن تحاول التصرف كما لو كانت وصية على الملكية[1] .

ويقول « روجر سولتو »[2] عن الأحوال في القرن السابع عشر : « فإذا تركنا القضاة إلى ضحاياهم – وليس نعتهم بالضحايا من قبيل المبالغة مهما كان هؤلاء التعساء مذنبين من وجهة نظر القانون – وجدنا صورة للعذاب والبؤس تنفطر لها أقسى القلوب . فقد كان السجن بيت الشيطان ، لا بسبب ذنوب نزلائه فحسب بل لما ينطوي عليه من آلام هي بعينها آلام الجحيم ، فقد كتب على من يدخله الجوع والعري والمرض والذلة والانفراد ، وكان يحكم على الشخص بتسخيره على السفن حكما بالموت البطيء ، فالذين لم يخروا صرعى في طريقهم إلى الميناء يساقون إليه موثقين في قافلة لم يكن لهم كبير أمل في البقاء على قيد الحياة طويلا على ظهر السفينة . كذلك كان من يقضى بإيداعهم في السجن سنتين يقون فيه عشرة ، وأحياناً أكثر دون أن يهتم أحد بهم . وكانت المحاكمات القانونية لا تزال تشتمل على التعذيب بوصفه طريقة عادية يلتجأ إليها في التحقيق مع المتهمين واستجوابهم . وكثيرا ما أفضى هذا إلى اعتراف الأبرياء بجرائم لم يرتكبوها دفعا لمزيد من العذاب .

والقصة التالية ترينا كيف كان الأوروبي ، في القرن السابع عشر يتمتع بالعدل :

« فعندما تفشى الطاعون في « ميلان » عام 1630 كانت نظرة العصور الوسطى ما زالت مسيطرة فوقع فيها ما نوجزه هنا نقلا عن كتاب « مأساة الطاعون الكبير في ميلان » لمؤلفه روبرت فلتشر : حدث في بكور 21 يونية أن كانت امرأة من الطبقات الدنيا تطل من شرفة منزلها فرأت رجلا يسير في الشارع وهو يكتب ورقة ثم وقف بجوار حائط وأخذ يمسح عليه أصابعه – التي كانت ملوثة بالحبر – ولكن

---

(1) تاريخ العالم ، المجلد السادس ، صفحة 684 .

(2) المرجع السابق ، صفحة 686 .

مخاوف المرأة وشكوكها جعلتها تتوهم أن الرجل لوث الحائط بمرهم مميت لنشر الطاعون فأبلغت السلطات وقبض عليه وظهر أنه موظف صغير منوط بالتبليغ عن حالات الطاعون ، ثم وجهت إليه تهمة تلويث الحائط بمرهم خطير مع سوء القصد لنشر الطاعون . ونفى المسكين عن نفسه التهمة بشدة برغم تعريضه للتعذيب مرتين . ولكنه فيما بعد وهو في حبسه المنفرد وقد هده الألم وأفزعه التعرض للتعذيب من جديد خضع لنصح من كان حوله في سجنه واعترف بالجريمة وقرر أنه حصل على المرهم – وكانت حيازته نفسها محض خيال – من حلاق معين .

وقبض على الحلاق المسكين ، ولم يثبت هذا براءته فحسب بل أقسم فوق ذلك أنه لم ير المتهم إطلاقا ولكنه استسلم هو الآخر وأخذ يتبارى مع المتهم الأول اليائس في تلفيق تهم باطلة لكثيرين ومن بينهم بعض كبار الموظفين . وكان هذا الرجل يعبث بالطب كما يعبث به معظم الحلاقين في ذلك العصر فلما وجد في حانوته أوعية ما يستعمل في الطب قرر أنها تحتوي مواد واقية من الطاعون . ثم ظهر أن الرجل الأول كان فعلا يزور حانوت الحلاق أحيانا وأن الحلاق كان قد تكفل بتحضير زجاجة من مواده الواقية من الطاعون . ولفقت على أساس هذا العمل البريء تهمة القتل الجماعي وأكره المتهم الأول بوسائل التعذيب على القول بأن الحلاق أمده بالزبد الذي يخرج من أفواه المصابين بالطاعون ليخلطه بمرهمه ، فلقي الاثنان حتفهما في ظروف كانت من الهول بحيث يقشعر الإنسان من التحدث عنها »[1] .

وإذا ذكرنا التعذيب فلابد أن تذكر محاكم التفتيش وما فعلته بالناس في أوروبا ، ابتداء من القتل بطرق شاذة ومريضة إلى البتر والتشويه والاغتصاب ، وهو ما ظل يجري في أوروبا إلى القرن الثامن عشر . ويقول « هرتشو » وتبدو لنا سجلات القرن السادس عشر مريعة شنيعة لما احتوت عليه من انتصار الخرافات الدامية . فمن ذلك مثلا أن أربعمائة شخص أحرقوا في سنة واحدة في مدينة « تولوز » بتهمة

(1) تاريخ العالم ، المجلد الخامس ، صفحة 556 .

السحر ، وفي سنة أخرى أحرق خمسمائة في مدينة جنيف وفي سنة أخرى ستمائة في بامبرج ، وفي أخرى تسعمائة في فورزبرج . ويقال إن مدينة تريفز وحدها شهدت خلال هذا القرن ما لا يقل عن سبعة آلاف أعدموا بتهمة السحر والعرافة[1] .

ويقول « هرتشو » مستطردا : وعلينا الآن أن نبين مدى الوحشية والروح الانتقامية التي كانت تنفذ بها العقوبات ضد المخالفين للقوانين المدنية . ويبدو أن هذا العصر الوحشي الغليظ كان ينظر إلى كل عقوبة لا تقوم على الوحشية على أنها عقوبة غير رادعة .

ولم تكن عقوبة الموت توقع بسبب الخيانة العظمى ، أو القتل كما هو الحال في العصر الحاضر لكنها كانت عقوبة عادية لجرائم أخرى مثل السرقة والاختلاس والحريق المتعمد وانتهاك حرمة الأشياء المقدسة . وكانت جثة المذنب تظل معلقة لتكون عبرة للأحياء حتى يجعلها نهش الغربان غير معروفة الملامح . وكان يستعاض عن الشنق أحيانا بوسائل تقليدية أخرى لإزهاق الروح ، ومنها ضرب العنق أو التغطيس في الماء ، أو القذف من فوق صخرة عالية ، ففي جزر « سيلي » في انجلترا مثلا كانت العادة أن يوضع المحكوم عليه بالإعدام على صخرة معينة ينحسر عنها الماء عند الجزر ، ثم يغمرها المحيط إلى عمق كبير عند المد ، ويترك المحكوم عليه في هذا الموضع حتى تقضي عليه مياه المحيط قضاء بطيئا في غير رحمة .

وأشد فظاعة من الإعدام العلني كانت التشويهات البدنية المروعة التي عوقبت بها أنواع أخرى من الذنوب . فمن الرجال من كانت تقطع أيديهم أو أقدامهم وآذانهم ، ومنهم من كانت تشق أنوفهم أو يكوون بالحديد المحمي ، أو تفقأ لهم عين واحدة أو عينان . وبالقياس إلى عقوبات الإعدام والتشويه كانت عقوبات الصندوق الحابس لليدين والقدمين أو العمود ، أو عربة الجلد أو المقعد الغاطس ، عقوبات خفيفة تكاد تدعو للتندر وفيها كلها كانت العلنية من صميم العقوبة ، وكان الجمهور

---

(1) تاريخ العالم ، المجلد السادس ، صفحة 192 .

يقبل على مشاهدتها فيقذفون ضحايا هذه العدالة الغاشمة بالأحجار ويهينونهم بأنواع الإهانة ويرمونهم بمختلف ألفاظ السب .

أما عقوبة السجن فكانت أقل شيوعا مما هي عليه في العصر الحاضر ، وكانت تستخدم قبل كل شيء للتحفظ على المذنب في أثناء محاكمته وتنفيذ العقوبة فيه . وكانت سجون العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث على درجة من البشاعة تفوق كل وصف ، حالكة الظلام خالية من أي إضاءة أو تدفئة ، شديدة الرطوبة ، مليئة بالحشرات ، معدومة الوسائل الصحية ، عارية تماما من كل أنواع الأثاث ، وهي في الواقع كالدهاليز المؤدية إلى المقابر . وكان الذين يقضى عليهم بطول الإقامة في هذه السجون المفزعة بسبب تأخير الإجراءات القانونية أو غيره من الأسباب لا يلبثون أن يصبحوا حطاما من الناحيتين الجسمانية والعقلية . وكأنما كانت الحكومات تعتبر المذنب شيئا تافها وليس إنسانا ؛ يدل على ذلك ما أقدمت عليه الحكومة في إنجلترا سنة 1798 حيث هدد بونابرت بغزو الجزيرة ، حيث قامت بإيداع المسجونين في السفن ووضعت هذه السفن في بقاع تسهل السيطرة عليها ، حتى إذا طرأت ظروف تقتضي التخلص منهم قامت بإغراق السفن وهم فيها فيموتون غرقا[1] .

وفيما يتعلق بـ (المساواة) فإنها ظلت حلما يراود خيال الأوروبيين إلى ما بعد قيام الثورة الفرنسية ؛ فبالنسبة للتعليم الذي كان في يد الكهنة لم يكن يسمح إلا لقلة ضئيلة من البنات بالتعليم ، ويقول « وليم هاربت دوسن »[2] عن هذا الوضع « وكانت البنات على الجملة لا يتمتعن عند آبائهن إلا بقليل من الاعتبار بالقياس إلى الأولاد ، وحيث لا يستخدم مؤدبون كان تعليمهن يهمل بدرجة مخزية ، ورفعت صحيفة تعليمية مشهورة صوتها في آخر القرن ، من باب التعميم عن أمر جزئي معين على الأرجح ، بالشكوى من أن بنات الطبقة المتوسطة « يتركن حتى يكبرن في الجهالة » .

---

(1) كريستوفر هيرولد ، المرجع السابق ، صفحة 53 .

(2) تاريخ العالم ، المجلد السابع ، صفحة 61 .

وبالنسبة لوضع المرأة الأوروبية في القرون التي أشار إليها لويس عوض فإنه يكفينا أن نعيد ما كتبه « بلاكستون » في شروحه المشهورة على قوانين إنجلترا في سنة 1765 يقول : « إن القيود التي ترزح تحتها المرأة يراد بها في الغالب حمايتها وخيرها . ذلك أن القانون الإنجليزي يؤثر المرأة بعطف شديد » . وتعلق « راي ستراتشي » على ذلك قائلة : « ومع ذلك فإن هذه المرأة التي آثرها القانون ذلك الإيثار العظيم قد حرمت كل حق مدني تقريبا وحيل بينها وبين التعليم وكل شيء آخر ما عدا أحط موارد الكسب ، ونزلت عن كل ثروتها عند الزواج » . وأصدق من قول بلاكستون ما ذكره ذلك المحامي المجهول في سنة 1737 حين قال « إن كثيرا من قوانيننا وعاداتنا المتصلة بالنساء مضحك جدا ولعل واضعيها كانوا مع ذلك أناسا متسمين بالجد » . وتضيف « ستراتشي » إلى ذلك قولها : « لما ولت الأيام وتلاشت مواكب العصور الوسطى ومحافلها ، تخلف عن ذلك كله ما يشبه الظل . ومنذ ذلك العهد بدأ احترام الرجل الظاهري للنساء . والحق أن الاضطهاد كان في الواقع أشد من ذي قبل »[1] .

وفي تناولها لأثر التطور الصناعي في وضع المرأة قالت : « إن الطريقة الجديدة لإنتاج الثروة وتوزيعها قد كانت تسلب النساء الشيء القليل الذي احتفظن به من أملاكهن وذلك تحت تأثير الفكرة الشعرية القائلة بأن النساء محميات معززات ، فلم يكد ينتصف القرن الثاني عشر حتى كن قد صرن من الوجهة الاقتصادية كلًّا على عالم من الرجال ، وباتت حياتهن عديمة النفع ، ولا يرجى من ورائها خير »[2] وتضيف قائلة : « وقد كان النساء في ختام القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر في أحط مركز شغلنه في بلاد الغرب »[3] ومما يثير الدهشة حقا أن نابليون لم يكن يرى وجود فائدة في تعليم البنات ، ومما قاله في هذا الصدد : « لست ممن يعتقدون

---

(1) تاريخ العالم ، المجلد الأول ، صفحة 399 .
(2) تاريخ العالم ، المرجع السابق ، صفحة 400 .
(3) المرجع السابق ، صفحة 401 .

أن بنا حاجة إلى أن نتعب أنفسنا بعمل خطة لتعليم الإناث الصغيرات ، فليس في المستطاع أن يربيهن أحد خير من أمهاتهن . وليس التعليم العام مناسبا لهن ، لأنهن لا يطلبن قط للعمل العام ، وإنما الأخلاق هي الكل في الكل لهن ، والزواج كل غايتهن »[1] .

ليس ذلك وحسب ، بل إنه فيما أصدره من قوانين حرم الزوجة من أن تتصرف في أملاكها ، بل جعلها في يد زوجها يفعل بها ما يشاء . كذلك فإنه ميز بين الرجل والمرأة في العقاب ، فقد شدده على الزوجة الزانية بينما خففه على الزوج الزاني .

وعموما فإن الجهل كان متفشيا ، وتفشت معه الخرافات وانتشر الإيمان بالسحر واستجاب لهذه النزعة جميع الناس على اختلاف طوائفهم وطبقاتهم من كاثوليك وبيوريتان « متطهرين » نبلاء أو عاميين . ونسبوا إلى السحرة قوى غير مشروعة ولكن لا سبيل إلى الشك فيها . وينطبق هذا أيضا على العرافين وأرباب الكيمياء ، إذ خشيهم الناس وتزلفوا إليهم أحيانا كما اضطهدوهم أحيانا أخرى[2] .

واستمر هذا الوضع طيلة القرن السادس عشر وازداد في القرن السابع عشر الذي انتشر فيه بين الناس اعتقاد راسخ بوجود اتصالات شيطانية بين السحرة والساحرات وبين الأرواح الشريرة فعاشوا وقد أحاطت بهم سحابة من ألوان الرعب الخفي من الشياطين وغيرها .

ويقول « و . إليسون فيليبس »[3] : والواقع أن الخوف من الشياطين أدى إلى اتجاهين في ناحيتين ، فمن الناحية الأولى وجد الرجال والنساء لذة مروعة في الاتصال الموهوم بالشياطين ، مثلما يلهو الناس بالاتصالات الروحية في العصر الحاضر ، وشاع السحر حتى كاد يصبح شيئا عصريا يمارس في الأغلب في بلاط صغار الأمراء في

---

(1) ويلز ، المرجع السابق ، صفحة 1244 .

(2) المرجع السابق ، المجلد السادس ، صفحة 321 .

(3) تاريخ العالم ، المجلد السادس ، صفحة 392 .

ألمانيا . ومن الناحية الثانية أدى الرعب الذي أثارته هذه الاتصالات الخبيثة إلى اضطهاد السحرة والساحرات . وبلغ ذلك الاضطهاد عنفا لا مثيل له خلال النصف الأول من القرن السابع عشر . ومن الدليل على ذلك أن أسقف فيرتزبورج حكم بتعذيب تسعة آلاف ساحر وساحرة بالخازوق سنة 1627 و 1628 ، وفي إمارة « نيسه » وهي إحدى إمارات سيليزيا الصغيرة ألقي بألف شخص أحياء في النار سنة 1640 - 1641 .

وفي القرن الثاني عشر كان يسود الاعتقاد لدى الناس في أنحاء أوروبا أن كل بناء خرب وكل فناء كنيسة مسكون بالجن ليلا ، كما كان بكل بيت قديم غرفة للعفاريت . وكان الاعتقاد في السحر والشعوذة سائدا حتى نهاية القرن وبعده[1] .

أما العلم فإنه كان متخلفا جدا ، وكان العلماء يتعرضون لغضب الكنيسة ونقمتها إذا ما صدر منهم ما تعتبره متعارضا مع مبادئها وادعاءاتها . ومن أشهر وقائع الاضطهاد التي حدثت في القرن السابع عشر تلك التي وقعت لـ (جاليليو جاليلي) 1564 - 1642 فقد كان رأيها فيما قاله من أن الأرض أصغر من الشمس وأدنى منها مرتبة ، أنه قول لا يجعل للإنسان والمسيحية وزنا ، وحملته على التراجع عن هذا الرأي ، وعلى إرجاع الأرض إلى مكانها الأول كمركز ثابت للكون لا يتحرك !! وقضى عليه سبعة من الكرادلة بالسجن مدة من الزمن وأمر بتلاوة مزامير الندم السبعة مرة كل أسبوع طوال ثلاث سنوات[2] . ولم تتح أمام العلم الفرصة ليتقدم إلا بعد أن سقطت الكنيسة وفقدت سلطانها .

وفي القرن السابع عشر كان الأطباء لا يزالون وثيقي الارتباط بطبقة الحلاقين وكانوا لا يزالون يجهلون أسرار صناعتهم جهلا مطبقا ، اللهم إلا قلة من الأطباء اللامعين وهؤلاء كان الملوك والأمراء يحتكرون جهودهم[3] . وفيما يلي مثال لما

---

(1) تاريخ العالم ، المجلد السابع ، صفحة 61 .

(2) ويلز ، المرجع السابق ، المجلد السادس ، صفحة 1008 .

(3) تاريخ العالم ، المرجع السابق ، المجلد السادس ، صفحة 684 .

كان يفعله الأطباء الذين كان نشاطهم أقرب إلى الشعوذة والدجل منه إلى الطب ؛ فقد زعموا أن العلاج المضمون في حالات مرض السل هو الآتي :

خذ الأعشاب الآتية : غملول وبتونيقة وفلية وفوتنج وشمر وصعتر الفرس ولسان الثور ، وانقعها في كمية من البيرة الصافية واجعل منها شرابا . اقرأ القداس على هذه الأعشاب المنقوعة سبع مرات لمدة سبعة أيام ، ثم أضف إليها كمية من الماء المقدس ، ثم ضع الشراب في جرس الكنيسة ، وتناول منه عندما يكون القسيس قائما يصلي ويرتل « ربنا أنت خالقنا القادر على كل شيء »[1] .

هـ – حريـــة التعبيـــر :

لم تكن هناك حرية تعبير بالمعنى الذي نعرفه الآن ، إلا في نطاق محدود للغاية هو الكتابة الأدبية . فكان هناك من يؤلفون القصص وينظمون الشعر ويكتبون التمثيليات والمسرحيات . ويقول ج . ب . بلاك عن النشاط المسرحي في أواخر القرن السادس عشر في إنجلترا : « كثيرا ما استعرض المسرح مناظر تدعو إلى اشمئزاز الجمهور في العصر الحديث كمناظر الجنون والإدمان والرذيلة والقسوة ، وهي مناظر تبدو لنا عادة غير صالحة لموضوع فني على الإطلاق . ولكنها كانت تسلية رئيسية لصبيان الحرف والميكانيكيين وأصحاب المهن الذين كانوا يملئون المقاعد الرخيصة في الصالة . ويعود إقبالهم على المسرح إلى أنه كان يخاطب حواسهم مباشرة . قال قسيس أخذته الدهشة وهو يرى الجماهير المقبلة على المسرح : « إنه خيل إليّ كأن جهنم فتحت أبوابها ، ولعله من الخير أن تجتمع الشياطين في صعيد واحد لنرى ما يفعلون ونعرف مكانهم إذا دعت الحاجة »[2] .

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 192 .

(2) المرجع السابق ، صفحة 318 .

ويقول « هرتشو »[1] عن الفن في القرن السادس عشر : فما من قارئ لتمثيليات القرن السادس عشر في أية لغة من اللغات ، وما من باحث في التمثيليات الدينية التي سبقت الدراما الحقيقية ، إلا رأى انحطاط هذا العصر واضحا ، إذ كانت تعرض على المسارح مناظر لا يمكن عرضها الآن حتى ولا في إحدى دور السينما المكسيكية ، وكانت تؤلف وتلقى قطع من الحوار تحمر منها خجلا في العصر الحاضر وجوه أحط الممثلات الباريسيات تحت حمرة مساحيق وجوههن ، وكذلك كان الحال في الفنادق والمحطات حين لم يكن هناك شيء من الخلوة أو الانفراد ، فكانت تقع دائما ولابد حتى بين العقلاء والمحترمين وأتقياء الحجاج أمور تعد اليوم خرقا صارخا للآداب .

وفي ألمانيا ، في القرن الثامن عشر صرحت إحدى شهيرات النساء قائلة : إنه لا يوجد شيء أدنى من الآداب الألمانية . وانتشر بين النبلاء وكريمي المحتد نوع من الفروسية الفاسدة ، من فروسية منشدي الغراميات ، المأخوذة أيضا عن فرنسا وأطلق عليها « بسالة » والمقصود منها بالذات الولاء للجنس اللطيف ، ولكنها كانت غراميات سطحية وغير حقيقية ، وهي نابعة من الانحلال الفكري ثم امتدت إلى الانحلال الأخلاقي والمعنوي ، ولم يقتصر ذلك على الرجال بل امتد إلى النساء اللاتي تفوقن أحيانا من حيث الإباحية والخلاعة والاستهتار والإفراط[2] .

ويعلق « ديكنسون » على ما حظي به الفكر من حرية في القرنين السابع عشر والثامن عشر بقوله : « ويدهشنا للوهلة الأولى أن يحظى الفكر بقدر كبير من الحرية والانطلاق في ظل حكومة استبدادية كهذه . بيد أنه ليس بمستغرب أن تزدهر الفنون والآداب ، فالنشاط الفني صمام أمن لا ضرر فيه يفسح المجال لطاقات الابتداع والابتكار ، وكثيرا ما تعمل الحكومات الاستبدادية على تشجيع إعمال الفكر في جميع

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 188 .

(2) تاريخ العالم ، المجلد السابع ، صفحة 33 .

الميادين ، فيما عدا تناول النظم الاجتماعية والسياسية ونقدها نقدا حرا صريحا . وليس من المستغرب أيضا أن تكون الأخلاق خليعة منحلة ، فالحكومات الديمقراطية تنزع عادة إلى التشدد والتطهر ، لأن الطبقة الوسطى تنفس على الأغنياء استمتاعهم بمباهج الحياة ، بينما تجيز الحكومات الاستبدادية خلع العذار وتحلل الأخلاق من الناحية العملية على شريطة الاستمساك من ناحية المبدإ بالمثل التقليدية[1] .

و – الأخـــــلاق :

أما عن التدهور الأخلاقي الذي ساد الغرب في القرون الثلاثة المذكورة فحدث عنه ولا حرج .. ففي أولها ، أي في القرن السادس عشر ذاعت شهرة « ماكيافيللي » السياسي الإيطالي ، رائد الانتهازية والانحلال ، والذي قال عنه « ويلز » إن هذا الرجل الضرير من الناحية الأخلاقية ، كان يعيش بين ظهراني عالم صغير كل رجاله صم وعميان من الناحية الأخلاقية . وواضح أن أسلوب تفكيره ، إنما هو أسلوب تفكير كل بلاط في أيامه[2] .

كما كان هناك « رودريجو بورجيا » أو البابا إسكندر السادس الذي لم يكتف بأن يزني بعدد لا حصر له من النساء ، بل زنى بابنته « لوكريشيا » كما زنى بها شقيقها « سيزار » ، واحتار الناس إلى أي الرجلين ينسبون الولد الذي أنجبته .

وفي نهاية القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر ساد تيار إباحي إلحادي في إنجلترا ، وسخر الظرفاء من النقاد وتفكهوا بأقوال الناصحين والوعاظ واعتبروهم حمقى مغرورين وكتب « توماس ناش » متهكما على من يعترضون على تفشي الزنا والدعارة « إنهم يعظون غيرهم وكأنهم نشئوا على الخبز والماء وحدهما ، أو كأنهم كانوا منذ المهد خصيانا ومنذ النشأة الأولى عميانا لا يبصرون » . وقال أحد الوعاظ

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 223 .

(2) ويلز ، المرجع السابق ، المجلد الثالث ، صفحة 1041 .

« خير للمرء أن يكون زامرا ومغنيا داعرا من أن يكون قسيسا فالناس يقبلون سماع فحش القول من هذه الطوائف الأولى ، وينفرون من الطائفة الأخيرة وما تبديه من جد وحكمة ورزانة »[1] .

أما ألمانيا فإن الحال فيها لم يختلف عنه في إنجلترا ، فقد كانت تسودها ظروف فظة قاسية فتدهور السلوك وانحطت الأخلاق إلى درك لا يكاد يصدقه عقل وانتشر الإجرام والقتل وقطع الطريق . ولكن بينما كان العقاب وحشيا على الجرائم الصغرى كانت جرائم القتل موضع استهتار واستخفاف . ويصور تلك الحال اقتباس من العدد التاسع والأربعين من صحيفة ستراسبورج تزايتونج المعاصر (1609) . إذ كتب مراسلها في براج يقول « والطرقات الضيقة في الليل غير آمنة ، حيث يقطع المجرمون الطريق على الناس ويسلبونهم وينهبونهم ، ويقتلون بعضهم ، ويلقون بجثثهم في نهر « مولداو » الذي انتشلت منه أمس سبع جثث على مسافة من الجسور » . و لم يكن الانحلال الأخلاقي والقسوة والاستهانة بالأرواح البشرية من نتائج الحرب ، بل كانت على الأحرى سببا من أسبابها ، فقد اتسمت الحرب منذ بدايتها بفظائع لا توصف[2] .

وفي القرن السابع عشر ازدادت الأخلاق تدهورا في أوروبا ؛ ففي فرنسا لم تكن الآداب الصارمة أبرز سمات الحضارة الفرنسية في أية طبقة من طبقات المجتمع . وفي مذكرات ذلك العهد ومسرحياته (وبخاصة مسرحيات موليير) وفي التراث الضخم من أدب النقد الساخر وفي عظات أئمة الوعاظ الذين ازدهروا في تلك الفترة ، الدليل على أن فرنسا لم تكن قط في القرن السابع عشر خيرا منها – إن لم تكن شرا – منها في أكثر عصور تاريخها[3] .

ويضيف « روجر سولتو » قائلا « على أن الشيء الجديد بالملاحظة هو هذه

(1) تاريخ العالم ، المجلد السادس ، صفحة 321 .
(2) تاريخ العالم ، المرحع السابق ، صفحة 687
(3) تاريخ العالم ، المرجع السابق ، صفحة 687 .

الجلافة العجيبة التي نراها في عصر مزهو بآدابه ؛ فيبدو أن سيدات البلاط كن يتلفظن بألفاظ ، بل ويأتين بأفعال - ما لا يطاق في عنبر المسجونين ، وكان أبسط قواعد اللياقة في نظرنا يمتهن في كل حركة وسكنة . ولم يكن القوم يعرفون المعدات الصحية مما جعل قصر فرساي نفسه يفوح منه النتن كأنه مصرف للقاذورات . ولقد كان العصر على هذه الأبهة عصرا خشنا لا تتوافر فيه الراحة . كانت البيوت سيئة التدفئة والإضاءة والتهوية ، وتكرر وفود الأوبئة ، وكان الجدري أشدها فتكا بالناس . فلمعة الأناقة والتهذيب التي تبدو على جبين فرنسا في عهد لويس الرابع عشر لم تكن إلا قناعا شفافا تطالعك هذه الحقيقة من خلفه ، وهي أن فرنسا لم تكن يومئذ بعيدة العهد جدا عن همجية العصور الوسطى .

ويقول « أنتوني لودوفيتشي »[1] : ومع ما تميز به عصر الملك الشمس (لويس الرابع عشر) من الأمجاد الزاخرة والمآثر الجليلة فإن عواقبه البعيدة نتمثلها فيما حدث من الكوارث المفجعة والفظائع المنكرة في عهد الإرهاب في سنة 1793 . وليس لنا أن ندهش من هذا التداعي بين نفوذ النساء والانحلال الاجتماعي . وقد نعجز عن استجلاء التوافق بين هاتين الظاهرتين في تاريخ فرنسا في عهد لويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر . ولكنه لا يلبث أن يتضح لنا في أجلى بيان إذا ما استقصينا تلك الخصائص التي اتسمت بها الثورة الفرنسية في سنة 1789 والتي يتيسر لنا أن نرجعها إلى مساوئ القرن السابع عشر ومظالمه .

ويستطرد « لودوفيتشي » قائلا[2] « ويذهب فولتير إلى أن غالبية نساء المجتمع الفرنسي المتزوجات في هذا العصر كان يتاح لهن أن يخلعن العذار ويتخذن من يهوين من العشاق . وكان الأزواج لا يعترضون على تصرفات زوجاتهم المبتذلة والمنافية للفضيلة . وممن أغضوا عن خيانة زوجاتهم الفيكونت « دي تورين » والأخوان « فاندوم » والمارشال لوكسمبور ، والمركيز دي فارد والكونت دي جيش . والأمثلة

---

(1) المرجع السابق ، المجلد السابع ، صفحة 91 .

(2) المرجع السابق ، صفحة 96 .

الدالة على هذا التديث لا تحصى كثرة ، وبما أن القرن السابع عشر في فرنسا غلب عليه التخنث والانقياد للنساء ، فإنه يعد على ضوء ما تلاه وطبقا للرأي الذي نذهب إليه عصر تدهور وانحلال . ولم يكن القرن الثامن عشر إلا صورة مشوهة معادة للقرن الذي سبقه فقد آلت مقاليد السياسة إلى أيدي النساء اللاتي تحكمن فيها الواحدة بعد الأخرى .

ويصف « ديكنسون » العلاقات العائلية في فرنسا في القرن الثامن عشر فيقول [1] :

« وقد أصبحت العلاقات العائلية في هذا الجو الذي ملئ زيفا وتكلفا مماثلة للوظائف العامة في فسادها وانحلالها . فإلى جانب القاضي الذي تخلف عن مهام وظيفته ، وبديله غير الرسمي الذي يقوم بعمله نجد الزوج المتغيب الذي ترك زوجته ، وبديله العشيق الذي أجيز له أن يحل محله ، ويلاحظ أن ترخص المجتمع في هذه العلاقات جميعها ، فيما عدا المخادعة المكشوفة ، إنما هو النتيجة الطبيعية « لزواج المصلحة » الذي يتزوج فيه الرجال بالنساء دون مراعاة لميولهم الطبيعية ولكن لبواعث متعلقة بمكانة الأسرة الاجتماعية واعتبارات الثروة العائلية . فأي عجب في أن يسعى كل من الفريقين في البحث عن رفيق آخر ، أكثر ملاءمة وألطف عشرة ؟ فصار من المحتم عليه أن يجيز للفريق الآخر أن يصنع مثل صنيعه . بيد أن هذه العلاقات غير الرسمية في مجتمع غلب عليه الفساد والانحلال قد تسفر عن فضائل تماثل فضائل الحياة العائلية .

ولم يكن الفكر يقل انحلالا عن الأخلاق ، بل إنه كان من العوامل الهامة التي أدت إلى تدهورها . فهو وإن كان قد اشتمل على آراء ترفض الظلم وتندد بالاستغلال وفساد العدالة وتدعو إلى التقدم الاجتماعي مثلما كانت تعلن جماعة الموسوعيين وبعض المفكرين أمثال فولتير وروسو ، فإنه كان يجمع إلى هذه الآراء آراء أخرى ذات تأثير مفسد

---

(1) تاريخ العالم ، المجلد السابع ، صفحة 211 .

للأخلاق على وجه العموم . فـ (جان جاك روسو) يوافق على إنكار المدين لدينه ، وعلى الشذوذ الجنسي ، فضلا عن الزنا وغيره من الرذائل . وكان يقول إن ذلك السلوك ما هو إلا مظهر من مظاهر الفضيلة الطبيعية[1] . أما فولتير فقد كان إباحيا يمارس زنا المحارم مع ابنة أخته .

وفي إنجلترا تعرض لنا صورة مماثلة . فحين نذكر هذا العصر ونزعته القوية نحو التخنث فسوف لا تعترينا الدهشة إذا صار الخضوع للنساء والانقياد لهن السمة الغالبة على العصر الذي عادت فيه الملكية إلى إنجلترا .

ويستطرد « لودوفيتشي » قائلا[2] : « وعلى ذلك فإنه يتيسر لنا في صراحة وصدق أن نعد النصف الثاني من القرن السابع عشر عصر تدهور وانحلال في إنجلترا . ولنا أن نتصور الأخطار الجسيمة التي تصيب أمة ما ، حين ينغمس قادتها في اجتراح المخازي والآثام ويرتكسون في حمأة التهتك والفجور ، حتى ينتهي بهم خور العزم وسقوط الهمة إلى بذل طاعتهم للنساء ، ومواتاة أهوائهن ، لا يخالفون لهن أمرا ولا نهيا » .

أما ألمانيا ، في القرن الثامن عشر ، فإن ما قاله عنها « وليم هاربت دوسن »[3] لا يختلف عما قيل عن إنجلترا وفرنسا ، ومما قاله : « وتدل القرائن كلها على أن الثقافة السطحية السائدة انطوت على كثير من الإباحية ؛ فانحلت الأخلاق في الدوائر العليا ونزلت إلى الحضيض وكانت الخمر والنساء واللهو سببا في كثير من الاختلاف والبؤس بين العائلات ، وفقدت رابطة الزواج خطرها ، وتعددت حوادث الطلاق ، وتمت خطواته في سهولة وسرعة . انتهت أيام التقوى القديمة وزال الوقار والاحتشام بين الناس ، واعتبرت السخرية الجارحة بالأشياء المقدسة نوعا من الفكاهة » .

---

(1) ويلز ، المرجع السابق ، المجلد الرابع ، صفحة 1187 .

(2) تاريخ العالم ، المجلد السابع ، صفحة 98 .

(3) المرجع السابق ، صفحة 54 .

وفي القرن التاسع عشر ، وبعد أن قامت الثورة الفرنسية ازدادت الأخلاق تدهورا ويصف « هـ . د . ديكنسون » الوضع في فرنسا في دراسته التي عنوانها « أخلاقيات الثورة واقتصادياتها »[1] فيقول : « وحتى يؤكد النساء خروجهن على التقاليد التي كانت سائدة في العهد البائد هجرن المشدات والتنانير ، وبدون في ثياب ملتصقة بالجلد هي بالأغماد أشبه ، لا تكاد تغطي صدورهن ، وأكمامها متناهية في القصر ، يتبارى النساء في ارتدائها لأظهار مفاتنهن . ومن المفاكهات الأثيرة التي كان يتندر بها الناس تقدير ما تزنه ملابس المرأة من حذاء ورداء فلا تبلغ لخفتها سوى أوقيات ، فالسيدة التي أوفت على الغاية في التبرج والأناقة كانت ترتدي ثوبا وحيدا شبه شفاف تحته سروال بلون البشرة ، ولا غرو فهذا العصر هو الذي قيل فيه إن حكم « عديمات القمصان » قد حل محل حكم « عديمي السراويل » ذلك أن النساء كن يلعبن دورا هاما في السياسة على الرغم من حرمانهن من الحقوق السياسية ، فقد خضع كل الساسة في هذا العصر خضوعا تاما لزوجاتهم أو خليلاتهم . وكان لـ (بارا) عدد كبير من الحظايا ولكنهن كن لمحض متعته ، كما كان يتخذ منهن أداة لتنفيذ أغراضه بأن يهبهن كمكافأة لأعوانه الخلعاء . وكانت « جوزفين بوهارنيه » زوجة بونابرت (فيما بعد) هبة من هذه الهبات الدالة على تعطف السلطان وفيض نعمه . وصار الطلاق الذي سبق أن أباحته الجمعية الوطنية غاية في اليسر والسهولة في ذلك الوقت . وإن المرء ليصاب بالدوار لو حاول أن يتتبع تبدل الرفقاء والرفيقات بين الشخصيات البارزة في ذلك العصر . وإذا كان الفارق بين الزوجة والخليلة قد أصبح منعدما من الوجهة العملية بين أفراد الطبقة الحاكمة الغنية . لقد انعدم أيضا بين الفتيات من ذوات المنزلة الاجتماعية الوطيدة وبين « بنات الهوى » وكانت المسارح والمطاعم تهيىء غرفا للخلوة يختلف إليها الرجال والنساء لقضاء لباناتهم دون خجل أو حياء مما يكشف عن التحلل العام للأخلاق — أو لعلنا نقارب الصواب إذا قلنا إن الناس صاروا لا يستحون من أفعالهم وإنهم أخذوا يصنعون جهارا ما كانوا

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 275 .

يتسترون عليه من قبل أو ما قدر لهم أن يصنعوه مرة أخرى تحت ستار من مواصفات التحشم والاعتدال .

وفي الحياة العامة كف الفساد عن إخفاء وجهه وكان الموظفون من جميع الدرجات يتناولون الرشا جهارا . وقد نشط السعي للتكسب وجمع المال منذ إلغاء قانون « الحد الأعلى » وإحلال نظام التعاقد والمقاولات محل مصادرة المواد التموينية مما جرى سابقا بسبب ظروف الحرب . بيد أن الأعمال المالية والتجارية امتزجت بالسياسة امتزاجا وثيقا حتى ليمكن القول بأنه لم تقم في فرنسا حكومة أكثر فسادا من حكومة الإدارة . وكان المضاربون والمتعهدون ومعهم رجال الحكم يتباهى كل واحد منهم بثرائه المحدث ، ذلك بإنفاق المال عن سعة في دور اللهو والمسارح وعلى موائد القمار وتحت أقدام النساء من الزوجات والخليلات » .

وهذا الذي قاله « ديكنسون » لا يختلف في شيء عما قاله رفاعة الطهطاوي في كتابه تخليص الإبريز في تلخيص باريز بشأن العلاقة بين الرجال والنساء في فرنسا التي عاش فيها أوائل القرن التاسع عشر : « ومن خصالهم الرديئة قلة عفاف كثير من نسائهم كما تقدم وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الإسلام من الغيرة . ومما قاله أهل المجون الفرنساوية : لا تغتر بإباء امرأة إذا سألتها قضاء الوطر ولا تستدل بذلك على عفافها ولكن على كثرة تجربتها » . ويقول : « وبالجملة ما كل بارقة تجود بمائها . ففي نساء الفرنساوية ذوات العرض ومنهن من هن بضد ذلك ، وهو الأغلب لاستيلاء فن العشق في فرنسا على قلوب غالب الناس ذكورا وإناثا وعشقهم معلل لأنهم لا يصدقون بأنه يكون لغير ذلك » .

وقبل أن تلغي فرنسا النصوص التي كانت تعاقب على الزنا الذي يرتكبه أحد الزوجين كانت القضايا التي تدور حول هذا الموضوع كثيرة للغاية ، وكانت تتضاعف من عام إلى آخر على الرغم مما هو معروف من عدم غيرة الأزواج الفرنسيين . ولكن الدافع إلى إقامة دعاوي الزنا كان لأسباب أخرى غير الغيرة على العرض ، كالرغبة في الحصول على الطلاق عندما كان الطلاق صعبا ، أو الرغبة في الكيد للزوجة الزانية ، أو الزوج الزاني . ويذكر « جوستاف لوبون » أنه في

سنة 1880[1] أصبح عدد قضايا الخيانة الزوجية تسعة أمثال ما كان عليه سنة 1826 . الأمر الذي أرجعه الكاتب إلى سوء الأوضاع التي تعيش فيها المرأة في المجتمعات الأوروبية والتي انتهى من المقارنة بينها وبين أوضاع المرأة المسلمة إلى القول : بأن حقوق الزوجة المسلمة أفضل كثيرا من حقوق الزوجة الأوروبية لأنها تتمتع بأموالها الخاصة فضلا عن مهرها وعن أنه لا يطلب منها أن تشترك في الإنفاق على أمور المنزل .. وأنها تعامل باحترام عظيم[2] . وكان « لوبون » قد قال هذا الكلام في كتابه الذي أصدره سنة 1884 . وقبل ذلك بحوالي أربعين عاما قال فرنسي آخر كلاما مماثلا . ذلك هو « جيرار دي نيرفال » الرحالة الذي زار مصر وكتب عنها عام 1846 الذي قال « أليس مما يبعث على الأمل في هذا البلد الذي نعتقد أن النساء فيه سجينات ، أن تقدم لنا الأسواق والشوارع والحدائق النساء بالآلاف سائرات وحدهن أو في صحبة طفل ؟ الحقيقة أن الأوروبيات لا يتمتعن بمثل هذه الحرية ، صحيح أن النساء المرموقات يخرجن ممتطيات الحمير ، ولكن مثيلاتهن من نسائنا لا يخرجن في الغالب إلا في العربات . أما الحجاب فلعله لا يمثل الحاجز القاسي الذي نتصوره » . ولم يكن غريبا أن يتهكم الدكتور أنور عبد الملك على الكاتب الفرنسي لأنه نفى أن يكون الحجاب حاجزا نفسيا كما يتصور الأوروبيون ويصفه بأنه مخدوع حيث يقول : « ومع ذلك فإن جيرار دي نيرفال الرحالة المولع بكل غريب أجنبي ينخدع بالرونق الخارجي »[3] فهو مثله مثل لويس عوض ومن قبله سلامة موسى يسوءهم أن يقول أحد كلمة حق في شأن من شئون المسلمين ، فيتهمونه بأنه مخدوع أو بضآلة معلوماته أو بغير ذلك . أما لو أنه طعن وهاجم ونقد بقسوة وتحامل فإنه يكون مثلهم واعيا مطلعا دقيقا وموضوعيا !!

تلك هي الفوائد الجمة التي حال « سور الترك العظيم » بيننا وبينها وحرمنا ،

---

(1) حضارة العرب ، صفحة 409 .

(2) المرجع السابق ، صفحة 411 .

(3) نهضة مصر ، صفحة 330 .

جزاه الله من ثمارها اليانعة . ومن قبلها بينا « الحسنات » العظيمة التي كانت أيدي الغرب المتحضر قد امتدت إلينا بها فمنع الأتراك والمماليك وصولها إلينا !! بقي أن نذكر الناس بمآثر الغرب وأياديه (البيضاء) على الشعوب التي لم يقيض الله لها أتراكا ومماليك يحولون بينها وبين الاستمتاع بما في الحضارة الأوروبية من مزايا وفوائد مثل شعوب الأمريكتين وأفريقيا وأستراليا ، وغيرها من الشعوب التي ابتليت بالغرب وبحضارته .

بعد أن اكتشف « كولومبس » أمريكا في نهاية القرن الخامس عشر (1492) بدأت أوروبا وعلى الفور ، تمد يد العون إلى السكان الأصليين من الهنود الحمر ، فقامت مشكورة ، غير مأجورة ، بإبادتهم بلا شفقة أو رحمة فقضت جيوشها الهمجية المتوحشة على حضارتين كبيرتين هما حضارة « الأزتك » وحضارة « بيرو » . فدمر القائد المسيحي المتحضر « كورتيز » السفاح الحضارة الأزتكية ، بينما دمر القائد الآخر المدعو « بيزارو » حضارة بيرو ويقول « هرتشو » « وليس من شك في أن كشف أفريقية وأمريكا في نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر زاد من أعمال العنف واستباحة القانون . ففيما وراء البلاد المتحضرة ، وهو ما أطلق عليه الإنجليز فيما بعد « ما وراء شرق السويس » لم يكن للوصايا المسيحية العشر بين المستكشفين وجود مما جعل بحارة السفن يمعنون لا في المسكرات فحسب ، بل في ارتكاب كل أرجاس الشيطان وهذا هو الذي حدا بأحد المؤرخين الألمان أن يتساءل عما إذا كان اكتشاف العالم الجديد على يد كولومبس يعد في جملته أكبر بلية حلت بالجنس البشري . ومع أن القول بأن البلية قد يأتي منها الخير في آخر الأمر قول لا ينكره إلا المتشائم . فإننا لا ننكر أن النتائج المباشرة لهذا الاكتشاف كانت وبالا على سكان هذه القارة وعلى القارة نفسها . وبيان ذلك أن سكان أمريكا وحضاراتهم العجيبة الطريفة كان مقضيا عليها بالفناء الأليم ؛ إذ أطبق الفاتحون الأوروبيون على أهلها ، ثم سلبهم المغيرون الأوروبيون كل ما كانوا يمتلكون ، وحملوا إليهم الأمراض الأوروبية فأفنتهم الفناء العظيم . ومن ناحية أخرى نشر أولئك الأوروبيون بسبب ما اجتمع في أيديهم من سلطة غير مسئولة ، وضمائر لا رادع لها ، نوعا من الانحطاط الشيطاني

الذي هبط بالمستوى الأخلاقي للعالم المسيحي الغربي إلى الدرك الأسفل »[1] .

كذلك شهد القرن السادس عشر وما تلاه نوعا جديدا من أعمال الغرب اللاإنسانية والمنافية للمدنية والحضارة ، التي يزعم لويس عوض أنه فاتنا الاستفادة منها بسبب الأتراك ؛ فقد بدأ في هذا القرن استيراد نوع جديد من السلع من أفريقية الغربية ، هو البشر . حيث انتشرت العصابات التي ألفها الأوروبيون ذوو القلوب الرحيمة لخطف الزنوج وشحنهم إلى أمريكا لتسخيرهم في أشق الأعمال بوحشية ليس لها نظير . فمات منهم أعداد عظيمة سواء أثناء صيدهم ، كما تصاد الحيوانات ، أو أثناء وجودهم على السفن التي كانت تحملهم إلى أمريكا ، فكانت جثثهم تلقى في المحيط طعاما رخيصا للأسماك ، أو بعد وصولهم حيث كانوا يعاملون بأسوأ مما كانت تعامل الحيوانات ، بل لعلنا قد أغضبنا الغربيين بذكرنا للحيوانات التي يكنون لها معزة خاصة ويفضلونها على الإنسان غير الغربي .

وإذا كان الغرب وأعوانه من العرب يستغلون التقدم الصناعي والتقني للتدليل على صحة اتهاماتهم للأتراك بالتسبب في تخلف العالم العربي ، فإنه فضلا عن أن الانقلاب الصناعي بدأ في أوروبا في القرن الثامن عشر وليس قبل ذلك ، فإن الدولة العثمانية لم تحظر على الولايات العربية التابعة لها استخدام الآلات الجديدة التي تم إنتاجها في أوروبا . والدليل على ذلك شراء مصر لخط السكة الحديدية ، وإنشاء محمد علي لمصانع السلاح والذخيرة ، وغير ذلك من المستحدثات . بل إن مصر والدولة العثمانية ذاتها لم تتأخر كثيرا في الأخذ بالأساليب الصناعية الحديثة .

وإذا كان الألمان الذين تعلموا الذلة في حكم نابليون لم يلبثوا أن أظهروا للوقت من الحماسة والدأب في البحث العلمي ما جعلهم يدركون الإنجليز والفرنسيين ، وكان ذلك في منتصف القرن التاسع عشر ، فإن مصر وغيرها من البلاد الإسلامية كان بمقدورها أن تكون مثل الألمان لولا ما فرضه عليها الغرب الصليبي من حروب

---

(1) تاريخ العالم ، المجلد السادس ، صفحة 174 .

وما حاكه لها من مؤامرات انتهت بضرب محمد علي والقضاء على النهضة الصناعية ، وتفتيت دولة الخلافة والاستيلاء على معظمها فانتهى الحال بالأقاليم الإسلامية بالوقوع في براثن الاستعمار الأوروبي البغيض ، واحتل الإنجليز مصر وفرضوا عليها نظاما في التعليم ليس له من هدف إلا إمداد مصالح الحكومة بالموظفين المحدودي التفكير . فالتخلف لم يكن من صنع الأتراك ، أو أنهم فرضوه على العرب ، بل هو من صنع الإنجليز ومن قبلهم الفرنسيين الذين حرصوا أشد الحرص ، أثناء وجودهم على رأس المصانع التي أنشأها محمد علي ، على عدم تمكين المصريين من إظهار مواهبهم والتعبير عما لديهم من قدرات إبداعية .

تلك هي الأوضاع التي كانت تسود أوروبا في القرون الثلاثة التي أشار إليها الدكتور لويس عوض وزعم أن ما أسماه « سور الترك العظيم » حال دون استفادة العرب منها عن طريق الاتصال المباشر . ولقد رأينا كيف أن هذا السور المزعوم صد عن العالم العربي كثيرا من الأضرار والشرور والآثام التي كانت ستصيب العرب نتيجة لما أسماه « الاتصال المباشر » .

ومع ذلك فقد حدث هذا الاتصال أخيراً بمجيء الحملة الفرنسية . وسوف نرى ما فعلته بالمصرين رجالا ونساء وأطفالا ، ابتداء بالقتل والاغتصاب وانتهاء بإحراق القرى والأحياء والاستيلاء على الأموال ، وتهديد النساء ، فضلا عن الاعتداء على المقدسات وانتهاك حرمة المساجد . ولكن البعض ممن فقدوا الحياء يجرءون على القول إن الثورة الفرنسية وحملة بونابرت أحدثتا ثورة فكرية وسياسية واجتماعية هزت عقل مصر ووجدانها ونظام الحكم فيها وتكوينها الاجتماعي وعامة قيمها التقليدية ويعتبرون بعث ما يسمى بالقومية المصرية من أهم مظاهر هذه الثورة الفكرية . وفاتهم كعادتهم أن يحدثونا عن المظهر الاجتماعي للثورة التي أحدثتها الحملة والذي يتمثل في الفساد الأخلاقي الذي نشرته تلك الحملة في ربوع مصر ، حيث أخذ جنودها يعتدون على النساء ويخطفونهن إلى معسكراتهم ليستمتعوا بهن ثم يطردوهن ، وخشية قتل ذويهن لهن ، كن يلذن بالقوادين من يهود وأرمن وغيرهم ممن كانوا يعملون في خدمة جيوش الغزو ورسل الحضارة الأوروبية . ونتيجة لذلك انتشرت الأمراض

التناسلية ، من زهري وسيلان ، وهي الأمراض التي كانت متفشية في أوروبا كلها في ذلك الوقت والتي لم يكن للمصريين عهد بها . ولقد شاءت عناية الله أن تستشري الأمراض التناسلية في جنود الحملة إلى الحد الذي أنذر بالخطر ، وعندئذ فقد اضطر قادة الحملة إلى الإيعاز للديوان العمومي بإصدار القرار الآتي[1] :

من محفل الديوان العمومي إلى جميع سكان مصر وبولاق ومصر القديمة ، إننا قد تأملنا وميزنا أن الواسطة الأقرب والأيمن لتلطيف أو لمنع الخطر الضروري وهو تشويش الطاعون عدم المخالطة مع النساء المشهورات لأنهن الواسطة الأولى للتشويش المذكور ؛ فلأجل ذلك حتمنا ورتبنا ومنعنا لمدة ثلاثين يوما من تاريخه أعلاه لجميع الناس إن كان فرنساويا أو مسلما أو روميا أو نصرانيا أو يهوديا من أي ملة كان كل من أدخل إلى مصر أو بولاق أو مصر القديمة من النساء المشهورات إن كان في بيوت العسكر أو كل من كان داخل المدينة فيكون قصاصه بالموت كذلك من قبل النساء والبنات المشهورات بالعسكر إن دخلن من أنفسهن أيضا يقاصصن بالموت .

كذلك صرحت الحملة بفتح الخمارات في كل الأسواق بالمدينة وشجعت على تعاطي الخمور جهارا ، بل وحولت بعض الجوامع إلى خمارات أيضا وذلك،طبعا ، ضمن جهودها لتمدين الشعب والقضاء على قيمه التقليدية على حد قول الدكتور لويس عوض . ويقول نقولا الترك — 1763 - 1828 إن هذه الأمور كانت تجعل المسلمين يتنفسون الصعداء ويطلبون الموت في كل ساعة .

وعلى الرغم من أن إفساد المجتمعات الإسلامية ، على هذا الوجه ، يعد من بين الأهداف التي يسعى الغرب وأعوانه إلى بلوغها ، غير أنه ليس أهم هذه الأهداف ، وإنما يأتي على رأسها القضاء على الإسلام ذاته ، أو على الأقل عزله عن حركة الحياة وتجريده من فاعليته بحيث يصبح كالمسيحية سواء بسواء . وهو ما لا

---

(1) عبد الرحمن الجبرتي ، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس ، الجزء الأول ، صفحة 192 .

يجد بعضهم حرجا في الإشارة إليه ، تارة بالتلميح ، وأخرى بالتصريح ، حيث يزعمون أن أهم العوامل التي كانت وراء النهضة الأوروبية « الموقف من الدين » ، وهو موقف مضاد للدين على طول الخط ، يريدون فرضه علينا لكي يكون القضاء على الإسلام بأيدينا . يقول « غالي شكري » « إنما المهم أن علمانية عصر النهضة الأوروبية التي تطورت من فصل الدين عن الدولة إلى رفض الغيبيات هي العمود الفقري للتقدم الذي امتد إلى عصر التنوير ، العصر الموسوعي في تاريخ المعرفة »[1] ويقول « ويلز » عن الموسوعيين الذين جعل لهم غالي شكري عصرا أسماه « العصر الموسوعي » « ويلوح أن غلطتهم الرئيسية تنحصر في مناصبتهم الأديان عداوة عمياء »[2] .

وهكذا يكشف هؤلاء الناس عن جهل فاضح ، لا بالتاريخ وحسب ، بل وبالتفسير والتحليل وذلك لسببين ، الأول : أن الحركة الفكرية الأوروبية لم تظهر إلا في القرن الثامن عشر وليس قبل ذلك ، كما يحاولون الإيحاء لقرائهم حين يزعمون أن الأتراك تسببوا في تخلف المصريين طيلة ثلاثة قرون (لويس عوض) وعشرة قرون (غالي شكري) . فما الذي كان المصريون سيأخذونه عن أوروبا قبل القرن الثامن عشر ، وقد سبق أن بينا ما كانت عليه الأحوال فيها في القرون 16 و 17 و 18 . أما القرون السابقة على القرن السادس عشر ، فقد كانت أشد تخلفا وظلمة وهمجية ، ولنرجع إلى التاريخ .

أما السبب الثاني فلأن المعروف أن الفكر بالذات ليس مما ينقل بحالته من مجتمع إلى آخر ، لأنه نتاج ظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية وأوضاع ثقافية ، وتراث حضاري ، وكلها مما تختلف فيه المجتمعات . وإذا كان الأوروبيون قد أنتجوا ، آخر الأمر ، فكرا يناصب الدين العداء ويشن عليه حملات شعواء ، فإن العوامل والظروف والأسباب التي تفاعلت فيما بينها وأدت إلى هذا الموقف لا يشترط أن تكون

---

(1) النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث ، صفحة 129 .

(2) معالم تاريخ الإنسانية ، المجلد الرابع ، صفحة 1187 .

هي ذاتها في أي مجتمع آخر ، وإنما هي حتما مختلفة ، إن لم يكن في النوع ، ففي الدرجة أو فيهما معا . وهذا هو الوضع في المجتمعات الإسلامية . فالإسلام ليس كالمسيحية ، وهو ما يعترف به هؤلاء الناس ولا ينكرونه !! فلماذا ، إذن ، يريدون منا أن نتبنى نفس الموقف الذي اتخذه الفكر الغربي من المسيحية ؟! هل لأنه ، كما يزعمون ، حطم القيود التي كانت المسيحية تكبل بها المجتمعات الأوروبية فتحول دون تقدمها ؟ وأين هي هذه القيود التي يكبل بها الإسلام المجتمعات الإسلامية فتحول دون تقدمها ؟ هل منعها من أن تفكر وأن تبدع وأن تبتكر ؟ إنهم سوف يقولون كلاما عن المرأة وآخر عن الغيبيات وثالثا عن الاستبداد ونظام الحكم ، وكلها أكاذيب وافتراءات لا تصمد طويلا أمام النقد . ولكن المهم فيما قالوه عن حيلولة الأتراك دون اتصالنا بالفكر الأوروبي الإلحادي وهو الكيفية التي يتصورون بها حدوث هذا الاتصال وكيفية نقل هذا الفكر إلى مصر وإلى العرب هل كانوا يريدون منهم أن يذهبوا إلى فرنسا ، كما ذهبوا هم ، للاطلاع على هذا الفكر ونقله إلى مصر ، كما فعلوا هم أيضا ، دون إمعان نظر وبطريقة ببغائية . أم كانوا يريدون أن يفتحوا أبواب مصر والبلاد العربية على مصاريعها لكي يدخل منها الفكر الأوروبي وأصحابه ودعاته لكي ينشروه بين الناس وينتهي الأمر بضرب الإسلام ، أو عزله ، ويلحق المصريون بركب الحضارة الأوروبية العظيمة[1] ؟!

لقد حدث الأمران معا ، بعثنا أبناءنا إلى أوروبا في عهد محمد علي ، وفتحنا أبواب مصر على مصاريعها أمام الغربيين ، وذهبت فرنسا بحملتها وجاءت إنجلترا بجيوشها واستعمارها الذي دام أكثر من سبعين عاما ، وحدث الاتصال المباشر كأشد ما يكون فما الذي جنيناه وجناه العرب من ذلك الاتصال أو بالأصح الاحتلال ؟ فلنرجع إلى ما سجله التاريخ عن الاحتلال الفرنسي للمغرب والجزائر وتونس وسوريا ولبنان ، وما سجله عن الاحتلال الإنجليزي لمصر والسودان وفلسطين والخليج العربي والعراق وليبيا ، وما فعله الإيطاليون في ليبيا والصومال . ولننظر إلى ما صرنا إليه بعد أن

(1) ا . ل شاتليه ، الغارة على العالم الإسلامي ، صفحة 16 وما يليها .

انقضى على اتصالنا المباشر بالغرب قرابة القرنين. ويكفي أننا ونحن أكثر من عشرين دولة يزيد سكانها على مائتي مليون إنسان نقف أذلاء مسلوبي الإرادة أمام ثلاثة ملايين من اليهود يركلوننا في كل لحظة بأحذيتهم وتدوي أكفهم على أقفيتنا دون أن نجرؤ على رد الاعتداء . وكل ما يمكننا أن نفعله أن نشكو في ذلة للغرب ونتوسل إليه أن يتدخل من أجل جعل اليهود يكفون عن الاعتداء ، أو على الأقل أن يكونوا أقل عنفا .

ومع ذلك فإننا لا ننفي أن الدولة العثمانية كانت في المرحلة الأخيرة من عمرها تعاني من كثير من المشكلات [1] ، أغلبها ناشئ عن الطبيعة المميزة لهذه الدولة التي شاء لها حظها أن تقوم على خط المواجهة بين العالمين الإسلامي والمسيحي فكانت خط الدفاع الأول ضد هذا الأخير . وقد انعكس ذلك على حياتها ونظمها ، ونظرتها إلى الأمور وعلاقاتها ، سواء في الداخل أو في الخارج . ولم تكن الدولة العثمانية ، كما يزعم أعداؤها ، متخلفة أو جامدة أو همجية في كل مراحل حياتها ، وإنما كانت في معظم تلك المراحل متقدمة ، متطورة ، متحضرة بمقاييس زمانها ، ولكنها شأنها شأن كل دولة ، منذ أن عرف الإنسان نظام الدولة ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، جرى على الدولة العثمانية ما جرى على غيرها من نهوض وقوة وتألق ، ثم اضمحلال وضعف وانطفاء . والذين ينعون عليها ما أصابها في أواخر أيامها إما عن جهل مطبق بهذه الحقيقة ، وإما لأنهم أصحاب غرض يريدون أن يضللوا الناس ، وإلا فأين الدول القوية والعظيمة التي سبقت الدولة العثمانية ؟ أين دول الفراعنة والأشوريين والفرس والبابليين والإغريق والرومان ؟ ولماذا يريدون أن يكون الأتراك استثناء من هذه القاعدة ؟

---

(1) السيد أبو الحسن الندوي ، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية صفحة 37 .

الفصـــل الثـانـــي

الوهم والحقيقة في فكرة القومية المصرية

لم يكن لفكرة القومية المصرية أو لفكرة مصر المستقلة عن الخلافة الإسلامية وجود في ذهن أحد من أفراد الشعب في مصر قبل الحملة الفرنسية ، فلم يكن الناس ينظرون إلى حكامهم من المماليك ، أو لممثل الخليفة العثماني في القاهرة نظرتهم إلى غاصبين أو مستعمرين ، أو حتى غرباء ، وإنما كانوا يعتبرونهم حكامهم وأمراءهم وأولي الأمر فيهم ، ولا يكادون يلتفتون إلى اختلافهم عنهم في اللغة أو الأصل طالما أن الرابطة الأساسية وهي الدين قائمة . فالجميع حكاما ومحكومين يعبدون إلها واحدا ويخضعون لأحكام واحدة مصدرها شريعة الله .

كذلك فإن الثورات التي نشبت في بعض الأقاليم العربية والحركات الدينية التي قامت في البعض الآخر لم تكن تهدف إلى الاستقلال عن دولة الخلافة وإنما كان هدفها الأساسي هو الإصلاح في إطار الوحدة الإسلامية . وحتى في الأحوال التي كان يظهر فيها رجل أو أكثر يدعو إلى الاستقلال بإقليم أو أكثر عن دولة الخلافة ، فإنه لم يكن يفعل ذلك بدافع من إيمانه لفكرة القومية العربية أو الوحدة العربية ، وإنما كان الدافع الوحيد هو الطموح وحب السلطة وشهوة الحكم التي قد تصل إلى حد الطمع في تولي الخلافة دون القضاء عليها ، وفي جميع هذه الأحوال لم تكن الأمة الإسلامية على اختلاف شعوبها وتباين عصبياتها تفكر أو حتى تهتم بمن يئول إليه الحكم طالما أنه مسلم . فكانت الحروب تدور والمعارك تنشب بين الملوك والأمراء والسلاطين المسلمين ، فلا يحرك الناس ساكنا ولا يبدون معارضة لتبعيتهم لهذا الحاكم أو لذاك ، فسواء عندهم أن يكون الحاكم عربيا أو أن يكون كرديا ، فارسيا أو تركيا ، بربريا أو زنجيا ، فكلهم مسلمون . أما الاعتراض والتأفف والضيق والغضب

فالباعث عليها جميعا التسلط من هذا الحاكم أو الظلم والجور من ذاك دون تفكير في الانفصال أو الاستقلال ، ويقول صبحي وحيدة : « وحكم هذا المجتمع ينتقل بالتالي من اليد التي تضعف إلى اليد القوية التي تستطيع النهوض به دون أن يتنازع عليه غير متبادليه ودون أن يتعدى النزاع عليه القدر الذي يستتبعه فقده أو الوصول إليه من حرمان أو متعة شخصية مباشرة . وقد سلمه العرب في مصر إلى المغاربة والمغاربة إلى الأكراد والأكراد إلى المماليك والمماليك إلى بني عثمان دون أن يعنى به غير متداوليه من أهل المجتمع إلا في حدود ما يصيبهم من أذى إن مس مدنهم شيء من شر القتال ، ودون أن يؤثر فيهم تغير الحكم ، فيما عدا ما قد تقتضيه الظروف الاجتماعية أو الاقتصادية أو العسكرية العامة التي كانت تثير هذا التغير في بعض الأحوال » .

ولم يكن الشعب في مصر ينظر إلى حكامه الجدد سواء كانوا فاطميين أو أيوبيين أم مماليك أم عثمانيين نظرته إلى مستعمرين وإنما كان ينظر إليهم كما تنظر الشعوب الآن إلى حكامها الجدد وهم يحلون محل حكامها القدامى سواء بالوراثة كما في الحكومات الملكية أو بالانتخاب كما في الحكومات الرئاسية أو بالانقلاب كما في الحكومات الديكتاتورية . ولذلك كانوا يقارنون بين الحاكم الجديد والحاكم الذي سبقه لا من حيث قوميته أو من حيث عصبيته أو غير ذلك وإنما من حيث عدله أو ظلمه ، مثال ذلك ما كتبه ابن إياس حين دخل السلطان سليم الأول مصر : « وأما السلطان سليم فإنه لما طلع إلى القلعة احتجب عن الناس ولم يظهر لأحد ولم يجلس على الدكة بالحوش السلطاني جلوسا عاما ولم يفصل بين ظالم ومظلوم بل كان يحدث منه ومن وزرائه كل يوم مظلمة جديدة من قتل وأسر وأخذ أموال بغير حق . وكان هذا على غير قياس فإنه كان أشيع العدل الزائد عن أولاد ابن عثمان وهم في بلادهم قبل أن يدخل سليم شاه إلى مصر فلم يظهر لهذا الكلام نتيجة ولا مشى سليم شاه على قواعد السلاطين السالفة » .

وهكذا لا نجد فيما قاله ابن إياس شيئا يختلف عما قيل عن الحكام الذين زعموا أنهم أول من حكم مصر من أبنائها ، فهو لم يهتم بكون سليم تركيا وإنما اهتم بما فعله

هو ووزراؤه ولم يفعل كما فعل المنافقون في الخمسينيات من هذا القرن فيقول إن سليما قد خلص مصر من حكام أجانب عنها هم المماليك ، بل ولم يقل إنه حاكم أجنبي حل محل حكام أجانب ، ذلك لأن ابن إياس وكل المؤرخين المسلمين تقريبا لم يكونوا يتصفون بالجهل وقصر النظر اللذين يتصف بهما الغالبية العظمى من مؤرخي زماننا هذا الذين لا يعلمون أن الإسلام الذي ينتسبون إليه لا يهتم بالعنصر ولا بالعرق وإنما يهتم ويفاضل بين المسلمين بما هو أهم : بالتقوى التي لا يهتم بها هؤلاء المؤرخون إلا بقدر ما يعود عليهم الحديث عنها بالنفع المادي والمناصب والجاه .

وعلى الرغم من بعض مظاهر التفرقة في المعاملة الناشئة عن التحيز العرقي ، وبعض مظاهر الظلم والاستغلال التي لا يخلو منها مجتمع في الشرق أو في الغرب ، والتي نشأت لدينا كنتيجة لضعف الوعي بأحكام الدين ، فإن سكان مصر في كل ما قاموا به من ثورات أو انتفاضات لم يخطر لهم على بال ولا طرأ على فكرهم أن يجعلوا من بين مطالبهم طرد حكامهم أو الاستقلال ببلدهم عن الكيان الأكبر الذي يرتبطون به وهو الخلافة . وإنما كانوا يطالبون برفع الظلم وإقرار العدل والمساواة . ومن يقرأ ما كتبه الجبرتي عن الفترة السابقة على الغزو الفرنسي سوف يلاحظ ذلك . فعقب ثورة الناس في القاهرة ولجوئهم إلى رجال الأزهر البارزين ، عقد إبراهيم بك اجتماعا مع هؤلاء المشايخ حضره الشيخ السادات والشيخ الشرقاوي والشيخ البكري والشيخ الأمير الذين أنحوا باللائمة على الأمراء فيما حدث وطالبوهم بالكف عن الظلم وإقرار المساواة بين الناس . فما كان من هؤلاء إلا أن أعلنوا توبتهم ورجوعهم عما اتخذوه من قرارات ظالمة والتزامهم بما شرطه العلماء عليهم وأبرمت بين الطرفين اتفاقية صلح من بين شروطها :

1 — أن يرسلوا غلال الحرمين ويصرفوا غلال الشون وأموال الرزق .

2 — أن يرسلوا ميرة الحرمين والعوائد المقررة من قديم الزمان .

3 — أن يسيروا في الناس سيرة حسنة .

وهكذا نلاحظ كيف كان حرص الناس على الأمور التي تتعلق بالحرمين وتقديمهم لها على ما يخصهم ، وهو دليل على عمق شعورهم الديني وقوة إيمانهم الذي

هو مناط الرابطة التي تربطهم بحكامهم .

وحتى أثناء الصراع الذي نشب بين المماليك وبين ممثل السلطان العثماني في مصر لم يكن لفكرة القومية المصرية أو الاستقلال عن الخلافة العثمانية وجود ، فقد كان صراعا على السلطة وليس خلافا حول التبعية للخليفة ، وهي التبعية التي كانت تتمثل بالنسبة لمصر ظاهريا في أداء مبلغ من المال سنويا لخزانة الخلافة ، بينما هي في الحقيقة وحدة إسلامية هدفها حماية المسلمين مما يتهددهم من أخطار العدوان الصليبي وأخطار الانقسام والتفتت .

ولقد بينا كيف أنه منذ أن قامت للمسلمين دولة والصليبيون لا يكفون عن شن الهجمات عليها في محاولات مستميتة للقضاء على الإسلام وقهر المسلمين . وكانت الهجمات الصليبية تزداد شدة وضرواة في الأحوال التي تتعرض فيها وحدة المسلمين للضعف أو يعتريها الوهن نتيجة للتصارع على السلطة والرغبة في الاستئثار بالحكم . مما كان يصيب الناس بويلات كثيرة . لذلك كانوا يرون أن استقرار الأوضاع في ظل حاكم لديه ميل إلى الظلم أو جنوح إلى القسوة أفضل من التعرض للمصائب والويلات . ويقول « مورو بيرجر »[1] « لقد حملتهم تجربة عدم الاستقرار السياسي بتهديدها لوحدة المسلمين في وجه عدو يقظ وراء الحدود ، حملهم ذلك على الرضا بأي شكل من أشكال الحكم ، مؤثرين ذلك على الاضطراب الذي ينجم عن محاولة إسقاطه ، وكما يقول مثل سائر يؤكده الثقات على مر العصور : « سلطان جاهل خير من حرب أهلية أو فتنة » .

كذلك فإن الإسلام يأمر المسلمين بالاعتصام بحبل الله وعدم التفرق ، وهم أمة واحدة وكالجسد الواحد . وبالتالي لا يجب أن يختلفوا فيفشلوا وتذهب ريحهم ويقعوا فريسة لأعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر . وقد سبق أن بينا ما أداه الأتراك من خدمات جليلة ، وما قدموه من تضحيات ، في معاركهم المجيدة التي خاضوها

---

(1) العالم العربي اليوم ، صفحة 27 .

ضد الصليبيين ، وكيف أنهم حالوا دون استيلائهم على العالم العربي وقلبوا موازين القوى وجعلوا أوروبا تلتزم بالدفاع بعد أن كانت تبادر بالهجوم . فإذا كانت تركيا قد اعتراها الضعف شأنها في ذلك شأن كل الدول التي سبقتها ، فإنه يكون من الجحود ونكران الجميل ، بل والظلم أن نقلب لها ظهر المجن وأن نقف ضدها مع أعداء الدين المتربصين بها وبنا . كان هذا هو منطق الشعب بأسره قبل الحملة الفرنسية على مصر وبعدها . ولقد كانت الوحدة الإسلامية ، عندما كانت قائمة ، وحتى بعد أن أصبحت مجرد أمل يراود خيال المسلمين في كل مكان ، مصدر قلق للغرب الصليبي لأنها هي التي وقفت حجر عثرة حالت دون بلوغه لأهدافه في الاستيلاء على العالم الإسلامي ، بل إنها هي التي ردعته عندما حاول أن يغزو هذا العالم ثم طاردته إلى عقر داره ولقنته دروسا لم ينسها أبدا أهمها بلا جدال خطورة الوحدة الإسلامية عليه وأن بقاءها هو العقبة الكئود التي تمنعه من تحقيق مآربه ، ومن ثم فإنه يجب عليه أن يبذل أقصى ما في وسعه للقضاء عليها سواء قبل أن يكرر محاولته للاستيلاء على العالم الإسلامي أو في نفس الوقت الذي يقوم فيه بالاستيلاء على هذا العالم لأنه بهذا يقي نفسه بأسها ويحد من خطرها .

وعندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر لم يكن هدفها الوحيد احتلال مصر بالقوة العسكرية فقط ، وإلا لاقتصرت على الجنود والضباط والسلاح والذخيرة ، ولكنها جاءت ومن أهدافها أن يكون الاحتلال العسكري سبيلها إلى بلوغ غايات أكثر أهمية وأبعد خطرا وهي إحداث تغييرات عميقة وحادة في بنية المجتمع المصري وفي عقله بحيث تشمل تكوينه وفكره ونظمه وكل ضروب نشاطه ليصير في النهاية شعبا آخر لا تربطه بأمته الإسلامية صلة من نوع ما ، بل وجعله يعمل فيما بعد على تغيير هذه الأمة بحيث تصبح مثله بعيدة كل البعد عن الإسلام .

هكذا فكرت فرنسا وعلى هذا الأساس بدأت تتصرف منذ اللحظات الأولى لتكوين الحملة ، فقد كانت حكومة الثورة الفرنسية وبونابرت بخاصة ، تعتقد أنه من مسئوليتها بل ومن واجبها أن تغير وجه العالم وتحول مسار التاريخ ، فتصدر أفكار الثورة إلى المجتمعات الأوروبية وتوجه غيرها من المجتمعات وبخاصة المجتمع الإسلامي

نحو أوروبا .

وكانت قد سبقت الحملة على مصر دراسات استطلاعية وزيارات ميدانية أعقبتها بحوث سياسية واجتماعية للمجتمع المصري بل وللمجتمعات الإسلامية الأخرى ، في الشام والعراق وشمال أفريقيا بل وحتى في تركيا ذاتها ، فحضور العلماء من مختلف التخصصات مع الحملة لم يكن عفويا أو عملا تم بدون تخطيط أو حتى لمجرد إظهار الحملة في صورة الغزوة الإصلاحية ذات الأهداف الإنسانية ، وإنما كان الهدف هو إجراء مسح شامل للمجتمع المصري وللبيئة الطبيعية المصرية بقصد توفير أفضل السبل لإحداث التغيير المنشود .

ولذلك فإن النزال بين الفكر المصري القديم والفكر الأوروبي الحديث كان مدبرا له من قبل ومقصودا ، فلم تكن دعوة علماء الأزهر لزيارة المعامل الفرنسية وغيرها كالمكتبة تهدف إلى أن يظهر الفرنسيون للمصريين قوتهم ويستعرضوا تقدمهم العلمي فحسب ، بل كان الغرض منها أيضا خلق الإحساس بالنقص والتخلف لدى المصريين . ولكن الفرنسيين لم يفلحوا فيما قصدوا إليه ، فإن هذه الزيارة التي تكلم عنها الجبرتي بإسهاب ، وكل مظاهر القوة والتقدم التي حرص الفرنسيون على الظهور بها أمام المصريين لم تؤثر فيهم بالشكل الذي كان الفرنسيون يرغبون فيه . فعلى الرغم مما أظهره العلماء من الإعجاب بما رأوه في المعامل الفرنسية وما شاهدوه من نظام بديع يخضع له الجنود ، وتشكيلاتهم الرائعة ، غير أن الأمر لم يتجاوز هذه الحدود . فلم يبدر من أحد من العلماء ما يدل على الذهول الذي ينتقص من الكرامة ، أو الانبهار الذي ينم عن سذاجة أو خفة أو يشي بالضعف والمهانة . وفيما بعد ، لما قام الشيخ الشرقاوي بإلقاء شارة الثورة الفرنسية على الأرض أمام بونابرت غير عابئ بالعواقب ، كان ذلك بمثابة الإنذار الموجه إلى الفرنسيين بأن أهدافهم التي يرومون بلوغها لن تتحقق ، لا بالسرعة ، ولا بالسهولة التي كانوا قد توقعوها ، وكأن ما فعله الشرقاوي كان يعني أن شعب مصر المسلم يرفض أن يضع نفسه تحت العباءة المثلثة الألوان رمز الثورة الفرنسية أو رمز أوروبا الصليبية .

ولقد واجه بونابرت هذا الموقف برباطة جأش وفي صبر غير عادي لأنه لم

يشأ أن يضحي بالأهداف الخطيرة التي جاء من أجلها مقابل ردة فعل عاطفية لا تؤمن عواقبها يرد بها ما أصاب ، ليس كرامته الشخصية وهيبته كقائد وفاتح فحسب ، بل وكرامة الدولة والثورة التي يمثلها في هذه البلاد ، وكأني به قد فضل أن يؤجل الرد إلى اليوم الذي يسحق فيه الفكر الذي يمثله الشرقاوي وزملاؤه ، فعندئذ سوف يسعى الشيخ بنفسه إلى طلب الشارة وسيشرفه أن يضع الطيلسان على كتفيه .

ومع أن الحملة قد خرجت من مصر بسرعة ، إلا أن المعركة التي سبق أن دقت ناقوسها لم تنته بل استمرت وفي ضراوة أشد ، فما رفضه المسلمون أثناء الاحتلال الفرنسي ، لم يجرءوا على رفضه أثناء حكم محمد علي .

جاءت الحملة الفرنسية تحمل في جعبتها قضايا اصطنعتها لكي تثير بها مشكلات للخلافة الإسلامية وتبذر بها بذور الخلاف بين شعوبها . ولم يكن الأمر بالنسبة لها أمر تحديث الفكر وإنما كان هدفها هو تغريبه أي صبغه بالصبغة الغربية . فمع مجيء الحملة ظهرت ولأول مرة أفكار دخيلة راحوا يروجون لها ، مثل فكرة القومية التي كانت في أول أمرها عربية ثم تحولت إلى قومية مصرية تتكلم عن : « أصحاب مصر الحقيقيين » ، وتضع العرب أنفسهم فضلا عن المسلمين في قائمة واحدة مع المستعمرين وتناقش مفهوم الخلافة الإسلامية بطريقة ماكرة تهدف إلى التشكيك فيه وفي الأساس الذي قامت عليه الخلافة ولا تكتفي بتزييف التاريخ الإسلامي ومزجه بالأكاذيب والافتراءات بل وتعمل على بعث التاريخ المصري القديم وتحاول بعث اللغة المصرية القديمة وتحارب القيم الأصيلة للمسلمين في مصر . وغير ذلك من المشكلات التي افتعلتها هذه الحملة ثم تبناها من بعدها عملاؤها من فرنسيين وإيطاليين وغيرهم ممن عملوا في خدمة محمد علي ، ثم انضم إليهم فيما بعد طلاب البعثات الذين أوفدهم إلى أوروبا فعادوا وقد امتلأت رءوسهم بمثل هذه الأفكار وبغيرها فقاموا بدورهم بملء رءوس تلاميذهم بها حتى تمكنوا من تكوين أجيال كاملة من أنصار الفكر الغربي في مصر الذين يؤمنون بالأفكار الدخيلة التي ذكرناها ويجهلون كل شيء عن تاريخهم وتراث أمتهم .

ومن هنا جاءت محنة الفكر المصري الحديث ، وهي محنة قاسية لأن الغرب

بنشاطه المكثف سواء من جانبه أو من جانب أعوانه استطاع أن يجعل هذا الفكر يفرض نفسه على الناس ، أو على الأقل على الطبقة المسماة بطبقة المثقفين الذين غلب على ظنهم أنهم لا يكتسبون هذه الصفة إلا إذا تبنوا هذا الفكر وتحمسوا لتلك القضايا التي أصبحت لكثرة تكرارها تعد من قبيل المسلمات التي لا يناقشها أحد ولا يعترض عليها إنسان ، وأصبح شيئا عاديا للغاية أن نسمع هؤلاء المثقفين يرددون كلاما يدور حول « القومية المصرية » و « أول مصري يحكم مصر من آلاف السنين » ويتحمسون للتاريخ الفرعوني ويباهون به . ولا يهمنا في هذا الصدد ما يقوله محترفون السياسة والحكام ، فهؤلاء لا تثريب عليهم فيما يقولون لأنهم أبعد ما يكونون عن العلم والمعرفة . فاحتلال منصب أو تولي سلطة لا يعني أن صاحب المنصب أو ولي الأمر أصبح من الحكماء أو بلغ مكانة العلماء وخاصة بعد أن أصبح اعتلاء دست الحكم يتم بواسطة القوة القاهرة أو عن طريق خداع الناس وتزوير إرادتهم . ولم يقل أحد ولا نظنه سيقول إن من يحكم يملك في نفس الوقت ناصية العلم ويمسك بزمامه ، بل لعل الأمرين جد متناقضين في هذا الزمن الذي أصبحت فيه القوة دون العلم هي سند الحكام ومصدر استبدادهم ، ولذلك فإنه لا يجب أن نندهش لما ينزل بنا من مصائب وكوارث .

ويخطيء من يظن أن فكرة القومية المصرية التي روج لها بونابرت وأعوانه بين بعض المصريين ليست ذات صلة بعداء الغرب الصليبي التقليدي للإسلام وكراهيته للمسلمين ورغبته في القضاء عليهم ، بل هي وثيقة الصلة بهذين الأمرين . فهي تعد الحلقة الأخيرة في سلسلة الجهود التي بذلها الغرب الصليبي لبلوغ هدفه وهو القضاء على الإسلام ، وتعبر بشكل واضح عن التطور الذي طرأ على موقف الغرب من الإسلام والمسلمين ، فهو بعد أن أدرك استحالة القضاء عليهم بواسطة الحروب التي كبدته الكثير من الخسائر وخاصة في الأفراد أيقن أن وجودهم في البلاد التي فتحوها وهدوا أهلها إلى الإسلام أصبح أمرا لا يقبل الجدل أو النقاش ، خاصة وأن تكتل المسلمين في منطقة واسعة متصلة وعميقة يحول دون زحزحتهم عنها وطردهم منها ، وهو وضع يختلف كثيرا عما حدث لهم في إسبانيا التي كانت ظروفها من حيث

الموقع والتركيب السكاني مختلفة كل الاختلاف عن ظروف المناطق الإسلامية الأخرى ، فرأى الغرب أن يغير من أسلوبه ، وإن لم يغير من أهدافه ، فاتجه إلى تغيير أفكار المسلمين كوسيلة لإضعاف عقيدتهم ومن ثم القضاء عليها وذلك عن طريق الغزو الفكري ، وتفتيت وحدتهم بواسطة السعي بالوقيعة بين حكامهم الذين غالبا ما يكونون قد استولوا على السلطة رغما عن أنف شعوبهم ومن ثم فإنهم لا يطمئنون إليها لإحساسهم بأنها لا تريدهم فيزجون بها في صراعات لا ناقة لها فيها ولا جمل بقصد شغلها عما يسببونه لها من معاناة وحرمان وقهر ولا بأس من أن يستعينوا بهذه الدولة الغربية أو تلك في ضرب بعضهم البعض فتجد هذه الدول الصليبية الفرصة وقد سنحت لها فتستغلها لإشعال الفتن بين الشعوب سواء بإحياء النزاعات العرقية أو ببعث الخلافات الطائفية أو الدينية ، وينتهي الأمر بانحيازها إلى هذه الطائفة أو إلى تلك وفرضها لنفسها كوسيط أو مدافع عن إحدى الفئات أو الجماعات تماما كما حدث مع الدولة العثمانية التي ادعى الغرب أمامها أنه يدافع عن حقوق العرب وفي مقدمتها حقهم في الاستقلال في إطار ما يسمى بالقومية العربية ثم ما لبث أن استعمرهم وأعطى اليهود جزءا عزيزا من الوطن الإسلامي العربي .

ولذلك نجد « بونابرت » ، حتى بعد هزيمته وأسره ، يبدي اهتماما واضحا بما يسمى استقلال الأقاليم العربية في الدولة العثمانية ، ويزعم في مذكراته أن ولايات الدولة العثمانية التي يتكلم أهلها العربية تتمنى من صميم فؤادها وقوع تغيير عظيم وتنتظر الرجل الذي يقع هذا التغيير على يديه ، ويقول في خطاب أرسله وهو في منفاه في جزيرة سانت هيلانة إلى الجنرال جور – جود : « الذي يقرأ بالتفات تام تاريخ الحوادث التي توالت على مصر في مائتي العام الأخيرين يوقن أنه لو عهدت إلى وال من أهل البلاد كما هو الحال في ألبانيا ، بدلا من أن تعهد إلى اثني عشر ألفا من المماليك لاستقلت المملكة العربية التي تتألف من أمة تخالف الأمم غيرها مخالفة كلية بعقليتها وأوهامها ولغتها وتاريخها وشملت مصر وبلاد العرب وشطرا من بلاد أفريقيا كما استقلت مراكش من قبل » .

وللمرء أن يتساءل بكل ما لديه من حسن نية عن مصلحة فرنسا أو غيرها

من الدول الغربية الصليبية في استقلال الأقاليم العربية عن الدولة العثمانية ؟ وما إذا كانت وبحق ، مهتمة بتقدم شعوب هذه الأقاليم وبرفاهيتها وطمأنينتها واستقرارها وسؤددها وبغير ذلك مما تطمح إليه الشعوب ؟ ولا نظن أن الإجابة على هذه التساؤلات تعترضها أي صعوبة فهي تستمد من ماضينا سواء منه البعيد أو القريب وما حفل به من خبرات بالغة السوء خضبتها دماء الملايين من الرجال والنساء والأطفال الذين قتلتهم جيوش الصليبيين في إسبانيا وفي المغرب العربي وفي مصر والشام وساحل الخليج الفارسي ، بل وفي أفريقيا وآسيا ، والذين ما زالت بنادق هذا الغرب الصليبي وبنادق أعوانه تفتك بهم حتى الآن في فلسطين والفيليبين وإريتريا والأوجادين وأفغانستان وفي غيرها من البلاد التي توجد بها أقليات إسلامية .

فهل ما حدث وما يحدث يتفق وما قيل ويقال عن رغبة هذه الدولة أو تلك من الدول الأوروبية في رؤية العالم العربي مستقلا ومستقرا ؟ وهل انتزاع فلسطين من أصحابها الحقيقيين ومنحها للصهيونيين هو ما قصده ، ويقصده الغرب الصليبي وأعوانه باستقلال العالم العربي واستقراره ؟ .

إن هدف الغرب الصليبي مما يسميه الاستقلال واضح ومفهوم ، ولعلنا لم ننس مهزلة الاستقلال وكيف انتهت في مطلع هذا القرن وما أسفرت عنه من سقوط كل الأقاليم العربية فريسة في أيدي الدول الغربية الصليبية التي كشفت الأقنعة عن وجوهها الحقيقية التي لا تحمل سوى تعبيرات الكراهية والحقد الأسود والطمع والموت ، وأبرزت الأسلحة التي كانت تخفيها وراء ظهورها لتغمدها في صدور وقلوب العرب الذين غررت بمن ادعوا أنهم زعماؤهم والذين دفعهم الطمع في كراسي الحكم إلى خيانة دينهم وأمتهم ، فمضوا تلاحقهم لعنة التاريخ ولهم في الآخرة عذاب أليم ، جزاء ما أصابوا به الأمة من تفكك وضياع .

وإذا كان القول المأثور يقول « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » فإن العرب قد لدغوا من جحر الغرب الصليبي كثيرا ولا يزالون يلدغون لا لشيء إلا لأن حكامهم لا يقرءون التاريخ ولا يستفيدون من التجارب التي مرت بها شعوبهم .

وما ذكره بونابرت عن تطلع الولايات العربية إلى الاستقلال عن الدولة يفتقر

إلى الدليل ويعوزه السند ، بل إن كل الشواهد تؤكد كذبه ، فليس هناك ما يمكن الاستدلال به على أن الشعوب العربية ، لا قبل الغزو الفرنسي ولا بعده ، فكرت في الاستقلال عن دولة الخلافة . ولكن البعض حاول لغرض في نفسه أن يجعل كلام بونابرت من قبيل الحقائق التي لا يتطرق إليها أدنى قدر من الشك ، من ذلك ما قاله الدكتور لويس عوض من أن بونابرت « ما كان ليبني أحكامه ومشروعاته السياسية والعسكرية على أوهام من صنع خياله أو من صنع خيال الغير ، وما كان ليصور العالم العربي في صورة المجتمع الكبير القلق المنتظر لظهور المخلص له من براثن الأتراك العثمانيين ، لولا أنه قد تجمع لديه من التقارير الموضوعية والشواهد اليقينية وشهادات المؤرخين والرحالة والجواسيس والقناصل ما يثبت له أن العالم العربي كان ، حتى قبل مجيئه إلى مصر ، بمثابة لغم عظيم ينتظر الشرارة التي تفجره أو بركان مكظوم ينتظر رجل الأقدار الذي يفتح فوهته ليقذف حمم السخط والثورة على الأمبراطورية العثمانية » .

وهكذا نلاحظ أن الدكتور لويس عوض يحاول أن يضفي على بونابرت صفات الواقعية والصدق والموضوعية لا لشيء إلا لكي يجعل ما قاله صحيحا وصادقا وموضوعيا ، وفاته أن يتذكر أن عددا كبيرا من المصريين قد قرءوا الكثير مما كتبه المؤرخون عن بونابرت وعلموا منه أنه كان كاذبا غشاشا ، ومنافقا انتهازيا ، غادرا لا يؤمن جانبه ، يلتزم التزاما شديدا بمبدإ أن الغاية تبرر الوسيلة ، وأنه لم يكن يلتزم بعهد أو يفي بوعد . وكلها صفات ثابتة ومؤكدة توفرت الأدلة على صحتها . من ذلك أن « بونابرت » كان يهاجم الدين في بداية الثورة ويتهمه بخداع الفقراء عن واقعهم الأليم وجعلهم يستسلمون لاستغلال الأغنياء . فلما أصبح حاكما لفرنسا تحول عن رأيه هذا وقال « كيف تستطيع أن تجد في دولة نظاما من غير الدين ؟ فالجماعة الإنسانية لا تستطيع أن تعيش من غير التفاوت في الثراء الأمر الذي لا يمكن أن تقوم له قائمة مستديمة بمعزل عن الديانة »[1] .

---

(1) ويلز ، المرجع السابق ، المجلد الرابع ، صفحة 1234 .

كذلك ، فإن نابليون كان يهاجم المسيحية ويتهكم على البابا عندما غزا مصر ويزعم أنه مسلم . ولكنه بعد أن أصبح حاكما لفرنسا أظهر اهتمامه بالدعاية المسيحية . ويقول ويلز في ذلك[1] « وها هي ذي فكرة نابليون عن فوائد المسيح السياسية ، وهي فكرة تلطخت بها كل البعثات الدينية الفرنسية منذ ذلك الحين . قال بونابرت : « قد اتجهت رغبتي إلى إعادة إنشاء مؤسسة الإرساليات التبشيرية الأجنبية ، إذ إن المبشرين الدينيين ربما كانوا ذوي نفع كبير لي في آسيا وأفريقيا وأمريكا ، وذلك أني سأكلفهم بتعرف كل الأراضي التي يزورونها . ولن تقف قداسة ثيابهم عند حد حمايتهم بل سوف تخفي وراءها أبحاثهم السياسية والتجارية . ولن تكون روما بعد اليوم مستقر رئاسة مؤسسة المرسلين ، بل باريس » . ويعلق « ويلز » قائلا : ألا ترى في هذا فكرات تاجر لص لا فكرات رجل دولة ؟ .

كذلك فإن نابليون الذي كان يتظاهر بأنه من أشد الناس إخلاصا لتعاليم روسو لم يلبث بعد أن أصبح من أصحاب السلطان أن أعلن خروجه على هذه التعاليم التي كان من بينها فكرة « الرجل الهمجي النبيل وكمال الجنس البشري » ، فإذا بـ (نابليون) يخرج بفكرة أخرى مختلفة تماما تقول إن « الرجل الهمجي كلب »[2] .

ومن رذائله التي اشتهر بها عدم اهتمامه بالشرف وما عرف عنه من دياثة ، ويكفي أن الفضل في حصوله على قيادة الجيوش الفرنسية في إيطاليا يرجع إلى عشيق زوجته « جوزفين بوهارنيه » المدعو « بارا » Barras أحد أعضاء حكومة الإدارة . ولكن بونابرت فضل أن يخدع نفسه بالاعتقاد أن ليس لجمال زوجته وعلاقتها بـ (بارا) علاقة بوصوله إلى هذا المنصب . فهل يكون من المستغرب على مثله أن يخدع الناس ؟ . لقد خدع الإيطاليين حين صرح لهم بأن الفرنسيين قدموا ليحطموا أغلالهم ، وفي نفس الوقت يكتب إلى حكومة الإدارة يقول « لسوف نجني عشرين مليونا من الفرنكات ، نحتم على الأهالي دفعها في هذه البلاد ، فإنها من أغنى بلاد

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 1244 .

(2) تاريخ العالم ، المجلد السابع ، صفحة 318 .

العالم » . أما جنوده فإنه يخاطبهم بقوله : « إنكم جياع وتكادون تكونون عراة .. وإني لأقودكم إلى أخصب سهل في العالم ولسوف تجدون هناك مدنا عظيمة وولايات غنية وشرفا ومجدا وثروة »[1] هل رأيتم القرصنة واللصوصية ؟ فهل يمكن لأحد أن يصدق رجلا كهذا ؟! وهل يتصور أن يكون هذا الكاذب الأفاق رسول حرية وعدالة ومساواة وديمقراطية ؟!!

واقرءوا ما هو أغرب من ذلك ، فقد ذهب بونابرت إلى بولندة فالتقى هناك بزوجة لأحد نبلائها ، امرأة جميلة رقيقة ، كانت على غير العادة ، تحترم أمانة الزوجية ، فما كان من رسول الحرية والعدالة والمساواة إلا أن ساوم قومها على شرفها ، يسطو عليه مقابل أن يمنحهم الحرية . وبالرغم من أن قومها قبلوا وأقنعوها بالاستسلام ، فإن الرجل الصادق الذي يريد لويس عوض أن يقنعنا بأمانته وصدقه !! بعد أن نال مأربه لم ينفذ ما وعد به القوم وصحب المرأة إلى باريس حيث اتخذها عشيقة له وأنجبت منه ولدا .

أما عن إيمان بونابرت بالحرية فلا يزيد عن أن يكون أكذوبة كبيرة روج لها أمثال لويس عوض لكي يوهمونا بأنه جاء ليحرر المصريين . وأدق ما يمكن أن يوصف به بونابرت أنه كان مغامرا سفاحا لا يختلف عمن سبقوه من السفاحين الصليبيين ، فهو مثلهم لم يتورع عن ذبح عشرات الآلاف من الأبرياء ، ونهب أموالهم وإحراق قراهم وانتهاك مقدساتهم ، ويشعر بمتعة في إذلال النساء وتهديدهن ، وتعذيب الرجال وقتلهم . وإذا صح ما قيل عنه من أنه كان شاذا جنسيا ، فإنه لا يكون مستغربا منه إظهاره لمنتهى الحقد على الرجال الشرفاء الذين كانوا يواجهون آلته الحربية بالعصي والهراوات ، أو بالسلاح البدائيّ .

ومن مآثره العظيمة قيامه بإلزام النساء أن يؤدين مبالغ باهظة من المال نظير عدم الاعتداء عليهن . وعلى الرغم من أن هؤلاء النساء هن زوجات المماليك الذين

---

(1) ويلز ، المرجع السابق ، صفحة 1235 .

تصدوا للغزو الفرنسي ، فإن رسل الحضارة الأوروبية الذين جاءوا ، على حد زعم المأفونين ، لكي ينتشلوا مصر من التخلف ، لم يتورعوا عن توجيه التهديد والوعيد إليهن بالاعتداء عليهن إذا لم يدفعن المال المطلوب [1] ، والذي بلغ حوالي ثمانين ألف فرنك . فأي حضارة وأي مدنية تلك التي تستأسد على النساء وتهددهن بالاعتداء على عفافهن ، وهن لسن محاربات أو معتديات ؟! ولكنها فرنسا بلد العدالة والمساواة والحرية والإخاء وغير ذلك من الترهات التي يرددها الكذابون .

والواقع أن ما فعلته زوجات المماليك يدل على التحضر الحقيقي وليس المزعوم ، ذلك أنهن لم يفعلن كما فعلت « ماري فالفيسكا » البولندية فيما بعد في ظل الحضارة الأوروبية التي لا تتورع عن استغلال أجساد النساء وشرفهن من أجل بلوغ مآربها ، فرفضن بإباء وشمم أن يمسهن جلف من أجلاف الحملة ولو كان بونابرت ودفعن المبلغ المطلوب ليحمين شرفهن ، وبعد ذلك يأتي من يعيب على أبناء مصر أنهم ينشئون في منازل « هي أقرب إلى الجو العثماني ، وبصفة عامة إلى الجو الإسلامي منها إلى مصر » [2] . فهل رأيتم وقاحة أشد من هذا ؟! فكأن ما يسميه « وطنية » لا يتفق مع الحفاظ على الشرف واحترام حقوق الزوجية !! ألا تبا لك ولوطنيتك .

أما الاستقلال الذي زعموا أن بونابرت جاء بحملته من أجل أن يهبه لـ (مصر) ، فإننا نسألهم عن هذا الاستقلال الذي يمكن أن يتحقق على أيدي رجل أو شبه رجل كـ (بونابرت) ، وما ذنب الناس الذين كان لا يكف عن قتلهم لمجرد أنهم كانوا يقاومون جيشا عرمرما جاء ليسرق أرزاقهم ويغتصب نساءهم ويحرق بيوتهم ؟ . وهل ما كان بونابرت يصرح به من أنه جاء ليؤسس ملكا خاصا به ، أو ليقيم مستعمرة تمد بلاده بحاجاتها يتفق مع ما زعموه كذبا وبهتانا ؟ اقرءوا ما بعث به إلى أحد قواده « لابد أن تكون قد جاءتك تعليماتي لتنظيم مديريتك ، يجب أن تعاملوا المصريين بمنتهى القسوة ، وإني هنا أقتل كل يوم ثلاثة وآمر بأن يطاف برءوسهم في شوارع القاهرة . وهذه هي الطريقة الوحيدة لإخضاع هؤلاء الناس » . وفي

---

(1) الجبرتي ، مظهر التقديس ، المرجع السابق ، صفحة 83 .
(2) أنور عبد الملك ، المرجع السابق ، صفحة 334 .

رسالة أخرى يقول « إن المصريين لا يمكن إخضاعهم إلا بالقسوة ، وفي كل يوم آمر بقتل خمسة أو ستة في القاهرة ، لقد كنا نتفادى التعرض لهم حتى نزيل عن سمعتنا وصمة الإرهاب ، تلك التهمة التي كانت سبقتنا إلى أذهان الناس ، أما الآن فيجب علينا أن نستعمل الوسائل التي تؤدي إلى إخضاع هؤلاء القوم ، وإخضاعهم معناه تخويفهم » [1] .

هذا هو « بونابرت » وهذه هي أخلاقه . ولكن يبدو أن الدكتور لويس لم يقرأ شيئا من هذه الكتب ، أو قرأها ولم يصدق ما جاء فيها لا لشيء إلا إنه لو صدقه فإنه بذلك سوف يفقد شاهدا يؤيد ادعاءاته ويخسر سندا يدعم به خيالاته وأوهامه التي طالما أرقته وأقضت مضجعه .

ومع ذلك فإن الدكتور لويس لا يطمئن إلى أن ما قاله عن بونابرت يمكن أن يقنع القارئ ، لذلك فإنه وبذكائه المعهود يلجأ إلى حيلة لا تخلو من ذكاء وهي أن يذكر عددا كبيرا من المصادر التي افترض أن بونابرت قد استقى منها معلوماته بشأن رغبة العرب في الانفصال عن دولة الخلافة ، فذكر المؤرخين والرحالة والجواسيس والقناصل ، ونسي أن يذكر التجار والباعة الجائلين وأصحاب البارات ودور اللهو على الرغم من أنهم يعتبرون في عداد مصادر المعلومات الذين تعتمد عليهم أجهزة المخابرات في الدول الغربية والشرقية على السواء ، ولكن يبدو أن الدكتور لويس وجد أن ما وقع في يده من تقارير قدمها هؤلاء تفتقر إلى « الموضوعية » التي يجب أن تتوفر في الأوراق التي تتضمن معلومات وبيانات أو أخبارا مما تسعى الدول إلى الحصول عليه لتستغله ضد أعدائها . ولذلك استبعدها لضعفها واكتفى بتقارير المؤرخين والرحالة والجواسيس والقناصل لأنها على حد قوله « موضوعية ويقينية » ، وإن كان لم يذكر لنا اسما واحدا من أسماء هؤلاء ، أو كلاما مما يحمل هذا المعنى يكون قد ورد في تقاريرهم على الرغم من أهمية ذلك وضرورته لإثبات صحة

---

(1) الرافعي ، تاريخ الحركة القومية .

ادعاءاته . ولا شك أنه وهو الأستاذ الجامعي يعلم يقينا أن مثل هذا التصرف يخالف مناهج البحث العلمي ، ويعد نقطة ضعف خطيرة في أي بحث أو أطروحة علمية ، كثيرا ما يعاني مرتكبه التوبيخ والتقريع من هيئة المناقشة .

ولكن يبدو أن الدكتور لويس غلب على نفسه أنه قد بلغ درجة من العلم تبيح له أن يقول ما يريد فيأخذه الناس على أنه الحقيقة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، فهو إذا قال إن المؤرخين والرحالة والجواسيس والقناصل قالوا إن العرب يكرهون الدولة العثمانية ويرغبون في الانفصال عنها فإن علينا أن نصدقه تماما كما يفعل الماركسيون الجهلاء الذين اعتادوا التهليل لكل ما يقوله أو يكتبه ، لا لشيء ، إلا لأنه يصادف هوى لديهم ويلائم ما لديهم من كراهية شديدة للدين . وبالتالي فليس لنا أن نسأل عمن قاله ، ولا متى قاله ، ولا أين قاله طالما أن الدكتور يعلم ذلك ، فهو صادق فيما يقوله !! خاصة وأن الأمر يتعلق بدولة الخلافة الإسلامية . وبطبيعة الحال فإننا لا نعترض هنا لموضوع إلمام لويس عوض بمناهج البحث ، ولا لمدى حرصه على الموضوعية ، فقد سبقنا إلى بحث هذين الأمرين الأستاذ محمود محمد شاكر ، فيمكن لمن يرغب في معرفة الحقيقة أن يرجع إلى ما كتبه في هذا الصدد (1) .

ونحن لا ننكر أن فرنسا ، حتى قبل أن يظهر بونابرت بسنوات ، كانت قد أوفدت إلى مصر المدعو « دابوا ستانفيل » الذي كان خبيرا بشئون شرقي البحر الأبيض المتوسط لاستقصاء الأحوال في مصر ، فأرسل تقريرا إلى « فرنيناك » الوزير المفوض في الآستانة ، في سبتمبر 1796 أوضح فيه إمكانية الاستيلاء على مصر . وكان أحد التجار الفرنسيين ، واسمه « شارل ماجللون » وهو قنصل عام بمصر ، قد أرسل مذكرة مماثلة إلى « فرنيناك » قبل ذلك ، في يونيو 1795 .

كذلك كانت فرنسا قد بعثت قبل ذلك التاريخ بما يزيد على العشرين عاما

---

(1) أباطيل وأسمار ، صفحة 6 وما يليها .

جاسوسا آخر يدعى « دتوت » ، وكان ذلك تحديدا في سنة 1777 وبررت فرنسا قيام هذا الرجل بزيارة مصر بأن الغرض هو التفتيش على المؤسسات القنصلية والتجارية الفرنسية في شرقي البحر المتوسط . أما مهمته غير الرسمية فأخطر من هذا ، وهي أن يستطلع إمكان الاستيلاء على مصر وإحالتها إلى مستعمرة فرنسية . وقد أبحر إلى الإسكندرية في صحبة العالم الطبيعي « سونيني » على ظهر الفرقاطة « أطلانطا » وواصل رحلته إلى رشيد في فلوكة بعث بها إليه شيخ البلد إبراهيم بك ، وانطلقت به صعدا في النيل إلى القاهرة بكل مظاهر الأبهة الشرقية [1] . وفي مصر عهد « دتوت » بدوره إلى فرنسي يدعى « لالون » بمهمة التجسس على السويس وساحل الدلتا ، وقام لالون بمهمته خير قيام ، وعلى أساس تقريره كتب « دتوت » مذكرته لوزير البحرية الفرنسية ، وكان من بين ما جاء في هذه المذكرة رأي « دتوت » بأنه في حالة غزو فرنسا لمصر يعد منشور يطمئن الأهالي إلى أن الفرنسيين قدموا بوصفهم أصدقاء ، وحلفاء للسلطان ، ومحررين له من ربقة المماليك [2] .

هذا هو ما ورد في تقارير الجواسيس والقناصل وليس ما ادعاه لويس عوض من أنهم ذكروا أن الناس ترغب أشد الرغبة في الانفصال عن الخلافة . وهو ، كما نرى ، ادعاء كاذب ليس فيه شيء من الموضوعية أو اليقين كما زعم لويس عوض الذي بدا واضحا استسلامه لعواطفه وأهوائه مما دفعه إلى تجاهل الحقائق ، بل والتزوير الذي يأنف منه كاتب مبتدئ . فالرجل يكن كراهية شديدة لدولة الخلافة الإسلامية ، بل ولكل ما له صلة بالإسلام ، وهو في سبيل إرضاء هذا الشعور المرضي لا يتورع عن عمل أي شيء بما في ذلك الكذب والاختلاق والتزوير والتلفيق واللعب بالألفاظ . وهو يريد منا أن نصدقه بعد كل هذا !! كما أراد منا أن نصدق ما قاله بونابرت بطله المعبود الذي راح يفسر كلامه على هواه وبما يخدم أغراضه وذلك دون أن يتعرض لأخلاقه ، لإدراكه أن ذلك من شأنه أن يقضي عليه باعتباره شاهده

---

(1) كريستوفر هيرولد ، المرجع السابق ، صفحة 13
(2) المرجع السابق ، صفحة 16 .

الوحيد على ما ادعاه ، ولنر ما قاله هذا الشاهد عن دولة الخلافة وسلطانها ، ففي المنشور الذي طبعه بونابرت ووزعه عقب نزوله إلى مصر ، نلاحظ أنه حرص على ذكر علاقته الطيبة بالسلطان العثماني ، مما يدل على أنه كان يهمه أن يستغل ولاء الناس وحبهم للسلطان ، فهو يقول : « ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه ، أدام الله ملكه ومع ذلك إن المماليك امتنعوا عن طاعة السلطان غير ممتثلين لأمره ، فما أطاعوا أصلا إلا لطمع في أنفسهم » .

فكيف يتصور عاقل أن رجلا بل قائدا يعلم علم اليقين ، على حد قول الدكتور لويس عوض ، أن شعبا يكره حاكمه ويتطلع إلى الانفصال عن دولته ، ثم يتكلم عن حبه لهذا الحاكم وتحالفه معه ضد أعدائه ودعوته لملكه بالدوام ونعيه على المماليك امتناعهم عن طاعته والامتثال لأمره ؟

إن العكس هو الذي كان يجب أن يحدث ، أي أن يستغل هذا القائد الغازي عداء الناس للسلطان العثماني وكراهيتهم لحكمه لضمان نجاح حملته وليس العكس .

بل إن الأغرب من هذا أن بونابرت ختم بيانه بقوله : « أدام الله إجلال السلطان العثماني » وإزاء هذا الوضوح فيما قاله بونابرت كان يجب على الدكتور لويس عوض أن يراجع ما سبق أن قاله عن بونابرت ولكنه بدلا من ذلك راح يبرر موقف هذا الكاذب الأفاق فقال إنه إنما تظاهر بأنه صديق الباب العالي لأن السلطان العثماني كان خليفة المسلمين ولم يشأ بونابرت بادئ الأمر أن يستفز الشعور الديني في البلاد . وهو كما نرى كلام يناقض ما سبق أن زعمه من أن المصريين كانوا ضد السلطان ، فكيف يكونون ضده وكيف يحرص بونابرت على عدم استفزاز شعورهم الديني ؟ وما هو هذا الشعور الديني وما معناه ؟ وكيف يمكن أن يجتمع الشعور الديني والرغبة في الانفصال عن دولة الخلافة ؟

كنا نود لو أن الدكتور لويس عوض العالم المؤرخ فسر لنا هذه الأحجية أو هذا اللغز ، ولكنه للأسف لم يفعل تماما كما سبق أن تصرف إزاء ما ذكره عن تقارير

القناصل والجواسيس .

وعلى الرغم من حرصه على إتقان مزاعمه وحبك أكاذيبه لكي تبدو كما لو كانت حقائق إلا أنه لا يلبث أن يقع في الخطإ . ذلك أنه قال إن بونابرت قال ما قاله عن السلطان لأنه لم يشأ أن يستفز الشعور الديني في البلاد في بادئ الأمر ، فماذا بعد أن تم له احتلال البلاد ؟ إنه ظل مع ذلك يعلن عن صداقته للخليفة العثماني مما يدل على أن هذه الصداقة تلعب دورا هاما في علاقته بالشعب المصري . فعندما قامت الثورة في 31 أكتوبر 1798 عاد بونابرت يتحدث عن صداقته للخليفة متخذا من ذلك وسيلة للتهدئة ولو أنه كان يعلم – كما يزعم الدكتور لويس – أن الشعب المصري يكره الخلافة العثمانية ويناصب الأتراك العداء ما لجأ إلى ذلك ، بل العكس هو الصحيح ، أي أنه كان يجاهر بدوره بعدائه للخليفة لا بصداقته له .

وحتى لو صح ما قاله عبد الرحمن الرافعي من أن الشيخ محمد المهدي سكرتير الديوان هو المسئول عن صياغة هذه البيانات فإن ذلك يعني أن المهدي كان يعرف أن إعلان صداقة بونابرت للخليفة أمر يرضي الشعب المصري ولا يسخطه ، فضلا عن أن ذلك كان يحدث بعلم بونابرت ورضاه . فهو وإن كان لا يعرف اللغة العربية إلا أنه كان يصحبه مترجمون على رأسهم المستشرق « جان – ميشيل – دفنتور » الذي كان يقوم بالإشراف على ترجمة المنشورات والبيانات التي يصدرها نابليون [1] .

ولكن الدكتور لويس عوض ، التزاما منه بمنهجه في قلب الحقائق يوشك أن يقع في المحظور فيثبت على بطله بونابرت الغفلة والجهل بتركه للشيخ المهدي يوقع بينه وبين الشعب المصري ، بل ويؤجج نار الثورة بذكره للصداقة التي بين بونابرت والسلطان ، وهو ما يكرهه الشعب .

وعلى الرغم مما قلناه عن بونابرت ، ولم يكن لنا فيه إلا فضل النقل عن الكتب

---

(1) كريستوفر هيرولد ، المرجع السابق ، صفحة 47 ، الرافعي ، تاريخ الحركة القومية الجزء الأول ، صفحة 79 .

التي تناولت سيرته غير العطرة ، فإننا ، في هذه الجزئية بالذات ، ننفي عنه أنه كان مغفلا فيما يتعلق بأمور السياسة والحكم ، فهو وإن كان قد تغاضى باستمرار عن خيانات زوجاته ، بل وعشيقاته أيضا وتسامح مع أختيه فيما كانتا تقيمانه من علاقات جنسية مع عشرات الرجال ، إلا أنه كان في غير هذه الأمور يظهر يقظة شديدة وانتباها قويا .

نقول ذلك ، على الرغم من أن قبولنا لما ذهب إليه لويس عوض بشأن استغفال الشيخ المهدي يعد قرينة مفيدة للغاية تسمح لنا بالقول إن القناصل والجواسيس والرحالة والمؤرخين الذين قال لويس عوض إن بونابرت كان قد بنى حكمه بشأن رغبة العرب في الانفصال عن الدولة العثمانية على تقاريرهم كانوا هم أيضا يتغفلونه . وإن كنا لن نقطع في هذا الأمر برأي تاركين للباحث الفذ لويس عوض أن يدرسه بطريقته الفريدة . ولو أنه فعل ذلك وبموضوعية حقيقية ، فسوف يلاحظ أن بونابرت كان لا يتهاون في شأن من شئون الحكم والسلطة ، ولذلك فإن ما ذكره هو نفسه عن احترامه للسلطان العثماني وما ذكره المهدي أو غير المهدي في هذا الصدد كان الباعث عليه إدراك بونابرت لعمق العلاقة بين المصريين والخليفة العثماني وعدم استعدادهم للتخلي عن علاقتهم بدولة الخلافة تحت أي ظرف من الظروف . ولذلك فإن بونابرت الذي كان كاذبا بالسليقة ما لبث أن أظهر مشاعره الحقيقية نحو دولة الخلافة عندما شرعت في اتخاذ الإجراءات العسكرية لإخراجه مع جنوده السفاحين اللصوص من مصر ، فإذا به يوجه إليها الاتهامات ، التي أصبحت كالأغنية أو النشيد يردده أتباع الغرب صباح مساء ، شفاهة وكتابة ينعون فيه على الأتراك تسببهم في تخلف المصريين والعرب !!

وهذا الذي فعله بونابرت ليس بالتصرف الغريب من رجل اعتاد الكذب والافتراء والتضليل ، وبالتالي لا يصح أن نعول على ما يقوله أو نصدق ما يصدر عنه . مثل قوله إن العرب يتطلعون إلى الانفصال عن الدولة العثمانية ، وإنما يجب أن نبحث عما كان يقوله العرب أنفسهم قبل مجيء الحملة وأثناءها وبعد رحيلها ، فهم على حد علمنا كانوا يتكلمون مثلما نتكلم ، ويعرفون كيف يعبرون عن

مشاعرهم كما نعبر ، ولم يكونوا بكما لا يتكلمون ومشلولي الأيدي لا يكتبون ، فجاء هذا البونابرت ليعبر عما يعتمل في صدورهم وينحصر فيه تفكيرهم .

وبطبيعة الحال فإن الدافع لدى الدكتور لويس إلى التمسك بما قاله بونابرت بشأن رغبة العرب في الانفصال عن دولة الخلافة ، واهتمامه الشديد بالتدليل على صدق بونابرت وموضوعيته ، ليس حبه لهذا السفاح وحرصه على سمعته فقط ، وإنما الدافع هو إيهام الناس بوجود أساس حقيقي لما يسمى بالدعوة إلى القومية المصرية ، والتمهيد بذكاء لبيان ما فعله (المعلم) يعقوب وأعوانه وتبريره بحيث يبدو وكأن هذا الخائن إنما فعل ما فعل استجابة لرغبة شعبية . فما هي الحقيقة بشأن دعوى القومية المصرية ؟

الآراء التي قيلت في شأن دعوى القومية المصرية :

اختلفت الآراء بشأن ما يسمى بـ (القومية المصرية) وما يرتبط بها من حركة قومية ؛ فبينما يذهب الرافعي إلى أن الحركة القومية ، ويقصد بالقومية هنا القومية المصرية ، بزغت في أفق الحوادث السياسية خلال الحملة الفرنسية ، وأنها استمرت بعد انسحاب الغزاة الفرنسيين من مصر فيما أسماه مقاومة الشعب للمماليك وللوالي العثماني إلى أن وقع الاختيار على محمد علي ليكون واليا . وهذا الربط بين المقاومة الشعبية للحملة الفرنسية ، ثم موقف الشعب من المماليك ومن الوالي العثماني وبين ما يسمى بالقومية المصرية ، الذي قام به الرافعي ، لا أساس له ولا سند من الواقع ، فمن يقرأ ما كتبه هو نفسه عن الأحداث التي وقعت منذ نزول جيش الحملة الفرنسية بالقرب من الإسكندرية وإلى أن عين محمد علي في منصب الوالي لا يجد أي إشارة ولو من بعيد إلى وجود حركة من أي نوع تهدف إلى بعث ما يسمى بالقومية المصرية . ولكن الرافعي المؤرخ فشل في التخلص من نزعته القومية الضيقة وطغى عليه اتجاهه العلماني المعادي لفكرة الوحدة الإسلامية ، بل والوحدة العربية أيضا ، وتحكمت فيه أوهام الفرعونية ، فحمل الأمور أكثر مما تحتمل . والعجيب حقا أن يورد الرافعي كل ما جاء في منشورات وخطب بونابرت بشأن مصر وماضيها التليد وعظمتها الخالدة ، وحق أبنائها في أن يحكموها ، ومنه ما جاء في المنشور الأول الذي

قال في تعليقه عليه « والواقع أن نابليون في هذا المنشور قد استثار الروح القومية المصرية ، ولم يسبق لفاتح قبل ذلك العصر أن يشيد بمكانة مصر وعظمتها ويوجه خطابه إلى المصريين ويعدهم بأن يكونوا أصحاب الحل والعقد في البلاد »[1] . ولكنه ، أي الرافعي ، لم يورد لنا ما كان يقوله المصريون أنفسهم في هذا الشأن ، ولم يوضح ما إذا كان كلام نابليون قد استثار الروح القومية بالفعل أم لا .

أما الأعجب من هذا ، فهو ذلك التناقض الواضح الذي وقع فيه الرافعي ، فقد ذكر في أكثر من موضع ما كان نابليون يهدف إليه من احتلاله لمصر ، ومنه ما جاء في خطاب له إلى حكومته يقول فيه « علينا أن ننشئ بها (أي مصر) مستعمرة من أجمل مستعمرات العالم »[2] . ومع ذلك فإن الرافعي يقول تعليقا على الخطاب الذي افتتح به الديوان العام إن لهجته من شأنها أن تبعث في نفوس سامعيها من أعضاء الديوان روح العزة القومية فتحدو بهم إلى التطلع لإحياء عظمة مصر القديمة وتصرفهم عن الإذعان لحكم الفرنسيين وغير الفرنسيين فهل سمع أحد أن مستعمرا ، في أي زمان أو مكان ، قال كلاما يحرض به الخاضعين لاستعماره على عدم الإذعان له ؟! ولكن هكذا فهم الرافعي ما جاء في الخطاب المذكور . ولا شك أن السبب في ذلك يرجع إلى ما اشتمل عليه الخطاب من كلمات تشيد بعظمة مصر القديمة ومركزها الممتاز في العالم . الخ ، وهو ما قال عنه الرافعي « وجميل أن يصدر هذا الاعتراف من قائد دانت له الممالك وخضعت له الرقاب » . وهو كلام يكشف عن إعجاب الرافعي بنابليون الذي سبق أن وصف مشروعه لاحتلال العالم العربي بأنه مشروع عظيم . فالرافعي المتعصب بشدة للقومية المصرية يغفر لنابليون كل جرائمه وآثامه في حق مصر وأبنائها لمجرد كلمات لا قيمة لها أثبتت الأحداث التي سبقتها والتي لحقتها كذبها ، ولكنها مع ذلك كانت كالترياق الذي شفى جروحا في قلب الرافعي حفيد مينا وخوفو الذي آلمه كثيرا أن تصبح مصر

---

(1) تاريخ الحركة القومية ، الجزء الأول ، صفحة 88 .

(2) المرجع السابق ، صفحة 68 ، وانظر أيضا ، جون مارلو ، تاريخ النهب الاستعماري لمصر ، صفحة 16 .

عربية إسلامية .

ويحرص « الرافعي » على أن يصف مصر بـ (أرض الفراعنة)[1] عند حديثه عن مهمة نابليون في مصر ، والتي تشمل في رأيه « أن يرسم لنفسه ، أي نابليون ، سياسة يتبعها حيال هذه العناصر المشتبكة على أرض الفراعنة » وهو كلام لا يصدر عن مؤرخ وإنما يصدر عن خبير في الدعاية لفريق كرة قدم يجيد أساليب الإثارة والتشويق . ولكنه الجنون القومي الذي أصاب العلمانيين في مصر فجعلهم يتصورون أنفسهم أحفادا لمينا وخوفو ورمسيس ، ويحذفون من تاريخ مصر عشرين قرنا تعاقب خلالها على مصر الهكسوس ، والأشوريون والليبيون والأحباش والفرس والإغريق والرومان ثم الفرس ، وأخيرا العرب مما أدى إلى تغييرها بطريقة جذرية ، ولكنها مع ذلك ظلت أرض الفراعنة !! كيف ؟! لا ندري ونعتقد أن الرافعي نفسه لم يكن يدري لأنه لو كان يدري لانتهى به الأمر إلى عدم ذكر هذا الكلام الذي لا يصح أن يصدر عن مؤرخ يفترض فيه الالتزام بالموضوعية والدقة وبخاصة عند إطلاق الأوصاف وإصدار الأحكام القيمية ، ذلك أنه إذا كانت مصر أرض الفراعنة كما قال فمعنى ذلك أنها ملك للفراعنة أو لورثتهم وإلا ما معنى أن تكون « أرض الفراعنة » . ولا شك أن الرافعي وهو مؤرخ كبير وقارئ عرف عنه كثرة القراءة قد اطلع على الكثير من الأقوال التي وردت في كتب المستشرقين والمؤرخين الذين عرفوا بالعداء للإسلام وكراهية المسلمين ، ورغبتهم في نسف الوحدة الإسلامية ، بل والعربية باختلاق المشكلات واصطناع الأزمات وذلك بالادعاء كذبا أن للفراعنة ورثة يعيشون على أرض أجدادهم ، كما سمع عن مشروع « يعقوب » الذي ذكر فيه هذا الأمر وميز بين من أسماهم أصحاب البلاد وبين من أسماهم الغرباء أو الطارئين فكان جديرا به أن يربأ بنفسه عن ترديد أقاويلهم ودعم ادعاءاتهم .

وعلى خلاف ما ذهب إليه كل المؤرخين تقريبا من أن وحدة الدين كانت في

(1) المرجع السابق ، صفحة 83 .

مقدمة الأسباب التي جعلت شعب مصر يتعاطف مع الأتراك وغيرهم من الشعوب التي تتكون منها الأمة الإسلامية ، فإن عبد الرحمن الرافعي ، الذي غرق في العلمانية حتى أذنيه ، يفسر عدم انصراف المصريين عن التعلق بتركيا بتأثير الاتهامات التي وجهها إليها نابليون بأن المصريين « كانوا يرون أن تركيا تعمل وقتئذ بمساعدة حلفائها على إجلاء الفرنسيين من مصر ، وجلاؤهم عنها يؤدي إلى ترك البلاد لأهلها » . هكذا دون أن يكون لوحدة الدين دخل ، أو أن تكون للرابطة الإسلامية علاقة !! وليس بنا حاجة إلى التنبيه إلى ما في هذا التفسير من غرض وسوء نية ومخالفة للأمانة العلمية والموضوعية ، مما يجب على المؤرخ أن ينزه نفسه عنه ويجردها منه إذا كان بها شيء منه . ولم تكن علمانية الرافعي ، ولا نزعته القومية الفرعونية الفجة لتتأثرا لو أنه أعطى عامل الدين حقه وهو يتناول العلاقة بين المصريين والأتراك أثناء الاحتلال الفرنسي وبعده ، ثم بعد ذلك يجري تقييما موضوعيا لدور الدين ولما كان لدى الأطراف المختلفين من وعي بهذا الدور .

كان هذا هو رأي الرافعي بشأن نشأة ما يسمى بـ (القومية المصرية) ، وقد بينا كيف أن ما قاله في هذا الصدد لا يجد له سندا ، حتى ولا فيما ذكره هو نفسه من أحداث ووقائع جرت على أرض مصر أثناء الاحتلال الفرنسي وبعده . أما الرأي الآخر في نشأة القومية المصرية فهو للدكتور لويس عوض ، ويتناول نشأة هذه القومية بشكل أكثر تحديدا ، فهو وإن كان لا يهمل الأقوال التي صدرت عن بونابرت بشأن مصر ومجدها القديم وتاريخها العريق ، يحدد وبدقة ملحوظة الفئة التي استشارها نابليون بكلامه ويذكر اسم ممثل هذه الفئة الذي انبرى مجاهرا بفكرة القومية المصرية ومحددا أصحاب الحق في مصر ومن ليس لهم حق فيها .

« الجنرال » يعقوب يدعو إلى القومية المصرية :

يقول الدكتور لويس عوض إن أول من دعا إلى فكرة القومية المصرية هو المعلم يعقوب (المصري) وكان ذلك عقب خروج الحملة الفرنسية من مصر ، حيث قدم (الجنرال) يعقوب إلى قائد الباخرة الإنجليزية التي رحل عليها مع بقايا فيلقه القبطي مذكرة ضمنها مطلبه بقيام ما يسمى بحكومة مصر المستقلة .

وقبل أن نعرض ما تضمنته هذه المذكرة من آراء وأفكار ، قال عنها الدكتور لويس عوض إنها تشير إلى أول محاولة لبعث القومية المصرية ، يهمنا أن نقدم للقارئ فكرة موجزة عن حياة المعلم يعقوب ، الذي يعده لويس عوض رائد القومية المصرية الحديثة . ومما كتب عن حياة يعقوب هذا يتبين أنه رجل انتهازي ، فقد عمل في خدمة المماليك ردحا من الزمن ، فلما احتل بونابرت مصر بادر إلى الالتحاق بخدمته حيث ألحقه بوظيفة إدارية في أعمال « الأورنص » بجيش الجنرال ديزيه . فلما قاد هذا حملة على الصعيد للقضاء على المقاومة المكونة من المماليك والبدو والفلاحين صحبه يعقوب مشرفا على عمليات تموين الحملة بالأغذية وبغيرها من الاحتياجات . ولم يكتف بهذا بل اشترك في قتال أبناء بلده بضراوة حازت على إعجاب سادته الفرنسيين فقدموا له سيفا تذكاريا تقديرا لإخلاصه لهم .

ويهمنا أن نذكر بعض الجهود التي قام بها يعقوب والتي جعلت سادته يقدمون له هذا السيف تقديرا منهم لإخلاصه ، وهي جهود لابد أن يعقوب كان يعتبرها ضرورية لوضع فكرته القومية موضع التنفيذ .

ويقول الجبرتي : « وفي خامس عشره (27 أغسطس) سافر عدة كبيرة من عسكر الفرنج إلى جهة الصعيد وعليهم الصاري عسكر المتولي على الصعيد واسمه (دزه) وبصحبتهم يعقوب القبطي ليدبر لهم الأمور ، ويعمل لهم أنواع المكر والخداع ، ويطلعهم على الخبايا ويصنع لهم الحيل ؛ فمنها أنه كان يرسل الجماعة من الإفرنج لقبض الأموال أو طلب الكلف ، ويلبس البعض منهم لبس العثماني ، ويكتب لهم التحذير من المخالفة ، ويذكر لهم أن هذا أمر سلطاني ، فيروج ذلك على كثير من أهل البلاد ويمتثلون للأوامر »[1] .

يقول « كريستوفر هيرولد »[2] عن حملة الجنرال « ديزيه » على الصعيد :

---

(1) الجبرتي ، مظهر التقديس ، الجزء الأول ، صفحة 89 .

(2) بونابرت في مصر ، صفحة 329 .

« وكان يركب إلى جوار ديزيه رجل فذ ، لولا لباقته وكفايته وشجاعته ! لما استطاع ديزيه – في أغلب الظن – أن ينال ما نال من أمجاد النصر رغم عبقريته كلها . ذلك هو المعلم يعقوب القبطي ، الذي كان من الناحية الرسمية منوطا بجمع الضرائب في مصر العليا ، ولكنه كان في الواقع شريكا لديزيه في قيادة حملته . وكان يعقوب ابن يوحنا ومارية غزال ، الذي كان إذ ذاك في مستهل عقده الخامس ، أصلح مستشار لحملة توجه ضد مراد ، الذي كان يعقوب يعرفه جيدا لأنه اشتغل من قبل ناظرا لدائرة زميل لمراد يدعى سليمان بك . كان خبيرا بطبيعة البلاد وبأهلها ، وله في كل مكان صلات ، وفيه دهاء وحسن سياسة لا تجد لهما نظيرا حتى في الجباة الأقباط . وكان يتسم بصفة نادرة بين قومه ، هي الشجاعة والكفاية الحربيتان وكان أهل الصعيد يسمون فرقة ديزيه « جيش المعلم يعقوب » ، ولو وقع هذا لقائد غير ديزيه لبرم به ، ولكن ديزيه المغرم بالتخفي ، رأى ما في هذا الخطإ من فوائد ، ولم يفعل شيئا ليثني الناس عنه . والواقع أنه ما من قرار اتخذه ديزيه خلال حملته كلها دون أن يستشير « القبطي » وهو لقب يعقوب في الجيش .

أما القرارات التي كان ديزيه لا يتخذها إلا بعد أن يستشير يعقوب بشأنها ، فإن المدعو « ديفون » وهو أحد رجال الحملة الفرنسية الذين صحبوا جيش ديزيه أو جيش يعقوب في هجومه على الصعيد يصف لنا بعضها فيما يلي :

يقول « ديفون » عن سكان القرى التي كانوا يمرون بها : « إذا أكرههم الخوف على ترك قريتهم عند اقترابنا منها ثم عادوا إليها لم يجدوا فيها سوى الطين الذي بنيت به حيطانهم فأدواتهم ومحاريثهم وأبوابهم وسقوف بيوتهم كلها كانت تستعمل وقودا لطهي حسائنا وقدورهم تكسر ، وقمحهم يؤكل ، ودجاجهم وحمامهم يشوى .. وأينما وقفنا بقرية أمرنا هؤلاء البؤساء بالعودة وإلا عوملوا معاملة العصاة أو حلفاء الأعداء وأكرهوا على دفع الضريبة مضاعفة . فإذا أذعنوا للتهديد وجاءوا ليدفعوا الضريبة كان رجالنا يخطئونهم أحيانا بسبب كثرة عددهم وما يحملون من عصي ، فيحسبونهم جماعة من الرعاع المسلحين ، وفي هذه الحالة تطلق عليهم دورياتنا النار دون تردد . قبل أن يتسع لهم الوقت لبيان غرضهم . ثم يدفن موتاهم ونظل أصدقاء

حتى يجدوا الفرصة للثأر دون أن يتعرضوا للخطر . صحيح أنهم لو ظلوا في قريتهم ودفعوا الميري .. لوفروا على أنفسهم مشقة الرحلة إلى الصحراء وتمتعوا بمشاهدة طعامهم يؤكل بطريقة منظمة ، وتلقوا نصيبهم منه ليأكلوه ، واحتفظوا بأجزاء من أبوابهم ، وباعوا بيضهم للجنود ، واغتصب من زوجاتهم وبناتهم عدد أقل »[1] .

كذلك فإن من مآثر يعقوب ما أشار به على ديزيه من الهجوم على أسوان بقيادة الجنرال بليار ، حيث قتل الرجال واغتصب النساء ، أما الهجوم على جزيرة « فيلة» فإن « ديفون » يصفه في مذكراته قائلا : علت صيحات الأهالي وراحت النسوة ينشدن أناشيد المعركة ويثرن الغبار ، ثم أعطيت إشارة القتال . ولكن بليار أمر ببناء أطواف واقتحم الجزيرة ودهم النساء ويقول ديفون : وألقى الجميع الرجال والنساء والأطفال بأنفسهم في النهر ، وكنت ترى النساء الثابتات على نظرتهن الوحشية ، يغرقن الأطفال الذين لا يستطعن حملهم معهن ويشوهن بناتهن حماية لهن من اغتصاب المنتصرين . ويعقب « كريستوفر هيرولد » على ذلك بقوله : « فيا له من لقاء نافع بين حضارة الشرق والغرب ، ولكن النتائج لم تكن مبررة لهذا العناء كله ، لأن بليار أخلى الجزيرة بعد يومين و لم يعد إليها قط . وسواء مكث بها الفرنسيون يومين ، أو عامين ، أو قرنين – فهل يساوي النصر أو الهزيمة هذا الثمن ، وما حظ المواطنين بليار وديفون من التحضر ، إذا كان فيهما هذه الحساسية الشديدة لروعة أطلال مضى عليها خمسة وثلاثون قرنا ، وهذا الإغضاء عن اغتصاب الجسد الحي ؟»[2] .

ونقلا عما كان يشير به يعقوب على ديزيه وبليار وغيرهما ، فقد جند عددا كبيرا من أعوانه في جهاز الجاسوسية الذي أنشأه ، فكانوا يتجسسون على رجال المقاومة وينقلون أخبار تحركاتهم إلى الفرنسيين مما أفاد منه هؤلاء في هجومهم الذي كان يسفر دائما عن خسائر جسيمة نتيجة الخيانة السافرة ليعقوب وأتباعه .

---

(1) بونابرت في مصر ، صفحة 331 .

(2) المرجع السابق ، صفحة 352 .

ويقول « كريستوفر هيرولد » إن جيش ديزيه ويعقوب ذبح في أسيوط ألفا من الفلاحين في 12 مارس 1799 . كذلك لعب يعقوب دورا بالغ الخطورة ، وهو إحداث الوقيعة بين المماليك ، يقول « هيرولد» ، ومع أن قوات الجنرال ديزيه لم تكن لتشرح صدره ، فإنه وجد بعض العزاء فيما وصلت إليه حال المماليك هم أيضا من سوء كما دلت على ذلك جميع التقارير التي وصلت إلى المعلم يعقوب . كان رجال مراد يهجرون جيشه زرافات وينضمون إلى جيش ديزيه بعد أن فتنتهم ولاريب دعاية القبطي البارعة . ودب الشقاق بين البكوات .

ولم يقف المعلم يعقوب عند هذا الحد ، بل جمع المتطوعين من المسيحيين المصريين وكون منهم فيلقا أسماه « الفيلق القبطي » عينه الفرنسيون قائدا له[1] . هذا بالإضافة إلى ما عهد إليه به الجنرال كليبر ، الذي تولى قيادة الحملة بعد رحيل بونابرت عن مصر من مسئولية تنظيم مالية البلاد ، وقد أثبت في كل ما عهد إليه به وفاء وإخلاصا للفرنسيين فعينوه مستشارا للمدعو « إستيف » مدير الإيرادات العامة .

فلما تولى الجنرال مينو قيادة الحملة عقب قتل كليبر بيد المجاهد المسلم سليمان الحلبي أصدر أمره بترقية يعقوب إلى رتبة الجنرال وجعله مساعدا للجنرال « بليار » في مارس 1801 ليقاوم جيش الخلافة الإسلامية الذي شرع في طرد الفرنسيين من

---

(1) يقول الجبرتي (مظهر التقديس ج2 ، صفحة 129) في أحداث 1800 ميلادية : ومنها أن يعقوب القبطي اللعين لما تظاهر (تعاون) مع الفرنساوية وقلدوه صاري عسكر القبطية (كبير الأقباط) جمع شبان القبط ، وحلق لحاهم وزياهم (ألبسهم) بزي مشابه لعسكر الفرنساوية مميز عنهم بقبع (قبعات) يلبسونه على رءوسهم لشكل البرنيطة ، وعليها قطعة فرو سوداء من جلد الغنم في غاية البشاعة ، مع ما يضاف إليها من قبح صورهم وسواد أجسامهم وزفارة أبدانهم ، وجعلهم عسكره وعزوته (أتباعه) ، وجمعهم من أقصى الصعيد . وهدم الأماكن المجاورة لحارة النصارى ، التي هو ساكن بها خلف الجامع الأحمر . وبنى له قلعة وسورها بسور عظيم وأبراج ، وباب كبير ، يحيط به بدنات (قواعد وجوانب) عظام . وكذلك بنى أبراجا في ظاهر الحارة جهة بركة الأزبكية . وفي جميع السور المحيط والأبراج طيقان للمدافع ، وبنادق الرصاص على هيئة سور مصر ، الذي رممه (أصلحه) الفرنساوية ورتب على باب القلعة الخارج والداخل عدة من العسكر الملازمين للوقوف ليلا ونهارا ، وبأيديهم البنادق على الطريقة الفرنساوية .

مصر . ثم لم يلبث أن عينه رئيسا لجهاز الجاسوسية الذي أنشأه للتجسس على دولة الخلافة في الشام بعد ما عرفه عن مهارته في التجسس على قوات المقاومة الشعبية أثناء حملة الصعيد التي قادها مع ديزيه ، وألحق به شخصا يدعى « لاسكاريس » وهو فارس صليبي من فرسان القديس يوحنا .

فلما حلت الهزيمة بالحملة الفرنسية ووافقت على تسليم القاهرة ، والخروج من مصر نهائيا اشترطت فرنسا أن تضمن الاتفاقية التي تقرر إبرامها في هذا الشأن نصا يتعلق بيعقوب وفيلقه القبطي ، فما كان يمكن للرجل الذي حارب بلده وقتل مواطنيه وارتبط ارتباطا لا رجعة فيه بالغزاة المغتصبين أن يبقى في مصر ، لأنه يعرف مصيره المحتوم . فلما غادر الجيش الفرنسي القاهرة صحبه مع فيلقه . ولكن الرجل الذي كرمه الفرنسيون وأسندوا إليه الوظائف الهامة وعينوه « جنرالا » وسلطوه على الناس يأمر وينهى ويظلم ويبغي ، لم يكد يضع قدميه على الباخرة الإنجليزية التي خصصها الإنجليز مع غيرها من البواخر لإجلاء الجيش الفرنسي حتى بادر إلى خلع رداء الولاء لفرنسا والإعلان عن استعداده لموالاة الإنجليز .

بداية ظهور فكرة القومية المصرية :

لم يكد يعقوب يستقر على ظهر الباخرة الإنجليزية « بالاس » حتى صرح لقائدها ويدعى « جوزيف إدموندز » : « أن من رأيه أن أية حكومة تحكم مصر تفضل حكومة الترك ، وأنه انضم إلى الفرنسيين بدافع من رغبته الوطنية في تخفيف آلام مواطنيه ، وأن الفرنسيين خدعوهم ولهذا فالمصريون الآن يحتقرونهم احتقارهم للترك فيما مضى ، وأنه لا يزال يأمل في خدمة بلاده بواسطة الحكومات الأوروبية ويعتقد أن رحلته إلى فرنسا سوف تسفر عن هذه النتيجة . وقد جعله الفرنسيون يعتقد أن بلادهم أقوى بلاد أوروبا ، و لم يكن يعرف شيئا عما لإنجلترا من قوة بحرية عظيمة ، ومع ذلك فقد كان يعلم أنه بغير تأييد بريطانيا العظمى فإن رغبته في أن يرى وطنه

يتمتع بالاستقلال مقضي عليها بالفشل »[1] .

وقد قام الكابتن إدموندز برفع مذكرة إلى وزير البحرية الإنجليزية مؤرخة في 4 أكتوبر سنة 1801 قال إن الذي قدمها إليه هو المدعو لاسكاريس الذي قال عنه إنه لم يستطع أن يفهم إن كان هو نفسه عضوا في الوفد (وهو الجماعة التي أطلق عليها يعقوب اسم الوفد المصري) أم إنه كان يتصرف بوصفه سكرتيرا ليعقوب الذي كان قد مات على ظهر السفينة . ومن أهم النقاط التي وردت في المذكرة قول لاسكاريس على لسان يعقوب : « وإذا كانت مصر ذات الماضي المزدهر العظيم لا تستطيع أن تحرك في دول أوروبا شعور العرفان بجميلها ، فهي تستطيع أن تثير الشعور بالشفقة فيها ، فإن ردت لنفسها فهي تستطيع بهذا الوصف أن ترضي كل الحكومات الطامعة فيها وبهذا لا تنزل بأحد أذى » . وفيما يتعلق بموقفه من دولة الخلافة يقول « إن الإمبراطورية العثمانية توشك أن تتداعى من كل جانب ولذا فمن المهم للإنجليز أن يلتمسوا عن بعد الوسائل المضمونة للاستفادة من عهد تمزيقها التاريخي بأنسب طريقة تحقق مصالحهم السياسية المستقلة » .

وفي رده على السؤال الذي طرحه بنفسه وهو : كيف يحكم المصريون أنفسهم ؟ يقول « إن إنشاء هذه الحكومة (يقصد الحكومة التي يقترح إقامتها) لن يكون قط نتيجة لثورة استحدثها نور العقل أو اختيار المبادئ الفلسفية المتصارعة ، ولكن تغييرا تجريه قوة قاهرة على حياة قوم وادعين جهلاء يكادون لا يعرفون في الوقت الحاضر إلا عاطفتين تحركان الأخلاق : المصلحة ، والخوف » . وفي إجابته على السؤال الثاني الذي طرحه هو نفسه أيضا ، وهو كيف يدافع المصريون عن استقلالهم ؟ قال « كيف يدافع المصريون عن استقلالهم ؟ وهل سيكون هذا الدفاع ضد الأوروبيين ؟ إن هذا لا يمكن أن يحدث إلا بعد وقت طويل ، وعندما تصبح القوة القومية منظمة وتكون قد اكتسبت الاحترام . أم أن هذا الدفاع عن الاستقلال

---

(1) تاريخ الفكر المصري الحديث ، الجزء الأول ، صفحة 189 .

سيكون ضد الترك والمماليك ؟ في هذه الحالة نعتقد أن الدول الأوروبية يمكنها أن ترد عنهم كل عدوان يقع على مصر . وبالإضافة إلى هذا ففي إمكان المصريين أن يستخدموا على حسابهم قوة أجنبية مساعدة مؤقتة يتراوح عددها بين 12 ألف رجل و 15 ألف رجل يكفون وزيادة لإيقاف الترك عند الصحراء ولتحطيم المماليك في داخل مصر ، وستصبح هذه القوة نواة القوة القومية »[1] .

وأول ما يلاحظ على هذه المذكرة ، أسلوبها الأدبي الراقي وما اشتملت عليه من معلومات عن مصر القديمة ومجدها الغابر وحضارتها المندثرة وما كان لها من فضل على العالم . وهذا وذاك مما لم يكن يعقوب يملكه . فهو لم يكن بالأديب أو الكاتب البارع ، وإنما هو مجرد محصل ضرائب لا يعرف غير الأرقام ولا يجيد غير سرقة الفلاحين والحكومة معا . ولم يكن يفوق جهله بالأدب غير جهله بالتاريخ . وهو ما كان يتساوى فيه مع غيره من المصريين . ويقول كريستوفر هيرولد في هذا الصدد « إن من بين ما كان قائما في مصر قبل الغزو الفرنسي لها آثار حضارة قديمة خلع عليها الناس ، حتى الأوروبيون ، جوا من الخرافة »[2] .

ومما يدل على أن الأقباط لم يكن لديهم أي فكرة عن « أجدادهم » المزعومين ، ما كتبه ابن جبير في رحلته عن الأهرامات التي رآها عند زيارته لمصر عام 578 هجرية ، حيث قال : « للناس في أمرها اختلاف : فمنهم من يجعلها قبورا لعاد وبنيه ، ومنهم من يزعم غير ذلك وبالجملة فلا يعلم بشأنها إلا الله عز وجل »[3] . فلو أن « الأقباط » كانوا يعرفون شيئا عن هذه الأهرامات التي أقامها « أجدادهم » لأذاعوه في الناس كدليل على معرفتهم بهم باعتبارهم ورثتهم . ولكنهم لم يفعلوا ذلك إلا بعد أن استقرت الحملة الفرنسية في مصر ، وبدأت تحدثهم عن علاقتهم بالفراعنة .

حضارة قديمة خلع عليها الناس ، حتى الأوروبيون ، جوا من الخرافة فلماذا يشذ

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 192 .

(2) بونابرت في مصر ، صفحة 363 .

(3) ابن جبير ، الرحلة ، صفحة 26 .

يعقوب عن كل مواطنيه ، بل وعن الأوروبيين أيضا فيعلم دون غيره بما أسداه الفراعنة للحضارة من خدمات ، وما لهم عليها من أفضال ؟ .

ومع ذلك ، فإنه من المحتمل أن يكون يعقوب قد سمع كلاما مما يحمل هذه المعاني من بعض علماء الحملة الفرنسية الذين كان يخالطهم ، أو حتى من بعض المترجمين الذين كانوا في صحبة الحملة[1] ، حيث إنه لم يكن لديه إلمام باللغة الفرنسية ، وهو الاحتمال الأرجح ، وإن هؤلاء وأولئك كانوا يتعمدون أن يلقنوا يعقوب هذه المعلومات بقصد خلق الاعتقاد لديه بأنه « صاحب الحق » في هذا البلد ، وبالتالي يصبح أكثر استعدادا لخيانة أبناء بلده الذين ليسوا أصحاب حق . وهي طريقة معروفة يلجأ إليها المستعمرون الغربيون دائما لإشاعة الفرقة بين أبناء الوطن الواحد . وكان بونابرت قد أعلن عند شروعه في الهجوم على الشام أنه يهدف من هذا الهجوم إلى هزيمة عبد الله باشا الجزار والي عكا والاستيلاء على غزة ويافا وعكا ، ثم يهدف ثانيا : إلى تأليب المسيحيين والدروز على الدولة العثمانية ، وترك الباقي للظروف[2] . أي أن تأليب الأقليات الدينية على الأغلبية المسلمة ، وعلى الدولة العثمانية كان من أهداف الحملة ، فيكون تلقين علماء الحملة ، أو بعض مترجميها معلومات عن التاريخ المصري القديم ليعقوب وإيهامه بأنه وكل الأقباط هم ورثة هذه الحضارة البائدة متسقا مع أهداف الحملة . ومع ذلك فإنه ليس كل من سمع حديثا أو أحاديث في التاريخ أصبح مؤرخا بل وأديبا أيضا يصيغ مثل هذا المشروع !!

لذلك فإننا ، على ضوء ما تقدم مضافا إليه ما سوف نورده فيما يلي ، نرجح أن المشروع من وضع آخرين ، غير يعقوب ، هم بالتحديد فرسان القديس يوحنا ، أو فرسان مالطة كما أصبحوا يسمون . وسواء أن يكون المدعو لاسكاريس أحد الذين ساهموا في وضعه وصياغته ، أم أنه وضعه وصاغه بمفرده ، فإن من يتفحص

---

(1) الجبرتي ، مظهر التقديس ، الجزء الأول ، صفحة 82 .

(2) إدوار عطية ، العرب ، صفحة 208 .

المشروع سوف يلاحظ أن الروح التي تسري فيه هي روح طائفة فرسان مالطة .

وعلى الرغم من تفاهة مضمون هذه المذكرة ، وهو الأمر الذي ظهر بوضوح لمن وجهت إليهم ، وسوء الدوافع التي جعلت يعقوب ينوب عن أصحابها في تقديمها إلى الحكومة الإنجليزية[1] ، إلا أن البعض أبى أن يجعل منها إحدى الملامح الهامة لما يسمى بالفكر المصري الحديث ، ويعتبر مقدمها صاحب فكر « استقلالي » ، بينما هو في الحقيقة إنسان موتور دفعته كراهيته الشديدة لدولة الخلافة إلى الرضا بأن يحتل مصر جيش أجنبي مأجور ، وهي التي لم تقبل أن يحتلها الجيش الفرنسي بدون مقابل ، وثارت عليه وحازبته حتى رضي بالجلاء عنها ، وهو ما أوغر صدر يعقوب ضد الفرنسيين فبادر إلى نقل ولائه إلى الإنجليز مدعيا كذبا أنه لم يكن يعلم شيئا عن قوتهم ، وأنهم أقوى من الفرنسيين . أي أنه لو كان يعلم للجأ إليهم من البداية . وليس هناك أدنى شك في أن بريطانيا كانت تعلم أنه كاذب وأنه لم يكن يجهل ما هي عليه من قوة ، كما أنها كان لديها من المعلومات المتعلقة بولاء المصريين لدولة الخلافة وإيمانهم الذي لا يتزعزع بمبدأ الوحدة الإسلامية ما يجعلها لا تصدق حرفا مما جاء بمذكرته التي قال فيها : « إن طول استعباد المصريين تحت يد الترك والمماليك قد حرم مصر من النور الكافي لتكوين رأي عام بصير يمكن أن يخرج منه عمل سياسي لتغيير نظام الحكم » ولذلك فإنه يقترح أن يكون التغيير بواسطة القوة القاهرة ، أي الغزو الصليبي الذي يمكنه من تقلد زمام الحكم في مصر .

ولقد زعم يعقوب أنه مفوض من أعيان مصر لمفاوضة دول أوروبا في استقلال مصر . ومما يثير الدهشة أن يقول الدكتور أنور عبد الملك [2] « إن يعقوب ، كما نعلم كان يتصرف باسم « مفوضية مصرية لدى الحكومات الأوروبية وباسم المصريين » . وهكذا تحولت مزاعم يعقوب إلى حقيقة ، ادعى الدكتور أنور عبد الملك أننا نعلمها . وكان في موضع آخر من كتابه قد تكلم عن هذه « المفوضية »

---

(1) بونابرت في مصر ، صفحة 19 .

(2) نهضة مصر ، صفحة 282 .

بطريقة تدل على شكه في وجودها ، ثم إذا به يذكرها بعد ذلك باعتبارها حقيقة ، وهو أسلوب يتبعه هو وغيره ، حيث يذكرون الأمر بطريقة يفهم منها أنهم غير متأكدين من حدوثه ، ثم بعد ذلك يذكرونه على أنه أمر حقيقي ، ويحاولون إيهام الناس بوجوده أو بحدوثه . وكنا نود أن يذكر لنا الدكتور أنور عبد الملك شيئا عن هذه « المفوضية المصرية » لدى الحكومات الأوروبية التي كان يعقوب يتحدث باسمها وبـ (اسم المصريين) وربما كان يقصد بـ (المفوضية) ما قاله لويس عوض من أن يعقوب كان قد ذكر في مذكرته المزعومة أنه يوصي بأن تخاطبه إنجلترا على عنوان في تريستا ذكره لهم وأنه سوف يتولى بعد ذلك إبلاغ أعضاء ما وصفه بأنه (الوفد المصري) أينما كانوا . علما بأن شيئا من هذا كله لم يحدث نظرا لهلاك يعقوب على السفينة البريطانية بعد رحيلها من الإسكندرية بقليل ، وبذلك انتهت اللعبة التافهة . ويا حبذا لو أن الدكتور أنور عبد الملك ذكر لنا أسماء بعض المصريين الذين زعم أن يعقوب كان يتحدث باسمهم غير المعلم جرجس الجوهري والمعلم أنطون أبو طاقية والمعلم فلتاءوس ، والمعلم ملطي وشكر الله القبطي [1] ، وهم الذين اجتمع بهم قبل مغادرته لمصر .

أما الوفد المصري الذي قال يعقوب إنه يرأسه للتفاوض في استقلال مصر ، فإن المعروف أن غالبيته كانوا من أعضاء الفيلق القبطي الذين كانت أيديهم لا تزال تقطر بدماء الأبرياء من أبناء مصر الذين كان كل ذنبهم أنهم تصدوا للعدوان الفرنسي ، أما بقية الوفد المزعوم فكانوا من المسلمين الخونة ممن كانوا أسرى في مالطة وأفرج عنهم بونابرت لما احتل الجزيرة وجندهم للتجسس على إخوانهم ، فضلا عن بعض المماليك من أصل أوروبي الذين كان الأتراك قد أسروهم في حروب البلقان وبعثوا بهم إلى مصر ، ولأنهم كانوا شبابا حين أسرهم فإنهم لم ينسوا أصلهم ولا دينهم ، فلما غزا الفرنسيون الصعيد ، حيث كانوا يقيمون ، استسلموا لهم وطلبوا منهم أن يعيدوهم إلى أوطانهم ، ومع هؤلاء وأولئك سافرت بعض النساء اللاتي كن قد

---

(1) الجبرتي ، المرجع السابق ، الجزء الثاني ، صفحة 75 .

حضرن على الطريقة الفرنسية فاحترفن البغاء فلما رحل الفرنسيون صحبنهم هربا من العقاب الشديد .

ويقول الجبرتي « وفي يوم الأربعاء خرج المسافرون مع الفرنساوية إلى الروضة والجيزة بمتاعهم وحريمهم ، وهم جماعة كثيرة من القبط وتجار الفرنج والكرجمين وبعض المسلمين ممن تداخل معهم ، وخاف على نفسه بالتخلف ، وكثير من نصارى الشوام والأروام ، مثل يني ، وبرطلمين ، ويوسف الحموي وعبد العال الأغا »[1] .

وبلغ العدد الإجمالي لهؤلاء وأولئك 760 من الأقباط والأروام والمماليك والبغايا فياله من وفد ، وياله من استقلال يدعو إليه أمثالهم !!

وقد اختلفت الآراء بشأن حقيقة مشروع « يعقوب » الاستقلالي ؛ فالمؤرخ محمد شفيق غربال يرى أن هذا المشروع ليس من وضع يعقوب وإنما هو من نسج خيال « لاسكاريس » الذي عرف بغرابة الأطوار ، وهو ما يوحي بإمكانية أن يكون قد أقدم على وضع هذا المشروع . ولكن الدكتور لويس عوض لم يرضه إلا أن يكون أول مشروع « لاستقلال مصر » وبالتالي أول حجر في صرح ما يسمى بالقومية المصرية من وضع مجنون ، وإن كان هو نفسه قد قال عنه إنه كان شخصية « دون كيشوتية » ونفى بشدة أن يكون ما ذهب إليه شفيق غربال صحيحا واستشهد بما قاله « دووان » من أن مذكرة لاسكاريس تمثل أفكار الجنرال يعقوب تمثيلا دقيقا ويقول : « وأيا كان الأمر فشهادة الكابتن إدموندز قائد السفينة الإنجليزية التي استقلها يعقوب في هروبه من مصر ، تدل على وجه القطع على أن رأي شفيق غربال لا محل له إطلاقا ، بل وغريب في بابه . فالكابتن إدموندز وهو رجل محايد حين يتكلم عن الجنرال يعقوب لا يدخر كلمة من كلمات الاحترام لهيبته ونقاء سمعته ونفوذه الواسع[2] . ولا ندري من أين عرف إدموندز هذه الصفات عن يعقوب وهو

---

(1) المرجع السابق .

(2) تاريخ الفكر المصري الحديث ، صفحة 188 .

الذي لم يلتق به إلا يوم صعد إلى سفينته هاربا خائفا مدحورا يبحث لنفسه عن مكان يلوذ به ، وأي هيبة هذه التي يمكن أن تكون لخائن سفاح غدر بأهل بلده وأي سمعة هذه التي يمكن أن توصف بالنقاء وكل ما عرف عن صاحبها أنه منافق وصولي لا يحفظ عهدا ولا يفي بوعد . أما نفوذه فإننا لا نشك فيه بل نؤكده ، وكيف لا وقد كان قويا على من فروا معه من أعضاء فيلقه القبطي والبغايا الهاربات .

ويعبر الدكتور لويس عوض عن خشيته من أن يكون مشروع الاستقلال مشروعا فرنسيا أو موحى به من الفرنسيين بقصد تحييد مصر بين فرنسا وإنجلترا وتركيا ، أو إعلان استقلالها أو سلخها بأية طريقة من الطرق من الإمبراطورية العثمانية بعد أن يئسوا من امتلاكها واضطروا إلى الجلاء عنها ، وأن الفرنسيين قد أرادوا أن يستتروا وراء هذا القناع المصري لبلوغ هذه الغاية حتى تكتسب هذه المطالب الشرعية اللازمة بصدورها من « أصحاب الحق الأصليين » !! فينظر فيها الإنجليز ، بدلا من المناداة بها مباشرة كمناورة صريحة من مناورات السياسة الدولية فيرفضها الإنجليز وحلفاؤهم الترك جميعا [1] .

مرحى مرحى ، مشروع استقلال مصر موحى به من فرنسا ويضطلع بتنفيذه يعقوب وفلتاءوس وملطي ولاسكاريس وتدعو إليه البغايا الهاربات وهؤلاء هم الذين وصفهم لويس عوض بأنهم « أصحاب الحق الأصليين » !!

وعلى الرغم مما في قول لويس عوض من إدانة واضحة ليعقوب وشركائه الذين لم يكونوا أكثر من أداة في أيدي الفرنسيين ، غير أننا نشك في أن يكون لفرنسا دور في هذا المشروع لأنها لم تكن بحاجة إلى الاستعانة بيعقوب أو بغيره لإقناع الإنجليز بتبني مشروع استقلال مصر عن دولة الخلافة ، فقد كان بوسعها أن تفاوض الإنجليز بشأن هذا المشروع ، بل وأن تتخذ منه ورقة تلعب بها في صراعها مع إنجلترا . والدليل على ذلك ما قاله الكاتب الإنجليزي « كريستوفر هيرولد » في شرحه لمحاولات

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 202 .

فرنسا الانتصار على إنجلترا : « فإذا أريد للحرب مع إنجلترا أن تنتهي بالنصر ، أو بالتعادل على الأقل ، فإنه يبدو أن محاولة شن هجوم مباشر على الجزر البريطانية محاولة غير عملية ، لأنها أشد الوسائل خطرا ونفقة ، وأقلها وعدا بالمال . أما الوسيلة الأخرى وهي الاستيلاء على مصر وتهديد الهند ، فهي وإن لم تكره إنجلترا على الركوع ذليلة على ركبتيها ، إلا أنها أرخص كثيرا ، والأخطار الحربية التي تكتنفها قليلة وهي على أسوإ تقدير تضع فرنسا في موقف يتيح لها مساومة أفضل إذا أتت مفاوضات الصلح »[1] .

كذلك فقد كان في مقدور الفرنسيين أن يعلنوا استقلال مصر عن دولة الخلافة أثناء احتلالهم لها ، بغض النظر عن قدرتهم على الإبقاء على هذا الاستقلال أم لا . ولكنها ، أي فرنسا ، كانت تدرك أن هذا العمل سوف يسعد إنجلترا أشد السعادة لأن انفصال مصر واستقلالها عن الخلافة العثمانية سيعد خطوة في طريق الاستيلاء عليها ، وهو ما كانت تتطلع إليه منذ أن استولت على الهند ، ولكنها كانت تتحرج من ذلك نظرا لعلاقتها بالدولة العثمانية التي كانت مصر جزءا منها ، أما بعد الاستقلال فإنها لن تشعر بهذا الحرج . وذلك بعكس الفرنسيين ، فإن استقلال مصر لم يكن ليفيدهم في شيء بعد أن قضت إنجلترا على أسطولهم في معركة أبي قير وفشلهم في الاستيلاء على عكا ، ثم تدهور أحوال جيشهم في مصر نتيجة للمقاومة الشديدة التي أبداها المسلمون ، عربا وتركا ومماليك وحجازيين ومغاربة ، ولذلك فإن فرنسا كانت تفضل بقاء مصر جزءا من دولة الخلافة لأن ذلك من شأنه أن يحول دون استيلاء إنجلترا عليها وبالتالي تواجه ما واجهته هي ذاتها من مقاومة ضارية ، فضلا عن أن عودة مصر إلى دولة الخلافة يعني أن تبقى الغنيمة المرتقبة كاملة بحيث إنه حين يأتي اليوم الذي يجري فيه توزيعها يكون نصيب فرنسا أكبر بموجب قواعد التوزيع .

وكان يعقوب قد اتهم الفرنسيين بأنهم خدعوه ، ولكن الدكتور لويس عوض

---

(1) بونابرت في مصر ، صفحة 25 .

يحاول أن يوهم الناس بأن ذلك كان من قبيل التمويه بينما الحقيقة هي أن يعقوب لم يتردد في خيانة سادته الفرنسيين بعد خروجهم من مصر كما سبق أن خان سادته المماليك وخان أبناء بلده ، بل وبلده ذاتها . ذلك لأنه جبل على الخيانة . ولقد كان يعقوب يتوقع أن يعهد الفرنسيون إليه بأمر مصر لما شرعوا في الجلاء عنها ، خاصة وأنهم كانوا قد جعلوا منه « جنرالا » وتركوه يكون جيشا هو الفيلق القبطي ، فضلا عن اعتماده على جهات أخرى ، كما سوف نرى ، يمكنه أن يعتمد عليها في حكم مصر « المستقلة » ، بل إنه كان قد جرب أن يكون حاكما لمصر وذلك عقب ثورة القاهرة الثانية سنة 1799 ، حيث قلد « كليبر » الأقباط المناصب الجليلة ووزع عليهم الأقاليم والتزموا له بجمع الأموال . ويقول الجبرتي [1] :

« ونزل كل كبير منهم إلى إقليم وأقام أبهة نفسه ، وتمثل في صورة أمير كبير ، ومعه عدة من العساكر الفرنساوية وصحبته الكتبة والصيارف والأتباع والأجناد من الغز (المماليك) البطالة وغيرهم ، والخيام والخدمة والفراشين والطباخين والحجاب ، وتقاد بين يديه الجنايب (الخيول الأصيلة) والبغال والرهوانات والخيول المسومة والقواسة والمقدمون ، وبأيديهم الحراب المفضضة والمذهبة والأسلحة الكاملة . ويرسل إلى ولايات الأقاليم من جهة المستوفين (المحصلين) من القبط أيضا بمنزلة الكشاف ، ومعهم العسكر من الفرنسيس والطوائف والجاويشية والصيارف والمقدمون على الشرح . فينزلون على البلاد والقرى ، ويطلبون المال والكلف الشاقة بالعسف ، ويضربون لهم أجلا بالساعات فإن مضت ولم يوفوهم المطلوب ، حل بهم ما حل من الحرق والنهب والسلب والسبي وخصوصا إذا فر مشايخ البلدة من خوفهم وعدم قدرتهم ، وإلا قبضوا عليهم وضربوهم بالمقارع والكسارات (العصي الغليظة) على مفاصلهم وركبهم ، وسحبوهم معهم في الحبال ، وأذاقوهم العذاب والنكال » .

---

(1) المرجع السابق ، الجزء الثاني ، صفحة 65 .

ويبدو أن يعقوب أعجبه هذا الوضع وغلب على ظنه إمكانية استمراره طالما أن جيشا فرنسيا لا يزيد عدده على خمسة عشر ألف جندي استطاع أن يسيطر على الناس بهذه الطريقة ، فلماذا لا يفعل هو نفس الشيء ، ولذلك اقترح في مشروع الاستقلال المزعوم استئجار جيش أوروبي تعداده اثنا عشر ألفا إلى خمسة عشر ألف جندي ينفق عليه من الأموال التي نهبها من الناس ، ومما سوف ينهبه فيما بعد في ظل الخوف الذي قال إن المصريين لا يعرفون غيره . ولكنه فوجئ بهم يتخلون عنه فاستشاط غضبا وأسرع يعرض نفسه على الإنجليز حالما وضع قدميه على سفينتهم . وفاته أن يدرك أن الفرنسيين إذا كانوا قد تخلوا عنه ، كما تصور ، فإنهم إنما فعلوا ذلك لسبب بسيط للغاية ، ما كان يجب أن يغفل هو عنه خاصة وأنه ولد وعاش في مصر الإسلامية ، ولكنه ، كما هو واضح ، كان فضلا عن خيانته ، أحمق ضيق الأفق لا يرى أبعد من أنفه لذلك غلب على ظنه أن الفرنسيين أساءوا إليه وإلى فيلقه ، بينما هم في الحقيقة قد أحسنوا إليه بأن اشترطوا على الإنجليز أن يحملوه من مصر مع فيلقه والبغايا إنقاذا لهم . ذلك لأن الفرنسيين كانوا يدركون عمق المشاعر نحو الخلافة الإسلامية لدى المسلمين المصريين تلك المشاعر التي كانوا هم أنفسهم يعملون على إرضائها تفاديا لإثارة غضب المسلمين والاصطدام بهم ، وهو ما لمسه كل من قام بدراسة الحملة الفرنسية على مصر ومنهم « كريستوفر هيرولد » الذي قال : [1] « كان الإسلام بالطبع هو الحائل الأكبر دون وجود هذا الجو المنشود من الثقة المتبادلة . ففي وسع بونابرت أن يعلن في اليوم ثلاث مرات أنه ليس مسيحيا وأن جنوده ليسوا مسيحيين ، وأن الفرنسيين سجنوا البابا وأغلقوا الكنائس ، وأنهم يحترمون الإسلام . وكل هذا حق في كثير أو في قليل ، ولكن الفرق بين المسيحيين والربوبيين أو عباد آلهة العقل والكائن الأعظم الحيريين الطبيعيين والملحدين واليهود ، هذا الفرق كان في نظر المسلمين طفيفا لا يعتد به ، فكلهم غير مسلمين ، إذن فكلهم كفار . أما المماليك والعثمانيون فمسلمون : صحيح أنهم

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 195 ، وانظر أيضا : ب . ح . الحود ، مصر ، صفحة 69

قد يعتصرون أرزاقهم ويستنزفون أملاكهم ، ولكنهم إخوة لهم . وما إن أذل الفرنسيون المماليك البغيضين حتى أصبح هؤلاء المماليك البغيضون موضع الشفقة والرثاء . ولما تدخل شيوخ القاهرة فأطلق بونابرت سراح الأسرى المماليك « دخل كثير منهم إلى الجامع الأزهر وهم في أسوإ حال وعليهم الثياب الزرق المقطعة فمكثوا به يأكلون من صدقات الفقراء المجاورين به ويتكففون المارين ، وفي ذلك عبرة للمعتبرين ، كما يقول الجبرتي »[1] .

كذلك فإن طموح يعقوب وشراهته وطمعه جعلته يعجز عن إدراك الحقيقة وهي أن الفرنسيين لم يكن في نيتهم ، منذ البداية ، أن يتركوا مصر لا له ولا لغيره . وهو ما صرح به الزعماء الذين أيدوا توجيه الحملة إلى مصر ، ومنهم (تاليران) الذي قال في خطاب سري أرسله إلى « روفان » القائم بالأعمال الفرنسي في الآستانة بعد انتصار الأسطول الإنجليزي على الأسطول الفرنسي في خليج أبي قير بيومين والذي جاء فيه : « إن جميع تجارة البحر المتوسط .. يجب أن تنتقل إلى أيدي الفرنسيين ، تلك هي الرغبة الخفية لحكومة الإدارة ، ثم إنها ستكون النتيجة المحتومة لمركزنا في ذلك البحر .. ومصر التي كانت فرنسا تتمنى على الدوام الاستيلاء عليها هي بالضرورة من نصيب الجمهورية . ومن حسن الحظ أن أتاح لنا موقف المماليك ، الذي غلبت عليه الوقاحة والوحشية باستمرار ، وعجز الباب العالي عن الانتصاف لنا منهم ، أن ندخل جيشا في مصر وأن نثبت أقدامنا دون أن نعرض أنفسنا لتهمتي الاغتصاب والجشع .. إن الإدارة مصممة على الاحتفاظ بمركزها في مصر بكل الوسائل الممكنة » .

ويعلق « كريستوفر هيرولد » على هذا الكلام قائلا[2] : ولما كان الأتراك لا يعرفون سر الشفرة الفرنسية فالراجح أنه لم يتح لهم قط فرصة الاستمتاع بالاطلاع

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 83 .

(2) المرجع السابق ، صفحة 183 .

على هذا الاعتراف الصفيق بالنفاق العربي ، ولكنهم كانوا يعرفون ما يكفي لتجنبهم الانخداع بأكاذيب الفرنسيين الساذجة .

ليس ذلك وحسب بل إن الجنرال « مينو » لم يتورع عن التصريح بأن الفرنسيين لن يتركوا مصر على الرغم من الظروف الحرجة التي كانت الحملة تواجهها قبل الانسحاب النهائي بأسابيع قليلة . فقد قال في خطابه إلى الديوان « اعلموا أن أرض مصر استقر ملكها للفرنساوية ، فلازم من اعتقادكم ذلك ، واركزوه في أذهانكم ، كما تعتقدون وحدانية الله تعالى » .

ومع ذلك يزعم البعض [1] أن إقامة بونابرت للديوان الذي ضم إليه كبار المشايخ « يمثل بداية إقامة سلطة سياسية مصرية ، وطنية ونيابية وتدريب أساسي لأعيان مصر في مجال الحكم ، وهو كذلك أداة لاستعادة بعض الحقوق المفقودة » ، بينما بونابرت نفسه يقول في رسالة إلى كليبر : « إذا ما استحوذنا على رأي كبار المشايخ فإننا نكون استحوذنا على رأي مصر بأسرها وعلى رأي جميع الرؤساء لهذا الشعب ، ولا يوجد من هو أخطر علينا من هؤلاء المشايخ الوجلين ، الذين لا يعرفون القتال والذين يوحون بالتعصب دون أن يكونوا متعصبين ، مثل جميع القساوسة » فهو لم يشر إلى إقامة سلطة سياسية مصرية وطنية ولا إلى تدريب ولا إلى رد بعض الحقوق وإنما يذكر فقط الاستحواذ على المشايخ لما فيه مصلحته فهل هناك كذب وتضليل أكثر من هذا ؟

ففرنسا إذن لم تكن تفكر في احتلال مصر ثم تركها ، لا لتركيا ولا لأبنائها ولا ليعقوب ، وإنما كانت تنوي الاحتفاظ بها لنفسها . ولو أنها نجحت في هذا المسعى ، فإنها لم تكن لتجعل من يعقوب حاكما لمصر لإدراكها التام لما يؤدي إليه ذلك من اضطرابات عنيفة تهددها هي ذاتها في مصالحها وفي وجودها في مصر . وقد لمسوا هذا أثناء وجودهم القصير حيث ظهر لهم خطورة النتائج التي كانت تسفر

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 281 .

عنها مواقفهم المنطوية على التحيز أو الممالأة لنفر من الأقباط . فما من مرة عهدت فيها إليهم بأمر من الأمور إلا وأقدموا على إذلال مواطنيهم من المسلمين والتطاول عليهم ، وهو ما أشار إليه المؤرخون كثيرا [1] .

كذلك فإن فرنسا لم تكن لتعهد إلى يعقوب بحكم مصر ، حتى وهي تواجه الظروف التي فرضت عليها ترك مصر التي عادت إلى الخلافة الإسلامية ، سواء لأنها كانت تدرك لا معقولية هذا التصرف وعبثيته ، وما سوف يؤدي إليه من نتائج مروعة ، لا يمكنها باعتبارها دولة تدعي إيمانها بما أسمته نور العقل أن تقدم عليه ، لأسباب إنسانية أو لأسباب نفعية ، أو لأنها كانت قد أجرت حسابات أخرى راعت فيها ما قد يطرأ من تغيرات سياسية لا في المنطقة وحسب بل وفي أوروبا . ولكن يعقوب مثله مثل غيره من الخونة كان أنانيا مغرورا لا يهمه شيء مما سوف يصيب قومه من كوارث ، فكل ما كان يهمه هو أن يحكم مصر لأنه كما أوهمه الفرنسيون وفرسان مالطة ولاسكاريس « صاحب الحق الأصلي » وغيره غرباء ودخلاء .

والراجح أن يعقوب ووفده لم يفاجئوا بالحقيقة المؤلمة ، وهي أنهم لن يحكموا مصر فقبيل أن ينسحب الفرنسيون من مصر ، بعد المقاومة العنيفة التي أبداها الشعب العظيم في الحضر والريف والبادية ، صدرت عنهم بعض التصرفات التي تتجرد من أي معنى يدل على أنهم سيعهدون بالأمر إلى يعقوب وأمثاله . فعندما تولى « كليبر » القيادة بعد هروب بونابرت ألزم الجباة الأقباط بدفع 800 ألف فرنك ، قائلا إنه يكفيهم أن يربحوا عشرة بالمائة من عملهم في تحصيل الضرائب والرسوم . واحتج الأقباط ، وناقشوا ، وبكوا ، ولكن كليبر ظل صلبا لا تلين له قناة .

ولما تولى « مينو » القيادة بعد قتل « كليبر » صرح بأنه « سيعيد النظام إلى نصابه ويعاقب اللصوص (وهم في رأيه يشملون الأقباط جميعا عدا المعلم يعقوب) وقد أعقب هذا الوعيد بالتنفيذ فانتزع جباية الضرائب من يد الأقباط .

---

(1) مظهر التقديس ، الجزء الأول ، صفحة 90 .

ويقول « هيرولد »[1] إن المماليك كانوا يستخدمون الصيارفة الأقباط في جمع الضرائب قبل وصول بونابرت ، وكان مما يؤهل الأقباط لهذا العمل تعليمهم وطاعتهم وخبرتهم بشئون المال واضطر بونابرت للمضي في استخدامهم لأداء هذه المهمة كما كانوا يؤدونها من قبل وإن قدر أن جانبا كبيرا من الأموال التي يجبونها من الفلاحين يحتجزونها لأنفسهم ، فوضع نظاما يشتمل على مراتب ودرجات من الجباة الأقباط ، فكل « ملتزم » يجمع ضرائب إقليم من الأقاليم لديه موظفون في مكتبه يعملون تحت رياسته ، ومندوب فرنسي إلى جواره ، وعلى رأس هؤلاء الموظفين الأقباط كلهم ملتزم عام هو المعلم جرجس الجوهري ، هؤلاء الصيارفة الذين خلعت عليهم الآن صفة رسمية كانوا يسلكون مسالك الحكام على حد قول الجبرتي . يقول « وقيدوا بذلك الصيارف من القبط ونزلوا في البلاد مثل الحكام يحبسون ويضربون ويشددون في الطلب » . فهل كان الفرنسيون على استعداد لترك البلاد لهؤلاء ليقيموا فيها دولة مستقلة بل هل كان هناك أدنى احتمال لقيام مثل هذه الدولة !!

ومع ذلك فإننا لا ننكر تماما أن فرنسا كان لها دور في ظهور وهم القومية الفرعونية لدى يعقوب وجماعته ، ولكنها ما كانت لتفكر أبدا في أن تتحول هذه القومية إلى دولة طالما أنها هي نفسها تحكم مصر ، وكل ما كانت تفكر فيه أن تلعب بورقة القومية هذه ومقولة « أصحاب الحق الأصليين » لضرب عنصري الشعب عملا بمبدإ « فرق تسد » . كذلك فإنها لم تكن تفكر في استقلال مصر على أساس من هذه القومية ، بعد انسحابها منها للأسباب التي سبق ذكرها ، وإنما اكتفت ببذر بذرة القومية الفرعونية في تربة مصر على أن تتعهدها بالعناية لكي تنمو وتترعرع وتصبح قوية قادرة على الصمود في وجه الرياح والأعاصير التي كانت فرنسا على يقين من أنها سوف تهب عاتية كاسحة لكي تقتلع هذه الشجرة الخبيثة .

وعلى هذا فإننا نتفق مع ما ذهب إليه الأستاذ صبحي وحيدة من أن دور فرنسا

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 198 .

اقتصر على التأثير الفكري في يعقوب دون دفعه إلى تقديم مشروعه الخاص باستقلال مصر ، فهو يقول « والأثر الفرنسي في تفكير يعقوب هذا واضح لا يحتاج إلى تبيين قد كان المصريون وقتئذ ، مسلمون ومسيحيون ، لا يذكرون من ماضيهم القديم شيئا ، وكانت فكرة الاستقلال الحقيقي عن السلطة العثمانية لا تخطر لهم على بال ، و لم تكن انتفاضات الأمراء المماليك فيما عدا علي بك الكبير وقد رأينا صلتها بالسياسة الأوروبية والبندقية ، تذهب إلى أكثر من محاولة إيثار أصحابها بالحكم دون الولاة . وما كان من الممكن أن تتجه غير هذه الوجهة والإمبراطورية العثمانية يومئذ هي العالم الإسلامي في مجاهدة المسيحية »[1] .

ومن يقرأ مشروع الاستقلال المزعوم سوف يتبين له صحة ما ذهبنا إليه . ذلك لأن الطريقة التي صيغ بها والمقترحات التي اشتمل عليها تدل على افتقار من وضعوه إلى الحكمة والروية وبعد النظر وبعدهم عن الواقعية وعدم بصرهم بحقائق الأمور وعدم تقديرهم للعواقب وكلها مما تتحرز منه الدول والحكومات على عكس غيرها كالطوائف والجماعات الدينية والسياسية التي عادة ما تتوسل لبلوغ أهدافها بكل الوسائل والطرق ، وقلما تأخذ في حسابها ما تأخذه الدول والحكومات . ومن هنا يمكننا أن نحدد الجهة التي أوحت إلى يعقوب بفكرة استقلال مصر ووضعت له المشروع الخاص بهذا الاستقلال .

علاقة فرسان القديس يوحنا بمشروع استقلال مصر :

كان الأستاذ محمد شفيق غربال بعيد النظر عندما نسب « مشروع استقلال مصر » إلى الفارس المالطي « لاسكاربس » حيث قال إنه هو الذي وضع المشروع . وبطبيعة الحال فإن وضعه له لم يكن بدافع شخصي أو بمبادرة شخصية منه وإنما فعل ذلك بتكليف من طائفة فرسان القديس يوحنا . ولقد أظهر الدكتور

---

(1) المسألة المصرية ، صفحة 174 .

لويس عوض ذكاء شديدا وهو يحاول أن يحول الأنظار عن المصدر الحقيقي لخطة استقلال مصر التي قدمها المعلم يعقوب . فهو ينفي أن يكون « لاسكاريس » الفارس الصليبي في طائفة القديس يوحنا هو صاحب هذا المشروع بل ويتهمه بالدون كيشوتية ، ثم يتركه على أنه لا علاقة له بالأمر كله ويمضي بنا في اتجاه آخر متعمدا إبعادنا عن لاسكاريس . والذي نرجحه أن ما يسمى بمشروع استقلال مصر من وضع الطائفة الدينية التي كان اسمها « فرسان القديس يوحنا » ثم أصبح اسمها « فرسان مالطة » والتي كان لاسكاريس عضوا بارزا فيها .

وكانت الطائفة الدينية التي عرفت في التاريخ أول ما عرفت باسم « القديس يوحنا » أو « الإسبتارية » قد نشأت سنة 1118 في فلسطين أثناء الحروب الصليبية . وقد اشتهرت هي والطائفة الأخرى التي كان اسمها « فرسان الداوية » بالأعمال الوحشية التي ارتكبتها ضد المسلمين . واتخذ الفرسان الإسبتارية شارة تميزهم عن سائر الطوائف ، بأن جعلوا صليبا أبيض على ستراتهم التي يرتدونها فوق أدواتهم الحربية [1] . ولم يكن للإسبتارية من هم غير قتل المسلمين ونهب أموالهم مما جعلها من أكبر ملاك الأراضي بالشرق الأدنى سنة 1187 . ويقول « ستيفن رينسمان » [2] عن الطوائف الحربية الصليبية « ولولا مساعدة هذه الجمعيات أو الطوائف لما بقيت الإمارات الصليبية فترة طويلة . فقد عوضت من لقي حتفه من الرجال في المعارك أو من أصابهم مرض . كما طبقت نظاما كان يتيح للصليبيين الزائرين أن يقاتلوا لموسم أو موسمين ثم يعودوا إلى بلادهم . كما أن هذه الطوائف كفلت مددا دائما من العساكر الأتقياء المحترفين ، الذين لا يكلفون غيرهم شيئا من النفقات ، والذين توافر لهم من الثروة ما يكفي لأن يقيموا من القلاع وينفقوا عليها ، ما لم يتيسر إلا لقلة من سادة الإقطاع العلمانيين .

وبعد قضاء الملك الأشرف خليل بن قلاوون على آخر معاقل الصليبيين في الشام

---

(1) تاريخ الحروب الصليبية ، المجلد الثاني ، صفحة 249 .
(2) المرجع السابق ، صفحة 501 .

سنة 1291 فر فرسان الإسبتارية إلى جزيرة قبرص حيث اتخذوا منها مقرا لهم . وفي سنة 1308 استولوا على جزيرة رودس وأقاموا مقرهم فيها ، حيث أخذوا يتحينون الفرص للهجوم على البلاد الإسلامية وذبح المسلمين . فلما أزمع ملك قبرص المدعو بطرس الأول شن هجوم على فلسطين سنة 1362 زار مقر الطائفة في رودس وحصل على وعد من زعمائها بالتعاون معه . وفي أغسطس سنة 1365 اجتمع عدد كبير من السفن في رودس تمهيدا للهجوم . وفي أكتوبر 1360 ألقى البطريرك بطرس من السفينة الملكية موعظة مثيرة على الملاحين المحتشدين ، فهتفوا : « يعيش ، يعيش بطرس ملك بيت المقدس وقبرص ، رغم أنف العرب الكفرة » وأقلع الأسطول في ذلك المساء ، ولما أضحت جميع السفن في عرض البحر ، جرى الإعلان أنها تقصد الإسكندرية وفي الإسكندرية أجرى المهاجمون مذبحة من أبشع المذابح التي سجلها التاريخ .

وفيما بعد ، وأثناء الحكم المملوكي ، الذي أقام علاقات تجارية نشطة مع البندقية وجنوا ، استطاع فرسان الإسبتارية التسلل إلى مصر منتحلين صفة التجار لممارسة أنشطتهم المعادية للإسلام ومن بينها التجسس . فلما قام الأتراك بضم مصر والشام إلى الدولة العثمانية قطعوا دابر هذه الطائفة وغيرها من مصر .

ذلك لأن الأتراك كانوا يدركون ما تمثله هذه الطائفة وغيرها من خطر على البلاد الإسلامية مما جعلهم يحاولون القضاء عليها في معقلها الحصين في جزيرة رودس التي ضربوا عليها الحصار عام 1480 أثناء حكم السلطان محمد الثاني ولكنهم فشلوا في اقتحامها . وفي عام 1522 كرر السلطان سليمان القانوني المحاولة واستطاع أن يجلي ما تبقى من الطائفة إلى جزيرة مالطة حيث استقروا هناك [1] . وما لبثوا أن استأنفوا نشاطهم المضاد للإسلام [2] . فقد كان هدفهم الأول القضاء على الإسلام بأية طريقة وتنصير المسلمين أو إبادتهم ، وازداد إيمانهم بهذا الهدف واشتد إصرارهم

---

(1) موسحمرى ، الحرب عبر التاريخ ، صفحة 363 .

(2) ب ج . الحود ، مصر ، صفحة 68 .

على بلوغه بعد الهزيمة الأخيرة التي ألحقها بهم الأتراك . لذلك فإن قيام الحملة الفرنسية على مصر كان فرصة عظيمة بالنسبة لهم ، فقد انضموا إلى الكتيبة المالطية التي ألفها بونابرت ، من نحو الألفين ، من المرجح أنهم كانوا يمثلون غالبيتها نظرا لأنهم كانوا القوة العسكرية الوحيدة في الجزيرة التي كانت تخضع لحكمهم .

وهكذا وصلوا إلى الإسكندرية بصحبة بونابرت تتأجج في نفوسهم الرغبة في الانتقام من الأتراك ، بل ومن كل المسلمين والثأر منهم لما ألحقوه بهم من هزائم ، وسعيا إلى تحقيق الهدف الأساسي للطائفة وهو هزيمة المسلمين والقضاء على أهم سبب في قوتهم وهو وحدتهم وذلك بالعمل على فصل مصر عن الدولة العثمانية [1] .

وهكذا وجدت الطائفة الدينية المتعصبة ، طائفة القديس يوحنا أو الإسبتارية ، ممثلة في أحد فرسانها المدعو لاسكاريس ، الفرصة للشروع في تحقيق أحد أهدافها الهامة وهو فصل مصر عن الدولة العثمانية ببعث ما يسمى بالقومية المصرية — الفرعونية التي يحتل فيها الأقباط الصفوف الأولى ثم يأتي بعدهم من يواتيه الحظ من المسلمين ويستطيع أن يثبت أنه ليس من الغرباء أو الدخلاء ، وهو التصنيف الذي ضمنه لاسكاريس مشروعه المنسوب إلى يعقوب . والمرجح أن يعقوب هذا لم يكن قبطيا أرثوذكسيا ، بل قبطيا متحولا إلى الكاثوليكية سرا أو جهرا ، حقيقة أو تظاهرا ، سعيا منه للحصول على تأييد طائفة فرسان القديس يوحنا أو فرسان مالطة

---

(1) كذلك فإن من بين ما قامت به هذه الطائفة من أعمال ، التجسس على المسلمين في مصر حيث استغلت قيام بونابرت بالإفراج عن سبعمائة من البحارة المسلمين الذين كانت سفنها قد أسرتهم بعد أن هاجمت السفن التي كانوا يعملون عليها في البحر الأبيض المتوسط وسخرتهم في العمل على سفنها الحربية بقية عمرهم . فلما احتل بونابرت مالطة أمر بإطلاق سراحهم وعزم على اصطحابهم إلى مصر كدليل على حسن نواياه نحو المسلمين . فقامت الطائفة بدس عدد من أعضائها الذين كانوا يتكلمون العربية بين الأسرى العائدين . وهكذا تمكنوا من الوصول معهم إلى بولاق ، وذلك قبل وصول الفرنسيين بيوم أو يومين . وكان الجميع يحملون معهم نسخا من المنشور الأول الذي أعده بونابرت ووجهه إلى المصريين وبطبيعة الحال فإن هؤلاء الجواسيس ومعهم من جندتهم القوات الفرنسية من الأسرى المسلمين قاموا بأنشطة أخرى من شأنها التأثير في تماسك الجبهة الداخلية وبعد نجاح الحملة في احتلال القاهرة استمروا في نشاطهم التجسسي التخريبي .

كما أصبحت تسمى . والذي يجعلنا نرجح تحول يعقوب ، فضلا عن شخصيته الانتهازية ونزوعه إلى الخيانة وانعدام ولائه لأي أنساب أو مبدإ ، ما عرف عن طائفة فرسان القديس يوحنا طوال تاريخها من تعصبها الشديد للكاثوليكية إلى الحد الذي لم تكن تطيق معه أن تتعامل مع أتباع الكنائس الشرقية ، ومن بينهم الأقباط . فأثناء قيام الدويلات الصليبية في الشام لم تتوقف إساءات هذه الطائفة وغيرها إلى المسيحيين الوطنيين ، ومحاولاتها لفرض مذهبها عليهم مما اضطر عددا كبيرا منهم إلى الخضوع لهيئة الكنيسة اللاتينية ، وبخاصة بعد ما رأوا كبار رجال الدين الأرثوذكس يتعرضون للنفي . كما بذلت محاولات لحرمانهم من وظائفهم بكنيسة القيامة [1] وكان من بين ما نجح فيه الصليبيون إعلان المارونيين قبول سيادة بابا روما ، تحت تهديد الكنيسة الكاثوليكية في الشام وذلك سنة 1180 .

كذلك فإن طائفة القديس يوحنا ، أو فرسان مالطة كانت تدين بالولاء للبابا في روما وتلتزم بتعليماته . وكلنا يعلم مدى عداء البابوية للأرثوذكسية ولغيرها من المذاهب . وقد ذكرنا من قبل ما فعلته بالبروتستانت . لذلك فإنه من غير المتصور أن تقف الطائفة مع يعقوب الأرثوذكسي القبطي ، وتساعده على تحقيق حلمه في إقامة دولة مصرية فرعونية يكون للقبط فيها وضع متميز لما في ذلك من دعم لمذهب تعتبره كنيسة روما معارضا ، بل مهرطقا وتكن لأتباعه كراهية شديدة تجعلها تغض الطرف عن أي شيء يصيبهم إلا إذا تحولوا إلى الكاثوليكية [2] . وهو ما حدث في

---

(1) تاريخ الحروب الصليبية ، المجلد الثاني ، صفحة 515 .

(2) في حديث كلوت بك عن الديانات الأخرى التي كانت موجودة بمصر في الربع الأول من القرن التاسع عشر ، حين وضع كتابه . ذكر أن عدد الأقباط اليعاقبة ويسميهم (الأقباط المنشقين) يبلغ 150 ألف نسمة تقريبا . بينما كان عدد الأقباط الكاثوليك يبلغ خمسة آلاف نسمة . وقال « ولم تدخل الكثلكة بين أقباط مصر إلا منذ عهد قريب » . انظر كتابه « لمحة عامة إلى مصر ، الجزء الثاني ، صفحة 85 » .

وبطبيعة الحال ، فإن هذا العهد القريب هو الوقت الذي احتل الفرنسيون فيه مصر وحضر في ركابهم فرسان مالطة وغيرهم من المبشرين الكاثوليك . وليس من شك في أن إقبال فئات كثيرة من الأقباط على التعامل

أكثر من مناسبة ، منها أن الحبشة تعرضت لهجوم كبير من جانب المسلمين عام 1557 ، فاستغاث ملكها بالبابا « جوليوس الثالث » ليمده بالعون الذي يمكنه من الصمود في وجه الهجوم ولكن البابا أرسل بعثة على رأسها « جونكالي رودريجو » الغرض منها أن يتحول الملك إلى المذهب الكاثوليكي أولا وأن يسمح للجزويت بالتبشير في الحبشة [1] . وهكذا لم يلق البابا بالا إلى الخطر المحدق بالأحباش ، بل على العكس اتخذ منه ذريعة للضغط عليهم لكي يتحولوا إلى الكاثوليكية . لذلك فإننا لا نظن أن روما كانت قد غيرت موقفها بالنسبة ليعقوب . يضاف إلى ذلك ما وضعه فيه الفرنسيون من ثقة لم يحظ بها أحد غيره .

أما بالنسبة ليعقوب ذاته ، فإن ما عرف عنه من انتهازية وذاتية مفرطة وطموح شديد وقدرة على الخداع والتمويه والتظاهر بخلاف ما يبطن ، فضلا عن رذائله الأخلاقية الأخرى يجعل من اليسير تصور إقدامه على التحول إلى الكاثوليكية أو تظاهره بذلك ، من أجل أن يبلغ أهدافه التي في مقدمتها الوصول إلى حكم مصر باعتباره على رأس « أصحاب الحق الأصليين » والتحكم في مقدرات المسلمين الذين كان سيعمل على تقليل عددهم بقدر ما يستطيع مستخدما التصنيف الذي وضعه لاسكاريس للمسلمين والذي صنفهم إلى فئة يمكن أن تبقى في مصر وفئة أخرى ، تضم الغرباء والدخلاء ليس لها أن تبقى ، بل عليها أن ترحل .

وفيما يتعلق بمشروع استقلال مصر ، فإن هناك قرينة أخرى ترجح وضع المشروع بمعرفة « لاسكاريس » ممثل طائفة فرسان مالطة . فقد طلب يعقوب ، أو

= مع الفرنسيين ، باعتبارهم ينتمون إلى نفس الدين ، أتاح للمبشرين المصاحبين للحملة الفرصة لمباشرة نشاطهم التبشيري . أما ادعاء بونابرت وغيره أن الفرنسيين تركوا المسيحية ، فإنه ليس أكثر من أكذوبة من أكاذيبه التي لا تعد ولا تحصى . فما إن ثار المصريون على الحملة في عهد خلفه « كليبر » حتى أسفرت الحملة عن وجهها الحقيقي وجاهرت بالاحتفال على نطاق واسع بالأعياد المسيحية بصورة يتجلى فيها التحدي لمشاعر المسلمين .

(1) دكتور محمد عبد اللطيف البحراوي ، المرجع السابق ، صفحة 96 .

لاسكاريس ، أن تتم الاتصالات بينه وبين الإنجليز عن طريق عنوان السنيور الكونت « أنطون كاسيس » في « تريستا » وهو ، أي يعقوب ، يقوم بتوجيهها إلى الوفد أينما وجد ، ولا نظن أن المدعو « أنطون كاسيس » كان رجلا عاديا أو مندوبا لهيئة البريد لا شأن له بما كان يعقوب يدبره أو بالأحرى لاسكاريس . والراجح أنه من أعضاء ، إن لم يكن أحد زعماء طائفة فرسان مالطة . مما يعني أنها كانت حريصة على أن تكون المراسلات التي ستجري بين يعقوب وبين الإنجليز تحت مراقبتها وبإشراف منها . ومن الواضح أن اختيار هذا العنوان لم يتم بمعرفة يعقوب الذي لم يسبق له أن زار تريستا واتصل بأحد فيها ، وإنما هو من اقتراح لاسكاريس صاحب المشروع والموحى به ليعقوب والمحرك الحقيقي للمؤامرة كلها .

وهذا يؤكد ما حاول لويس عوض أن ينفيه وهو أن مشروع يعقوب كان من إملاء العاطفة الدينية المسيحية المتطرفة . فليس صحيحا ما قاله عما أسماه « آثام الاستعمار العثماني والاستغلال المملوكي وتخلفهما قرونا عن ركب الحضارة وإشاعتهما الظلم والظلام أينما استقروا وإهدارهما لأبسط معاني الإنسانية حيثما قامت لهما دولة في مكان ، لا بين المسيحيين وحدهم ولكن بين رعاياهم من المسلمين أيضا » . فكل هذا الذي قاله كذب وافتراء وقد سبق أن بينا دوافعه وأسبابه . وحتى على افتراض صحة ما قاله لويس عوض عن الظلم التركي والاستغلال المملوكي ، فإن الأقباط كانوا ضالعين فيه بل كانوا من المنتفعين منه ، حيث كانوا يستغلون استخدام الحكام لهم في جمع الضرائب وينهبون الفلاحين ويضربونهم . ولكن لويس عوض ينسى هذا في غمرة حقده على الأبطال الذين دحروا الصليبية في كل مكان ، ولا يخجل من الحديث عما أسماه ركب الحضارة مرة أخرى ، وقد بينا في الفصل السابق أي حضارة تلك التي يتكلم عنها .

وإذا صح ما ادعاه من أن المسلمين كانوا كارهين للحكم العثماني ، فأين هم من مشروع الاستقلال المزعوم ؟ أم أنهم فوضوا عنهم يعقوب يوم أن كان يعمل فيهم التقتيل مزهوا أمام سيده ديزيه ؟

ولسنا ندري ما الذي يعنيه لويس عوض بقوله « ربما كان للشعور الديني دخل في تكوين هذا الموقف المتطرف وذاك . ولكن المبالغة في تصوير هذا الشعور الديني في تكوين القيم الوطنية لا محل له في الأحكام التاريخية الموضوعية » . فهو يضع يعقوب الخائن في قائمة واحدة مع الأبطال الذين استشهدوا في سبيل الدفاع عن وطنهم ، وكثير منهم قتلهم يعقوب وفيلقه ، ويصف الجميع بالتطرف تبرئة ليعقوب وحزبه ، أو إدانة للجميع ، إذا كان لابد من الإدانة . وهكذا يضرب لويس عوض بقيمة الوطنية عرض الحائط ، بل يلقي بها على الأرض ويدوسها بقدمه ، ويبرر الخيانة تبريرا سخيفا ويقول بصفاقة لا يحسد عليها إن المبالغة في تصوير الشعور الديني في تكوين القيم الوطنية لا محل له في الأحكام التاريخية الموضوعية ، يقصد بذلك أن نحكم على تصرفات يعقوب بعيدا عن دينه ، ليكن ، وكذلك سنفعل بالنسبة لغيره من الناس الذين قاوموا الفرنسيين ، سنعتبر أنهم لم يفعلوا ذلك تعاطفا مع الأتراك أو تمسكا برابطة الإسلام ، وإنما فعلوه غيرة على بلادهم ودفاعا عن حياتهم وأعراضهم وأموالهم ، فأين هذا مما فعله يعقوب وفيلقه القبطي من قتل أهل بلده والتنكيل بهم . وهل كون المسلمون فيلقا إسلاميا قتلوا به القبط ؟ أم أن القبط وحدهم هم الذين كان لهم هذا الحق لأنهم « أصحاب الحق الأصليون » ؟ وبعد ذلك يتكلم لويس عوض عن الموضوعية !!

وإذا كنا قد قلنا إن الدول والحكومات تكون أكثر حرصا وأبعد نظرا في مثل هذه الأحوال ، فإن فرسان مالطة المتعصبين لم يكونوا كذلك ، أو بالأحرى كان لهم حسابات أخرى فيما يتعلق بتنفيذ مشروع استقلال مصر . في إدراكهم لوضع الأقباط في مصر ، وكونهم من الناحية العددية أقل من المسلمين بكثير ، وأن مصر جزء من دولة الخلافة ، إلا أنهم كانوا يأملون في أن يتكرر ما حدث منذ ستة قرون في فلسطين حيث أقام الصليبيون دويلاتهم في قلب العالم الإسلامي بدعم وتأييد من البابوات والأباطرة والملوك مما مكنها من البقاء لمدة قاربت القرنين . فلو أنهم تمكنوا من وضع مشروع استقلال مصر موضع التنفيذ وقامت حكومة يرأسها يعقوب

ويشغل غالبية مناصبها أمثال المعلم جرجس الجوهري والمعلم ملطي ، بينما يشغل البقية الباقية بعض المسلمين من الخونة والانتهازيين وبعض اليهود أيضا وتحميها تلك القوة الصليبية التي ورد ذكرها في المشروع والمكونة من اثني عشر ألف جندي ، لا شك أن غالبيتهم ستكون من فرسان مالطة ، فإن أي محاولة للقضاء على هذه الحكومة سواء من الداخل بواسطة الأغلبية المسلمة ، أو من الخارج من جانب تركيا ، سوف تقابل ، وبسرعة بالصراخ والعويل وطلب المساعدة من روما ومن ملوك أوروبا الذين لن يترددوا في مد يد المساعدة لإخوانهم في الدين الضعفاء الذين يريد المسلمون القضاء عليهم ، وهكذا تستمر الدولة الصليبية الجديدة ، كما هو حال إسرائيل الآن .

وبطبيعة الحال فإنه كان سيتبع طرد الغرباء والدخلاء من مصر استجلاب آخرين من أوروبا لإقامة التوازن بين المسلمين والمسيحيين ، أو ترجيح كفة هؤلاء ليصبح المسلمون أقلية . وهو ما كشف عنه لويس عوض في تفسيره لقول يعقوب عن وفده « إنه يمثل الطوائف المختلفة ذات الجذور العميقة في مصر التي يمكن أن يقوى عضدها بقوة الحركة الاستقلالية » قائلا « ولعله يقصد بعبارة » من غير الطارئين على مصر من ليسوا من الأتراك والمماليك والمغاربة .. إلخ « ولا شك أن لويس عوض قد قصد بكلمة « إلخ » هذه سكان مصر الذين ينتمون إلى أصول تعود إلى الأقاليم الإسلامية المختلفة ، سواء منها ما كان ضمن دولة الخلافة ، أو ما كان منها دولا مستقلة كالمغرب مثلا . وهؤلاء وأولئك لا يعتبرون طبقا لمبدإ الوحدة الإسلامية أجانب ، وإنما مواطنون أينما حلوا . ولويس عوض ولا شك يتسق في قوله هذا مع موقفه المعلن من دولة الخلافة التي يعتبرها استعمارا مثل الاستعمار الفرنسي والإنجليزي سواء بسواء ، ويرتب على ذلك نتائج في غاية الخطورة عند تقييمه لمواقف المصريين المختلفة من هذه الدول .

وعلى أي الأحوال ، فإن مشروع الاستقلال المزعوم الذي قدمه « لاسكاريس » إلى قائد السفينة الإنجليزية مات بموت يعقوب ، ولم يرد له ذكر في كل ما جد من أحداث ، لا في مصر ولا في غيرها . وذلك لسبب غاية في البساطة ، هو أن

أحدا لم ينظر إلى ذلك المشروع على أنه عمل جاد أو ذو قيمة . أما فكرة القومية المصرية فقد كان لها شأن آخر ، وهو ما سوف نعرض له في الفصل التالي .

الفصـــل الثالــث

تطور الدعوة إلى القومية المصرية

لم يكن فشل الغرب ، ممثلا في فرنسا ، في الترويج لفكرة القومية العربية ليثنيه عن المضي في العمل من أجل تفتيت الوحدة الإسلامية والقضاء على دولة الخلافة .

وكان « بونابرت » أول من وجه الأنظار إلى أهمية فصل المناطق العربية من دولة الخلافة وتوحيدها في دولة عربية تشمل مصر والشام والعراق وشبه الجزيرة العربية . وفي الوقت نفسه كانت فرنسا ، أثناء احتلالها لمصر ، قد أوهمت بعض الأقباط ، وعلى رأسهم يعقوب ، أنهم أحفاد الفراعنة والأثر الوحيد الباقي منهم ، بينما تولت طائفة فرسان مالطة الإيعاز إلى يعقوب بفكرة الاستقلال بمصر وإقامة دولة على غرار الإمارات الصليبية التي كان الأوروبيون قد أقاموها في الشام وقضى عليها المسلمون ، وإن كانوا في هذه المرة قد جعلوا الدولة الصليبية ذات جذور تمتد إلى الفراعنة ، ويستند حق حكامها إلى كونهم الورثة الوحيدين للفراعنة ، أما غيرهم فدخلاء وغرباء يجب التخلص منهم ، أو أن يخضعوا لحكم « أصحاب الحق » ولقد رأينا المصير الذي آل إليه يعقوب ومشروعه .

وبعودة مصر إلى دولة الخلافة بدأت مرحلة جديدة في حياتها . وبعيدا عن المبالغات المضحكة لأنصار الغرب ، وفرنسا على وجه الخصوص ، فإن التجربة المريرة التي خاضها المصريون أثناء الاحتلال الفرنسي ، والمعاناة الشديدة التي عانوها غيرت ، بلا أدنى شك ، نظرتهم إلى كثير من الأمور ، ولكن ليس من بينها بالتأكيد مبدأ الوحدة الإسلامية والارتباط بدولة الخلافة التي رأوا كيف أنها كانت الوحيدة التي أقبلت بجيوشها لتحررهم من الاستعمار والاستعباد الفرنسي الذي أعمل جنوده القتل والسلب والنهب والاغتصاب لمدة ثلاث سنوات . وبطبيعة الحال فقد تنفست

إنجلترا الصعداء لجلاء الفرنسيين عن مصر ، بينما عادت فرنسا تتابع الأوضاع لنرى ما سوف تسفر عنه الأحداث ، وذلك بواسطة بعض ضباط الحملة الذين تخلفوا في مصر والتجار الفرنسيين والقنصل الفرنسي ، الذين أخذوا يرصدون تطور الأحداث على الساحة المصرية ، بين المماليك وزعماء الشعب من العلماء والأعيان ، وممثل السلطان العثماني ، ثم محمد علي الذي ما لبث أن ظهر بطريقة مثيرة للدهشة بالنظر إلى ما اتسمت به تحركاته من سرعة ودقة في التخطيط ، وما تميزت به علاقاته من تشابك وتعقيد ، الأمر الذي جعل بعض من درسوا شخصيته وسيرته يقعون في أخطاء كثيرة عند محاولتهم تحديد القوة الفاعلة التي كان لنشاطها القول الفصل في وصوله إلى منصب الوالي . صحيح أنه كان لوقوف محمد علي إلى جانب الشعب ، أو تظاهره بذلك دور في نجاحه في الوصول إلى هدفه وهو أن يصبح واليا على مصر ، كذلك لعب الفرنسيون دورا آخر ساهم بلا شك في تحقيق محمد علي لحلمه ، ولكن هذا الدور وذاك كانا ثانويين ، أما الدور الحاسم والرئيس فكان دور العلماء وعلى رأسهم السيد عمر مكرم الذي أدرك محمد علي بذكائه الفطري ما له من تأثير قوي على العلماء ومكانة عظيمة لدى الناس ، فأخذ يتقرب إليه ولا يترك فرصة تسنح له إلا واستغلها للحصول على تأييده له ووقوفه إلى جانبه لعلمه أنه بدونه لا يمكنه أن يصل إلى ما يصبو إليه ، وبالفعل فإن عمر مكرم كان على رأس العلماء والعامة الذين توجهوا إلى محمد علي وأبلغوه باختيارهم له ليكون واليا وقالوا له : « لا نرضى إلا بك ، وتكون واليا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير » . ويضيف الجبرتي قائلا : « وقام إليه السيد عمر والشيخ الشرقاوي ، فألبساه كركا وعليه قفطان .. وذلك في وقت العصر . ونادوا بذلك في تلك الليلة في المدينة »[1]

كذلك فإن عمر مكرم هو الذي تولى الدفاع عن اختيار محمد علي ليكون واليا . ففي 25 صفر 1220 هجرية الموافق 25 مايو 1805 ميلادية يقول الجبرتي « وفي ذلك اليوم : ركب السيد عمر أفندي في قلة من الناس ، وذهب إلى بيت حسن بك

---

(1) تاريخ الجبرتي ، صفحة 628 .

أخي طاهر باشا . وكان هناك عمر بك الذي نزل من القلعة ، فوقع بينه وبين السيد عمر مناقشة في الكلام طويلة . ومن جملة ما قال : « كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم .. وقد قال تعالى : ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم** ﴾ ؟ فقال له : « أولو الأمر العلماء ، وحملة الشريعة ، والسلطان العادل .. وهذا الرجل ظالم . وجرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة .. وهذا شيء من زمان ، حتى الخليفة والسلطان إذا سار فيهم بالجور فإنهم يعزلونه ويخلعونه »[1] . ليس ذلك وحسب ، بل إن السيد عمر مكرم قام بتزعم الشعب في تمرده على ممثل السلطان ومحاولته إنزاله من القلعة وترحيله عن البلاد لكي يخلو الميدان لمحمد علي .

وفي كل ما حدث ، سواء من اختيار العلماء والشعب لمحمد علي ليكون واليا ورضاء السلطان بهذا الاختيار ، لم يكن يدور بخلد ممثليه وهم الشيوخ والأعيان أن مصر تعد دولة مستقلة عن الخلافة العثمانية ، على الرغم من أنه لم تجر العادة بقيام الشعب في أي ولاية من ولايات الخلافة باختيار الوالي . ومع ذلك فإن العلماء لم يعتبروا ذلك انفصالا أو إعلانا للاستقلال عن الخلافة وإنما اعتبروه طريقا جديدا من طرق تعيين الولاة لا يتعارض ، لا مع مبادئ الإسلام ولا مع قيام الخلافة . بل لعله أكثر اتفاقا مع مبدإ الشورى في الإسلام ، حيث يعتمد التعيين على إرادة المحكومين ، أو ممثليهم ، بدلا من اعتماده على إرادة الخليفة فقط ، بل إنه يمكن القول إن الإرادتين تلتقيان آخر الأمر ، حيث إن الخليفة هو الذي يصدر القرار بالتعيين باعتباره خليفة المسلمين والحاكم الأعلى الذي يتبعه الوالي ويتلقى منه الأوامر والتوجيهات وينوب عنه في تسيير شئون الناس بما يتفق والشرع الإسلامي ، وهو ما تضمنته الشروط التي اشترط العلماء على محمد علي الالتزام بها عندما أجمعوا رأيهم على اختياره .

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 630 .

فقد اشترط علماء الأزهر الذين اختاروا محمد علي ليكون واليا على مصر أن يسير بالعدل ويقيم الأحكام والشرائع ويقلع عن المظالم ولا يفعل أمرا إلا بمشورتهم ، وأنه إذا خالف هذه الشروط عزلوه .

ومما أورده الرافعي في هذا الصدد فقرة من محضر كان المؤرخ « فولابل » قد ذكره في كتابه « مصر الحديثة » ولم يرد في الجبرتي . وهو المحضر الذي قام الشيوخ والأعيان بتحريره في بيت القاضي في 13 مايو 1805 ويتضمن عزل الوالي العثماني وتعيين محمد علي واليا مكانه . وجاء في المحضر ما يلي : « إن للشعوب طبقا لما جرى به العرف قديما ، ولما تقضي به أحكام الشريعة الإسلامية الحق في أن يقيموا الولاة ولهم أن يعزلوهم إذا انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم لأن الحكام الظالمين خارجون على الشريعة »[1] .

وهكذا نلاحظ أنه لم يرد ذكر للاستقلال عن الخلافة ولا لما يسمى بالقومية المصرية ، وإنما الأمر لا يزيد عن تأكيد العلماء لمبدإ أساسي من مبادئ الإسلام .

وعلى خلاف ما هو شائع من أن الحملة الفرنسية انسحبت من مصر بالكامل ، فإن الذي حدث هو أن الفرنسيين تركوا بمصر عددا من الخبراء بلغ الأربعين استعان بهم المماليك في بعض شئونهم ، فلما تم تعيين محمد علي واليا ضمهم إليه ودعا عددا آخر أكبر من ذلك بكثير ، واستعان بالجميع في تكوين الجيش وفي إقامة الصناعات التي تخدم هذا الجيش وفي إنشاء وإدارة المؤسسات المختلفة التي شرع في إدخالها إلى مصر لخدمة أهدافه .

وهكذا وجدت فرنسا الباب وقد انفتح أمامها على مصراعيه لاستئناف محاولاتها لضرب الوحدة الإسلامية بفكرة القومية المصرية واستقلال مصر فقام رجالها الذين كانت قد اختارتهم بعناية فائقة لتضعهم حول الوالي الجديد الذي لم يكن طموحه الشديد ليخفى عليها ، بالإيحاء له بالفكرة .

---

(1) تاريخ الحركة القومية ، الجزء الثاني ، صفحة 335 .

ولقد ساء ذلك الإنجليز الذين كانوا يطمعون ، وقد ساعدوا العثمانيين على طرد الفرنسيين من مصر ، أن تكون لهم مكانة ممتازة فيها تفضل مكانة الفرنسيين ، وكانوا لذلك يرغبون في أن يتولى الحكم في مصر محمد بك الألفي الذي كانوا يعتبرونه رجلهم . فتآمروا مع المماليك لإسقاط محمد علي ، ولكنه هزمهم بمساعدة الشعب وزعمائه الذين وقفوا إلى جانبه وأيدوه ، وعندئذ عادت إنجلترا تحرض الخليفة العثماني على محمد علي وذلك عن طريق إثارة مخاوفه نحوه ، كما مارست الضغط عليه متخذة من انتصارها على الفرنسيين في موقعة الطرف الأغر سنة 1805 سندا يدعم موقفها إزاء الباب العالي الذي خسر حلفاؤه الفرنسيون المعركة فلم يعودوا قادرين على مساعدته ضد الإنجليز الذين أصبحت لهم السيادة على البحر الأبيض ويهددون ضفاف البسفور ، وهو ما لا قبل للباب العالي به ومن ثم فقد أذعن لرغبة الانجليز وصدر الفرمان بعزل محمد علي عن ولايته مصر وتوليته ولاية « سلانيك » ولكنه رفض تنفيذ أمر الخليفة وأوعز إلى العلماء بالاجتماع وكتابة محضر في شكل التماس يعترضون فيه على عزله .

والملاحظ أن هذا الالتماس لم يتضمن أية عبارة تشير من بعيد أو من قريب إلى الاستقلال عن دولة الخلافة ولا إلى فكرة القومية المصرية ، وإنما كل ما تضمنه ، كما يقول الرافعي إظهار الولاء والإخلاص للسدة السلطانية ، وإنهم لا يجيزون تغيير الوالي ، ولا يرضون بعودة الحكم للمماليك ، ولا يقبلون كفالتهم ، وإنهم متمسكون بولاية محمد علي » .

ولم تلبث حكومة الخلافة أن عدلت عن قرارها بعزل محمد علي ، وفوضت الأمر بشأنه إلى مندوبها صالح باشا فقام هذا بتثبيته في الولاية ، وعندئذ صدر مرسوم من الخليفة يقضي بإبقاء محمد علي واستمراره على ولاية مصر ، حيث إن الخاصة والعامة راضية بأحكامه وعدله بشهادة العلماء وأشراف الناس »[1] .

---

(1) تاريخ الجبرتي ، صفحة 628 .

ولكن إنجلترا لم يرضها ما حدث ، لا في مصر فحسب ، بل وفي دار الخلافة أيضا ، حيث كانت العلاقات بينها وبين فرنسا قد توطدت فقررت أن تشن هجوما على مصر وتحتلها ، وكالعادة فقد تمكنت إنجلترا من احتلال الإسكندرية بواسطة الخيانة . فقد رشت محافظها المدعو « أمين أغا » بمبلغ من المال فسلمها لهم في 21 مارس 1807 دون أن تطلق رصاصة واحدة . ولكن الإنجليز لم يلبثوا أن واجهوا مقاومة باسلة عندما حاولوا احتلال رشيد في 31 مارس فانهزموا وقتل منهم عدد كبير وفر الآخرون عائدين إلى الإسكندرية . وكذلك لقي الإنجليز نفس الهزيمة المنكرة حين حاولوا احتلال رشيد بعد ذلك بحوالي شهر ، أي في 20 أبريل ، فقتل منهم نصف قواتهم وأسر النصف الآخر . وعندئذ طلبوا الصلح ورحلوا عن الإسكندرية في سبتمبر عام 1807 .

وعلى الرغم من أنه لم يكن لمحمد علي أي دور في الهزيمة التي لحقت بالإنجليز ، حيث إنه كان بالصعيد يطارد المماليك لما هزم أهل رشيد المعتدين وردوهم على أعقابهم بعد أن قتلوا عددا كبيرا منهم . ولما عاد ، وكان الإنجليز لا يزالون يحتلون الإسكندرية ، لم يشأ أن يقاتلهم ، إلى أن طلبوا الصلح والجلاء عن الإسكندرية ، وعندئذ تظاهر أمام الباب العالي بأنه البطل الذي هزم الإنجليز[1] .

وقد أسفرت هذه المعارك عن تعزيز وضع الفرنسيين المحيطين بمحمد علي فضلا عن توطيد العلاقات بينه وبين فرنسا خاصة بعد ما أبداه هؤلاء الفرنسيون من تأييد ، وما تظاهروا ببذله من مساعدات لمحمد علي . فقد ترك القنصل الفرنسي « دروفيتي » مقر عمله في الإسكندرية عند شروع الإنجليز في احتلالها ورحل إلى القاهرة مخافة أن يقع أسيرا في يد الإنجليز لما كان بين إنجلترا وفرنسا من العداء المستحكم في ذلك الحين ، وفي القاهرة اشترك في تنظيم وسائل الدفاع عنها ، مما كان له وقع طيب في نفس محمد علي الذي كان وقتئذ يطارد المماليك في الوجه القبلي .

---

(2) الدكتور عبد العزيز محمد الشناوي ، عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية ، صفحة 203 .

محمد علي وفكرة القومية المصرية :

كان محمد علي مغامرا من الطراز الأول ، فهو يجمع إلى الطموح الشديد الذكاء الفطري والجلد والمثابرة والإصرار على بلوغ الهدف . ولم يكن يؤمن بمبادئ أو يعتقد في مثل أو قيم ، كما كان أنانيا لا يقبل أن يشاركه أحد فيما يحققه من نتائج أو يبلغه من أهداف حتى ولو كان أقرب الناس إليه . يحكى أنه لما تدهورت صحته بعد معاهدة لندن دب النفور بينه وبين ابنه إبراهيم لشكه في أنه يحاول أن يستولي على مقاليد الأمور ، ولم يسمح له بأن يلعب في إدارة الدولة ذلك الدور الذي كانت تؤهله له مواهبه لحد كبير وظل حتى عام 1842 ، عندما أصيب بلوثة عقلية شديدة ، يحتفظ بمقاليد الأمور في يديه بدرجة كبيرة ، مما أصاب هذه الأمور بخلل خطير . كذلك فقد كان ينظر إلى الناس كأدوات عليه أن يستغلها لتحقيق أطماعه وبلوغ أهدافه . فعلى الرغم من حالة البؤس والشقاء التي كان يعيش فيها المصريون ، فإنه لم يتورع عن توجيه النصح للفلاحين بتزويج أبنائهم حالما يبلغون ، وأن يضاعفوا من نسلهم لكي يحصل على جنود يستخدمهم في تحقيق أطماعه بغض النظر عما يصيبهم أما الذين لا يصلحون للحرب فإنه يسخرهم في زراعة الأرض ليحصل على مزيد من الأرباح التي كان ينفقها على حروبه ضد الدولة العثمانية ، تلك الحروب التي كانت السبب في تسلط أوروبا على مقدرات المسلمين . ليس ذلك وحسب ، بل إنه لم يكن يقيم وزنا للارتباطات أو للعلاقات . وباختصار فقد كان ميكافيللي النزعة . ويذكر في هذا الصدد أنه لما أصبح واليا على مصر كلف البعض بأن يترجموا له كتاب الأمير لمكيافيللي فلما قرأه عليه ما لبث أن انصرف عنه بعد أن لمس أنه ليس فيه ما يضيف جديدا إلى ما لديه .

كذلك لا يمكن القول إن محمد علي كان يؤمن بشيء أو بأحد إلا بنفسه . فقد كان يريد أن يصبح حاكما قويا، إما للدولة العثمانية كلها، أي أن يحل محل الخليفة ذاته[1]،

---

(1) دكتور جوزف حجار ، أوروبا . ومصير الشرق العربي ، صفحة 6 ، وانظر أيضا : إدوار عطية ، العرب ، صفحة 78 .

وإما لجزء كبير من هذه الدولة يضم عددا من الأقاليم لكي يصبح ندا للخليفة . وربما يتيح ذلك له الفرصة للتخلص من الخليفة في مرحلة تالية . ويمكن القول إن أحلامه كانت نارا وكان الناس وقودها .

فعلى الرغم من التضحيات التي بذلها الشعب في الإسكندرية ورشيد لمنع الإنجليز من احتلالها لم يتورع محمد علي عن إبداء رغبته للإنجليز في أن يضع نفسه تحت الحماية البريطانية أثناء مقابلته لضابطين إنجليزيين ، وتعهد من جانبه بمنع الفرنسيين والأتراك أو أي جيش تابع لدولة أخرى من الدخول إلى الإسكندرية من طريق البحر ، ويعد بالاحتفاظ بالإسكندرية كصديق وحليف لبريطانيا العظمى ولكنه لا مناص له من انتظار أن تعاونه إنجلترا بقوتها البحرية إذا وقع هجوم عليه من جهة البحر لأنه لا يملك سفنا حربية[1] .

وبعد ذلك اعتمد على الفرنسيين الذين لم يكن قد مضى على خروجهم من مصر غير سنوات قليلة ، بعد أن ارتكبوا المذابح وهتكوا الأعراض واعتدوا على المقدسات . ولم يعبأ بما قد يؤدي إليه ذلك من إساءة إلى مشاعر الناس [2] . وبعد أن هادن المماليك أثناء تدبيره لاعتلاء كرسي الولاية ، بادر إلى مطاردتهم في الصعيد عقب تعيينه واليا في 13 مايو 1805 . ثم تحول بعد ذلك نحو زعماء الشعب وعلماء الأزهر فصفاهم وهم الذين كانوا قد سعوا في تعيينه واليا ، وأمر بنفي السيد عمر مكرم في 19 أغسطس 1809 . وهو الذي كان قد انتصر له ووقف إلى جانبه حتى تمكن من الحصول على الولاية [3] .

وفي هذه الأثناء كان الفرنسيون الذين يعملون مع محمد علي يتابعون ما يحدث في اهتمام ، بل ويساهمون فيه بالنصح ، وبخاصة فيما كان يتعلق بالأزهر ورجاله الذين

---

(1) محمد فؤاد شكري ، مصر في مطلع القرن التاسع عشر (1801 - 1811) الجزء الثاني ، صفحة 856 .
(2) كلوت بك ، لمحة عامة إلى مصر ، الجزء الأول ، صفحة 80 .
(3) دوقان قرقوط ، تطور الفكرة العربية في مصر .

كانوا يقودون الثورات ضدهم أثناء احتلالهم لمصر ، ولا شك أنهم أوغروا صدر محمد علي ضدهم وضاعفوا من خوفه منهم . وبذلك حققوا ، عن طريقه أهم خطوة في الطريق إلى فصم عرى العلاقات بين مصر ودولة الخلافة بخاصة والمسلمين بعامة والتمهيد لفكرة الاستقلال والقومية المصرية . وبعد أن تخلص محمد علي من آخر عقبة أمامه وهم المماليك الذين قضى عليهم في مذبحة القلعة في أول مارس عام 1811 والتي قضى فيها على أربعمائة وسبعين منهم ومن أتباعهم قتلوا جميعا ولم ينج منهم إلا واحد يسمى « أمين بك » ، بدأ في تنظيم الولاية .

وكان محمد علي قد سبق له أن تحالف مع المماليك ضد الوالي العثماني وانضم بجنوده إليهم وفتح لهم بمحالفته إياهم الطريق إلى القاهرة والتحق بعد ذلك بعثمان البرديسي للزحف على خسرو باشا ، وقد ظل يطارده حتى ضيق عليه الخناق في دمياط وأسره فيها بعد استيلائه عليها واستاقه إلى القاهرة حيث تولى إبراهيم بك مراقبته في أسره سنة 1803[1] . أي أن محمد علي استخدام الجميع واستغلهم لبلوغ أهدافه ثم قضى عليهم .

ولقد شاءت الظروف التي كانت دولة الخلافة تواجهها أن يحظى محمد علي باهتمام الخليفة خاصة بعد أن تظاهر بأنه هو الذي هزم الإنجليز وأجلاهم عن الإسكندرية ، وهو عمل ولا شك عظيم ، ولكن الذي قام به هو الشعب وليس محمد علي ، ولكنه على أي حال حظي بثقة الخليفة العثماني فكلفه بالتصدي للوهابيين في الجزيرة العربية ، فخاض غمار حرب شرسة ضدهم استمرت من سنة 1811 إلى سنة 1819 ، ولم تكد تنتهي لصالحه حتى قام بتجريد حملة عسكرية على سيوة في فبراير سنة 1820 . ومن سنة 1820 إلى سنة 1822 انهمك في فتح السودان . وفي كل هذه المراحل لم يكشف محمد علي عن نيته في الاستقلال عن دولة الخلافة ، أو الرغبة في الأخذ بما يسمى القومية المصرية ، بل إنه كان يقوم بهذه الحروب والفتوحات باعتباره عاملا للخليفة وباسمه .

---

(1) لمحة عامة إلى مصر ، الجزء الأول ، صفحة 57 .

ولكنه في قرارة نفسه كان يضمر الرغبة في الاستقلال بحكم مصر كخطوة أولى وليس كهدف نهائي ، فإنه شأنه شأن المغامرين جميعا ليس لأحلامه حدود ولا لأطماعه نهاية والأرجح أن جهود الفرنسيين الذين كانوا يحيطون به قد أنعشت لديه هذا الأمل ، أو أنهم أوحوا إليه به بعد أن لمسوا ما لديه من طموح شديد ورغبة قوية في أن يصبح حاكما مطلقا لا سلطان لأحد عليه . خاصة وأنه كان قد شرع في تنفيذ بعض المشروعات التي كان المضي فيها يتطلب موافقة الباب العالي ، وهو ما لم يكن مستعدا له . ويبدو مما ذكره القنصل الفرنسي دروفيتي الذي كان صديقا لمحمد علي أن ذكر الاستقلال جاء في أعقاب الحديث الذي دار بينهما بشأن مشروعاته التجارية في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ، ولا سيما رغبته في أن تكون عنده سفن تجارية في البحر المتوسط تستطيع أن تتمتع في جميع الأحوال بحق الحياد . وهو ما اعترف بأنه نقطة خلاف بينه وبين حكومته (الباب العالي) وأبدى رغبته للقنصل في أن تساعده فرنسا للتخلص من الخلافة العثمانية . وهو ما أكد للفرنسيين أنه رجلهم الذي يمكنهم عن طريقه أن يحققوا ما فشلوا في تحقيقه عن طريق الغزو والحرب . وليس من شك في أن هذا التصرف من جانب محمد علي ليس إلا خيانة وتآمرا على حكومته ، إذ يلجأ إلى دولة أجنبية سبق لها أن غزت الإقليم الذي عين واليا عليه ، والذي لم تجل عنه إلا بعد تضحيات جسيمة يتآمر معها ضد الحكومة التي يتبعها ، ولا يمكن أن نصف تصرف محمد علي بغير ذلك ، وإلا فبماذا نصف سلوك محافظ سيناء الجنوبية مثلا إذا طلب من قنصل إسرائيل أن يساعده على الاستقلال بسيناء عن الدولة المصرية ؟ هل نعده بطلا أم خائنا ؟

كذلك فإن محمد علي ، وعلى خلاف ما كان يفعله الولاة من قبله ، بل وغيره من الولاة في الأقاليم الأخرى التابعة للدولة العثمانية كان يتصرف على أساس أن وجوده في منصبه ليس مؤقتا بل دائما ، وهو ما وجد تشجيعا من الفرنسيين الذين دفعوه إلى فتح السودان بعد أن أقنعوه بأن وقوع منابع النيل تحت سيطرة بريطانيا أمر على جانب كبير من الخطورة على حياة مصر . وطبعا فإنه من السذاجة أن يتصور إنسان عاقل أن حياة مصر كانت تعني الفرنسيين في قليل أو كثير ، وإنما الذي كان يعنيهم

هو مصلحتهم فقط لذلك كانوا حريصين على أن يتواجدوا حول محمد علي في كل مكان ، وعندما سافر إلى السودان سافر معه منهم « ليفر » و « دارنوا » و « لامبير » .

و لم يكد محمد علي ينتهي من فتح السودان حتى دعاه الخليفة لمساعدته في إخماد الثورة التي نشبت في اليونان ، فلبى محمد علي الدعوة باعتباره تابعا للخليفة ، واشترك في الحرب بأسطوله الذي أقلع من الإسكندرية في 10 يوليو سنة 1821 . ولم يكن لمحمد علي أن يرفض دعوة الخليفة أو أمره لأن رفضه كما يقول الرافعي « فضلا عن أنه يكون حجة في يد الساعين إلى خلعه عن كرسي الولاية وإظهاره بمظهر الخارج على إرادة السلطان وهو لم يكن قد توصل بعد إلى تقرير مركز مصر السياسي حيال تركيا ، فقد كان لا يزال (واليا) عينه السلطان ، وللسلطان (رسميا) أن يعزله »[1] .

وهذا الذي قاله الرافعي ليس هو الاعتبار الوحيد الذي جعل محمد علي يستجيب لدعوة السلطان العثماني ، وإنما هناك اعتبار آخر لا يقل عنه أهمية وهو الذي ذكره كلوت بك حيث قال ، إنه ، أي محمد علي ، لو أنه امتنع من تسيير هذه القوة كلها أو بعضها ضد اليونان لجر إلى نفسه مقت المسلمين جميعا واستنزل عليه سخطهم[2] . وهكذا نلاحظ حرص عبد الرحمن الرافعي على استبعاد الإسلام من بين العوامل التي لعبت دورا في سير الأحداث .

وقد استمرت الحرب في اليونان من سنة 1821 إلى سنة 1828 أي لمدة ثماني سنوات ، وفي منتصفها ، أي في سنة 1824 أوفدت فرنسا بعثة إلى الإسكندرية يرأسها الجنرال « بوير » الذي كان عليه أن يقنع محمد علي بعدة مبادئ ، وأن يجعله يتصرف بشكل يكسب فيه عطف أوروبا المسيحية ! وهكذا فقد كان عليه أن يحمله

---

(1) الرافعي ، المرجع السابق .
(2) لمحة عامة إلى مصر ، صفحة 70 .

على إعادة النظر بحملة المورة التي قال له إنها تستنزف قوته العسكرية الناشئة بدون طائل وتجعله على تعارض مع سياسة أوروبا المسيحية . ويقول له إنه « إذا أراد أن ينطلق في سياسته التوسعية فإن أفريقيا وسوريا تشكلان إمكانيات عظيمة لا تحمل معها مجازفات ذات شأن [1] . أي أن فرنسا كانت تشجعه على انتزاع سوريا من السلطان العثماني ، وهو ما لا يمكن أن يتحقق بدون حرب .

ولقد انتهت الحرب اليونانية بواقعة « نافارين » البحرية التي حطمت فيها أساطيل إنجلترا وفرنسا والروسيا الأسطول التركي ـ المصري في 20 أكتوبر 1827 . وهي المعركة التي يقول « وليم لانجر » عنها إن أوروبا قد فرحت فرحا شديدا عند سماعها بنبإ تحطيم الأسطول المصري [2] وعاد الجيش إلى مصر في أكتوبر سنة 1828 .

ولم يكن الغرب يكف عن استبار غور محمد علي ورصد أفكاره عن طريق مبعوثيه العديدين الذين كانت الدول الأوروبية توفدهم بين الحين والحين ، وبالذات فرنسا وإنجلترا . وكان أحد هؤلاء يدعى الكولونيل « كرادوك » مبعوث الحكومة الإنجليزية الذي قابل محمد علي في الإسكندرية سنة 1827 ، وفهم من كلامه معه أنه يطمع في الاستقلال عن دولة الخلافة بمساعدة من الدول الغربية . وبطبيعة الحال فإن رغبة محمد علي هذه طمأنت الغربيين تماما وجعلتهم يدركون أن هذا الرجل سوف يكون عاملا هاما من بين العوامل التي سيستخدمونها للقضاء على الدولة الإسلامية ، لأنهم يستطيعون أن يضربوا به الخليفة العثماني بحيث يضعف كل منهما الآخر فتتهيأ لهم بذلك الفرصة للتخلص منهما معا واقتسام الغنيمة [3] . ولا بأس من إعطائه السلاح ومساعدته في تحقيق الجزء الأكبر من طموحاته لاكتساب ثقته ، ثم بعد ذلك يحطمون كل ما أعطوه له بعد أن يكونوا قد تقاضوا ثمنه .

---

(1) جوزف حجار ، المرجع السابق ، صفحة 26 .
(2) موسوعة تاريخ العالم ، المجلد السادس ، صفحة 2152 .
(3) جوزف حجار ، المرجع السابق ، صفحة 7 .

وهكذا نحت إنجلترا وفرنسا ما كان بينهما من عداء وتحالفتا مع الروسيا من أجل القضاء على القوة البحرية الإسلامية ، على الرغم من وجود خبرائها إلى جانب محمد علي . وهو الأمر الذي يثير أكثر من تساؤل ، فقد كان موقفها هذا من الحقارة والوضاعة بحيث يثير غضب أي إنسان عاقل مخلص لأمته مؤمن بدينه ، مستقيم القصد ، نقي السريرة ، شريف . ولكن ما فعله محمد علي يدل على خلاف ذلك تماما فقد أبقى على الخبراء الفرنسيين رغم خيانة فرنسا له مما يدل على أنه لم يشأ أن يخسرها نهائيا والسبب أنه لا يزال يرغب في الاعتماد عليها في سعيه لإعلان استقلاله عن الخلافة العثمانية ، بل والاستيلاء على هذه الخلافة ، لذلك فإن المرجح أن يكون قد سر لخسارة الدولة العثمانية لأسطولها ؛ لأن ذلك مما يخفف وطأتها عليه في المستقبل .

ويمكن القول إنه في ذلك العام بدأ يظهر بالفعل اتجاه الغرب نحو وضع فكرة استقلال مصر موضع التنفيذ على أساس من فكرة القومية المصرية وذلك لتحقيق هدفين محددين هما :

الأول : ضرب الوحدة الإسلامية التي بدت خطورتها واضحة فيما حدث في اليونان من اكتساح الجيوش الإسلامية لمواقع الثوار اليونانيين ، مما أرق التحالف الصليبي وجعله ينظر إلى الموقف باعتباره خطرا يجب القضاء عليه خاصة وأن الأمر كان يتعلق بمجتمع مسيحي هو المجتمع اليوناني وليس بمجتمع إسلامي ، كما حدث بالنسبة للوهابيين حيث لم يتحرك الغرب للتدخل ، طالما أن المسألة تتعلق بمسلمين يقتل بعضهم بعضا ، مع أن وضع الجزيرة العربية كان مماثلا لوضع اليونان ، فكلا الإقليمين كان ولاية عثمانية .

الثاني : وضع محمد علي ، الذي لمسوا مدى ما بلغه من قوة في مواجهة الخليفة ، بحيث ينهك كل منهما قوة الآخر نيابة عن الغرب الصليبي الذي كانت دوله يقف بعضها لبعض بالمرصاد كالوحوش المفترسة التي تحيط بالفريسة ، يتحفز كل منها للانقضاض عليها ، ولكنه يخشى الآخر ، وهي الروسيا وإنجلترا وفرنسا ، التي كانت تتظاهر بصداقة كلا الجانبين ، أي الخليفة ومحمد علي .

وهناك أكثر من دليل على اتجاه الغرب إلى فصل مصر عن دولة الخلافة وقيام

دولة مستقلة فيها على أساس من فكرة القومية المصرية ذات الأصول الفرعونية ، ومن هذه الأدلة :

1 – مقابلة قناصل الدول الأوروبية لمحمد علي ، عقب واقعة « نافارين » البحرية ، وتقديمهم النصح له بالتخلي عن السياسة العثمانية ، وإلا فإن مصر ستكون هدفا لكوارث الحروب ، وقد دعم الغرب هذه النصيحة بإرسال أسطول إنجليزي إلى الإسكندرية ، أنذر بتخريبها إذا لم يبادر محمد علي إلى استدعاء إبراهيم باشا من المورة .

ويمكننا هنا أن نلاحظ تأثير الخبراء الفرنسيين في محمد علي ، والدور الذي لعبوه في إصداره للقرار الذي أمر فيه ابنه بالانسحاب . كذلك نلاحظ الفرق بين حاكم يخاف على كرسي الحكم فيذعن لمطالب دول مخادعة حقيرة وبين شعب مؤمن بالله ، مستعد للتضحية بالأرواح والأموال من أجل سلامة دار الإسلام وطهارتها من دنس الصليبية فكان أن نصره الله على الإنجليز الذين لم ينتصروا إلا بالخيانة والغدر .

2 – قيام الدول الأوروبية بالتفاوض رأسا مع محمد علي متخطية الخليفة ، مما يوحي لمحمد علي باستقلاله بمصر . ويكون من شأنه أن تتضخم ذاته وتتأجج أطماعه .

وسرعان ما ظهرت النتائج ، فقد رفض محمد علي مساعدة الخليفة في الحرب التي أعلنتها عليه الروسيا لما رفض الخليفة الطلب الذي وجهته إليه الدول الأوروبية بالجلاء عن اليونان ، ومنحها استقلالا داخليا ، فاحتلت الروسيا « أدرنة » بينما محمد علي يتعلل ببعد المسافة بطريق البر وعدم توافر السفن التي تنقل الجنود عن طريق البحر . ويقول الرافعي : « وكل هذه أعذار ظاهرة ، أما السبب الحقيقي لخطته الجديدة فهو طموحه إلى الانفصال عن تركيا وتحقيق استقلال مصر »[1] . فكأن خسارة محمد علي للأسطول قد وفرت له مبررا قويا لامتناعه عن مد يد العون

---

(1) عصر محمد علي ، صفحة 243 .

للخليفة ، على الرغم من أنه لم يفقد كل أسطوله في معركة نافارين البحرية ، حيث تركت له الدول الأوروبية عشرين سفينة ، تركت عمدا ، بمنأى عن نيران سفن الحلفاء وذلك لكي يثبتوا لمحمد علي أن نواياهم نحوه ليست عدائية . كما أعلمته روسيا أنها لا ترغب في القضاء عليه وأن تصيب مركزه بالضعف . وقد ظهر ذلك في 24 أكتوبر عام 1827 حين أبلغ الأميرال الروسي « هايدن » قنصل بلاده في الإسكندرية بتدمير الأسطول العثماني في « نافارين » . فقد أضاف في حاشية في أسفل الرسالة الإشارة إلى السفن العشرين التي لم تدمر [1] .

وكان غرض روسيا من ذلك استمالته إليها ومنعه من مد يد العون إلى الخليفة في حربها ضده . وكانت النتيجة إيجابية تماما فقد رفض محمد علي مساعدة الخليفة . وهذا يعني ، بوضوح شديد أن محمد علي رضي أن يحتل الصليبيون أرضا إسلامية طالما أن ذلك سيتيح له الفرصة للاستقلال بمصر كما يقول الرافعي ، وهذا تصرف يدخل في عداد الخيانة بلا جدال .

ولم تقتصر جهود محمد علي التي أخذ يبذلها من أجل الاستقلال عن الخلافة على التآمر مع الدول الأوروبية ، بل تجاوز ذلك إلى البحث في النواحي القانونية المتعلقة بالاستقلال ، فلجأ إلى الفقيه الإنجليزي « جيرمي بنتام » يسأله عن رأيه القانوني في إعلان استقلاله بمصر عن الخلافة فجاءه الرد مشجعا يدعوه إلى المضي في هذا الاتجاه . وبطبيعة الحال فإن الحكومة الإنجليزية كانت على علم بهذا الموضوع .

كذلك قامت فرنسا بإعادة قنصلها العام المدعو « دروفيتي » إلى مصر ، بعد أن كانت حكومته قد سحبته تعبيرا عن الغضب عليه . ولكنها اضطرت إلى إعادته بعد معركة « نافارين » لكي يقوم باسترضاء محمد علي الذي كان صديقا حميما له ويزيل من نفسه المشاعر السيئة التي خلفها إحراق الأسطول . فعاد « دروفيتي » إلى مصر سنة 1828 مزودا بتعليمات من حكومته تقضي بأن يتتبع محمد علي في كل

---

(1) جوزف حجار ، المرجع السابق ، صفحة 40 .

تنقلاته وذلك بهدف استمالته وإدخاله ضمن المخططات التي يراد منه أن ينفذها ، ومن بينها تحريضه على الاستقلال بمصر عن دولة الخلافة العثمانية وإقامة دولة كبيرة تضم الأقاليم العربية [1] . وكان هناك غير « دروفيتي » فرنسيون آخرون يوسوسون إلى محمد علي بنفس الأمر .

ومن أهم عملاء فرنسا الذين كانوا يحيطون بمحمد علي « كلوت » بك الذي يبدو مما كتبه في كتابه المسمى « لمحة عامة إلى مصر » أنه كان يهمس إلى محمد علي بنفس الكلام الذي أوصت الحكومة الفرنسية سفيرها بترديده على مسامع الوالي الطموح ، ومنه يتبين أن « كلوت » بك لم يكن يحبذ فكرة استقلال محمد علي بمصر عن دولة الخلافة وحسب ، بل ويحرضه على اصطراعه معها من أجل انتزاع الأقاليم العربية منها وبالذات سوريا التي قال عنها في كتابه : « إن ضم سوريا إلى مصر كان ضروريا لصيانة ممتلكات الباشا ، فمنذ تقرر في الأذهان أن إنشاء دولة مستقلة على ضفاف النيل يفيد المدنية فائدة عامة وجب الاعتراف بأنه لا يمكن إدراك هذه الغاية إلا بضم سورية إلى مصر وقد رأينا فعلا أن موقع البلاد الحربي لا يجعلها في مأمن من الغزوات الخارجية خصوصا عن طريق برزخ السويس ، فإذا استثنينا غزوة الفاطميين المغاربة وغزوة الفرنسيين بقيادة بونابرت ، نجد أن سائر الغزوات جاءت عن طريق سورية كغزوة الفرس في عهد قمبيز وغزوة الإسكندر والفتح الإسلامي وغزوتي الأيوبيين والأتراك ، وعلى ذلك لا يمكن الاطمئنان إلى بقاء مصر مستقلة إلا بإعطائها الحدود السورية لأن حدودها ليست في السويس بل في طوروس » [2] .

هذا هو نوع النصائح التي كان الفرنسيون يقدمونها لمحمد علي . وإذا حللنا كلام « كلوت بك » فإننا سنخرج بالتساؤلات الآتية :

ما معنى قوله « فمنذ أن تقرر في الأذهان أن إنشاء دولة مستقلة على ضفاف

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 41 .

(2) لمحة عامة إلى مصر ، صفحة 74 .

النيل يفيد المدنية فائدة عامة ؟ . إننا نذكر أن أول من نبه الأذهان إلى ذلك هو « بونابرت » الذي ذكر بالذات الفائدة التي تعود على المدنية من ذلك . وطبعا هو كان يقصد أوروبا وليس غيرها . وجاء « كلوت بك » الذي كان قد التحق بخدمة الباشا محمد علي في سنة 1825 ليكرر ما سبق أن قاله بونابرت وليضم جهوده إلى جهود زملائه الكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوي) والقنصل الفرنسي الذي كان صديقا حميما لمحمد علي وناصحه الأمين ، فضلا عن عشرات من الخبراء ذوي الميول الصليبية الفجة .

أما التساؤل الثاني فيتعلق ببداية وصف الحكم الإسلامي لمصر بأنه استعمار مثله في ذلك مثل الاستعمار الفارسي والإغريقي والفرنسي . ونجد الإجابة على ذلك عند كلوت بك الذي قال وهو يبين أهمية سوريا لمصر إن الغزوات جميعا فيما عدا اثنتين جاءتها عن طريق سورية ، وساوى في ذلك بين الجميع فوضع غزوة الإسكندر جنبا إلى جنب مع الفتح الإسلامي وما أسماه بغزوتي الأيوبيين والأتراك متجاهلا أن الأيوبيين لم يدخلوا مصر غزاة وإنما دخلوها مدافعين عنها ضد الغزاة الصليبيين وباعتبارهم إخوة للمصريين وأعضاء في أمة إسلامية واحدة . كذلك فإن العثمانيين إنما جاءوا إلى مصر لإنقاذها مما كان يتهددها من عدوان صليبي يقوم به البرتغاليون الذين كانوا قد بدءوا سيطرتهم على المحيط الهندي وأخذوا يتقدمون في البحر الأحمر ، في الوقت الذي كانت فيه قوة المماليك قد أخذت في التدهور مما كان يستوجب تأمين العالم الإسلامي من حدوده الجنوبية .

وكان نجاح الدول الغربية في دفع محمد علي إلى شن الحرب على الخليفة العثماني هو الخطوة قبل الأخيرة في المخطط الذي يهدف إلى تصفية دولة الخلافة ، بل وطرد المسلمين من آخر موطئ قدم لهم في أوروبا . فقد ظهر بوضوح أن الحكومات الأوروبية لا ترغب بأي شكل في وجود مناطق إسلامية في القارة الأوروبية ، لذلك فإن المشروع الذي وضعه « بوالكونت » في شهر أغسطس سنة 1829 وقدمه إلى قيصر روسيا في شهر سبتمبر كان يدعو إلى إنشاء دولة مسيحية في القسطنطينية على شريطة أن لا تكون خاضعة بأي شكل من الأشكال للوصاية الروسية . وكان القيصر سيحصل على مقاطعات « فالاشيا » و « مولدافيا » في أوروبا

وأرمينيا وترابزون في آسيا كتعويض عن هذا . وكان المرشح للجلوس على عرش القسطنطينية المسيحية هو ملك هولندا ليحكم جزءا أوروبيا وآخر آسيويا من الإمبراطورية العثمانية المجزأة ، وذلك تعويضا له عن بلده « هولندا » التي كانت ستمنح لبروسيا [1] .

وهكذا بدأ محمد علي حملته على الشام في أكتوبر عام 1831 ، بعد أن استوعب الدرس الذي لقنه له الفرنسيون ، فكرر ما كان بونابرت قد فعله حين غزا مصر ، بأن زعم أنه لا يحارب الخليفة بل وأعلن إخلاصه للدولة العثمانية ، وأنه لم يدخل الشام إلا من أجل أن يؤدب عبد الله باشا الجزار والي عكا الذي امتنع عن رد الهاربين إليه من الفلاحين المصريين بعد ما أصابهم من ظلم محمد علي ، ورد على الطلب الذي أرسله إليه محمد علي قائلا له إن هؤلاء الفلاحين رعايا للخليفة ولهم أن يحيوا أينما شاءوا داخل دولة الخلافة .

وتحقق للدول الغربية العدو اللدود للإسلام والمسلمين ما كانت ترغب فيه وهو اندلاع الحرب بين المسلمين بعضهم بعضا وفتكهم ببعض . ففي الأناضول وقف رشيد باشا على رأس الجيش التركي في مواجهة إبراهيم باشا الذي كان على رأس الجيش المصري لكي يقاتل أحدهما الآخر ، بينما كانا في حرب المورة يقاتلان معا ، فتحولا من أخوين يدافعان عن مصلحة واحدة إلى عدوين لدودين يسعى كل منهما لقتل الآخر . فأي نجاح هذا للغرب الصليبي ؟

لقد استطاع محمد علي أن يجتاح الشام وأن يتوغل في الأناضول حتى لم يعد يفصله عن الآستانة سوى ستة أيام . وكان طموحه قد أعماه عن إدراك حقيقة موقف الدول الصليبية ، التي ما كانت لترضى باستيلائه على الخلافة ، بما قد يؤدي إليه ذلك من تجديد دم الدولة الإسلامية ، وهو ما قد يفعله محمد علي ، لا بدافع من الإيمان بذلك ، وإنما بدافع من طبيعة المغامرة التي لا حدود لأطماعها مما يمثل تهديدا

---

(1) جوزف حجار ، المرجع السابق ، صفحة 39 .

للغرب الصليبي من ناحية وحرمانا له من الاستيلاء على العالم الإسلامي من ناحية أخرى ، وهو الأمر الذي طالما عمل من أجله منذ أن فشلت حملاته الصليبية. ثم ما أعقب ذلك من تصدي الدولة العثمانية له وصدها إياه عن البلاد الإسلامية ، بل وغزوها لبلاده حتى وصلت إلى أبواب فينا ، وهو ما لم يغفره لها ، لا هو ولا أعوانه الذين يعيشون بيننا ، فهم لا يكفون عن الهجوم على الأتراك والتعريض بهم .

وبادرت الروسيا ، التي كانت تحارب الخليفة منذ عامين لكي تجبره على منح اليونانيين الاستقلال ، إلى عرض استعدادها للدفاع عنه بقواتها البرية والبحرية . أما إنجلترا وفرنسا فإنهما ، فضلا عن خشيتهما على سياستهما ومصالحهما أن تستهدف للخطر إذا بسطت الروسيا حمايتها أو نفوذها على تركيا ، فإنهما كانتا تتوجسان خيفة من قوة محمد علي الذي أحرز نصرا لم يكونا يتوقعانه ، ذلك أن أقصى ما كانتا تتوقعانه هو أن يحطم كلا الجيشين الآخر وينتهي أمر القوة الإسلامية وتبدأ القسمة . ولكن انتصارات محمد علي فاجأتهما بل وأفزعتهما ، فها هي ذي قوة إسلامية جديدة تظهر إلى الوجود ، فماذا يكون الحل إذا ما تركت وشأنها . وعلى الفور ثار الجدل واشتد النقاش في فرنسا وإنجلترا حول القوة الجديدة . فقد أدرك الغرب الصليبي أن محمد علي تجاوز في أحلامه وطموحه حدود فكرة القومية المصرية ، بل والفكرة العربية أيضا وأصبح يتطلع في ثقة إلى منصب الخلافة .

وكما يحدث الآن من تكليف الغرب بعض أتباعه أو رجاله باستطلاع الأحوال وسبر الأغوار فقد أرسلت فرنسا إلى محمد علي وإلى ابنه إبراهيم من يسبر غورهما فتأكد لها ظنها . فقد صرح إبراهيم باشا للبارون الفرنسي « بوالكونت » Bois le comte حين زاره أثناء حرب الأناضول بحديث سنورده بأكمله لكي يعرف القارئ حقيقة الشعور بما يسمى بالقومية المصرية عند إبراهيم بن محمد علي . فقد قال إبراهيم للبارون الفرنسي الذي كان يعمل بوزارة الخارجية الفرنسية : إنه كان شديد الرغبة في دخول الآستانة على رأس جيشه ويقول البارون : فقلت له : وماذا تقصدون سموكم من الذهاب إلى الآستانة ، وماذا كنتم صانعين بها ؟ فأجابني : ما كنت أدخلها للهدم بل للإصلاح ، ولكي أقيم حكومة صالحة مؤلفة من رجال أكفاء بدل الحكومة الحالية العاجزة عن الاضطلاع بحكم الإمبراطورية ، فقلت له : إن سموكم يؤكد بحديثه

المخاوف التي ألمعت إليها في كلامي ، فإن ما كنتم تنوون إحداثه هو ما كنا نعمل على منعه ، لا لأننا مسوقون بفكرة عدائية نحو سموكم أو نحو أبيكم ، ولكن لأن الانقلاب الذي كنتم عازمين على إحداثه في الآستانة يفضي إلى مشاكل قد تشعل نار الحرب في أوروبا بأسرها .

فأجابني : إنك واهم فيما تظن ، فإن هذا الانقلاب كان يحدث دون أية مقاومة ، فإن السكان على جانبي البوسفور والدردنيل يطلبونني لإحداث الانقلاب الذي يتم في هدوء وسرعة دون أن تجدوا الوقت للشعور بوقوعه ، تقولون إنكم تبغون الدفاع عن كيان تركيا وجعلها قوية ، ولو تم هذا الانقلاب لكان من نتائجه بعث سلطنة قوية تقوم على أنقاض هذه السلطنة المفككة التي تحاولون عبثا تأييدها والتي ستنحل يوما بين أيديكم وتسبب لكم وقتئذ مشاكل لا عدد لها .

وهنا سكت إبراهيم باشا قليلا عن الكلام ، كأنما استوقفته فكرة طارئة ثم قال : إنني أبحث كثيرا وأتساءل : لماذا تحقد الدول الأوروبية هذا الحقد على الأمم الإسلامية ؟

فقلت له : إنني لم أفهم كلام سموكم .

قال : نعم ، فإنك تقول الآن إن وصول جيشي إلى إسكدار يحدث ثورة في الآستانة وإني أوافقكم وأرى رأيكم ، ولكن أليس هذا دليلا على أن الأمة الإسلامية لا تريد حكم السلطان محمود ؟ ، فبأي حق ترغمون هذه الأمة على ما لا تريده ؟ وهل يحق لكم معشر الفرنسيين أن تمنعوها من اختيار حكامها ؟ عجبا ! لقد كنتم حينما ثار البلجيكيون وطلبوا تأليف مملكة مستقلة ، وحينما قام اليونانيون يطالبون باستقلالهم ، تنادون أن لكل أمة الحق في اختيار أولي أمرها ونظام الحكم الذي تبتغيه ، بل إنكم ساعدتم اليونانيين في ثورتهم ، فلماذا تحرمون الأمة التركية من هذا الحق ؟

قال البارون بوالكونت : « وكان إبراهيم باشا يلقي حديثه هذا في حماسة ، وذكاء ويمزج الأدلة القوية بشيء من الفكاهة والدعابة ، وكان جوابي له أن سموه

يخطىء في تقرير المبدإ الذي أملى على الدول الأوروبية سياستها في المسألة الشرقية ، فإنها لا تنظر إلى مثل هذه المسألة في ذاتها بل تنظر إليها من ناحية تأثيرها في مركز الدول . فإذا رأت مثلا كما في الحالة التي نحن بصددها أن ثورة أهلية تفضي إلى تزلزل التوازن الدولي وإحداث حرب عامة كان من الطبيعي أن تعمل كل دولة ما تراه حائلا دون وقوع هذه الكارثة فقال إبراهيم باشا : إن هذا عبث فإن أسباب الخصام بين الدول الأوروبية لا تنتهي . ودخلت معه في تفاصيل طويلة لأقنعه بخطإ فكرته »[1] .

وهكذا يتبين أن إبراهيم باشا كان مدركا لحقيقة الصراع بين الغرب الصليبي والأمة الإسلامية ، كما كان على وعي بحقيقة الوحدة الإسلامية التي تمثلها الدولة العثمانية ، ويرى أن التخلص من السلطان الضعيف وتخليص الحكومة الإسلامية من عوامل الضعف والانحراف يعود عليها بالخير ويحفظ وحدتها . ومثل هذا الكلام هو الذي يمكن التعويل عليه عند تحديد موقف هذا الرجل مما يسمى بالقومية المصرية أو بالقومية العربية ، أما ما صدر عنه من تصريحات ، أو وزع باسمه من منشورات أثناء حرب الأناضول ، فإنها من قبيل الحرب النفسية التي يقصد بها أطراف النزاع التأثير في بعضهم البعض ، بإبراز الأخطار والتلويح بالتهديد ، والوعيد ، فهو يلوح للسلطان العثماني بفصل الأقطار العربية عن دولة الخلافة إذا لم يرضخ لمطالبه ، فيجاهر علنا بأنه ينوي إحياء القومية العربية ، وإعطاء العرب حقوقهم وإسناد المناصب إليهم ، سواء في الإدارة أو في الجيش ، وأن يجعل منهم شعبا مستقلا ويشركهم في إدارة الشئون المالية ، ويعودهم سلطة الحكم واحتمال تكاليفه ، وتتجلى فكرته هذه في منشوراته ومخاطباته لجنوده في الحرب الأخيرة بسوريا ، فإنه لا يفتأ يذكرهم بمفاخر الأمة العربية ومجدها التالد إلى آخر ما كان يردده في هذا الصدد من كلام يدخل في نطاق ما يسمى بالحرب النفسية ، أو إن شئت الدقة ، يدخل في معنى السياسة حيث يهدد الخصم بالاستيلاء على الكل إن لم يتركه خصمه يستولي على جزء من هذا الكل ، ويلوح له بالعوامل التي تكفل له النجاح في سعيه هذا . وهو نفس ما

---

(1) راجع عبد الرحمن الرافعي ، عصر محمد علي ، صفحة 669 .

كان يفعله محمد علي الذي كان متأرجحا بين بطانته المتشبعة بالفكرة التركية ، كما يقول المؤرخون الغربيون ويقصدون بها الخلافة العثمانية ، وبين مستشاريه الفرنسيين وعلى رأسهم القنصل الفرنسي الذين كانوا يحرضونه على الخليفة العثماني ويوسوسون له بفكرة القومية المصرية تارة والقومية العربية تارة أخرى باعتبار الأولى تضمن له حكم مصر حكما مستقلا كحد أدنى بينما تضمن له الثانية حكم الأقاليم العربية التابعة للخلافة بالإضافة إلى مصر كحد أقصى .

ومن التصرفات التي تكشف عن أنانية محمد علي وتركيزه الشديد على ذاته ، رفضه لما اقترحه عليه الفرنسيون من شق قناة بين البحر الأبيض والأحمر تجنبا لما سوف يترتب على ذلك من أضرار تتمثل في تدخل الدول الأوروبية في شئون الولاية (مصر) التي كان يرغب في الانفراد بتسيير شئونها دون تدخل من أحد ، بينما رضي بالدخول في حرب ضد السلطان العثماني بتحريض من الدول الصليبية ، على الرغم من أن الأضرار التي ستترتب على ذلك لم تكن تقل عن الأضرار التي ستترتب على شق قناة ، بل تفوقها كثيرا . ولكنه لم يكن ليهتم بذلك طالما أن أطماعه سوف تتحقق وسلطاته لن تمس ، بل ربما تتسع على حساب مصالح المسلمين .

ولقد أدرك الغرب الطبيعة المغامرة لمحمد علي ، التي تجعله لا يعرف حدودا يقف عندها ، فهو بعد أن كان يطمع في الاستقلال بحكم مصر عن الخلافة الإسلامية مضى يطالب بحكم المناطق العربية من دولة الخلافة وإنشاء دولة عربية كبرى ، فلما وجد أنه انتصر على جيوش الخليفة ازدادت أطماعه وأخذ يتطلع إلى كرسي الخلافة في الآستانة يريد أن يتربع عليه زاعما أنه إنما يهدف إلى إحياء مجد الإسلام . ولم يدرك أن مجرد الإشارة ، ولو من طرف خفي إلى هذا الهدف ، من شأنه أن يسبب الخوف والفزع للدول الصليبية ويدفعها إلى التعجيل بالقضاء عليه ، أو على الأقل تحجيمه بحيث لا يمثل أي خطورة عليها .

وكانت هذه الدول لا تكف عن إيفاد مندوبيها إلى محمد علي وابنه إبراهيم لسبر غورهما فكانوا ينقلون إلى حكوماتهم كل ما سمعوه منهما . فضلا عما نقله البارون الفرنسي « بوالكونت » عن إبراهيم باشا ، فقد ذكر « بروكيش » وهو المندوب

الذي أوفده « مترنيخ » إلى الشرق لتقصي حقائق الأوضاع فيه إلى هذه الحقيقة بقوله « إن محمد علي يعتبر في رأي الناس الرجل الذي اختاره الله لإحياء مجد الإسلام » .

وهكذا تأكد للحكومات الأوروبية أن محمد علي لن يقف بأطماعه عند حد معين وأنه يهدف إلى الاستيلاء على الخلافة ذاتها ليحيي مجد الإسلام ، بعد أن كان يريد ، في أول الأمر ، أن يستقل بحكم مصر فقط ، أو بحكم الأقاليم العربية في دولة الخلافة .

وفي النقاش الذي دار في الجمعية الوطنية الفرنسية صاح السياسي الفرنسي « لامارتين » محذرا الحكومة الفرنسية من نتائج تأييدها لمحمد علي ، قائلا إن نشاط هذا الرجل المؤيد من الحكومة الفرنسية سوف ينتهي إلى قيام إمبراطورية ثانية من الخلفاء الراشدين .

ولم يكن ما قاله « لامارتين » إلا تأكيدا للهواجس التي كانت قد انتابت أحد أعضاء البرلمان الفرنسي يوم أن نشرت الصحف الأوروبية أخبارا عن الأسطول الذي أنشأه محمد علي والذي كانت بعض قطعه تصنع في ترسانات أوروبا . فقد حذر من وجود مثل هذا الأسطول الضخم في أيدي المسلمين ، وما قد يؤدي إليه من عودة السيطرة الإسلامية على البحر الأبيض . مما يدل على أن الغرب ينظر إلى كل ما يحرزه العرب أو المسلمون من قوة بارتياب ، ولا يتردد في العمل على تدميرها لكي يبقى المسلمون ضعفاء أذلاء .

كذلك فإن الرسالة التي بعث بها محمد علي إلى السفير الفرنسي في الآستانة تاريخ 8 مارس 1833 ردا على رسالة الأخير إليه والتي طلب منه فيها ألا يشتط في طلباته حقنا للدماء ، وأن يكتفي من الولايات التي فتحها بولايات صيدا (عكا) وطرابلس والقدس ونابلس ، هذه الرسالة قد أكدت لفرنسا ولغيرها من الدول صحة استنتاجات رجالها أمثال « بوالكونت » ولامارتين وغيرهما عن رغبة محمد علي في بعث الخلافة الإسلامية وتجديد دم الأمة الإسلامية . وكان السفير قد طلب في خطابه إلى محمد علي أن يسحب جيشه فورا وينذره بأنه في حالة الرفض سوف يستهدف

لأخطر العواقب ، فقال له محمد علي : « إني يا جناب السفير أتساءل بأي حق تطلبون مني هذه التضحية ؟ إن أمتي بأجمعها تؤيدني في موقفي ، وإن في استطاعتي بكلمة مني أن أحرض شعوب الروملي والأناضول على الثورة فيلبوا ندائي ، ويمكنني بتأييد أمتي أن أفعل أكثر من ذلك » . فهو يشير إلى أمته ويقصد بها الأمة الإسلامية وليس الأمة العربية لأن هذه لا تشمل شعوب الروملي والأناضول التي ليست بعربية ، كما لا يقصد « بأمته » مصر لأنه يقول بعد ذلك بوضوح كامل « تطلبون مني أن أتخلى عن البلاد التي فتحتها وأن انسحب بجنودي إلى منطقة صغيرة تسمونها ولاية أليس في هذا حكم علي بالإعدام السياسي ؟ » فالرجل يعتبر مصر جزءا صغيرا من أمته الإسلامية التي تضم إلى جانب مصر ، الشام ، والأناضول والروملي وغيرها .

وهكذا أكد محمد علي للغرب الصليبي ما سبق أن صرح به ابنه إبراهيم للبارون « بوالكونت » من الرغبة في دخول الآستانة وإعادة الحياة إلى جسد الخلافة الإسلامية ، وسواء أكان الدافع لدى محمد علي وابنه إبراهيم إلى الاستيلاء على الخلافة ذاتها ، أو بعض أقاليمها ، هو رغبته في « إحياء مجد الإسلام » كما قال « لامارتين » وإقامة دولة إسلامية قوية تقف في وجه الأطماع الغربية ، أم كان الدافع هو مجرد إشباع شهوته إلى الحكم والسلطان ، فإنه ما كان ليفكر في إقامة دولة واحدة من عدة أقاليم لا يجمع بينها إلا الإسلام إلا إذا كان على ثقة من أن سكان هذه الأقاليم وغيرها يرحبون بذلك بل ويرغبون فيه بقوة غير ملتفتين إلى موطن الشخص الذي يمكن أن يقوم بذلك ، فسواء لديهم أن يكون « ألبانيا » أو أن يكون « تركيا » أو غير ذلك فيكفي أن يكون مسلما يريد للمسلمين القوة والعزة في ظل دولة واحدة .

ولم يكن غريبا أن يصرح وزراء الخليفة العثماني أن المصريين مثلهم مسلمون ، ومن الأفضل أن يحكم محمد علي الآستانة من أن يحكمها الروس الذين كانوا لا يكفون عن التحرش بالخلافة . وهو ما ضاعف من خوف الغرب من محمد علي .

وكذلك ما أبداه سكان الأناضول ، وهم ليسوا بعرب بل أتراك ، من ترحيب بإبراهيم باشا وبجيشه ، وعدم مقاومة حكام المدن والأقاليم التركية له . فقد دخل

« كوتاهية » و « مغنيسيا » و « أزمير » بدون حرب .

أما الغرب الذي لم يكن يتوقع أن يحقق محمد علي كل هذه الانتصارات ، فقد رأى في هذا الوقت ، أنه يكون أقل خطرا أن يقيم محمد علي دولة عربية تضم مصر والشام من أن يدخل الآستانة ليعتلي كرسي الخلافة الإسلامية بما سيترتب على ذلك من تجديد شباب الأمة الإسلامية وبعث الحياة في أوصالها لتعود كما كانت ندا قويا للغرب . فقامت النمسا بإيفاد مبعوث إلى القاهرة هو الكونت « بروكيش أوستن » الذي وصل إليها في مهمة خاصة تتلخص في الاقتراحات المحددة والواضحة التي عرضها على محمد علي . وقد بين هذا السياسي النمساوي الخطوط العامة لمقترحاته في شيء من التفصيل في مذكرة مؤرخة في 17 مايو سنة 1833 تضمنت أن يتولى محمد علي الخلافة ، وأن يؤسس إمبراطورية عربية تشمل مصر والسودان وشبه الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق .

كذلك فإن محمد علي كان يعرف أن فرنسا ترحب بإنشاء مملكة مستقلة ثابتة الأركان تشمل بلاد الشام ومصر وجزيرة العرب ، وتقع على الطريق الأكبر إلى الشرق ، أي على طريق إنجلترا إلى الهند [1] .

وكانت النمسا ، في الواقع ، غير جادة فيما عرضته على محمد علي عن طريق مبعوثها ، وإنما كانت تهدف فقط إلى سبر غوره ومعرفة نواياه السياسية لا أكثر . فقد كان « مترنيخ » يعارض بشدة حدوث أي تغيير في الوضع القائم . أما فرنسا التي كانت مطلعة أولا بأول على أفكار محمد علي وخططه ، فإنها وإن كانت لم تمانع في قيام دولة عربية يحكمها محمد علي ، وهو ما كان رجالها المنبثون حوله يوسوسون له بفكرتها ويزينون له إقامتها ، إلا إنها كانت ترتاب في نواياه ، خاصة بعد ما صرح به من رغبته في « بعث مجد الإسلام » .

ويعبر الخطاب الذي أرسله سفير فرنسا في الآستانة إلى وزير الخارجية الفرنسي

---

(1) جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، صفحة 86.

في 19 أبريل سنة 1832 أصدق تعبير عن دوافع فرنسا وعن هواجسها أيضا ، فهو يقول « في اعتقادي أن مصر قوة مفتعلة ولكنها أصبحت خطيرة بعد ما امتلك زمامها محمد علي . ولذا يجب أن نخشى جانبها الآن . علينا أن نضع أمامها حواجز تستطيع أن توقفها . وعلينا أن نحصر طموح واليها في حدود لا يستطيع معها في كل لحظة أن يجابه الروس والإنجليز بمصالح فرنسا . فإن استقر ما وراء جبال طورس أصبحت هذه المصالح مهددة في كل لحظة .

أما أنجلترا فقد تظاهرت بأنه لا اعتراض لديها على خطط محمد علي وسعيه إلى إقامة الدولة العربية ، ربما لكي تشارك حليفتها في الفوائد التي قد تتحقق نتيجة لنجاح محمد علي في مساعيه ، وفي نفس الوقت أخذت تبذل أقصى ما في وسعها لوضع العراقيل في طريق قيام هذه الدولة ، فسعت لإثارة القلاقل ، والتحريض على الثورة في الشام لتخلق بذلك ذريعة لتدخلها بين محمد علي والخليفة . وعندئذ بادر السفير الفرنسي في الآستانة إلى التدخل بحجة تضييق شقة الخلاف بين مصر ومعها معظم ولايات الخلافة وبين الخليفة العثماني الذي سبق للغرب أن انتزع منه اليونان . وزعمت فرنسا أنها تتدخل لصالح الطرفين اللذين ما لبثا أن وقعا اتفاقا سمي باتفاق « كوتاهية » في مايو 1833 قضى بالتخلي لمحمد علي عن سورية وإقليم « أدنة » ، مع تثبيته على مصر وجزيرة كريت والحجاز مقابل أن يجلو بجيشه عن باقي بلاد الأناضول . ولكن الروسيا أبت أن تقر الخليفة على تصرفه هذا وفرضت عليه إبرام معاهدة سرية معها عرفت بمعاهدة « هنكار أسكله سي » في 8 يوليو 1833 الهدف منها استرداد ما أعطاه الخليفة لمحمد علي .

ومن ناحية أخرى فإن إنجلترا بدورها لم تكن راضية بأي حال على ما وصل إليه محمد علي ، فسعت لإثارة القلاقل ، والتحريض على الثورة في الشام لتخلق بذلك ذريعة لتدخلها من ناحية ، ولتنهك قوة محمد علي من ناحية أخرى فلا يكون قادرا على الدفاع عن الأقاليم التي يحكمها إذا ما قررت إنجلترا التدخل عسكريا في المنطقة .

أما الروسيا فقد اكتفت بما حصلت عليه من السلطان العثماني من امتيازات وبخاصة الاعتراف لها بالحق في مرور أساطيلها من البحر الأسود إلى البحر الأبيض

المتوسط ، وما أتيح لها من فرص للتدخل في الشئون الداخلية لتركيا وبسطها حمايتها عليها . و لم يلبث محمد علي أن أعلن عن عزمه إعلان الاستقلال عن الباب العالي ، وبادر إلى استدعاء قناصل الدول الأوروبية في مصر وأعلنهم بعزمه هذا في مايو عام 1838 وهو لا يدري أن دولهم لن تسمح له بهذا مهما كان الأمر ، لأن استقلاله بحكم هذه المنطقة الشاسعة من دولة الخلافة معناه الاعتراف له بالحق في إقامة دولة إسلامية قوية تقف حائلا دون تصفية الخلافة واقتسامها فيما بين الدول الأوروبية ، بل إن محمد علي قد يعود إلى حلمه في الحلول محل الخليفة نفسه على رأس الدولة الإسلامية الكبرى ، وفي هذا ما فيه من الخطر على أطماع الغرب . ولذلك رفضت طلبه ، بل وحذرته من عواقب إقدامه على إعلان الاستقلال .

وربما يكون محمد علي قد غلب على ظنه أن تلك الدول لن تعارضه في إعلان الاستقلال لأنه سبق لها أن وافقت ، بل فرضت استقلال اليونان على الخليفة العثماني . وفاته إدراك أن أوروبا لا تنظر إليه نظرتها إلى اليونان ، فهو حاكم مسلم لشعوب مسلمة ، وفي استقلاله وقوته خطر على أطماع الغرب ومصالحه .

و لم تضيع إنجلترا الوقت فمضت تحرض الخليفة العثماني على محمد علي وتغريه به حتى استجاب لها ، أو قل اضطر إلى الاستجابة ، نظرا لما كان قد بلغه من ضعف نتيجة للحروب التي دارت بين جيوشه وبين جيوش محمد علي ، وشرع في تحريك جيوشه نحو الشام ، و لم تلبث الحرب أن نشبت بين المسلمين بعضهم بعضا ، فاقتتل الإخوة على مرأى ومسمع من الغرب الصليبي وبمباركة منه ، فأسعده ، بدون شك ، أن يرى دماء المسلمين تسيل دون أن يفقد هو جنديا واحدا من جنوده .

ومع ذلك فإن الحرب لم تنس الطرفين أنهما إخوة وأبناء أمة واحدة ، فكانت تصدر عن بعضهم تصرفات تدل بوضوح على أنه لا فائدة من قتال بعضهم البعض ، مثال ذلك ما فعله قائد الأسطول التركي المدعو فوزي باشا الذي رأى أن يلجأ إلى مصر بسفنه بدلا من أن ينازل الأسطول المصري . وقد اعتبر البعض مما أصابت أعينهم غشاوة هذا التصرف خيانة على اعتبار أن مصر دولة أجنبية ، بينما أن هذا التصرف أبعد ما يكون عن الخيانة لأنه لا ينطوي على تسليم لطرف أجنبي أو لدولة

أوروبية ، وإنما هو انحياز إلى إخوة مسلمين . وهو تصرف ليس له مثيل في تاريخ الدولة العثمانية على كثرة ما خاضته جيوشها وأساطيلها من حروب ومعارك ، فإننا لم نقرأ فيما كتب عن تاريخ تلك الدولة أن قائدا من قوادها خانها بأن سلم جيشه أو أسطوله لدولة من الدول الأوروبية التي طالما اشتبكت معها الخلافة في حروب لا حصر لها . ولقد كان هذا هو رأي محمد علي نفسه الذي تعجب من استنكار قناصل الدول الأوروبية التجاء الأسطول العثماني إلى الإسكندرية ، ووجه كلامه إليهم متسائلا : أليست الإسكندرية مدينة إسلامية كالآستانة . ثم قام خطيبا في رجال الأسطول فدعاهم ألا ينسوا أنهم ورجاله من دين واحد .

وللمرة الثانية فإننا نقول إنه سواء أكان محمد علي قد قال هذا الكلام على سبيل السياسة ، أم قاله عن إيمان وبدافع من عقيدته الإسلامية ، فإنه في الحالتين أجج من مخاوف الغرب من الدور الذي يلعبه الإسلام في حياة المسلمين ، وإن ما حرص عليه من عداء بين الخليفة ومحمد علي ليس بكاف وإنما يجب أن يمد جذور هذا العداء إلى جماهير المسلمين حتى لا يتحدوا ضده مرة أخرى .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما كان يردده وزراء الخليفة من ترحيبهم بحكم محمد علي وتفضيلهم إياه على حكم الروس لأنه مسلم مثلهم ، وهو نفس الاعتبار الذي أملى على فوزي باشا قراره بالانضمام إلى محمد علي .

بل إن محمد علي ذاته ، وبعد أن حنكته التجارب المريرة التي خاضها مع الدول الصليبية ، أدرك ، ولكن متأخرا ، الأهداف الحقيقية لهذه الدول ، فكتب إلى عدوه اللدود « خسرو باشا » الصدر الأعظم خطابا ، يدل بوضوح على وعيه بحقيقة الأهداف الأوروبية الصليبية ، قال فيه « إذا لجأ الباب العالي إليها (الدول الأوروبية) فسيخضع بذلك لمصالحها السياسية تريد هذه الدول أن تبقى تركيا في حالة ضعف دائم وأن تعمها الاضطرابات حتى تتمكن في اللحظة المناسبة ، من اقتسامها بسهولة ، ذلك أن هذه الفكرة تراودها من سنين طويلة . وإذا كانت قد تحالفت فيما بينها فذلك لمنع أي إجراء يؤدي إلى تقوية تركيا ليس إلا . إنها تريد أولا أن تضعف مصر ، وهي سند تركيا ، بأمل إنهاكهما معا عن طريق إثارة حروب دائمة بينهما

لهذا أعتقد أنه من الأفضل ألف مرة أن نموت منذ اليوم ونحن ندافع عن شرف وطننا بما يمليه علينا ديننا الحنيف من شجاعة من أن ننهار بعد خمس سنوات وقد وصمنا العار . ولذلك فإني أستعد للحرب تحسبا لكل أمر » .

وللأسف الشديد ، فإن خسرو باشا أقدم ، مدفوعا بكراهيته لمحمد علي ، على اطلاع ممثلي الدول الأوروبية على هذه الرسالة السرية نكاية في عدوه اللدود ، غير عابئ بالنتائج التي سوف تترتب على ذلك[1] .

والغريب أن ما أدركه الغرب ، وعبر عنه بكلمات صريحة واضحة ، غمض على كثير من المؤرخين والباحثين المسلمين ، أو تعمدوا أن يتغافلوا عنه بسبب موقفهم من الإسلام ومن الوحدة الإسلامية . فقد زعم عبد الرحمن الرافعي أن إنجلترا فعلت ما فعلت « لأنها ترى في مصر ، إذا قويت مزاحما لها في سيادتها بالبحر الأبيض المتوسط ورقيبا عليها في طريقها إلى الهند . وهو كلام ليس صحيحا على إطلاقه ، وإنما الصحيح أن إنجلترا العدو اللدود للإسلام وللمسلمين منذ الحروب الصليبية وإلى الآن كانت ولا زالت تخشى الإسلام وتعمل ما وسعها الجهد لإضعاف المسلمين وبث الفرقة فيما بينهم وصرفهم عن دينهم الذي تدرك تمام الإدراك أنه مصدر قوتهم فقد كانت تخشى أن يقوم محمد علي بإحياء مجد الإسلام كما قال « بروكيتر » .

لذلك لم يكن غريبا أن تعترض الدول الأوروبية على ما أبداه الطرفان ، السلطان محمود الثاني الذي تولى الخلافة بعد وفاة السلطان عبد المجيد ، ومحمد علي من الرغبة في تصفية الخلافات بالطرق السلمية والتفاوض باعتبارهما أخوين مسلمين ، وأصر الغرب الصليبي على التدخل فيما بينهما ، فقام سفراء الدول الأوروبية الخمس ،

---

(1) لم يكن خسرو باشا وحده الذي يتعامل مع الأوروبيين ، وإنما كان المستشارون الفرنسيون يبلغون حكوماتهم كل ما يسمعونه أو يصل إلى علمهم بشأن خطط محمد علي ، وبالمقابل اعتمد الإنجليز على وزير خارجية محمد علي « بوغوص يوسف » في إمدادهم بالمعلومات . فلما توفي محمد علي سنة 1844 حل محل « بوغوص » عميل للفرنسيين يدعى « أرتين » وهو أرمني . ظل يشغل منصب وزير الخارجية والتجارة إلى سنة 1850 عندما وقع في فضيحة وهرب من البلاد فحل محله « اسطفان » بك وهو أرمني آخر . كذلك فإن « نوبار » باشا الذي تولى وزارة الخارجية فيما بعد كان ابن أخي « بوغوص يوسف » .

النمسا والروسيا وانجلترا وفرنسا وبروسيا في الآستانة ، بتقديم مذكرة إلى الباب العالي في 27 يوليو عام 1839 يطلبون إليه ألا يبرم أمرا في شأن المسألة المصرية إلا باطلاعهم واتفاقهم . وهكذا أسفرت السياسة الفرنسية عن وجهها الحقيقي ، ووقفت صراحة ضد محمد علي صديقها الحميم ، كما كان رجالها المحيطون به يزعمون له ، مما يدل على أن الأمر لم يكن متعلقا بقوة ذاتية لمصر ، أو لمحمد علي ، أو بتهديده لمصالح إنجلترا ، إلى آخر ما يردده مؤرخونا ، وإنما المسألة في حقيقتها تتعلق بصحوة المسلمين التي يجب أن يتكاتف الغرب من أجل القضاء عليها والحيلولة دون تحققها ، على الرغم من الخلافات الشديدة بين دوله حول الأمور الأخرى ، فهم دائما ينحون خلافاتهم جانبا إذا ما تعلق الأمر بالمسلمين .

وإذا كانت تركيا قد فقدت استقلالها منذ أن وقعت على معاهدة « هنكار أسكله سي » مع الروسيا ، فإنه ينبغي علينا أن نكون على أقصى درجة من الوعي ونحن نقرأ ما يكتبه أعداء الوحدة الإسلامية من كلام يوجهون فيه الاتهام إلى الخلافة العثمانية بأنها هي التي أساءت إلى العرب بما قامت به من تصرفات وما باشرته من إجراءات وأصدرته من قرارات ، وهو اتهام يقصدون به صرف الأنظار عما فعله الغرب الصليبي من ناحية ومن ناحية أخرى خلق شعور بالعداء لدى العرب نحو تركيا وتأجيجه بين الحين والحين حتى لا تتاح لهم أية فرصة لمجرد التفكير في إقامة كيان إسلامي واحد قد تكون تركيا جزءاً منه . فالمعروف أن كل ما صدر عن تركيا من تصرفات بعد هذه المعاهدة لم يكن صادرا عن إرادة حرة بعد أن كبلت الروسيا والدول الصليبية هذه الإرادة سواء عن طريق المعاهدات التي فرضتها فرضا على الباب العالي أم عن طريق التهديد باستعمال القوة أو التخويف من قوة محمد علي الذي كان قد استنزف قوة الخلافة بحروبه المستمرة .

ولقد توجت دول الغرب جهودها لإجهاض حركة « إحياء مجد الإسلام » بفرض معاهدة « لندن » التي أبرمت في 15 يوليو 1840 على محمد علي ، وهي المعاهدة التي قضت بصفة عامة ، بعودة مصر إلى الخلافة العثمانية على أن يكون حكمها وراثيا في نسل محمد علي ومع التزامها بدفع الجزية للباب العالي وسريان

المعاهدات التي أبرمتها السلطنة العثمانية وقوانينها (الأساسية) عليها .

وهكذا ضمن الغرب عودة الفريسة المرتقبة بكاملها إلى حجمها الطبيعي ، لكي يضمن لنفسه أجزاءها ، عندما تحين لحظة التقسيم ، ويتم القضاء نهائيا على الخلافة الإسلامية ، وأي أمل في بعثها بعد أن تصبح أشلاء يتعذر جمعها من جديد .

ولقد تظاهرت فرنسا ، بطبيعة الحال ، ولم تكن قد دخلت طرفا في صياغة المعاهدة ، تظاهرت بالغضب ، وأعلنت عدم موافقتها عليها لكي توهم محمد علي بأنها لا زالت صديقته . ولكنها ما لبثت أن عادت إلى التخلي عنه .

أما إنجلترا فقد بادرت إلى تأليب السوريين على حكم محمد علي ، وأرسلت إلى الشام جواسيسها الذين كان على رأسهم المدعو « ريتشارد وود » الذي كان يعمل ترجمانا في سفارتها في الآستانة ، فأثار اللبنانيين وحرض رؤساءهم ، فنشبت الثورة عارمة . ومرة أخرى يظهر الإسلام باعتباره العامل الأساسي في كراهية الغرب وبالذات إنجلترا لأي حاكم يحاول أن يوحد المسلمين ، حتى ولو كان الدافع لديه إلى ذلك هو شهوة الحكم والسلطان . ويقول الدكتور مشاقة وهو من معاصري تلك الحوادث في بيان أسباب تدخل إنجلترا بهذه الصورة : « وكأنها ، يقصد إنجلترا ، لاحظت أن محمد علي باشا يطمع بعد ضم البلاد في إحياء الدولة العربية القديمة وإرجاع دولة إسلامية عربية هذا شأنها في تنظيم أحوال الرعية .. ولذلك أرسلت رجلها الذي ذكرناه فأخذ يلقي بذور الشقاق في قلوب الأهالي » .

ولقد تمت المؤامرة الغربية الصليبية ، فتخلت فرنسا عن حليفها محمد علي وتركته لقمة سائغة لإنجلترا والروسيا والنمسا التي أرسلت أساطيلها إلى مصر والشام تخرب المدن وتحرق القرى وتشيع الخراب في كل مكان لإكراه محمد علي على الإذعان لها وقبول معاهدة لندن . وما كان للناس العزل في المناطق التي ضربتها أي ذنب فيما كان يحدث ، وإذا كان لهم من ذنب في نظر الصليبيين فهو أنهم مسلمون يجب إبادتهم ، كما تفعل إسرائيل الآن نيابة عن الغرب .

ولم تلبث فرنسا أن أعلنت محمد علي بتخليها عنه ، وقد رضيت بعودته إلى

الحدود التي طالما رسمتها في مخططاتها ، أي حدود ما يسمى بالقومية المصرية ذات الأصول الفرعونية . كذلك فقد ظهرت بوضوح ، أثناء هذه الفترة التي حدث فيها « الاتصال المباشر » مع أوروبا ، النتائج « العظيمة » التي جنبتنا تركيا مواجهتها لمدة ثلاثة قرون . فقد استغلت أوروبا « المتحضرة » الفرصة وزرعت عملاءها في الشام يحرضون الناس على الثورة ضد المصريين وتشكلت خلايا وبؤر لهذا الغرض من القناصل وأعضاء الإرساليات المسيحية الأجنبية . وكان الأب اليسوعي البولوني هو المحرض الحقيقي للمارونيين يعاونه القنصل النمساوي . أما زعيمهم في التمرد الذي أعلنوه فكان المدعو « أونفروي » الفرنسي ـ الذي كان ظاهريا ، يدرس اللغة العربية في دير عين طورة .

وكان إبراهيم باشا ما يكاد ينتهي من جمع الأسلحة من الأهالي ، حتى يقوم المبشرون بتوزيع أسلحة جديدة عليهم . وجرى توزيع المال والسلاح على أهالي جبل لبنان على يد عملاء إخصائيين ومبشرين بروتستانت وكاثوليك . وتحت ستار « الثقافة » التي أظهرت الدول الأوروبية اهتماما ملحوظا بنشرها في العالم العربي ، قام الكهنة والمبشرون بتحريض الدروز على الثورة ضد السلطات المصرية ، وتنافست الكنيسة الإنجليزية مع الكنيسة الأمريكية من أجل السيطرة على الدروز وأحرز الأمريكيون نجاحا في بعض المناطق بفضل المال الكثير الذي قاموا بتوزيعه بسخاء . أما الإنجليز فإنهم كانوا يأملون في جعل الدروز يعتنقون البروتستانتية .

من كل ما سبق يتبين أن محمد علي لم يكن من المؤمنين بفكرة القومية المصرية ، وكذلك ابنه إبراهيم ، بل إنهما لم يكونا يؤمنان بفكرة القومية العربية أو الوحدة العربية إلا باعتبارها فكرة مرحلية اتخذا منها طريقا للوصول إلى تحقيق هدفهما النهائي وهو الحلول محل الخليفة العثماني على رأس دولة الخلافة الإسلامية ، كما لوحا للخليفة بفكرة القومية أو الوحدة العربية على سبيل التهديد والمناورة ليس إلا .

ولم يكن محمد علي ينظر إلى مصر إلا على أنها إقليم صغير من أقاليم دولة الخلافة لا يتسع لأحلامه ، وهو ما عبر عنه في خطابه إلى سفير فرنسا في الآستانة الذي سبق أن أشرنا إليه .

ومع ذلك ، فإن البعض يجد في نفسه الشجاعة فيجرؤ على الحديث عما يسميه « الحركة الفكرية » التي كانت تدرك الهدف الذي كان يرمي إليه مؤسسا الأسرة المالكة الجديدة[1] ، دون أن يبين ما يعنيه بـ (الحركة الفكرية) ولا بـ (الهدف) الذي كان يرمي إليه محمد علي وابنه إبراهيم . وما كان ليبين ما يعنيه بهذه الكلمة أو بتلك لأنه يعلم يقينا أنه لم تكن هناك أي حركة فكرية ، ولا كان هناك هدف بالمعنى الذي قصده وهو « القومية المصرية » لأنه ، لا محمد علي ولا ابنه إبراهيم كان لهما هدف محدد كما بينا . ولكنها طريقة هذه الفئة في التمويه واللعب بالألفاظ ، والاستخفاف بالعقول من أجل بلوغ أهدافهم الشريرة .

والصحيح أنه كانت هناك « حركة فكرية » ولكنها ليست معضدة لمحمد علي ، بل معارضة لتصرفاته المعادية لدولة الخلافة لإدراكها لفداحة الأضرار التي تصيب الأمة الإسلامية نتيجة للحروب التي أجج محمد علي أوارها ، وما يترتب عليها من ضعف المسلمين وسقوطهم فريسة في براثن الصليبيين . والدليل على وجود الحركة المعارضة ما قام به محمد علي عشية نشوب الحرب بين الجيشين المصري والعثماني في الشام من ملاحقة الشرطة المصرية لكل من أظهر امتعاضه أو عدم رضاه عن هذه الحرب ، واعتقالهم والحكم على كثيرين منهم بالأشغال الشاقة كما أوقفت المراسلات مع التجار السوريين وعوقب أصحابها . وفي القاهرة نفسها انتشر مناخ الخوف والإرهاب البوليسي وعم سائر الطبقات[2] .

أما الشعب فإنه لم يكن يعرف شيئا عما يسمى قومية مصرية ، أو حتى قومية عربية ، وإنما كان يعرف شيئا واحدا وهو أن الجميع مسلمون تضمهم دولة واحدة ، وأنه لا أهمية لأصل الحاكم فسواء أن يكون عربيا أم أن يكون غير ذلك ، المهم أن يكون مسلما يعمل لما فيه صالح المسلمين وبالذات وحدتهم وتماسكهم وعزتهم إزاء الصليبيين الذين كان يعدهم ألد أعدائه .

---

(1) أنور عبد الملك ، المرجع السابق ، صفحة 296 .

(2) جوزف حجار ، المرجع السابق ، صفحة 61 .

ولقد كان الناس في مصر في أشد الدهشة وهم يرون محمد علي يحارب خليفة المسلمين ويتآمر مع هؤلاء الصليبيين ضده ، ولم تكن قد خبت في ذاكراتهم بعد مذابح بونابرت والإنجليز لأهل مصر في القاهرة وكل المدن والقرى المصرية ولا ما فعله الأتراك من أجل إجلاء الغزاة الفرنسيين عن مصر ، بل وما فعله المماليك أيضا ، فقد اتحد الجميع من أجل مقاومة الفرنسيين في القاهرة وامتزجت دماؤهم التي أسالتها غزيرة أسلحة الغزاة المجرمين .

ويكشف ما قاله كلوت بك عن اتهام ، من أسماهم خصوم محمد علي وشانئيه له بأنه « استنفد » قوى البلاد المصرية واستدر حلابها ، بل ذهبوا إلى أنه قد أتى إثما غليظا لتنقيصه سكان هذا القطر بتأليفه من القوى العسكرية ما لا يتسع للإنفاق عليه مالية البلاد[1] . يكشف هذا الكلام عن أن الناس كانوا يعتبرون تصرفات محمد علي في هذا الصدد ضارة بالبلاد وليس كما زعم دكتور أنور عبد الملك ، اللهم إلا إذا كان يقصد بـ (الحركة الفكرية) كلوت بك وأمثاله من الفرنسيين وغير الفرنسيين ممن كانوا ينتفعون من تلك التصرفات .

ولعل السؤال الذي وجهه أحد الجنود في جيش إبراهيم باشا إلى هذا القائد يعبر بشدة عما كان الناس يشعرون به إزاء الحروب التي كانت تدور بين محمد علي والخليفة العثماني ، فقد سأل الجندي قائده قائلا بعد أن سمعه يطعن في الأتراك : كيف تطعن في الأتراك وأنت منهم ؟ فرد عليه إبراهيم باشا قائلا : أنا لست تركيا ، فإني جئت مصر صبيا ، ومنذ ذلك الحين قد مصرتني شمسها وغيرت من دمي وجعلته دما عربيا . وبطبيعة الحال فإن الجندي لم يفهم ، وله الحق في ألا يفهم ، كيف أن الشمس تمصر الإنسان وتغير من دمه فتجعله دما عربيا . ولا شك أنه قد نظر إلى قائده في حيرة وتعجب ولم يسأله كيف حتى لا يناله منه ما لا يحب . ولم يخطر على باله أن مؤرخا مثل الرافعي سوف يأتي بعد ذلك ليردد هذا الهراء دون

---

(1) لمحة عامة إلى مصر ، الجزء الثاني ، صفحة 11 .

أن يعتريه أي إحساس بالخجل .

ولقد كان هذا السؤال أوضح تعبير عن أن المصريين لم يكونوا يهتمون بالاختلافات العرقية بين المسلمين إلا من حيث كونها من العوامل التي قد تجعل بعض المنتمين إلى أحد العروق ينحازون إلى البعض الآخر كما كان يحدث بين المماليك أو الأتراك . ولكن في نهاية الأمر فإن المسلمين كانوا ينحازون لبعضهم دون نظر إلى عرق أو أرومة . وليس هناك شك في أن الجندي الذكي قد أدرك ما في إجابة إبراهيم باشا من كذب ونفاق لما ينطوي عليه من محاولة دغدغة ما قد يوجد لديه من مشاعر الوطنية التي ظن أنها تزيد على إيمانه بالوحدة الإسلامية وبضرورة التأليف بين قلوب المسلمين لكي يقفوا صفا واحدا في وجه الصليبيين وليس في وجه بعضهم البعض كما يفعل محمد علي .

ولم يكن الشعب ليغفل عن أن محمد علي قد أحاط نفسه بالفرنسيين الذين سبق لهم أن سفكوا دماء أبنائه وهتكوا أعراض نسائه ودنسوا مساجده ودخلوها بخيولهم . وأنه في الوقت الذي كانت جيوشه تحارب جيوش الدولة العثمانية وتسيل دماء الجانبين غزيرة على أرض المعركة ، والأسر في كل قرية ومدينة تتلقى الأخبار التي تفيد موت أبنائها ، كان هؤلاء الفرنسيون يروحون ويجيئون في خيلاء أمام أعين الناس تحميهم جنود الباشا ، بينما العلماء ووجوه الناس الذين نفاهم إلى أماكن نائية أو حدد إقامتهم هنا أو هناك محرومون من الحق في الكلام وفي الحركة .

كذلك فإن هناك دليلا قويا على أن أحدا من السكان لم يكن يتكلم بطريقة يفهم منها أن هناك تمييزا بين مواطني الدولة العثمانية بحسب الأرض التي يقيمون عليها أو الإقليم الذي ينتمون إليه ، على الأقل بالنسبة لمن كانت العربية لسانهم ، وإنما كان الجميع عربا ، وهو ما لاحظه الكتاب الأجانب وأثبتوه فيما كتبوه . فقد كانوا يقولون عن سكان مصر « العرب » لا المصريين ، وقد يقولون « المسلمين » فينصرف كلامهم إلى الجميع ، عربا وأتراكا وأكرادا وألبانا .

وعندما نشبت المعارك بين محمد علي والخليفة العثماني كان الذين كتبوا عنها لا

يذكرون كلمة « مصريين » وإنما كانوا يذكرون كلمة « العرب » . من ذلك ما جاء في كتاب « حرب محمد علي ضد الباب العالي » للكاتبين « كادلفين وبارو » حيث قالا : « إن العرب من سكان وادي النيل لم يكن لهم منذ الفتح العثماني حق الانتظام في الجيش » وعلى الرغم من أن هذا الذي قالاه ليس صحيحا ، فإن الذي يهمنا من كلامهما هو قولهما عن المصريين « العرب » . كذلك ما صرح به الكولونيل « سيف » (سليمان باشا الفرنساوي) للبارون « بوالكونت » في وصفه للجنود « إن العرب – يقصد المصريين – هم خير من رأيتهم من الجنود » . بل إن كلوت بك نفسه يسميهم العرب فهو يقول في كتابه لمحة عامة عن مصر « ربما يعد العرب أصلح الأمم لأن يكونوا من خيرة الجنود » ولكن الرافعي تعمد أن يكتبها « المصريون » على خلاف النص الفرنسي الذي ذكر فيه كلوت بك العرب .

كذلك فإن الجنرال « مرمون » يصفهم بأنهم « عرب » فيقول « إنه لما رسخت سلطة محمد علي واطمأن إلى إخلاص الجيش بدأ يسند مناصب الضباط إلى العرب فبرهنوا على ذكاء وافر ونشاط كبير .

كما كان إبراهيم بن محمد علي يصف سكان إقليم مصر بالعرب . ففي أثناء حصاره لـ (عكا) قال عن جنوده « إنه يستحيل على أي جيش في العالم أن يتحلى بروح الجلد والبسالة بأكثر مما تحلى به جيشي ، وفي كل مرة تبرز في الجيش حالة تردد أو تخاذل فقد كان مصدرها دوما الضباط الأتراك ، ولا أعرف مثل هذه النماذج بين العرب » .

وحتى سنة 1878 كانت الصحف الأجنبية ، حتى تلك التي تصدر في مصر ، تقول عن المصريين ، العرب ولا تذكر كلمة مصريين . فقد نشرت جريدة « البروجريه إجبسيان » تعليقا على ما أبداه المصريون من مشاعر نحو إخوانهم الأتراك الذين كانوا يخوضون حربا ضد روسيا قالت فيه « ليس العرب غير مبالين بالسياسة كما نتصور . فإنهم يتهافتون على سيل الأخبار التي تصلهم من القسطنطينية ويعلقون

عليها ويناقشون موضوع الصراع ، باختصار ، إن الرأي العام عند العرب يتشكل ويتبلور »[1] .

وهكذا في كل ما كتب عن مصر في تلك الفترة الحافلة بالأحداث .

وإذا كان محمد علي وابنه إبراهيم قد حدثا المصريين وبالذات من كانوا جنودا في الجيش عن « مصر » باعتبارها نقيضا للخلافة الإسلامية فإن ذلك لم يكن عن إيمان وإنما كان بدافع من الرغبة في خلق الشعور لدى المصريين بوجود تعارض في المصلحة بينهم وبين إخوانهم من المسلمين عربا وغير عرب وهو نفس ما يحدث الآن بهدف تعميق الفرقة وإحكام القطيعة ولكن من الواضح أن تقلبه بين الفكرة المصرية والفكرة العربية والفكرة الإسلامية الناشئ عن تقلب مماثل في سير المعارك بينه وبين الخلافة أدى ، بدون شك ، إلى ارتياب الناس في نواياه وعدم ثقتهم فيه .

موقف المفكرين المسلمين من فكرة القومية المصرية :

لا نجد فيما خلفه المفكرون المسلمون في عهد محمد علي صدى لفكرة القومية المصرية ، ولعل عبد الرحمن الجبرتي أن يكون أبرز المفكرين في ذلك العهد خاصة وأنه عاش نهاية حكم المماليك وعاصر الحملة الفرنسية على مصر كما عاصر الفترة الأولى من حكم محمد علي ، وفي جميع هذه الفترات كان الجبرتي واضحا في موقفه ، محددا في رأيه في نظام الحكم الذي يربط مصر بدولة الخلافة ، مدركا لحقيقة الوحدة الإسلامية ، واعيا بأطماع الغرب الصليبي وألاعيبه وحيله . فهو في كل ما كتبه لم يخط كلمة واحدة يستشف منها اعتقاده أو حتى سماعه بما يسمى قومية مصرية ، أو ميله ولو قليلا عن مبدإ الوحدة الإسلامية . بل إن حرصه على الالتزام بالإطار

---

(1) دكتور أنور عبد الملك ، المرجع السابق ، صفحة 301 ، ويلاحظ أنه وضع كلمة المصريين بين قوسين بعد كلمة العرب ، وهو بذلك يناقض نفسه ، فضلا عن تبديله لوقته وجهده ووقت وجهد القراء بالحديث عن أمر لم يكن له وجود وهو ما يسميه « القومية المصرية » .

الذي تقوم بداخله العلاقة بين المصريين وغيرهم من المسلمين يبدو واضحا جليا فهو يصف العثمانيين بالمسلمين في معظم ما كتبه عنهم فيقول عند وصفه لدخولهم القاهرة بعد قبول الفرنسيين بالجلاء عنها « ولما دخل المسلمون » ولذلك فإن أعداء الوحدة الإسلامية والراغبين في التفرقة بين المسلمين يتعمدون وضع كلمة « عثمانيين » بين قوسين بعد كلمة مسلمين .

كذلك فإن الجبرتي رغم الدهشة التي اعترته عندما أجرى الفرنسيون تجاربهم الكيمائية أمامه هو وغيره من علماء الأزهر كان على وعي سليم بالعوامل التي أدت إلى تخلف المسلمين ، والتي ردها بشكل حاسم إلى بعدهم عن الدين وتركهم للعلم . ويقول « كريستوفر هيرولد » لقد توقع الفرنسيون بالغرور المعهود في الغربيين أن يستجيب الشيوخ لعجائب الصناعة بدهشة صبيانية كدهشة الشعوب المتخلفة . ولعله لم يخطر لهؤلاء الصناعيين أنهم هم السذج الأقل بصرا بشئون الدنيا من الشيوخ الذين لم يبد عليهم التأثر بما شهدوا . لقد تأثر الشيوخ ما في ذلك ريب ، وقد أعجبوا ، إن كان بين الجبرتي وبينهم شبه ولو قليل ، بهذا الانقطاع للعلم أكثر من إعجابهم بعرض الألاعيب والحيل الرخيصة ، ولكنهم أبوا الخضوع لسيطرة الغريب .

أما بعد الجبرتي ولمدة طويلة امتدت من عصر محمد علي إلى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، فإن رجال الأزهر الذين كانوا في نفس الوقت هم رجال الفكر ، لم يصدر عنهم رأي ولم يقدموا فكرا ، وذلك لأن محمد علي كان قد حاربهم وحاصرهم في معقلهم « الأزهر » بعد أن حرمهم من المشاركة في شئون البلاد . ومع ذلك فقد ظلوا أوفياء لمبدإ الوحدة الإسلامية مخلصين للخلافة ، على الرغم من تحفظاتهم على الأسلوب الذي تدار به الأمور ، وما كان محتملا أن يقولوه في ثنايا الدروس التي كانوا يلقونها على تلاميذهم في الأزهر ، وهو عمل يدخل في باب المخاطر التي لا تحمد عواقبها ، إذا علم محمد علي بها . فقد كان عنيفا دمويا لا يتردد في قتل كل من يرتاب في ولائه له أو يظن أنه يريد به شرا . وهكذا خلا الميدان للفرنسيين والأرمن والمالطيين وللشوام المسيحيين ولغيرهم من أعداء الوحدة الإسلامية الداعين إلى القومية المصرية يتخذون منها سلاحا يضربون به الوحدة

الإسلامية ليحولوا دون قيامها من جديد .

الرد على الرافعي فيما قاله عن الأزهر :

عزا الرافعي تضاؤل نفوذ رجال الأزهر والعلماء في عهد محمد علي وانحلال زعامتهم ، إلى ما أسماه تحاسدهم وتباغضهم وتخاذلهم وائتمارهم ومحمد علي بالسيد عمر مكرم حتى انتهت المؤامرة بنفيه ، وما تبع ذلك من عدم قيام قائمتهم بعده ، بل صاروا تبعا للحكومة من غير أن يكون لهم أثر في سياستها أو في مشاريعها . وواضح أن الرافعي قصد أن يدافع عن محمد علي ويلقي بالتبعة كلها على عاتق رجال الأزهر ، وهو ما كان يجب أن يربأ بنفسه عنه . ذلك أن محمد علي هو الذي سعى جاهدا لإفساد الذمم وطمس الضمائر وتأليب العلماء ضد بعضهم مدفوعا بذلك بالرغبة في صرف اهتمامهم عنه ، وهم الذين اشترطوا أن يعزلوه إذا لم يسر في الناس بالعدل ، وكان يرغب في أن ينفرد بالحكم ويستبد بالأمر دون حسيب أو رقيب .

وما كان مثله بالذي يعجز عن تطوير الأزهر وجعله يساير حركة التقدم والإصلاح بحيث يظل مركزا للعلم وللثقافة الأصيلة في مصر والعالم الإسلامي . ولا ينتقل هذا المركز إلى المدارس والمعاهد التي أنشأها وأسند إدارتها والإشراف عليها إلى أعداء الإسلام الذين استغلوها للترويج لأفكارهم المعادية للإسلام .

أما ما قاله الرافعي من أن محمد علي خشى إن هو مد يده بالإصلاح إلى الأزهر أن يثير سخط العلماء والجماهير ، فهو غير صحيح لأن محمد علي الذي فرض على البلاد نظما كثيرة ما كانت لتقبلها ، ولكنه أرغمها على قبولها ، ما كان ليخشى سخط أحد . والدليل على ذلك ما فعله باثنين من المماليك كانا قد تمكنا من الهرب من مذبحة القلعة واحتميا بالشيخ الشرقاوي شيخ الأزهر يطلبان وساطته في العفو ، فطلب الأمان لهما من محمد علي ، فأوعده على أن يحضرا عنده . فلما أرسلهما إليه قتلهما ولحقا بزملائهما . وقد فعل محمد علي ذلك ببساطة شديدة غير عابئ بما قد يترتب عليه من غضب شيخ الأزهر ومن ورائه العلماء .

كذلك لما توفي الشيخ الشرقاوي سنة 1812 اجتمع العلماء واتفقوا على تعيين الشيخ محمد المهدي شيخا للأزهر ، وصافحوه وهنئوه . ولكن محمد علي ضرب باتفاقهم عرض الحائط وعين الشيخ محمد الشنواني شيخا للأزهر[1] .

وهكذا يتبين لنا أن محمد علي لم يكن راغبا في إصلاح الأزهر ، وجعله يساير حركة التقدم العلمي ، أو لعله لم يفكر أصلا في هذا لرغبته في التخلص من رقابة رجال الدين والعلماء خاصة بعد ما رآه من تأثيرهم في الجماهير أثناء الحملة الفرنسية وبعدها ، وما كان لهم من تقدير لدى الخليفة العثماني .

كذلك فإن الرافعي قد تناقض مع نفسه حين قال عن رجال الأزهر إنهم « انكمشوا ولم يشتركوا في حركة التجديد والإنشاء في مختلف نواحيها ، فعجزوا عن الاشتراك في حروب مصر أو في إدارة حكومتها أو في سياستها وأعمال العمران التي قامت بها » ثم عاد ليقول « إذ ما من شك في أن الفئة التي تخرجت من المدارس الحربية والبحرية أو العلمية والهندسية هي التي اضطلعت بأعباء الأعمال العامة سواء في خارج مصر أو في داخلها ، وهم بحكم توليهم عبء الجهاد وسياسة الحكم وحملهم لواء النهضة قد امتازوا على طبقة العلماء وحجبوها بما نالوه من السلطان والنفوذ ، وتضاءلت منزلة العلماء وظهر الفرق جسيما بين ما آل إليه أمرهم من الضعف وخمول الذكر وما كان لهم من نفوذ وسؤدد حين تولوا قيادة الحركات الشعبية في عهد الحملة الفرنسية أو بعدها ، وحين كانوا في أوائل حكم محمد علي يتقدمون الصفوف في الدعوة إلى التطوع للجهاد دفاعا عن الذمار كما فعلوا عند مجيء الحملة الإنجليزية سنة 1807 » . فهو كما رأينا ينعى على العلماء انكماشهم وعدم اشتراكهم في حركة التجديد ، وفي نفس الوقت يعترف بأن خريجي المدارس الحربية والبحرية والهندسية اضطلعوا بأعباء الأعمال العامة في الداخل والخارج ، وبطبيعة الأحوال فإنهم لم يضطلعوا بها من تلقاء أنفسهم ولكن بتكليف من محمد علي نفسه الذي أعدهم من أجل ذلك . فماذا كان بمقدور رجال الأزهر أن يفعلوا ؟

---

(1) محمد كمال السيد محمد ، الأزهر جامعا وجامعة ، صفحة 228 .

أم أن الرافعي كان يريدهم أن يقوموا بمسيرة أو تظاهر يطالبون محمد علي فيها بإسناد بعض الأعمال إليهم . وأي أعمال هذه التي يريد منهم الرافعي أن يقوموا بها ؟ أن يجاهدوا أو يحضوا الناس على الجهاد ؟! وضد من يجاهدون ؟ ضد إخوتهم في الدين أم ضد الفرنسيين الذين سلطهم محمد علي على شئون البلاد والعباد ؟

لا شك أن تسلط فكرة القومية المصرية على عقل الرافعي قد أعماه عن إدراك الحقيقة وهي أن الجهاد لا يكون ضد إخوة في الدين ولكن بما أنه أصبح مصريا فرعونيا فإنه يعتبر شن الحرب على المسلمين جهادا وهو لذلك يخلط بين حروب محمد علي ضد الخلافة ومقاومة الشعب بقيادة رجال الأزهر للفرنسيين والإنجليز .

وعلى الرغم من كل ما أصاب الأزهر على يدي محمد علي ، فإنه لم يتوقف عن القيام بدوره في ميادين الدين والعلم والفكر ، فبواسطة كتاتيبه المنتشرة في أنحاء البلاد استطاع أن يوجد عددا كبيرا من المتعلمين تعليما دينيا كانوا بمثابة الجدار الضخم الذي صد عن الناس رياح التغريب[1] وحال دون زحزحة الإسلام من مكانه على أيدي المدرسين الفرنسيين والشوام المسيحيين وتلاميذهم فضلا عن أعضاء البعثات التعليمية الذين أوفدهم محمد علي إلى أوروبا فعادوا وقد تشبعوا بمشاعر أقل ما توصف به أنها مناوئة للإسلام ، يؤمنون بأنه السبب في تخلف المسلمين . وهكذا فبعد أن كان هناك يعقوب واحد أصبح يوجد مئات من أمثاله غالبيتهم ممن يحملون أسماء إسلامية ويتكلمون العربية ولا شيء غير ذلك يربطهم بأهليهم وأمتهم .

جهود الغرب في الترويج لفكرة القومية المصرية :

أتاح محمد علي للفرنسيين ، أعداء الإسلام ، الفرصة لضرب الوحدة الإسلامية والترويج لفكرة القومية المصرية الفرعونية التي اعتبروها النقيض للوحدة الإسلامية ، فقاموا بعملية غزو فكري لعقول المصريين ابتداء من الفلاح البسيط ، الذي انتزعه من حقله لكي يلحقه بالمصانع التي أنشأها من أجل أن تلبي احتياجات جيشه ، إلى التلميذ الصغير الذي سلمه إلى الفرنسيين والإيطاليين والأرمن والمالطيين لكي

---

(1) ليونارد بايندد ، الثورة العقائدية في الشرق الأوسط ، صفحة 59 .

يجروا له عملية غسل مخ يقضون بها على كل ما لديه من أفكار وقيم ومثل ومعتقدات ليضعوا مكانها أفكارا أخرى عن أصله الفرعوني الذي يميزه عن غيره من المسلمين سواء أكانوا عربا أو أتراكاً أو شراكسة أو أكرادا .

وفيما يتعلق بالعمال ، فإنه يخطئ من يظن أن محمد علي أتاح للمصريين الفرصة لكي يتعلموا المهن الجديدة ويلموا بأساليب العمل المستحدثة . وكل ما فعله أنه أتى بالفلاحين من قراهم لكي يعملوا تحت إمرة عمال آخرين استجلبهم من خارج مصر . ففي سنة 1814 نشر أعلانا في مالطا يدعو فيه العمال من جميع الاختصاصات إلى التعاقد معه للعمل . وفي السنة التالية أمر وكلاءه في العواصم الأوروبية الكبرى أن يزودوه بعمال مهرة ومتخصصين في صناعة النسيج التي كان ينوي دفعها إلى الأمام فحضرت أعداد كبيرة منهم بلغوا بضعة آلاف مؤلفة بشكل خاص من السوريين واليونانيين والمالطيين والإيطاليين[1] .

ولقد قام هؤلاء وكلهم من غير المسلمين ، وبتوجيه من المديرين والمشرفين الفرنسيين بالترويج لفكرة القومية المصرية ذات الأصول الفرعونية بين العمال المصريين الذين حال جهلهم بالتاريخ دون إدراكهم لمعنى ما كانوا يسمعونه من رؤسائهم .

ولكن الأمر كان مختلفا بالنسبة للأطفال الذين التحقوا بالمدارس التي أنشأها محمد علي وعهد بإدارتها والإشراف عليها والتدريس فيها إلى الفرنسيين والإيطاليين ، فأصبحوا يسيطرون عليها تماما ويستغلون ذلك للترويج لفكرة القومية المصرية . ويقول « دوان » عن « كلوت » بك الذي كان يدرس في كلية الطب ، التي عهد إليه محمد علي بإنشائها : إنه كان مخلصا للنهضة القومية في مصر . وقد عني بأن يطبع الطلاب في المدارس العليا التي كان يديرها ، على الشعور الصحيح بالقومية العربية (يقصد المصرية)[2] .

---

(1) جوزف حجار ، المرجع السابق ، صفحة 15 .

(2) جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، هامش صفحة 104 ، وانظر أيضا : جون ما ل . تاريخ النهب الاستعماري لمصر ، صفحة 62 .

كذلك فإنه حين أنشأ ما يسمى بـ (ديوان المدارس) سنة 1837 الذي كان يسمى قبل ذلك (مجلس شورى المدارس) وهو بمثابة إدارة للمدارس العليا والخصوصية ، جعل لهذا الديوان مجلسا كان أغلب أعضائه من غير المسلمين ، مثل كلوت بك وكياني بك ، وأرتين بك ، وإسطفان بك ، حسكلتيان بك وفارين بك ولامبير بك وهامون بك ودوزول بك ، أي تسعة أعضاء مقابل ثلاثة أعضاء فقط من المسلمين هم مصطفى مختار ورفاعة رافع ، ومحمد بيومي . وهذا المجلس كان يشرف على تنظيم التعليم بالمدارس ووضع السياسة الخاصة به .

هذا فضلا عما كان المدربون والضباط من فرنسيين وإيطاليين وأسبان يقومون به من أنشطة داخل الجيش والبحرية ، وفي المصانع التي تنتج السلاح ، تهدف كلها إلى توجيه عقول المصريين نحو فكرة القومية المصرية وجعلهم يشعرون بالفخر لانتمائهم إلى الفراعنة ويزدرون العرب والمسلمين ، ويعتقدون أن الإسلام هو السبب في تخلف البلاد ، وأن العرب ليسوا إلا غزاة همجا ألقوا بمصر في هوة التخلف وهي التي كانت دولة من أرقى الدول .

أما طلاب البعثات التي بدأ محمد علي في إيفادها إلى أوروبا منذ عام 1813 والذين بلغ عددهم الإجمالي سنة 1847 ، 319 طالبا فقد كان تأثير الغرب فيهم أشد وأعمق حيث كان أساتذتهم لا يكفون عن المقارنة بين الأوضاع السائدة في بلادهم والتي ترتبت على عزل الدين والتخلي عن العقيدة وبين ما هو سائد في مصر من تخلف ، زعموا لهم أنه ناشئ عن التمسك بالإسلام الذي لا مفر من عزله هو الآخر حتى تحرز مصر تقدما مماثلا . وكان بين المبعوثين أربعة من الأمراء ، منهم اثنان من أبناء محمد علي وهما الأمير عبد الحليم والأمير حسين ، واثنان من أبناء إبراهيم باشا وهما إسماعيل والأمير أحمد . ولقد قدر لإسماعيل أن يصبح خديويا لمصر فيما بعد ، فما كان منه إلا أن وقف عقب توليه الحكم يصيح بأعلى صوته « مصر قطعة من أوروبا » ، فأظهر بذلك المدى الذي بلغه الغربيون في التأثير في عقول طلاب البعثات .

وكان من بين الذين اضطلعوا بمهمة التدريس لطلاب البعثات الذين أوفدوا إلى

فرنسا عدد من أنصار « الجنرال يعقوب » الذين كانوا قد فروا معه عقب خروج الفرنسيين من مصر فأتيحت لهم بذلك الفرصة لتلقين هؤلاء الطلاب فكرة القومية المصرية والعداء للإسلام ، بخلق الاعتقاد لديهم بأنه السبب في كل ما أصاب مصر من تخلف . وكان من بين أبرز هؤلاء المدرسين المدعو يوسف أجوب الذي ولد في مصر القديمة من أب قبطي وأم سورية مسيحية ، وكان قد عين عقب وصوله إلى فرنسا مدرسا للغة العربية في مدرسة لويس الأكبر الثانوية وعمل مساعدا للأستاذ الفرنسي « جومار » رئيس البعثة المصرية الأولى الذي عهد إليه بالتدريس لرفاعة الطهطاوي . فكان طبيعيا أن يحدثه عن مصر ومجدها الغابر والقومية المصرية واستقلال مصر وغير ذلك من الأفكار التي كانت فرنسا تحشو بها عقول أعضاء البعثات المصرية .

ولقد بلغ النفوذ الفرنسي في مصر درجة لم يبلغها أيام الحملة على مصر ، فكان الفرنسيون يعاملون المصريين بطريقة غير لائقة ، بل ويجاهرون بتميزهم وتعاليهم حتى على محمد علي نفسه . فعند وضع حجر الأساس لقناطر محمد علي سنة 1847 شرب الفرنسيون نخب محمد علي ونابليون وتعمدوا فيما ألقوه من كلمات أن يذكروا بأيادي حكومتهم البيضاء عليه . ويصرح أتباع « سان سيمون » في مناسبات مختلفة أن محمد علي هو المنفذ الأمين لوصية بونابرت في مصر . وكان الموظفون الأجانب في الحكومة المصرية يعدون أنفسهم تابعين لحكوماتهم ويعاملون المصريين الذين يعملون تحت إمرتهم وكأنهم أصحاب البلاد . وعندما اختلف قنصل فرنسا في الإسكندرية مع السلطات المصرية بادر إلى دعوة مواطنيه بشكل سافر للوقوف في وجه السلطات المصرية[1] .

ولم يكن الجحود والاستعلاء والغرور هو كل ما يميز هؤلاء الناس بل كانت الخيانة والتآمر من أبرز سماتهم ، وهو ما يكشف عنه تصرف « كلوت بك » بشأن رجل وامرأة من الفرنسيين اعتنقا الإسلام فأغضب ذلك « كلوت بك » ومضى يدبر

(1) صبحي وحيدة ، المسألة المصرية ، صفحة 214 .

من أجل خطفهما من مصر وحملهما إلى فرنسا حيث يمكن إرغامهما على الارتداد عن الإسلام . ويقول « جيرار دي نيرفال » الذي حضر اجتماع « كلوت بك » بالقنصل الفرنسي « وجرى الحديث في أثناء تناول الطعام عن مسألة خطيرة جدا ، وكان لها دوي كبير في المجتمع الإفرنجي . ذلك أن فرنسيا بسيطا ، خادما ، كان قد قرر أن يعتنق الإسلام ، وكان أكثر ما في الأمر غرابة أن زوجه هي الأخرى كانت تريد اعتناق الإسلام . وكان الجميع مهتمين بالبحث عن وسيلة لمنع تلك الفضيحة . وقد اقترح القنصل في تلك الجلسة اختطاف الرجل والمرأة في أثناء الليل . ودار النقاش بينهم حول تفاصيل الاختطاف مثل « السبيل إلى نقلهما إلى الإسكندرية تمهيدا لنقلهما إلى فرنسا . فقد كان الأمر يحتاج إلى خمسة أيام للسفر عن طريق النيل من القاهرة إلى الإسكندرية ، وإذا وضعا في قارب مقفل كان في ذلك مجازفة بأن يسمع صراخهما في أثناء الطريق . ويقول « جيرا ردي نيرفال » إن تغيير الدين في البلاد التركية يعتبر الظرف الوحيد الذي يتوقف فيه سلطان القناصل على مواطنيهم .

وهكذا كان الرجل الذي لا يكف عن الحديث عن الحرية الغربية والديمقراطية وحقوق الأفراد في اختيار العقيدة ، وغير ذلك مما يعيبه على الإسلام يشترك في مؤامرة تهدف إلى اختطاف إنسانين لإجبارهما على ترك دين اعتنقاه عن إرادة واختيار ، غير عابئ بما في تصرفه هذا من خيانة للحكومة التي كرمته وائتمنته ووثقت فيه . وهكذا هم دائما .

وهكذا جنى محمد علي ثمار اعتماده على الفرنسيين وما وضعه فيهم من ثقة وما عهد به إليهم من أمانة ، إنها ثمار مدمرة ، بل سامة . فقد خانوه في الخارج وفي الداخل . وكان يظن أنه يستخدمهم لحسابه فإذا بهم هم الذين يستخدمونه لحسابهم سواء بالنسبة لأغراضهم الدولية ، أم لأغراضهم المحلية . وبالنسبة لهذه الأخيرة فقد تبين أنهم كانوا ، وهم يقيمون المنشآت ، سواء المدنية أم العسكرية يضعون في

---

(1) رحلة إلى الشرق ، ج 1 ، صفحة 196 .

اعتبارهم أن تكون ملائمة لأغراضهم فيما لو سنحت لهم الفرصة وأعادوا احتلال مصر . فعندما تدهورت صحة محمد علي في أواخر أيام حكمه بدأ البحث فيمن يخلفه . كان من بين البدائل المطروحة ، في حالة نشوب نزاع بين ورثته ، أن تحتل فرنسا مصر بعد أن تستولي على استحكامات الإسكندرية التي قام الفرنسيون منذ وقت طويل بتصميمها وبنائها لكي تخدم أغراضهم يوم يعيدون احتلال مصر[1] .

وهكذا استغل الفرنسيون محمد علي أبشع استغلال في الداخل وفي الخارج ، وحققوا من ورائه أرباحا خيالية من بيع السلاح والعتاد الذي ما لبثوا أن تآمروا مع حلفائهم لتحطيمه وساقوه إلى مغامرات عسكرية ما كان أغناه عنها ، وكذلك الشعب الذي لم يعد عليه من محمد علي إلا الخراب والدمار . فقد كان عدد سكان مصر في أواخر القرن الثامن عشر ثلاثة ملايين نسمة ، وكان من الطبيعي أن يزيدوا في خلال أكثر من ربع قرن أو يزيد . ولكن الملاحظ أنهم نقصوا فبلغ عددهم طبقا للإحصاء الذي أجراه أحد الفرنسيين ويدعى « مانجان سنة 1823 مليونين ونصف ، وبالتحديد (2,514,400) . والسبب يرجع إلى الحروب التي خاضها محمد علي وبالذات تلك التي شنها على الخلافة الإسلامية .. ففي آخر معاركه ضدها بلغت خسائره في الجنود ، حسب تقدير الفرنسي « موريبه » 140 ألف جندي . وقال إن انسحاب الجيش المصري من الشام وما اقترن به من الأهوال والضحايا يعد من أفظع ما روي عن فجائع تقهقر الجيوش في التاريخ[2] .

فإذا أضفنا إلى ذلك ما سبق أن فقدته مصر في الحروب الأخرى التي لم يكن هناك ما يبررها ثم ما فقده العرب والأتراك في المعارك التي دارت بينهم لوصل العدد إلى ما يقرب من المليون نفس أو يزيد ، يمثلون خيرة رجال الأمة وزهرة شبابها ، ضحى بهم محمد علي من أجل أطماعه وبتأثير مباشر من أعداء الإسلام . ولم يكن

---

(1) جون مارلو ، المرجع السابق ، صفحة 63 .

(2) الرافعي ، عصر محمد علي ، صفحة 351 .

غريبا أن يموت قهرا كما قيل . فقد حطمه الغرب بعد أن استنفد أغراضه منه فلم تعد به حاجة إليه ، وأدرك محمد علي ومن حوله هذه الحقيقة ، ولكن بعد أن كان الأوان قد فات . وأعقب التوقيع على معاهدة لندن سنة 1841 والتي فرضت على محمد علي تخفيض جيشه من 300,000 جندي إلى 18 ألفا فقط ، قيامه بإغلاق كثير من المدارس التي كان قد أقامها . وإن استمرت الكتاتيب في القيام بالعملية التعليمية . مما يدل على أن محمد علي لم يكن يهدف من إنشاء المدارس إلى نشر التعليم وإنما كان يهدف إلى توفير المتعلمين الذين يخدمون أغراضه العسكرية الانقلابية ، فلما أجهض الأوروبيون أحلامه وحطموا آماله لم يعد يهمه في شيء أن يكون هناك متعلمون أم لا . ولقد سبب هذا التصرف الفزع للغربيين لأنهم كانوا ينون آمالا عريضة على استمرار هذه المدارس في القيام بدورها في تغيير معتقدات المصريين وتوجيه تفكيرهم وجهة الغرب وكان أشد ما ساءهم في تصرف محمد علي هو تركه للكتاتيب تمارس عملها ، ذلك لأنهم كانوا يرون أن استظهار الصبية للقرآن الكريم يفسد عقولهم لتعارضه مع الشعور الوطني ، تماما كما أن عدم وجود جيش يخوض الحروب من أجل فصل مصر عن الأمة الإسلامية وتحقيق ما يسمى بالقومية المصرية يؤدي إلى خمود المثل العليا الوطنية !!

عباس الأول المفترى عليه :

ولي عباس الأول الحكم بعد وفاة إبراهيم باشا في 10 نوفمبر 1848 ، ومحمد علي ما يزال على قيد الحياة ، ولكنه مصاب بمرض عضال ما لبث أن قضى عليه فتوفي في 2 أغسطس سنة 1849 وكان في مقدمة ما قام به من أعمال مواجهة النفوذ الخطير للأجانب وعلى وجه الخصوص الفرنسيون الذين كانوا قد تسلطوا على مرافق البلاد ومؤسساتها منذ أن اتجه محمد علي إلى الاستعانة بهم[1] . ومما صرح به عباس

---

(1) لعب « أرتين » بك الذي كان ناظرا للخارجية في عهد محمد علي ثم هرب من مصر سنة 1850 دورا خطيرا في تأليب الباب العالي على عباس انتقاما منه ، وعاونه الصدر الأعظم .

الأول قوله : « لقد كان جدي يعتقد أنه حاكم مطلق ، وقد كان كذلك بالنسبة لنا وبالنسبة لخادميه ولأطفالنا ، غير أنه كان مستعبدا للقناصل العموميين . وإذا كان يتعين علي أن أصبح محكوما للغير فإني أفضل حكم رئيس المسلمين كافة الخليفة السلطان على حكم المسيحيين الذين أمقتهم »[1] . كذلك صرح بأنه يبغض الفرنسيين لأنهم خانوا جده محمد علي .

والحقيقة أن عباسا الأول استهدف لهجوم شرس شنه عليه أنصار الغرب ، أعداء الأمة الإسلامية الذين ضايقهم ما بذله من جهود من أجل الحد من نفوذ الأوروبيين ومنعهم من إفساد عقول المصريين الذين كان هؤلاء يدرسون لهم في المدارس التي عهد محمد علي إليهم بإدارتها وأطلق أيديهم في تصريف شئونها . وإن ما أصاب عباسا الأول من تشهير وتلطيخ لسمعته يعد مثالا صارخا على ما لدى أعداء الإسلام من قدرة على الإساءة إلى كل مخلص لدينه حريص على مصالح أمته ، وإنه لمما يؤسف له أشد الأسف أن تحتوي كتب التاريخ المقررة على طلاب المدارس في مصر هذا الهراء وتلك الأكاذيب الحقيرة .

فعباس الأول لم يكن عدوا للعلم كما صوروه كذبا فادعوا أنه أغلق المدارس لكي يظل الناس أميين . وإنما أمر بإغلاق جميع المدارس الابتدائية وخفض عدد المدارس المتخصصة بسبب ما لمسه من التأثير السيئ للمدرسين الأجانب ، ومن أجل أن يدرأ عن أبناء مصر خطر تشويه عقولهم وتوجيه أفكارهم نحو أوروبا وتحويلهم إلى بؤر غريبة في جسم المجتمع المسلم .

ولذلك فإنه لم يغلق الكتاتيب والمدارس التابعة للأزهر ، وهو ما كان يجب أن يفعله لو أنه كان عدوا للعلم وللتعليم . أم أنه لا يكون نصيرا للتعليم ومستنيرا إلا إذا ترك المعلمين الأجانب يصولون ويجولون في المدارس يفسدون العقول ويشوهون الأفكار نكاية في الإسلام وإضرارا بالمسلمين ؟

---

(1) ب . ج . إلجود ، مصر ، صفحة 83 .

والقصة التالية تبين إلى أي حد كان هؤلاء المدرسون الأوروبيون يتعمدون تشويه عقول تلاميذهم بما يلقنونه لهم من معلومات كاذبة عن تاريخ بلادهم وأجدادهم ، من ذلك ما يروى عن الكولونيل الفرنسي « بيرشر » ، وكان معلما لتوفيق حين كان صبيا ووليا للعهد . فقد شكا بيرشر هذا من أن المعلمين العرب ، الذين كانوا مثله ، يعلمون ولي العهد ، ذكروا أمامه أشياء عن تاريخ العرب وإسهاماتهم العلمية وعظمتهم ، فلما سمع الفتى ذلك غضب لما أوقعه بهم الغرب من ظلم وعنت وأخذ يتوعده بالويل والثبور عندما يصبح حاكما لمصر ، مما تسبب في إصابة المعلم الفرنسي بالفزع الشديد .

وهذه القصة تبين كيف أن المعلمين الفرنسيين كانوا يحرصون على تشويه التاريخ الإسلامي وتلقين التلاميذ معلومات ضافية عن التاريخ الفرعوني لكي يوجدوا لديهم شعورا بالضغينة نحو العرب الذين تسببوا في تخلفهم . فإذا كان هذا هو حال ولي عهد مصر مع أساتذته فكيف كان حال غيره من التلاميذ الذين ليسوا أبناء حكام أو أمراء ؟ إن ما فعله عباس ليس سوى إجراء عادي الهدف منه حماية أبناء المسلمين .

ومما قاله المدعو « فنترينييه » ، وهو واحد ممن أرخوا لهذه الفترة من تاريخ مصر عن عباس الأول » كانت عقيدته بسيطة وواضحة ، صارمة وسريعة . فقد أعلن أنه من أصل تركي والصواب أنه قال إنه تركي ، ولكن الدكتور أنور عبد الملك رأى أن يتصرف في الترجمة لغرض في نفسه ، وتركي تعني مسلما . ويريد أن يحكم كتركي ، أي مسلم .. كان عهد عباس فترة استجمام وراحة فبعد أن توقفت الحياة الأوروبية ، غزا الجمود الإسلامي البلاد وخيم عليها [1] .

وهكذا نجدهم يضعون ما يسمى بـ (الجمود الإسلامي) في مقابلة التحرر الأوروبي فكل من لا يفتح لهم أبواب بلاده على مصاريعها ويترك لهم الحرية المطلقة في إفساد العقول وتشويه الأفكار يتهمونه بأنه نصير للجمود وعدو للتحرر ! فيا له من

---

(1) أنور عبد الملك ، المرجع السابق ، صفحة 163 .

غرور وضيق أفق .

ولقد رأينا كيف أن محمد علي نفسه كان قد أغلق كثيرا من المدارس ، بعد أن وقع على معاهدة لندن ، و لم يكن عباس الأول هو الذي فعل ذلك أولا ، ولكنهم اتهموه زورا بأنه الذي فعل ذلك انتقاما منه لأنه جاهر بولائه للخلافة وعدائه للأوروبيين ولأفكارهم وقيمهم ، وهذا في نظرهم هو الكفر بعينه ، يستوجب توجيه الطعنات إلى صاحبه ، طالما ظلت هناك أيد تابعة لهم تملك أن تمسك بالقلم وتخط به على الورق . وكم من أكاذيب روجوا لها وأباطيل ألبسوها ثياب الحقائق بحيلهم الشيطانية وأساليبهم الملتوية ، ثم يزعمون أنهم ليسوا أحرارا وأنهم مضطهدون !!

والواقع أن جهود عباس لم تقتصر على إغلاق المدارس التي يشرف عليها ويديرها ويدرس بها الأوروبيون ، بل امتدت إلى غير ذلك من الميادين . فقد فرض كثيرا من القيود على الأجانب المقيمين بالبلاد ، وتخلص ممن كان يعمل منهم في المصالح والمعاهد . ويقول محمد صبري : « كان عليه أن يحارب العناصر الضارة وغير المشروعة التي كانت تؤلف أساس نشاط الأجانب في مصر والتي لم يستطع أن يغلق أمامها أبواب الدلتا . ومع ذلك لابد أن نعترف أن سياسة اليقظة والشدة التي كان ينهجها الوالي قد وقفت حائلا دون التدفق الأوروبي في مصر وأنها خصوصا ، بفضل اللوائح التي صدرت بهدف تحديد حرية التجارة الداخلية ، قد منعت الأوروبيين ومعظمهم من اليونانيين من التسلل إلى داخل البلاد ، وترك المدينتين الكبيرتين ، القاهرة والإسكندرية ، والانتشار في القرى والاتجار مع الفلاحين الجهلة . وبذلك نجح عباس في إيقاف زحف الخطر الذس استشرى كبقعة الزيت في عهد خليفته ، ولكن لم يمنع ذلك من وجود الخطر » (1) .

ليس ذلك وحسب ، بل إنه أراد أن يتفادى قناصل الدول الأوروبية الذين كانوا يستعبدون جده ويتسلطون عليه ويوجهونه الوجهة التي تتفق ومصالح بلادهم ، بغض

---

(1) جون مارلو ، المرجع السابق ، صفحة 123 .

النظر عن تعارضها مع مصالح المسلمين ، فترك القاهرة وأقام في صحراء العباسية . ولكن تصرفه على هذا الوجه أوغر صدوزهم عليه ، وبالذات قنصل بريطانيا الذي استعان بحكومته ، فقامت بتحريض السلطان على عباس للتضييق من حقوقه المقررة طبقا لمعاهدة لندن سنة 1840 . فاضطر عباس ، في هذه الحالة إلى اللجوء إلى إنجلترا باعتبارها الضامنة لهذه المعاهدة ، فما كان منها إلا أن أجبرته على الموافقة على منحها امتياز مد الخط الحديدي بين الإسكندرية والسويس لتستخدمه في تجارتها مع الشرق .

والواقع أن استجابة السلطان لتحريض إنجلترا لم يكن عن اقتناع ، وبإرادة حرة ، فقد سبق أن بينا ما كان للحروب التي دارت بينه وبين محمد علي من آثار سيئة على الجانبين ، ومن بينها أنه لم تعد لأحد منهما حرية حقيقية في اتخاذ ما يشاء من قرارات .

ولقد حققت أوروبا ما تصبو إليه بمعاهدة لندن ، فقد أصبح لها الوصاية على الدولتين أي السلطنة العثمانية ومصر في شأن تطبيق نصوص المعاهدة ، فخضع الخديو في مصر لسلطة القناصل الذين أصبحوا يعاملون الولاة كصنائع من عمل حكوماتهم أو وكلاء عهد إليهم في رعاية مصالحها ويتولونهم بالثناء والوعيد .

وبطبيعة الحال فإن الدخلاء الأوروبيين لم يستسلموا لهذا الوضع ، بل أصروا على تنفيذ مخططهم الذي يهدف إلى القضاء على الإسلام ، أو على الأقل تشويه عقول أبناء مصر . فما إن توفي عباس الأول وخلفه سعيد باشا حتى بادروا إلى إعادة فتح المدارس الأجنبية في القاهرة والإسكندرية وأسيوط وغيرها من المدن المصرية . وازدادت الفرصة أمامهم اتساعا بقيام سعيد بإلغاء ما كان يسمى بديوان المدارس ، ويقابل وزارة التعليم الآن . وقد جمعت المدارس التي جرى إنشاؤها في مصر بين نوعين : الأول مدارس تابعة للجاليات والطوائف الأجنبية ، والثاني المدارس التابعة للبعثات الدينية التبشيرية التي وفدت إلى مصر بصورة لم يسبق لها مثيل بهدف تحويل المسلمين عن الإسلام إلى المسيحية (كاثوليكية وبروتستانتية) . وفي سنة 1863 بلغ عدد المدارس الأجنبية في مصر ما بين 32 و 47 مدرسة منها 3 مدارس غير دينية فقط . مما يدل على الهدف المحدد والواضح للغرب ، وهو تحويل المسلمين عن دينهم .

وهذا هو ما كان يريده المتباكون على العزلة المزعومة التي فرضتها تركيا على مصر والعرب ، وهذا هو التحرر من الجمود الإسلامي فيا لها من مهزلة !

لقد وجد الأوروبيون في سعيد باشا ضالتهم ، ذلك أنهم على ما يبدو ، كانوا قد خلصوه من تأثير المدرسين العرب الذين حدثوه عن أمجاد المسلمين ، وقاموا بدلا من ذلك بتثبيت المعلومات الزائفة عن القومية المصرية والفراعنة وأمجادهم وغير ذلك من الترهات في رأسه الفارغ فأصبح يكره العثمانيين ويعشق الأوروبيين وينأى عن تعاليم الإسلام ويقرب إليه كل من يدين بالولاء للغرب المسيحي ويسلك طبقا لعاداتهم ، وقد اتخذ مستشارين أوروبيين في مختلف الأمور ، ولم يتعظ بما أصاب جده محمد علي فوقع تحت تأثير القناصل وكان لفرط جهله وقلة حنكته وضعف حكمته ألعوبة في يد الجميع فعادوا سيرتهم الأولى ووقعت البلاد فريسة لألاعيبهم واستهدفت الشريعة لهجومهم وعدائهم ، خاصة بعد أن قويت شوكتهم بما أصبحت تدعمهم به رءوس الأموال الأجنبية التي وفدت إلى مصر التي كانت تعاني من ظروف اقتصادية سيئة .

ولعبت الحضارة الأوروبية والمدنية الغربية دورها كاملا في إفساد سعيد باشا ، الذي غرق حتى أذنيه في الفساد الذي زينه له رسل الحضارة ودعاة المدنية العظام ، وأصبح يردد ما يلقنونه له من كلمات لا يفقه لها معنى . ففي الخطاب الذي ألقاه في نوفمبر سنة 1859 أثناء الحرب الفرنسية النمساوية في مأدبة عامة قال كلاما قرأه في كتب التاريخ الأجنبية ، التي كانت قد أجرت أكبر عملية تزوير في تاريخ الإسلام والمسلمين الهدف منها إيهام المصريين أن الحكم الإسلامي في كل مراحله كان استعمارا لا فرق بينه وبين حكم الفرس والإغريق والرومان والفرنسيين فقد قال سعيد إنه تأمل حال الشعب المصري المضطهد الذي استعبدته شعوب الأرض من الرعاة إلى الآشوريين إلى العجم إلى الليبيين إلى السودانيين إلى الإغريق إلى الرومان إلى الأيوبيين إلى العباسيين والفاطميين والكرد والشراكسة ، والأتراك ونابليون . ويريد كمصري أن يربي هذا الشعب ويجعله كفؤا للاستغناء عن مساعدة الأجانب .

وهكذا نجح الغرب في أن يدفع حاكم مصر ، الجاهل ، إلى اتهام الأيوبيين الذين

دافعوا عن مصر ضد الغزو الصليبي بأنهم مستعمرون وكذلك العباسيون والفاطميون والكرد والأتراك . وما ذلك إلا لأنهم هم الذين لقنوه هذه المعلومات الخاطئة باسم التحضر والمدنية .

وسقط « السور » الذي قال عنه لويس عوض إنه كان قد تشقق بسبب الحملة الفرنسية ، فماذا حدث ؟ لقد تدفق شذاذ الآفاق من أوروبا فدخل مصر منهم في الفترة من 1857 إلى 1861 120 ألف أجنبي انضم إليهم في السنوات من 1826 إلى 1865 حوالي ربع مليون أجنبي آخر . ويقول « دافيد لاندر » فإذا كان الأعضاء « الصالحون » من المجتمع الأوروبي في مصر ذوي أصل مشكوك فيه فإن جمهرة المهاجرين كانوا من حثالة البحر الأبيض المتوسط .. فالموانئ المزدحمة وقرى مالطة والشرق الأدنى قد أرسلت الفائضين من الفقراء والعاطلين والساخطين إلى أرض المال الوفير .. كل هؤلاء اندفعوا إلى الإسكندرية حيث كانوا يشرفون على أعمال الخدم المحليين ويلبون احتياجات وملذات وشهوات الرواج ويديرون المحلات والحانات في الحواري والمطاعم وكازينوهات القمار والفنادق وبيوت الدعارة[1] .

ولهذا السبب ظهرت فكرة « مصر للمصريين » بمعنى أنه لا مكان فيها لهؤلاء الأجانب من شذاذ الآفاق ، الحثالة ، المجرمين ، وليس بالمعنى الذي يحاول البعض أن يوهمونا به وهو أنه كان يقصد به الأتراك والمغاربة والشراكسة وغيرهم من شعوب الأمة الإسلامية ، هذا المعنى الذي لم يخطر أبدا على بال أبناء مصر من المسلمين . بل إن المصريين ما كانوا ليضيقوا بالأوروبيين لو أنهم كانوا نافعين ومخلصين وراغبين حقا في الأخذ بيدهم إلى طريق التحضر ، كما يزعم أنصار الغرب . أما وإنهم كما قال : « ملنر » عنهم : « إن الأجانب الذين وفدوا إلى مصر كانوا من حثالات أوروبا وحوض البحر الأبيض المتوسط وإنهم كانوا يفتكون بمصر وكأنهم الطاعون . فقد كان منهم المرابون والنصابون ومن يشتغلون بالرهونات ، وكثيرا ما حصلوا على تأييد

---

(1) بنوك وباشوات ، صفحة 82 .

القناصل لهم في جهودهم لسلب المصريين ثرواتهم والتحايل عليهم واستغلالهم بصورة بشعة دفعت المصريين إلى تبني فكرة مصر للمصريين » .

أما إسماعيل الذي تولى عام 1863 بعد سعيد ، وهو أيضا من تلاميذ الغرب المخلصين فقد كان نموذجا للحاكم الذي يريده الغرب ، حيث إن فهمه للتحضر على الطراز الأوروبي كان مما يخدم مصالح أوروبا الصليبية . فقد اقتدى بـ (نابليون الثالث) الذي كانت فرنسا تمر في عهده بحالة من الفساد والتبذير المتغلغلين في جميع فروع الإدارة العامة ، وصادفت تلك الحال هوى في نفس إسماعيل الذي كان بطبعه متلافا محبا للظهور ، فأراد أن يجعل من نفسه نابليون ثالثا في الشرق ، وما هي إلا عشية أوضحاها حتى طبقت الخافقين شهرة بلاطه ، وقصوره وحفلاته ، وحظياته ، ومطابخه . وازداد نفوذ فرنسا في عهده وأمدته بالمستشارين على اختلافهم . والتحق بمدارسها أبناء الأسر ، يتلقون فيها أصول الحضارة الغربية ، ولم يكن هناك أدنى شك في أن طبقة الموسرين والحكام المصريين ، على أقل تقدير ، كانت تتفرنس على مر الزمن . وأن المسيرين لدفة السياسة الفرنسية كانوا يمنون أنفسهم ببسط الحماية الفرنسية على مصر يوما ما من طريق « التدخل السلمي » . وهذا هو السر في تشجيعهم ولاة مصر على السعي في التحرر من وصاية الباب العالي[1] .

ويثير موقف الغرب من إسماعيل قضية على جانب كبير من الأهمية ، ألا وهي تحامل الغرب على الحاكم الذي لا يخضع له ويتبع سياسة مستقلة إزاءه ، وتغاضيه عن الحاكم الذي يطيعه ويخضع له وينفذ كل أوامره وتعليماته مضحيا بمصالح بلده . فقد رأينا كيف كال الغرب وأعوانه الاتهامات لعباس الأول وألصق به أبشع الصفات والنعوت لأنه أراد أن يمنع تسلط الأوروبيين على مقدرات البلاد والحيلولة دون استمرارهم في إفساد عقول أبناء مصر عن طريق المدارس التي عهد إليهم محمد علي

---

(1) تيودور رتشتين ، تاريخ المسألة المصرية ، صفحة 6 .

بإدارتها وتسيير أمورها . وللأسف الشديد فإن مصر قد ابتليت بنوع من الباحثين والكتاب وغيرهم اعتادوا أن ينقلوا كل ما تقع عليه أعينهم في الكتب الأجنبية دون بحث أو تمحيص ، وكأنه قد أنزل من لدن العلي القدير . وهؤلاء هم الذين روجوا الأكاذيب الأوروبية التي ألصقها الغربيون بعباس وبكل رجل مخلص حريص على مصلحة وطنه . أما الأتباع الأذلاء أمثال إسماعيل وسعيد وتوفيق فإن الغرب يتغاضى عن آثامهم ، خاصة إذا كانت قد ارتكبت في حق أوطانهم . فحين أقدم الخديو إسماعيل على قتل إسماعيل صديق باشا ناظر المالية طير مراسلو الصحف الأوروبية إلى بلادهم نبأ سقوط « عدو الاصلاح » الممقوت وكتب مراسل « التيمس » إلى جريدته جذلا مسرورا يقول « إنه – أي التخلص من إسماعيل صديق – يعد خاتمة نظام عتيق .. لقد كان إسماعيل صديق زعيم حزب يقاوم النفوذ الأوروبي وكل تقدم للمدنية في البلاد .. إن سقوط المفتش الذي يقال إنه كان أعد مشروعا معارضا ليعد من أقوى دواعي النجاح . فما الذي فعله إسماعيل صديق ليستحق عليه كل هذا الهجوم من جانب هؤلاء الناس الذين لا يعرفون غير الكذب والتضليل والافتراء ، ومع ذلك لا يكفون عن الكلام في الموضوعية والأمانة والصدق أو المصداقية وكلها منهم براء ؟

لقد صور الإنجليز والفرنسيون إسماعيل صديق في صورة الرجل الذي لا ضمير له ، غليظ القلب ، المتعصب ، لا لشيء إلا لأنه أظهر حرصا شديدا على أموال مصر وأصر على خفض الفوائد على الديون من 7 ٪ إلى 5 ٪ ، كما رفض فرض الرقابة الأوروبية على مالية البلاد قائلا إن ذلك محض سعي لإسلام البلد للأجانب ، وهو أمر لا يختلف عن الخيانة العظمى في شيء . ونصح الخديو بعدم قبول الشروط الأوروبية حتى لا تثور عليه البلاد ثورة عامة . وعندئذ دبر الخديو لقتله فدعاه ذات يوم للتنزه معه ثم أمر به فقتل غدرا . ولما بلغ نبأ هذه الجريمة مسامع الأوروبيين لم ترتفع منهم صيحة استنكار ، كما أن الذين نصبوا أنفسهم فيما بعد لكشف مساوئ الخديو ، حين بدأ نجمه في الأفول ، واستنفد الغرب أغراضه منه ، لم يهتموا بالحادثة كثيرا وصرفوا عنها الأنظار[1] .

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 32 .

هذا هو نوع الحكام الذي يريده الغرب لنا ، مجرد مطايا له يوجههم كيفما يريد ، ويضع على ألسنتهم ما يريد أن يقوله لنا ، لا علم لديهم ولا خلق ولا دين ، لا يهمهم شيء سوى أبهة الحكم ومتعه يعضون عليه بالنواجذ لأنهم يعرفون أنه لو أفلت منهم فلن تتيح لهم مواهبهم المحدودة وقدراتهم شبه المعدومة إلا عملا تافها لا يتميزون فيه عمن عداهم ممن يمارسونه . يستوي في ذلك من ورث الحكم ومن استولى عليه عنوة ومن ساقه إليه حظ أعمى في غفلة من الزمن .

وأمثال هؤلاء الحكام ، الذين غرر بهم الأوروبيون ، وأسلموا البلاد إلى المرابين[1] والأفاقين لا يمكن أن يعول على كلام صدر عنهم يقطعون فيه الصلة بالعروبة وبالإسلام ، فهم سفهاء يجب الحجر عليهم .

(1) د . صالح رمضان ، الحياة الاجتماعية في مصر في عهد إسماعيل ، صفحة 149 .

الفصـــل الـــرابـــع

مصـــر .. أم إيجيبـــت ؟

سوف ينقسم الناس إزاء عنوان هذا الفصل إلى فريقين ، الفريق الأول سيعتبره بلا معنى لاعتقاده أن الكلمة الثانية هي الترجمة الأوروبية للكلمة الأولى . أما الفريق الثاني فسوف يعتبر أنه سؤال لا محل له ، إذ لا سبيل إلى الاختيار بين الاسمين لأن مصر هو الاسم الذي أطلقه العرب على هذه البلاد ، أما إيجيبت فهو الاسم الذي أطلقه عليها الأوروبيون .

وعلى الرغم من أن ذلك لا يخلو من الصحة غير أنه لا يزيد عن أن يكون استنتاجا يستند إلى الذكاء والفطنة لا إلى العلم والدرس . كذلك فإن الفريقين سوف يعتبران العنوان كما لو كان أحجية أو « فزورة » ساذجة لا تستدعي التفكير وإعمال النظر ، فما هو الفرق بين أن يكون اسم بلادهم مصر أو إيجيبت ، أو الاثنين معا ؟

ولقد لفت هذا الاختلاف ، في الاسم ، نظري منذ أن كنت بالمدرسة . فقد كانت هناك جملة عربية يرد بها اسم « مصر » تقابلها الترجمة الفرنسية لها وفيها اسم « إيجيبت » بينما أنه في جملة أخرى ورد اسم فرنسا وفي الترجمة لم تتغير إلا في النطق حيث كتبت « فرنس France » . وكذلك إيطاليا وألمانيا وغيرها من الدول ومنها الدول العربية . ولما سألت المدرس في ذلك قال ببساطة شديدة إن هذا هو الاسم الذي يطلقه عليها الأجانب !! وبطبيعة الحال ، فإن الأمر لم يكن يستدعي ، وقتئذ ، أن أسأله : ولماذا لا يحترم هؤلاء الأجانب الاسم الذي نطلقه على بلدنا ويقولون « Misr » كما نقول نحن « فرنسا » ، وإيطاليا وألمانيا وتشيكوسلوفاكيا . بل ولماذا لا نصر نحن على كتابة الاسم بهذه الطريقة ولا نكتب الاسم الذي اختاروه لنا ، فقد بدا لي الأمر في تلك المرحلة من العمر ، ليس من الأهمية إلى الحد الذي قد ينالني

بسببه ما لا أحب . فما الأسماء في نهاية الأمر إلا كلمات تستخدم للدلالة على الأقاليم المختلفة للتمييز فيما بينها من حيث السكان والتضاريس والمحاصيل والطقس وغير ذلك . وطالما أن الأجانب يستخدمون كلمة « إيجيبت » للدلالة على بلادنا فلا بأس . وقد كنا في الأربعينيات نعاني من وجود جنود الاحتلال البريطاني في بلدي بورسعيد فرأيت أنه لا ضير في استخدامنا أنا وزملائي للكلمة حين نصرخ في وجوههم نطالبهم بالجلاء عن مصر ، فماذا سيفيدنا الإصرار على استخدام الاسم « مصر » إذا كانوا لن يفهموه وبالتالي لن يجلوا عن بلادنا ؟ .

ولكن هل حقيقة أن وظيفة أي اسم يطلق على بلد ما هي أن يدل على هذا البلد وعلى سكانه بحيث يستطيع الناس أن يميزوا بين البلاد بعضها من بعض فإذا قلت بريطانيا تكونت لديك صورة عن هذه الدولة من حيث موقعها وتضاريسها وطقسها وسكانها وتاريخها الحافل بالأعمال التي يندى لها الجبين ، وإذا قلت فرنسا تغيرت الصورة من كل الوجوه أو من معظمها . وكذلك إذا تغير الاسم الذي يطلقه سكان دولة ما على دولتهم ، فإن كل ما سيحدث أن الصورة التي لديك عنها ستحمل اسما جديدا دون أن يتغير شيء فيها ، فسواء أن تقول جمهورية أفريقيا أو بوركينا فاسو ، وسواء أن تقول روديسيا أو زيمبابوي فالبلد في الحالتين واحد .

وعلى الرغم من بساطة هذا الأمر ووضوحه ، غير أن البعض من أصحاب الغرض والهوى ، أبوا ألا أن يتجاوزوا هذا المعنى إلى معنى آخر أبعد وأخطر ، فاستخدموا الاسم الذي يقال إن الأجانب أطلقوه على مصر في التدليل على صحة ادعاءاتهم ، وصواب مزاعمهم التي يهدفون من ورائها إلى إحداث صدع عميق في أسس هذا الوطن . ولقد سبق أن بينا كيف أن الفرنسيين ، سواء أثناء الحملة التي غزت مصر أو بعدها ، عملوا جاهدين من أجل القضاء على العلاقة بين مصر ودولة الخلافة فروجوا لفكرة القومية المصرية ذات الأصول الفرعونية ، وأوهموا من اتصل بهم من الأقباط بأنهم هم الورثة الوحيدون للفراعنة ، لأن دماءهم ظلت نقية لم تخالطها أي دماء أخرى . ومن أوائل الذين رددوا هذه الأكاذيب « دي شابرول »

أحد أعضاء البعثة العلمية الفرنسية المصاحبة للحملة [1] . والكاتب والرحالة « فولني » ، ثم « جالان » الذي قال إن الشعب المصري يتألف أساسا من خمس أمم متمايزة : الأقباط أو أبناء البلاد ! واليونانيون واليهود ، والمسلمون والعرب . أما كلوت بك فقد زعم أن الأقباط من أهل المذهب اليعقوبي حفظت أنسابهم صريحة مصونة من تداخل الأعراق وصينت مع عاداتهم وأخلاقهم السحنة المعروفة عنهم منذ قديم الزمان [2] .

أما « ماسبيرو » فقد قال « إنه إذا كانت توجد ثمة أمة حافظت على أصولها خالية من أخلاط دم غريب فإنما هم الأقباط نسل الفراعنة ، أصحاب هذه البلاد » [3] .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، وما كان ليقف ، وإلا انعدمت الفائدة المرجوة من حبك هذه الأكاذيب المناقضة للعقل وللمنطق ، وذهب الجهد الذي بذل فيها سدى . وإنما أضافوا إليها أكذوبة أخرى ليس منها بد ، في الحقيقة ، من أجل أن يحكموا الخطة ويحددوا الهدف بدقة . وهنا يظهر دور الاسم « إيجبيت » في التدبير الخبيث . فقد ربطوا بين هذا الاسم وبين كلمة (قبط) وقالوا إن قبط هي « إيجيبت » ، على تفصيل سوف نورده فيما بعد .

ومن أصحاب هذا الرأي « ستانلي لين بول » [4] الذي قال : أما من ناحية الاشتقاق اللغوي ، نجد أن كلمة قبطي (Copt) هي نفس كلمة « مصري » . وأضاف في الهامش : وفي اليونانية Egyptios . وفي العربية قبط (بالفتح) وقبط (بالضم) وفي الانجليزية Copt .

---

(1) كتاب وصف مصر ، دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين ، صفحة 14 .

(2) لمحة عامة إلى مصر ، الجزء الأول ، صفحة 218 .

(3) القس داود عزيز ، أقباط مصر بين الماضي والحاضر ، صفحة 29 .

(4) سيرة القاهرة ، صفحة 52 .

ولا ندري كيف وصل « لين » وغيره إلى هذا التخريج وهم ليسوا عربا . وكان الأولى أن يقوم العرب بذلك لأنهم هم الذين اشتقوا أو صحفوا الكلمة « إيجيبتوس » وجعلوها « قبط » . ولكن يبدو أن الغربيين أصبحوا أكثر إتقانا للعربية ومعرفة بأسرارها من أبنائها . ولا ندري لماذا سخر البعض ممن تظرفوا فقالوا إن « شكسبير » أصلها « شيخ سبير » وأن هذا الأديب الإنجليزي من أصل عربي ؟ أم أن ادعاء العلم ، وهو أخطر من التظرف ، حكر على الغربيين دون غيرهم ، لأنهم ، وإن كانوا بشراً إلا أنهم من النوع الممتاز (سوبر) فهم علماء بالفطرة .

وعلى الرغم من أن قصد هؤلاء الرحالة والكتاب من اختلاق هذه الأكاذيب كان واضحا منذ البداية ، فإن بعض الكتاب والمفكرين الأقباط لم يتورعوا عن ترديدها بثقة غير عادية بحيث إن من يقرأها ، ويرجع إلى أسمائهم التي خطت على أغلفة كتبهم مسبوقة بلقب « دكتور » يظن أنها من الحقائق العلمية .

والنهج « الهرتزلي » واضح كل الوضوح فيما تقوم به هذه القلة من المفكرين الأقباط ، الذين يريدون أن يجعلوا من مصر أرض ميعاد أخرى ، فكما أن فلسطين أصبحت تسمى « إسرائيل » فإن « مصر » يجب أن تسمى « إيجيبت » أو « جبط » أي « قبط » بلد (المصريين الأصلاء) ، أصحاب الحق !! فلا يكفي أن تكون هناك قومية مصرية ، فرعونية أي قبطية ولا يكفي أن يكون هناك نسل للفراعنة يمثلون أنقى سلالات مصر ، ويحملون دما لم يخالطه دم آخر ، على حد زعم بعضهم ! لأن هذا الكلام قد لا يخرج عن حدود التفاخر والزهو بالانتماء إلى بناة الأهرام ، وإنما يجب أن يكون هناك ربط محكم بين الماضي البعيد وبين الحاضر تأكيدا لوجود « الحق » ، ودعما للمطالبين به . فإذا قيل « مصر » انفصمت ، في اعتقادهم ، العلاقة بين أصحاب الحق وبين موضوع الحق . ولكن إذا قيل « إيجيبت » أو « قبط » فإن ذلك يعني أن « الأقباط » هم أصحاب « قبط » أو « إيجيبت » أرض الأجداد ، أرض الميعاد .

وهكذا تضخم الوهم فلم يعد يقتصر على ما يسمى قومية مصرية أو فرعونية ، ومصريين أصلاء وآخرين دخلاء غرباء ، وأصحاب حق تاريخي ، وآخرين ليسوا

بأصحاب حق وإنما تجاوز كل ذلك إلى الحديث عن الحق ذاته ، أو الميراث الذي يكفي اسمه للدلالة على أصحابه . وللأسف الشديد ، فقد وجدت هذه الفئة القليلة من الأقباط من يصدقها ويروج لأوهامها ممن يسمون علماء ومفكرين من العلمانيين والماركسيين ، بل والمنافقين أيضا فالأثري سليم حسن لما أراد أن ينافق جمال عبد الناصر كتب يقول إن مصر لم تتحرر من الاستعمار إلا في 23 يوليو 1952 ، وإنها ظلت مستعمرة طيلة ثلاثة آلاف عام خضعت خلالها لحكام ليسوا من أبنائها ، آخرهم فاروق ، وإن أول حاكم وطني من أبناء مصر هو جمال عبد الناصر[1] .

ولا ندري لماذا لم يبين لنا سليم حسن من يعنيهم بأبناء مصر الذين حرموا حكمها ولا أين كانوا منذ « طهراقة » الأثيوبي و « أبسماتيك » الليبي و « أسرحدون » الآشوري وغيرهم وغيرهم من الحكام الذين تعاقبوا على حكم مصر . كما أنه لم يقدم لنا الشرط أو الشروط التي يكتسب بها الإنسان الحق في أن يوصف بالمصري ، وهل هي الميلاد لأبوين مصريين أم لعدد من الجدود يمتد إلى الوراء أربعين قرنا أو أكثر ؟. ألم نقل إنه النفاق أو الجهل أو كلاهما يجعل الإنسان يقول كلاما دون أن يقدر عواقبه . ولم لا يقول وقد سبقه إلى نفس هذا الكلام عبد الرحمن الرافعي وغيره ممن ضاقت عقولهم إلى الحد الذي أعجزها عن فهم طبيعة العلاقة بين المسلم والوطن في المفهوم الإسلامي الذي لا يعترف بوجود حدود بين ديار الإسلام ، ولا يفرض قيودا على المسلمين في حلهم وترحالهم ، فالكل أخوة والكل مواطنون في الوطن الإسلامي كبر أم صغر .

والملاحظ أن وهم « إيجيبت » أي « قبط » لقي من الرواج أكثر مما لقي أي وهم آخر ، فهناك كثير من الناس يصدقون أن « مصر » كان اسمها في الأصل « إيجيبت » أي « قبط » ، ويعتقدون أن المصريين القدماء كانوا يسمونها هكذا « إيجيبت » ، وأنها لم تعرف باسم « مصر » إلا بعد مجيء العرب . والمثير للدهشة حقا أن أحدا من علماء التاريخ ، أو من المتخصصين فيه لم يظهر أي قدر من الاهتمام

(1) سليم حسن ، مصر القديمة ، جزء 12 صفحة هـ .

باستجلاء حقيقته ، على الأقل من أجل العلم والحقيقة لا أكثر ولا أقل . فهل يعقل أن تعيش أجيال تلو أجيال من هذا الشعب وهي لا تعرف لماذا تحمل بلادهم اسمين أحدهما بالعربية وهو « مصر » والآخر باللغات الأجنبية وهو « إيجيبت » Egypt . والأكثر إثارة للدهشة أن يأتي من يزعمون أنهم أصحاب الحق الأصليين فيستغلون هذا الوضع الغريب بذكاء لتأييد ادعاءاتهم فيقولون إن للاسم « إيجيبت » علاقة مباشرة باسمهم « القبط » ويتخذون من هذه العلاقة المزعومة دليلا على أنهم هم المصريون الأصلاء ، أو إذا التزمنا الدقة « الإيجيبتيون » الأصلاء لأن « إيجيبت » ما هي إلا « قبط » !! والأغرب بل الأعجب من هذا وذاك أن يدعي بعضهم أن الكلمة « قبط » وردت في بعض الأحاديث فلا يتصدى لهم أحد مبينا المعنى الحقيقي الذي لهذه الكلمة في الأحاديث لا لشيء إلا لأنه يجب الحرص على « الوحدة الوطنية » و « السلام الاجتماعي » . وكأن هذا السلام الاجتماعي وتلك الوحدة الوطنية أصبحت أوثانا يجب علينا أن نضحي على مذبحها لا بالحقائق التاريخية وبالعلم فقط ، بل وبما للدين من قداسة واحترام أيضا . وغاب عن الجميع أن هذا التصرف غير الحكيم عواقبه أشد سوءا من عواقب الصدق والصراحة والأمانة العلمية واحترام الحقائق التاريخية التي لا يمكن أن تستقيم علاقة بين طرفين بدونها ، وإلا استفحل الخطر وتفاقم الخطب حيث يتحول الأمر إلى ما يشبه الابتزاز الذي يمارسه البعض باسم « الوحدة الوطنية » و « السلام الاجتماعي » . وإنه لمن العجيب حقا أن نرى دولا أفريقية كثيرة تسترد أسماءها الأصلية التي كانت لها قبل الاحتلال الأوروبي ، مثل « زمبابوي » التي كان الإنجليز قد أطلقوا عليها اسم « روديسيا » وبنين وزائير وغيرهما بينما نصر نحن على بقاء كلمة « إيجيبت » تطلق على مصر التي كرمها الله بأن ذكرها في كتبه المقدسة !! وفيما يلي نتناول بالبحث والتمحيص كلمة « إيجيبت » من حيث أصلها ، والسبب الذي من أجله أطلقت على « مصر » والعلاقة بينها وبين كلمة « قبط » . وما هو الاسم الذي كانت الشعوب المختلفة تطلقه على مصر ، والعلاقة بين « إيجيبت » ومصر ، وما معنى كلمة « قبط » التي وردت في المصادر العربية . ولكننا سنبحث أولا في الاسم الذي كان المصريون القدماء يطلقونه على بلدهم .

بماذا كان المصريون القدماء يسمون بلادهم؟

الثابت أن المصريين القدماء لم يعرفوا اسم « إيجبيت » وإنما كانوا يطلقون على بلدهم اسم « دوشريت – كمت » ومعناها الأرض الحمراء والأرض السوداء . وكلمة « دوشريت » أو « دوشر » كانت تطلق على الصحارى الواقعة إلى الشرق والغرب من وادي النيل . أما كلمة « كمت » فمعناها الأرض السوداء ، وهي البقاع الخصبة التي كانوا يزرعونها على ضفتي النهر[1] . وأحيانا كان هذا الاسم يختصر إلى « كيمي » أو « حيمي » أو « خيمي » التي يقال إنها مشتقة من كلمة « كيم » أو « كمت » ومعناها الأسود نسبة إلى طينة وادي النيل السوداء .

وجاء في موسوعة تاريخ العالم[2] أن مصر كانت تسمي « كيمي » باللغة المصرية القديمة أي الأرض السوداء أو الحمراء[3] ، ولذلك فإن المصريين كانوا يرسمون أنفسهم باللون الأحمر ، ويرسمون أهل الجنوب في بلاد « كوش » باللون الأسود ، وصوروا أهل الشرق باللون الأصفر ، وسكان ليبيا باللون الأبيض . وهذا يعني أن اللون عندهم كان يدل على الجنسية .

وهكذا يتبين لنا أن المصريين لم يعرفوا لا كلمة « إيجبيت » ولا كلمة « قبط » وإنما كانوا يعرفون بأبناء « كيمي » أو « حيمي » أو « خيمي » . وقياسا على ما نلاحظه بالنسبة لدول كثيرة الآن فإننا لو شئنا أن نسمي « مصر » الآن باسمها الذي كان يعرفها به الفراعنة لأطلقنا عليها اسم « كيمي لاند » أو « حيمي لاند » أي أرض الكيمي أو الحيمي قياسا على بلاد مثل « نيوزلاند » و « نيدرلند » أو « هولندا » ومعناها الأرض المنخفضة و « جرين لاند » الأرض الخضراء وغيرها وغيرها ، لا أن نسميها باسم «إيجبيت » الذي يحمل معنى التحقير والازدراء ليس قديما وحسب

---

(1) عبد الحميد عابدين ، لمحات من تاريخ الحياة الفكرية المصرية قبل الفتح العربي وبعده صفحات 2 و 5 و 6 .

(2) وليم لانجر ، ج1 ، ص 45 Illustrated World Encyclopaedia, P. 547

(3) دكتور جمال حمدان ، شخصية مصر ، دراسة في عقرية المكان ، ج1 ، صفحة 80 .

بل وإلى الآن .

وعلى الرغم من أن البعض ، ومنهم الدكتور مراد كامل ، يعترفون بأن مصر كان اسمها الفرعوني « كيمي » أي السوداء أو الأرض السوداء غير أنه يقع في التناقض حيث يقول : وسمي القبط مصر باسم « كيمي » . دون أن يبين لنا كيف كانوا قبطا أي « إيجيبت » أو « جبط » ثم يسمون بلدهم « كيمي ، بينما أن المعروف أن اسم البلد يطلق على مواطنيها فيقال المصريون والهولنديون والجرينلنديون والنيوزيلنديون والأمريكيون وهكذا ، فلو أنهم كانوا « قبطا » فلماذا لم يسموها « قبط » بدلا من « كيمي » ، صحيح إننا نعاني من هذا الاختلاف الآن ، أو سمها الازدواجية في اسم بلدنا حيث نصف أنفسنا بالعربية بالمصريين ونصفها باللغات الأجنبية بالإجبشيان أو الإجبسيان ولكن ما حيلتنا وقد شاء لنا حظنا التعس أن نعيش في الأوهام ، أو أن نكون ضحايا للجهل وضيق الأفق . ولكن المؤكد أن الفراعنة لم يفعلوا ما نفعله الآن ، فاسم « كيمي » أو « حيمي » قديم قدم مصر ذاتها ، في حين أن اسم « إيجيبت » لم يظهر إلا لدى الإغريق ، الذين كانوا الوحيدين الذين استخدموه في القرن العاشر قبل الميلاد أو قبل ذلك بقليل ، بحسب الوقت الذي قامت فيه علاقات بينهم وبين المصريين القدماء »[1] .

ولو كان الأمر خلاف ذلك لأدى إلى نتائج غاية في الخطورة نذكر من بينها نتيجتين اثنتين ، الأولى : أن تكون مصر قد ظلت بدون اسم منذ أن قامت فيها دولة وإلى القرن العاشر قبل الميلاد عندما بدأت علاقتها بالجزر اليونانية ، والثانية : أن تكون العلاقات بين مصر والإغريق قد قامت منذ أن استوطن الناس مصر وأقاموا فيها دولة ، أي أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ، ومعنى هذا أن الإغريق ، على خلاف الحقائق التاريخية قد عاشوا في الجزر اليونانية قبل ظهورهم الحقيقي فيها بألفي سنة تقريبا . ونعتقد أن هاتين النتيجتين وغيرهما لم تخطر على بال الدكتور مراد كامل وغيره وهم يصرون على إقحام اسم « القبط » إقحاما على التاريخ لا لشيء

---

(1) تاريخ الحضارة المصرية ، العصر اليوناني والروماني والعصر الإسلامي ، المجلد الثاني ص 227 .

إلا لكي يؤيدوا ما يزعمونه من أن فئة من شعب مصر هي الأصيلة وصاحبة الحق في مصر دون الآخرين .

ولو أن ما قاله الدكتور مراد كامل كان خطأ تاريخيا وقع فيه بدون قصد في الجزء الذي عهد إليه بكتابته من كتاب « تاريخ الحضارة المصرية » الذي أصدرته وزارة الثقافة والإرشاد القومي ! منذ أكثر من ثلاثين عاما لكان يكفي أن نصححه له ، على الرغم من أننا لسنا مثله من علماء التاريخ . ولكن ما قاله لم يكن مجرد خطأ وقع فيه بدون قصد ، بل إن ما قاله كان مقصودا وله هدف محدد وهو إحياء الوهم الذي سبق لـ (ماسبيرو) ولغيره من العلماء الغربيين أن خلقوه بقصد إحداث الفرقة وإثارة الوقيعة بين المصريين . وهناك أكثر من دليل على تعمد ارتكاب هذا الخطأ ، منها التناقض الواضح في مضمون الخبر الذي ساقه الدكتور مراد كامل بشأن اسم مصر مما لا يمكن أن يقع فيه من كان في علمه وخبرته ، ومنها وهذا هو الأهم ، متابعة عدد من المفكرين الأقباط له فيما قاله ، فكأنه وهو أستاذ التاريخ أخذ على عاتقه مسئولية إقحام هذا الخطأ على التاريخ ليكون أساسا يعتمد عليه غيره فيما سوف يقولونه عن « المصريين الأصلاء » و « أصحاب الحق » . وهو الكلام الذي قاله فيما بعد الدكتور لويس عوض في كتابه « تاريخ الفكر المصري الحديث » ثم تابعه فيه الأستاذ زكي شنودة المحامي[1] الذي انتهى إلى القول « والنتيجة أن قبطي نسبة إلى قبط ، وأن قبط معناها مصر . فالقبطي إذن المصري وجمعها أقباط أي مصريون » .

والملاحظ أن هذا الكتاب صدر في نفس الفترة الزمنية التي صدر فيها كتاب الدكتور لويس عوض . كذلك قالها الدكتور أنور عبد الملك : « حيث إن الأقباط كمجموعة دينية ، يمثلون الرباط الحي بين مصر الفرعونية ومصر اليوم »[2] . أما الدكتور زاهر رياض[3] فقد ذهب إلى أبعد مما ذهب إخوانه ، ربما بدافع من الحماس ، أو

---

(1) موسوعة تاريخ الأقباط والمسيحية ، ج 1 ، الطبعة الثانية ، صفحة 7 .

(2) نهضة مصر ، صفحة 320 .

(3) المسيحيون والقومية المصرية ، صفحة 52 .

التظاهر بالجرأة ، فهو يقول : شيء آخر يجب أن يفخر به أقباط مصر أنهم وسط هذا الخضم من القومية الإسلامية ، لم يكن هناك من دليل واحد على بقاء القومية المصرية حية سوى هؤلاء الأقباط الذين احتفظوا بأسمائهم القبطية دليلا على مصريتهم ، بل حرصوا على أن يعطوا أولادهم هذه الأسماء المميزة ليميزوا أنفسهم كمصريين وسط هذا البحر الذي لم يكن يعرف فيه المصري من غيره من رعايا الدولة فكانوا مثلا حيا للقومية المصرية ، حتى إذا رأوا بوادر أمل في إحياء هذه القومية لم يكونوا يترددون في تشجيعها » . ولعلنا نلمس في كلام الدكتور زاهر رياض الأثر الذي أحدثه فيه ذلك الوهم المسمى « القومية المصرية » التي هي في رأيه ورأي الآخرين « قومية قبطية » هي النقيض لما أسماه قومية إسلامية . ويبلغ الأثر الذي أحدثه الوهم مداه في ذلك البيان الذي أصدره المؤتمر المسيحي الذي عقد في 17 يناير 1977 وضم ممثلين لـ (الشعب) القبطي بالإسكندرية مع الآباء الكهنة الرعاة . فقد جاء فيما يسمى (الاعتبار الثاني) الذي قال المؤتمرون إنه يجب أن يضعه الجميع نصب أعينهم هو والاعتبار الأول : « الأمانة الكاملة للوطن المفدى الذي يمثل الأقباط أقدم وأعرق سلالته » « حتى إنه قد لا يوجد شعب في العالم له ارتباط بتراب أرضه وقوميته » « مثل ارتباط القبط بمصر »[1] .

---

(1) الثورة المضادة في مصر ، صفحة 314 .

ترددت أقوال من هذا النوع في سنة 1919 في جريدة الوطن التي كانت هي وصحيفة « مصر » ، « لسانا للطائفة القبطية » . وكانت « الوطن » لا تخفي سياستها المناصرة للاحتلال البريطاني . وكانت لا تفتأ تؤكد ذاتية الأقباط في انضمامهم للحركة الوطنية . من ذلك ما جاء في عددها الصادر في 7 أكتوبر 1919 من أن شوق القبط للحرية والاستقلال « شوق شيخ هرم عاد إليه ميراث أبيه وكان قد حرم منه وهو بعد في المهد صبيا » .

ولما أرسل عبد العزيز جاويش إلى وكيل بطريركية القبط يحييه على مواقف القبط الوطنية ، ردت عليه الجريدة بأسلوب ساخر عنيف في محاولة منها لإثارة ذكريات الشقاق سنة 1908 ثم تقول « إن القبط أحق من سواهم بالمطالبة باستقلال مصر لأنها وطنهم ووطن أجدادهم من ستة آلاف سنة القبط الذين نحت اسم مصر من اسمهم .

بل إن محرر جريدة « الوطن » لم يجد حرجا في المجاهرة برأيه في أن يكون اشتراك القبط في الحركة الوطنية بصفتهم أمة تمثلها هيئات ملية مشورية مسئولة ، لا أن ينضموا مبعثرين واحد من هنا وواحد من هناك .

وانظر أيضا - طارق البشري ، المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية .

أما القس داود عزيز فإنه يستند إلى ما قاله « ماسبيرو » من « أنه إذا كانت توجد ثمة أمة حافظت على أصولها خالية من أخلاط دم غريب فإنما هم الأقباط نسل الفراعنة ، أصحاب هذه البلاد »[1] . ليدلل على صحة ما أملاه عليه وهمه وفاته أن يلاحظ أن « ماسبيرو » قال « إذا كانت توجد ثمة أمة » ، وإذا ، كما هو معلوم شرطية ، وطالما أنه لم يثبت علميا وجود أمة حافظت على أصولها خالية من أخلاط دم غريب ، فإن الشرط يتخلف وبالتالي فإن الأقباط لا يكونون من نسل الفراعنة .

ومع ذلك فإن للقس داود عزيز فضل الإيضاح ، ذلك أنه حدد معنى « أصحاب الحق » بل وأضاف إلى الأساس التاريخي المزعوم أساسا آخر هو « نقاء الدم » أو « نقاء العنصر » وإن كان عجز عن تقديم الدليل على صحة ادعاءاته .

ومن الذين صدقوا هذا الوهم الدكتور ميلاد حنا[2] ، والدكتور غالي شكري[3] وآخرون ممن هم دونهم علما ومكانة . وإذا كانت لدى هؤلاء أو أولئك دوافع لا تخفى على أحد قد تبرر حرصهم الواضح على ترديد هذا الوهم وغيره من الأوهام فإننا لا ندري ما هو الدافع وراء ترديد الموسوعات ودوائر المعارف العربية لهذا الوهم وهي التي يفترض فيها أن تقدم لقرائها معلومات صحيحة وصادقة وليس معلومات كاذبة ومضللة تفسد عقولهم وتزيف وعيهم .

فقد جاء في الموسوعة العربية الميسرة (مادة قبط) ما يلي : قبط كلمة يونانية الأصل معناها سكان مصر . والأقباط من سلالة قدماء المصريين ويقصد بهم اليوم المسيحيون المصريون » .

وفي الموسوعة الثقافية (مادة قبط) جاء ما يلي : « قبط كلمة يونانية الأصل معناها سكان مصر ، نسبة إلى « قفط » المدينة المصرية القديمة والأقباط من سلالة

---

(1) أقباط مصر بين الماضي والحاضر ، صفحة 29 .
(2) نعم .. أقباط لكن .. مصريون ، صفحة 17 .
(3) الثورة المضادة ، صفحة 57 .

قدماء المصريين .. وتاريخ الأقباط يرجع إلى أوائل ظهور المسيحية التي أسسها بمصر القديس مرقس تلميذ المسيح ، ولذا تسمى « بالكرازة المرقسية » .

ونلاحظ الخلط الواضح الذي وقعت فيه الموسوعة الثقافية ، والذي لم يفطن إليه ، على ما يبدو ، كاتب المادة « قبط » فهو يقول إن كلمة « قبط » أصلها يوناني ، ثم يعود فيقول أن « قبط » نسبة إلى « قفط » المدينة المصرية القديمة . ليس ذلك وحسب ، بل إنه يقول إن الأقباط من سلالة قدماء المصريين ، ثم يعود فيقول إن تاريخهم يرجع إلى أوائل ظهور المسيحية . وكنا نود أن يفسر لنا كيف يكونون من سلالة قدماء المصريين ثم يبدأ تاريخهم مع ظهور المسيحية ، وأين تاريخ أجدادهم ؟ أليس هو تاريخهم أيضا ؟ إذا كانوا حقا من نسل أولئك الأجداد ؟. ولكن هكذا دائما يكون تصرف من ليس لمعلوماته أساس علمي سليم ، ومن يتعمد التلفيق واصطناع الأدلة .

لذلك فإنه من الأهمية بمكان دراسة هذا الموضوع بأسلوب علمي حتى يمكننا التعرف على العلاقة بين كلمة « إيجيبت » وكلمة « قبط » .

أصل كلمة « إيجيبت » كما ذكره الواهمون :

الغريب في الأمر ، أنه على الرغم مما يبدو من إصرار هؤلاء الناس على استخدام كلمة « إيجيبت » كأساس يستندون إليه في القول بأصالتهم وأنهم أصحاب الحق في مصر ، فإنهم يتخبطون فيما يسوقونه من أسباب لتفسير ظهور كلمة « إيجيبت » وأصلها ، ثم علاقتها بكلمة « قبط » ؛ فالأستاذ زكي شنودة يقول إن الكلمة اليونانية « إيجيبت » جرى تصحيفها بواسطة العرب إلى « قبط » التي تعني « مصر ». أما الدكتور ميلاد حنا فيقول « ولعل في كلمة قبط ، أو جبط ، وهي من كلمة إيجيبطوس أي الأرض السوداء ، وهي جزء من كلمة – إيجيبت – التي تعرف بها بلادنا في كل لغات الأرض تقريبا .. إن في ذلك ما يؤكد الانتماء الأصيل لهذه الرقعة من الأرض » . وفي موضع آخر يقول : « إن كلمة « أقباط » ومفردها « قبط »

هي فيما يقال تطوير متدرج عبر قرون للفظ مصري فرعوني هو « هاكابتاح » وهو ما كانت تعرف به مصر قديما ، والكلمة مكونة من مقطعين الأول يعني « المعبد » أو الأرض أو المكان ويعني المقطع الثاني « الروح » أو الإله « بتاح » ويستطرد قائلا « وظل المصريون القدماء ينطقونها هكذا إلى أن جاء الإغريق بما يتناسب مع الحروف اليونانية ثم أضافوا إليها ما يناسب قواعد اللغة الجديدة فتحورت الكلمة وأصبحت مصر تعرف باللغة اليونانية بلفظ « إهيجيبتوس » وهي الكلمة التي اشتق منها لفظ إيجيبت وهو اسم مصر في كل اللغات اللاتينية والأوروبية »[1] .

أما الدكتور أنور عبد الملك فيقول في أصل كلمة « قبط » : « تستعمل كلمة « قبطي » للدلالة على المسيحيين من سكان مصر الأصليين . وهي كلمة مشتقة من اسم مصر باللغة اليونانية وهو « إيجيبتوس » Aegyptos . إن أصل هذه الكلمة يأتينا من اليونانية عبر اللغة اللاتينية ، فتقود الأثر تماما في ظلمات المرحلة السابقة على حضارة اليونان ، والمعروف أن مدينة ممفيس جرت تسميتها من العامة باسم « هيكوبتاه » Hikuptah أي قصر « كا » في « بتاه » . وحسب فرضية مقبولة ، التي تشمل إذا ميناء النيل الرئيسي وكذا المملكة الممتدة شمال الشلالات الأولى بأسرها »[2] .

أما « كلوت » بك ، وهو طبعا أسبق في الوجود من هؤلاء وأقرب منهم إلى المصادر التاريخية ، فإنه يقول إن اليونان استمدوا اسم « إيجيبتوس » من كلمة كانت تطلق في غابر الأزمان على النيل[3] .

وهكذا فإنه بينما يقول الدكتور ميلاد حنا إن « هاكابتاح » كانت تطلق على مصر كلها ، فإن الدكتور أنور عبد الملك يقول إنها كانت تطلق على مدينة ممفيس ، ولكنها حسب فرضية مقبولة ، على حد قوله ، كانت تطلق على مصر كلها . ولا

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 44 .

(2) المرجع السابق ، صفحة 320 هامش 38 .

(3) لمحة عامة إلى مصر ، الجزء الأول ، صفحة 92 .

ندري ما هو الأساس الذي استند إليه للقول بأن تلك فرضية مقبولة ! كذلك يقول إن العامة جرت على تسمية « ممفيس » باسم « هيكوبتاه » ولم يبين كيف عرف ذلك علما بأن ما قاله لم يرد له ذكر في أي مصدر ، ولكنه التمويه والخداع فمن ذا الذي سيبحث في صحة أو عدم صحة ما يقوله .

أما الدكتور مراد كامل فإنه يقدم تفسيرا أكثر تفصيلا لكلمة « قبط » التي يقال إن أصلها « إيجيبت » أي مصر . فيقول : « وأسماها الآشوريون في نقوشهم الإسفينية « هيكوبتاه » وهو الاسم الذي كان يطلقه المصريون على عاصمة مملكتهم « منف » ومعناه « بيت روح بتاح » وكان إطلاق هذا الاسم على المملكة كلها من سبيل إطلاق العاصمة على القطر كما تعودنا ذلك في المديريات الآن . وسمع اليونان هذا الاسم فأخذوه عنهم منذ عصور قديمة وأسموها « إيجيبتوس » وورد اسمها عدة مرات في شعر هوميروس . فإذا حذفنا علامة الرفع (وس) ثم الحركة الأولى التي ظنها العرب حرف استهلال خلص لنا بعد ذلك اسم قبط »[1] .

ومن الواضح أن الدكتور مراد كامل قد أجهد نفسه فيما لا طائل وراءه . ولو أنه وقف بجهده عند حد إثبات ما نقله عن الرحالة « فولني » الذي نقل عنه لكفاه ذلك ولنال ثوابه كاملا وجنب نفسه مشقة تحمل النقد الذي أصبح يستحقه كاملا بعد أن عبث بقلمه فيما نقله في محاولة منه ، جديرة بالإشفاق ، لإضافة شيء من العمق على مجرد استنتاج حشره « فولني » حشرا ، على طريقة الجهابذة الأوروبيين لإيهام الناس أنهم بحثوا ومحصوا ، وشقوا وتعبوا إلى أن وصلوا إلى الحقيقة فقد زعم « فولني » أن أصل كلمة « قبط » العربية هو كلمة « إجبتوس » اليونانية التي معناها « مصر » . وهو ما ذكره « كلوت » بك في كتابه « لمحة عامة إلى مصر » . ولم يبين لنا لا هذا ولا ذاك المصدر الذي استقى منه هذه المعلومات .

ويلاحظ الخلط والاضطراب فيما قالوه بشأن أصل كلمة « إيجيبت » فزكي

---

(1) تاريخ الحضارة المصرية ، المجلد الثاني ، صفحة 227 .

شنودة يقول إنها يونانية الأصل ، بينما يقول ميلاد حنا إنها تطوير متدرج عبر القرون للفظ مصري فرعوني هو « هاكابتاج » وإن الأغريق عرفوا الكلمة بهذا الشكل ثم حوروها فأصبحت « إهيجيبتوس » . أما أنور عبد الملك فإنه يتفق مع زكي شنودة بشأن الأصل اليوناني للكلمة ولا يذكر شيئا عما قيل بشأن أصلها الفرعوني . ولكن الدكتور مراد كامل وهو كما نعلم أستاذ تاريخ له رأي مختلف تماما ذكر فيه الأصل الآشوري للكلمة الذي سمعه اليونانيون فأخذوه عنهم ، أي عن الآشوريين ، لا عن المصريين ونطقوه « إيجيبتوس » التي أصبحت « إيجيبت » التي نطقها العرب « قبط » فأي هؤلاء الناس نصدق ؟ . هل نصدق الذين قالوا إن الكلمة أصلها مصري ، أم نصدق الذين قالوا إن أصلها إغريقي ، أم نصدق الذين قالوا إن أصلها آشوري ؟ إذا كنا نؤمن بالتخصص العلمي فإنه يجب علينا أن نأخذ بما قاله الدكتور مراد كامل ، أي أن كلمة « إيجيبت » أصلها آشوري وهو « هيكوبتاه » وأن اليونانيين سمعوه فأخذوه عن الآشوريين منذ عصور قديمة وحوروه إلى « إيجيبتوس » . ولكن ماذا بشأن الكلام الذي سبق أن قاله الدكتور مراد كامل نفسه من أن « القبط » سموا مصر « كيمي » والذي بينا ما فيه من تناقض ، أو خطأ مقصود ، يجعلنا مضطرين إلى الالتزام بالحذر إزاء كل ما يقوله الرجل .

وحتى لو افترضنا أنه أخطأ بدون قصد فإنه يجب علينا إمعان النظر فيما قاله وتمحيصه حتى لا يجرنا وراءه إلى خطإ لا تحمد عواقبه . والواقع أن كل كلمة وردت في تفسيره لأصل الاسم « إيجيبت » أو « قبط » تثير أكثر من تساؤل .

ففيما يتعلق بالكلمة « هيكوبتاه » التي قال الدكتور مراد كامل إنها وجدت لدى الآشوريين فإن الدكتور أحمد بدوي يقول إن أصلها « حات – كا – بتاح » وهو الاسم الذي كان المصريون يطلقونه على العاصمة « منف »[1] ومعناه « بيت

---

(1) ممفيس أو منف ثانية عواصم الدولة المصرية المتحدة في تاريخ آل فرعون من حيث القدم ، وقد عرفت بهذا الاسم منذ أيام الأسرة السادسة وكانت من قبل ذلك تعرف بالقلعة البيضاء أو « الدار البيضاء » . ينسب بناؤها إلى « منا » ما بين 3400 - 3200 قبل الميلاد وقد أقامها يومئذ عند رأس الدلتا . وبعض أطلالها =

ظل أو روح المعبود بتاح » أي مكانه ومقره[1] . ولو افترضنا أن هذا هو أصل الكلمة الآشورية « هيكوبتاه » وأن المصريين كانوا يطلقونها على « منف » بينما كانوا يطلقون على مصر كلها اسم « كيمي » فما الذي جعل الآشوريين يطلقون الاسم « هيكوبتاه » على مصر ؟ هذه واحدة ، أما الثانية ، فإن الثابت تاريخيا أن الإغريق اتصلوا بمصر في تاريخ سابق بكثير على تاريخ اتصال الآشوريين بها فتاريخ اتصال الآشوريين بمصر هو عام 675 قبل الميلاد وذلك عندما قاموا بغزوها تحت قيادة « أسرحدون » ملك آشور وسقطت منف في يد جيشه عام 671 قبل الميلاد وأصبح أسرحدون سيد مصر السفلى وأقيم الضباط الآشوريون ـ أو أعيان مصريون تسندهم الحاميات الآشورية ، حكاما على الأقاليم والمراكز . بينما ظلت السيادة في الجنوب للفرعون « طهراقة » الحبشي الأصل الذي ما لبث أن رفع راية العصيان عقب مغادرة أسرحدون لمصر . وفي أثناء عودته لإخماد الثورة مات في الطريق عام 669 قبل الميلاد وخلفه آشور بانيبال الذي حضر إلى مصر وهزم « طهراقة » وأخمد الثورة ، وأعاد احتلال منف مرة أخرى . ولما نشبت الثورة للمرة الثانية تحت قيادة « تانوتامن Tanutamen » ابن أخي طهراقة عاد آشور بانيبال مرة ثانية وقضى عليها ودمر طيبة فجعلها أثرا بعد عين ونصب « أبسماتيك » نائبا للملك في مصر كلها[1] .

وفي كل ما حدث لم يرد ذكر لـ (هيكوبتاه) التي يزعمون أنها كانت تطلق على مصر كلها . وإنما الذي ذكر في النقوش الآشورية ورسائل تل العمارنة في صيغ

= وخرائبها ما زالت بادية عند القرية المعروفة باسم (ميت رهينة) من قرى مركز البدرشين بمحافظة الجيزة . وإن لها في تاريخ دنيا الناس عامة ، ودنيا المصريين خاصة لشهرة فائقة كما أن لها من الأسماء والصفات غير ما ذكرنا . وفي تاريخ لاحق تحولت ممفيس مدينة « بتاح » وكعبته الخالدة إلى معسكر لجيوش فرعون ودار لصناعة الحرب .

(1) في موكب الشمس ، ج 2 ، ص 632 الطبعة الثانية .

(2) تاريخ العالم ، المجلد الثاني ، صفحة 181 .

مختلفة هو : مصري ، ومصري ، ومصر ومصارى إلخ فلماذا تركوا النقوش الآشورية ورسائل تل العمارنة فلم يعتدوا بها واعتدوا بما يسمونه النقوش الإسفينية لدى الآشوريين ؟ بل لماذا اهتموا بالكلمة هيكوبتاه فأطلقوها على مصر كلها بينما أنها لم تكن تطلق إلا على منف ، وتركوا كلمة مصر التي كان الآشوريون أنفسهم يطلقونها على هذه البلاد[1] ؟

ونمضي مع ما قاله بعضهم من أن الإغريق سمعوا الكلمة من الآشوريين وحوروها إلى « إهيجيبتوس » ونسألهم متى كان ذلك ؟ لقد بينا كيف أن الآشوريين لم يحضروا إلى مصر إلا عام 675 قبل الميلاد بينما يقول الدكتور مراد كامل إن « إهيجيبتوس » وردت عدة مرات في شعر هوميروس الشاعر اليوناني الذي نظم الإلياذة والأوديسة والذي يقال إنه عاش في القرن الثامن قبل الميلاد في آسيا الصغرى فكيف سمع الإغريق بكلمة « هيكوبتاه » من الآشوريين قبل أن يأتي هؤلاء إلى مصر بأكثر من قرن ، وإن كان من الراجح أن هوميروس لم يكن أول من ذكر اسم مصر وإنما كان الاسم متداولا قبل ذلك بمدة . وقد نظم شعره باللهجة الأيونية التي امتزجت بكثير من الألفاظ الأيولية[2] . كذلك لم يثبت أن هوميروس زار مصر ولكن ليس هناك ما يمنع من أن يكون قد سمع عنها عن طريق بعض الرحالة اليونانيين الذين كانوا قد زاروها . وهكذا تكون كلمة « إهيجبتوس » قد عرفت قبل كلمة « هيكوبتاه » التي يقولون إنها كلمة آشورية . ولو أن رواية الدكتور مراد كامل كانت صحيحة لكان معنى ذلك أن الإغريق لم يعرفوا لمصر اسما قبل أن يسمعوا

---

(1) ينفي الأستاذ عبد المجيد عابدين أن يكون الآشوريون قد غزوا مصر وادي النيل ، ويقول إن التي غزوها هي المنطقة التي تقع في الشمال العربي من بلاد العرب والتي كانت تعرف باسم « مصر » أيضا . وهو يستند في هذا الرأي إلى أن التفصيلات الواردة في نقوش الآشوريين عن هذه الغزوات تدل دلالة واضحة على ذلك ، كما أنه ، على حد قوله ، من الصعب تصور فتح الآشوريين لمصر وادي النيل . وإذا نحن أخذنا بهذا الرأي ، فإن النتيجة لن تكون في صالح الذين يقولون إن الإغريق أخذوا كلمة « هيكوبتاه » من الآشوريين وحوروها إلى « إهيجيبتوس » .

(2) الموسوعة العربية الميسرة .

كلمة « هيكوبتاه » من الآشوريين وأن ما ورد بشعر هوميروس ليس اسم مصر وإنما اسم بلد آخر .

وفيما يتعلق باتصال الإغريق بالآشوريين الذين قالوا عنهم إن الإغريق سمعوا منهم كلمة « هيكوبتاه » فحوروها إلى « إهيجبتوس » فإن هذه العلاقة لم تبدأ إلا في عام 709 ق . م أي قبل غزو الآشوريين لمصر ، وذلك حين خضع أمراء قبرص الإغريق والفينيقيون للملك الآشوري سرجون وظلت قبرص تدين لآشور بالسيادة حتى سقطت الأخيرة ، فإذا كان أحد قد سمع من الآخر عن « مصر » أو كما يقولون « هيكوبتاه » أو « إهيجيبتوس » فهم الآشوريون الذين سمعوا من اليونانيين وليس العكس لأن هؤلاء كانوا هم الذين عرفوا مصر باسم « إهيجبتوس » قبل الآشوريين وليس العكس .

ومما يؤيد ويدعم هذا الفرض ما كشفت عنه الدراسات من أن علاقة مصر بالإغريق ترجع إلى القرن الخامس عشر وذلك في عهد « أمنحتب » الثالث وزوجه الملكة « تي » حيث يوجد الختم الذي يحمل اسمها بين آثار « حاجياتريادا » وهو آخر ما تم العثور عليه من آثار مكتوبة ترجع إلى تلك الفترة التي سبقت النفوذ الكريتي . وكان المصريون يطلقون على سكان بحر إيجه بما فيهم الكريتيون وسكان آسيا الوسطى وبلاد اليونان الأصلية اسما مشتركا واحدا هو « سكان الجزر التي في وسط البحر » (حاونبوت) . فلما حل الخراب بكريت ودمرت الحرائق عاصمتها « كنوسوس » وظهر في الأفق شعب جديد ينتسب إلى « موكناي » ببلاد اليونان الأصلية ، أخذ يحمل تجارته إلى مصر على نحو ما كان يفعل الكريتيون . لم يفطن المصريون إلى ذلك التعبير ، فكلهم في نظره سكان جزر[1] .

وطبقا لهذا الرأي يكون الإغريق قد عرفوا مصر في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، ومن ثم أطلقوا عليها اسم « إيجيبت » . وهذا الوقت ، كما نلاحظ ، سابق

---

(1) جان فركونيه ، قدماء المصريين والإغريق ، صفحة 5 .

على الغزو الآشوري لمصر بما يزيد على سبعة قرون ، بل إن الآشوريين لم يكونوا قد ظهروا إلى الوجود بعد . مما ينفي تماما أن يكون الإغريق قد سمعوا منهم كلمة « هاكوبتاه » التي حوروها إلى « إيجيبت » التي لم تكن في الحقيقة غير كلمة إغريقية أصلية أطلقها الإغريق على مصر تماما كما أطلق المصريون على الإغريق كلمة (حاونبوت) والتي ذكرنا أن معناها « سكان الجزر التي في وسط البحر » .

ولقد استمرت العلاقات التجارية بين بلاد اليونان ومصر قائمة فترة تقرب من قرن ونصف من الزمان إلى أن حدث في عهد الملك « منفتاح » أن تعرضت مصر لغزو بحري من سكان الجزر اليونانية المتحالفين مع الليبيين عام 1232 قبل الميلاد صدته مصر . وقد تكرر غزو شعوب البحر لشواطئ مصر الشرقية في عهد رمسيس الثالث نحو عام 1184 قبل الميلاد تمكن فرعون مصر من صده وتشتيت الأعداء . ومنذ ذلك الهجوم البحري الذي واجهته مصر وصدته ، دأبت على قفل أبوابها في وجه السفن الإيجية والتجارة الغربية . فكان ظهور أي شراع في الأفق إيذانا بالحرب . وهكذا أرجع علماء التاريخ والآثار العلاقة بين مصر والإغريق القدامى إلى نهاية عصر الإقطاع الثاني وبداية الدولة الحديثة في مصر .

ولكن هل كانت العلاقة بين اليونان ومصر من جانب واحد ؟ أي أن اليونانيين هم فقط الذين جاءوا إلى مصر التي أطلقوا عليها اسم « إيجيبتوس » أم أن المصريين أيضا قد ذهبوا إلى اليونان سواء للتجارة أو للغزو ؟. يظهر من إطلاق المصريين لاسم (حاونبوت) أي سكان الجزر التي في وسط البحر على اليونان أنهم قد ذهبوا إليها وشاهدوها ، وإلا فكيف عرفوا أنها « الجزر التي في وسط البحر » ؟ . قد يقول قائل إنهم قد يكونون عرفوا هذا من التجار اليونانيين أنفسهم الذين كانوا يأتون إلى مصر للتجارة وإنهم قالوا لهم حين سألوهم عن بلادهم إنها « الجزر التي في وسط » ، وهذا محتمل إلا أن الأكثر احتمالا هو أن يكون المصريون قد ذهبوا إلى هذه الجزر ورأوها بأنفسهم لا أن يكونوا قد أخذوا الوصف من اليونانيين ، خاصة وأنه قد ثبت في أحوال كثيرة أن الإنسان الذي لا يعرف اسم بلد ويسأل أحد سكانه عنه فإنه يعرفه بالاسم الذي يذكره له ، كأن تسأل شخصا من مواطني إنجلترا عن بلده

فيقول لك إنجلترا فتحفظها هكذا . ولا نظن أن التجار اليونانيين قد قالوا للمصريين إنهم سكان الجزر التي في وسط البحر ، فقد كان طليعة هؤلاء التجار من كريت وهي جزيرة كما نعلم وليست جزرا ، ثم جاء بعدهم « الموكنيون » الذين كانت أهم معاقلهم تقع على الساحل الشرقي لشبه جزيرة المورة . فلا شك إذن في أن المصريين قد ذهبوا إلى اليونان كما جاء اليونانيون إلى مصر وبنفس الوسيلة ، أي بالسفن التي كان المصريون قد برعوا في صناعتها واستخدموها في الوصول إلى بلاد (بونت) الصومال على البحر الأحمر وإلى سواحل الشام على البحر الأبيض . لذلك فإنهم لما طافوا بالمنطقة التي توجد بها الجزر ولاحظوا كثرتها وتعدد أسمائها أطلقوا على سكانها اسما واحدا هو الذي ذكرناه .

وفضلا عما تقدم فإن هناك أدلة أخرى تدحض قول الذين زعموا أن « إيجيبتوس » هي تحوير للكلمة الآشورية « هاكوبتاه » منها أنه لم يثبت أن الإغريق كانوا يستعيرون أسماء أو صفات مما يستخدمه غيرهم من الشعوب ، وإنما كانوا يطلقون أسماء إغريقية على ما لدى غيرهم من الشعوب من مدن ومعابد وآثار وغيرها . والدليل الذي نسوقه يرتبط أشد الارتباط بما زعموه من أن « هيكوبتاه » التي معناها في المصرية القديمة (بيت ظل أو روح المعبود بتاح) هي أصل كلمة « إيجيبتوس » الإغريقية . فالإله (بتاح)[1] الذي يأتي اسمه في آخر الكلمة « هيكوبتاه » أو « هيكوبتاح » قد غير الإغريق اسمه إلى « هفايستوس » وهو أحد آلهتهم والذي فعل هذا هو « هردوت »[2] جريا على عادة قومه في إطلاق أسماء ما

---

(1) كان « بتاح » يمثل « الصناع الأعظم » بين أرباب مصر ، يحمي الصناعات والفنون ويرعى أربابها ، ويلهمهم آيات الفن الرفيع كما كان كبير أحباره « إمام الصناع » . وتحت راية « بتاح » ظفرت دنيا الفراعنة بخير ما أخرج للناس من بدائع النحت وروائع الفن وفوق أديم « منف » وتحت رعاية كهانها صاغ صناعها ورجال الفنون فيها من البدائع والروائع ما لا يحصى ولا يوصف من تحف الذهب والفضة والبرونز والخشب والعاج والحجر ، ومن دروع الحرب وأسلحة القتال وعدته ، ومن عمائر الدين والدنيا ما يحير العقول ويبهر الأبصار . ومثل ذلك يمكن أن يقال عن نظيره « هفايستوس » عند الإغريق .

(2) هردوت يتحدث عن مصر ، صفحة 64 .

لديهم من آلهة وآثار وغيرها على ما يشبهها مما لدى الشعوب الأخرى . وقد كانت توجد بين « بتاح » و « هفايستوس » أوجه شبه كثيرة . فلو أنهم سمعوا باسم « هاكوبتاه » لغيروه إلى اسم آخر يشتمل على اسم إلههم .

كذلك غيروا أسماء بعض المدن المصرية الشهيرة فأطلقوا على مدينة « طيبة » اسما آخر هو EXATOMPOLUS أي ذات المائة باب ، أو « ديوس بوليس مجنا » ثم « ديوس بوليس هيميجالي » أي « مدينة الله الكبرى » . ويستبعد بعضهم أن يكون الاسم « طيبة » تصحيفا لاسم مصري قديم ، وأن يكون الإغريق قد اختاروا هذا الاسم – على قلة ذيوعه لدى المصريين يومئذ – بقصد الملاءمة بينه وبين اسم « تيبا » الإغريقية ، وعلى ذلك يكون معناه– إن صح هذا التخمين – « القدس »[1] .

كذلك غيروا اسم « أون » إلى « هليوبوليس » أي مدينة الشمس ، وهي المدينة التي كانت أول عواصم المملكة المصرية المتحدة يرجع المؤرخون بتاريخ نشأتها إلى ما قبل عام 4240 قبل الميلاد .

ليس ذلك وحسب بل إنهم جروا على تصحيف الأسماء المصرية ، بل وعلى انتحال أسماء غير صحيحة لملوك مصريين . من ذلك أن اسم الملك « أمنمحات الثالث » (ني – ماعة – رع) قد ورد في قراطيس البردي الإغريقية « مارس » تارة و « لامارس » تارة ثانية ثم « لابارس » تارة ثالثة . كذلك فقد زعم « هردوت » أنه كان يحكم مصر قبل زيارته لها بتسعة قرون ملك يدعى « مويريس » بينما الثابت أنه ليس هناك ملك بهذا الاسم من بين كل الملوك الذين حكموا مصر .

وكما أطلقوا على مصر كلمة « إيجيبتوس » فقد أطلقوا على ما رأوه من آثارها أسماء إغريقية لا علاقة لها بأسمائها المصرية الأصلية . من ذلك إطلاقهم اسم « سفنكس » Sphinx على أبي الهول ، في حين أن « سفنكس » هو اسم لماردة

---

(1) هردوت يتحدث عن مصر ، صفحة 66 .

معروفة في الأساطير الإغريقية ، تتمثل في هيئة كائن نصفه الأعلى نصف امرأة ونصفه الأسفل نصف سبع . ويقول الدكتور أحمد بدوي[1] « وظاهر أن الإغريق قد خلعوا اسم سفنكس على التمثال المصري لما بينه وبين الماردة من شبه خالوه في ذلك الهيكل المزدوج » .

ليس ذلك وحسب ، بل إنهم أطلقوا أسماء يونانية على المسلات والأهرامات والمحاجر المصرية والمعابد والقبور لا نجد أي علاقة بينها وبين الأسماء المصرية ، أو حتى الآشورية التي كانت تطلق على هذه المعالم أو المناطق الأثرية . من ذلك أنهم أسموا العمد المدببة الرءوس أمام المعابد المصرية **Oblisk** بمعنى السنود ، لأنها تراءت لهم كذلك . ولعل هذا أن يكون السبب في إطلاق كلمة مسلة على ذلك الأثر . وهم قد أسموا المحاجر المصرية من شرق النيل تجاه « منف » طروادة التي خفف لفظها إلى « طرة » . وقد أسموا معبد « أمنمحات الثالث » الجنازي « اللابيرانت » بمعنى القبة ، لأنهم قد رأوا فيه بعض الشبه بإحدى عجائب البناء في جزيرة كريت . وهم قد أطلقوا على القبر الملكي في صخور طيبة اسم **Syrinx** بمعنى المزمار ، لأنه تراءى لهم كالمزمار الإغريقي لكثرة ممراته الطويلة الضيقة التي تختلف طولا وقصرا . وهم قد أسموا الأهرام **Pyramid** تشبيها لها بنوع خاص من الخبز الأبيض عندهم يقال له **Pyramos**[2] .

ويقول الدكتور بدوي في هذا الصدد : « وقد كان من عادة الإغريق أن يخلعوا على ما يرون في مصر أسماء إغريقية[3] . فإذا كان ذلك فلماذا يتركون عادتهم وبالذات بالنسبة لاسم الدولة نفسها فيستعيرونه من الآشوريين كما يزعمون !!

ومع ذلك فإننا لو تجاوزنا عما قالوه من أن « هاكوبتاه » التي هي أصل

---

(1) في موكب الشمس ، ج 1 ، هامش صفحة 220 .

(2) المرجع السابق ، هامش 1 صفحة 221 .

(3) المرجع السابق ، صفحة 221 .

« إهيجبتوس » كانت تطلق على العاصمة « منف » فلماذا توسع المصريون القدماء فأطلقوها على مصر كلها على الرغم مما هو ثابت من أنهم كانوا يطلقون على مصر « كيمي » أو « حيمي » ؟ ثم يأتي الآشوريون فيفعلون نفس الشيء وكذلك الإغريق !! وهذا هو وجه العجب لأننا لو قسنا هذا الأمر على ما هو حادث الآن من إطلاق اسم « مصر » على العاصمة « القاهرة » وليس العكس لوجدنا أنه بينما يقول العامة عن القاهرة « مصر » فإن الأجانب لا يفعلون ذلك وإنما يقولون « كايرو » أو « لوكير » بالفرنسية » . أما من حيث ما زعموه من أن إطلاق اسم « إهيجيبتوس » وهو اسم منف على الدولة كلها هو من سبيل إطلاق العاصمة على القطر كما تعودنا في المحافظات الآن فإنه قياس فاسد كما نرى حيث إننا وإن قلنا عن سكان محافظة قنا إنهم تابعون إداريا لها غير أننا لا نقول عن سكان الأقصر التي هي إحدى مدن المحافظة القناويين ، كذلك فإننا لو سألنا ساكنا من سكانها لقال لنا إنه من الأقصر ولم يقل إنه « قناوي » .

وعلى الرغم من فساد هذا الاستدلال فإننا سنغض الطرف عنه ، على اعتبار أنه من المحتمل أن ذلك قد حدث في وقت ما وذلك عندما كانت « منف » هي العاصمة فأطلق اسمها على كل مصر . ولكن « منف » لم تكن عاصمة مصر في كل العهود بل تغيرت العاصمة أكثر من مرة فكانت تارة في الجنوب وتارة أخرى في الشمال فهل أبقى الملوك الذين اتخذوا عواصم أخرى على الاسم القديم على الرغم من أنه يشتمل على اسم عاصمة هجروها ، وما كان هجرهم لها إلا كرها فيها وفيمن كانوا يقيمون بها ؟

ليس ذلك وحسب ، بل إن الملاحظ أن منف كانت مقر الإله « بتاح » والمعروف أن الآلهة في مصر القديمة شأنها شأن الأفراد كانت تمر بأوقات رخاء وأوقات شدة فكان نجمها يتألق ثم لا يلبث أن يأفل وقد جاء وقت واجه فيه « بتاح » انصراف الناس عنه إلى غيره من الآلهة فهل نتصور أنهم وقد أنكروه ، أن يبقوا على اسمه ضمن اسم دولتهم ، وهم الذين كانوا لا يتورعون عن طمس أسماء الملوك والآلهة إذا ما انقلبوا عليهم !!

وأخيرا فإنه يبدو أن « هردوت »[1] لم يكفه ما يواجهه الدكاترة أنصار فكرة « إهيجيبتوس » المأخوذة من « هاكوبتاه » الآشورية من حرج وافتضاح فإذا به يقول إن المصريين القدماء كانوا يطلقون على « طيبة » اسم « مصر » أي « إيجيبتوس » وهو يقصد طبعا أنهم كانوا يسمونها باسم الدولة التي كانوا يعرفونها باسم « كيمي » أو « حيمي » فترجمها هو إلى « إهيجيبتوس » الإغريقية جريا على عادة الإغريق في استخدام أسماء وأوصاف إغريقية . فمن الذي نصدقه ؟ « هردوت » الذي زار مصر في القرن الخامس قبل الميلاد والتقى بالناس من كل الطبقات فأخبروه بذلك ، أم الدكاترة الذين كتبوا ما كتبوا بعد أكثر من ألفي سنة من زيارة « هردوت » لمصر ؟ طبعا سيقولون إن علينا أن نصدقهم لأنهم بحكم كونهم الورثة ذوي الدم النقي الذي لم يخالطه دم غريب والسلالة النقية أدرى من غيرهم بما كان يفعله أجدادهم وما « هردوت » هذا إلا غريب مثل كل الغرباء والدخلاء الذين وفدوا على هذه البلاد وزاحموهم في حقوقهم .

فإذا صح ما قاله « هردوت » فإن معناه أن « إهيجيبتوس » لا علاقة لها بالمرة بمنف مقر الإله بتاح والتي قيل إنها المعنية بالكلمة (حات – كا – بتاح) أي بيت ظل أو روح الإله بتاح لأن هذا الإله لم يكن مقره في طيبة وإنما في منف . فإذا كان المصريون قد أطلقوا على « طيبة » اسم « إهيجيبتوس » قبل أن يطلقوه على منف فمعنى ذلك أنهم كانوا يطلقون اسم الدولة على العاصمة ، كما نفعل نحن الآن عندما نسمي « القاهرة » مصر . ولكن بما أنهم لم يكونوا يعرفون كلمة « إهيجيبتوس » الإغريقية كاسم لبلدهم التي كانوا يسمونها « كيمي » أو « حيمي » فإن ما قاله « هردوت » قصد به أن المصريين كانوا يطلقون على عواصمهم في العصور المختلفة اسم دولتهم . وبالنظر إلى أن « هردوت » كان يكتب تاريخه للإغريق وليس للمصريين أو لغيرهم فقد استخدم الاسم الذي يعرفون مصر به وهو

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 90 .

« إيجيبت » ولم يستخدم الاسم الذي يعرف المصريون بلدهم به وهو « كيمي » .

اسم « مصر » لدى الشعوب الأخرى :

سبق أن ذكرنا أن الآشوريين أنفسهم كانوا يسمون هذه البلاد باسم « مصر » وهو الاسم الذي كان شائعا لدى الساميين في بادئ الأمر للدلالة على عدد من الأقاليم في آسيا وأفريقيا . ولم يكن سكان مصر يعرفونها بهذا الاسم كما ذكرنا وإنما عرفوها باسم « كيمي » أو « حيمي» . أي الحمراء أو الأرض الحمراء .

وعندما ظهرت الكلمة « مصر » في النقوش الآشورية لأول مرة لم تقتصر دلالتها على أرض في أفريقيا ، وإنما على مواضع عديدة متفرقة في آسيا وأفريقيا أشهرها ثلاثة : أحدها موضع شمالي الشام يقع جنوب جبال طوروس ، والثاني في الشمال الغربي من جزيرة العرب متاخم لأدوم شرقا ، وأرض الجنار إلى الفرع الشرقي للدلتا . وهذا يعني أن التاريخ القديم عرف « مصورا » عديدة ، فكان هناك مصر شمالي الشام ، ومصر الجزيرة العربية ، ومصر شرقي الدلتا . وورد الاسم في النقوش الآشورية وفي رسائل تل العمارنة في صيغ مختلفة : مصري ، مصري ، مصر ، مصارى ، مشرى . واختلف العلماء في اشتقاق اللفظ ، فمنهم من حاول رده إلى أصل مصري قديم ، إلا أن الراجح عندهم أن الأصل سامي بمعنى (الحد الفاصل بين أرضين) . غير أن العلماء لم ينتبهوا ، فيما يظهر ، إلى أن مادة (م . ص . ر) في اللغات السامية ذاتها يمكن ردها إلى أكثر من أصل . فهناك معنى التحديد والتقسيم والتجزئة ، ومنه في العربية المصر : الحد الفاصل بين أرضين ، واشترى الدار بمصورها أي بحدودها . والمصر : البلد ، واحد الأمصار[1] . وهذا المعنى شائع في معظم اللغات السامية ، وعليه اعتمد العلماء الذين ردوا الكلمة الواردة في النقوش ، علما على تلك المواضع ، إلى معنى الحد الفاصل بين أرضين . إلا أن هناك معنى

---

(1) ابن قتيبة الدينوري ، عيون الأخبار ، المجلد الثالث ، صفحة 1 .

آخر احتفظت به العربية وقلما رأيناه عند أخواتها الساميات : وهو في قولهم : المصر : الطين الأحمر ، ويقال ثوب ممصر ، مصبوغ بالطين الأحمر أو بحمرة خفيفة . ولعل هذا هو المعنى الأقرب في تفسير الاسم الوارد في النقوش ، ولا سيما إذا عرفنا أن المواضع الثلاثة التي أشرنا إليها كانت تقع في أرض أكثر صخورها « حمراء » وأن الألفاظ الدالة على الحمرة أو المغرة كانت مادة لاشتقاق عدد من أسماء المواضع الواقعة في الشمال الغربي من الجزيرة العربية[1] .

ولعلنا قد لاحظنا وحدة السبب في التسميتين ، المصرية « كيمي » ، والعربية « مصر » وهو اللون الأحمر أو المائل للحمرة ، فالاسم واحد وهو الأرض الحمراء والاختلاف في اللغة فقط تماما كما نقول « أحمر » بالعربية و « روج » بالفرنسية أو « رد » بالإنجليزية .

وعلى الرغم من أنه كان هناك أقليمان آخران غير بلادنا هذه يطلق عليهما اسم « مصر » فإن هذه التسمية ما لبثت أن اختفت بالنسبة لهما و لم تبق إلا مصر هذه التي ننتمي إليها وعرفتها بهذا الاسم كل الشعوب القديمة التي كانت تجاورها أو تقع بالقرب منها . وهذا ما لم يستطع أن ينكره الدكتور مراد كامل حيث قال : « كانت الشعوب السامية المجاورة تسمي مصر قديما باسم « مصر » . هكذا تسمى في الآشورية ، وسميت في الآرامية « مصرين » وفي العبرية « مصرايم » وعرفها العرب باسم « مصر » .

ولقد ورد اسم « مصر » كثيرا في كتابات العبرانيين الذين كانوا يطلقون عليها « مصرايم » وهي صيغة المثنى في لغتهم . ويرى بعض العلماء أن تشكيلها على صيغة المثنى جاء متأخرا ، وأن الميم التي ترد في آخر الكلمة كانت في الأصل للظرفية . وورد اسم « مصر » في التوراة كثيرا ، ومن المواضع التي ورد فيها :

---

(1) عبد الحميد عابدين ، المرجع السابق ، صفحة 6 .

* الإصحاح الثاني عشر من سفر التكوين : وحدث جوع في الأرض فانحدر إبرام إلى مصر ليتغرب هناك . لأن الجوع في الأرض كان شديدا . وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته . إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك . قولي إنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك » .

* وكذلك في الإصحاح الثالث عشر : « فصعد إبرام من مصر هو وامرأته وكل ما كان له ولوط معه إلى الجنوب » .

* وفي الإصحاح الخامس عشر : « في ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقا قائلا لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات » .

* وفي الإصحاح 26 من نفس السفر : « وظهر له الرب (لاسحق) وقال لا تنزل إلى أرض مصر اسكن الأرض التي أقول لك » .

اســـم مصـــر عند العـــرب :

بينا كيف أن الشعوب السامية القديمة ، بما فيهم العرب ، عرفت هذه البلاد باسم مصر وليس باسم « إيجيبتوس » أو « قبط » . فلم يقولوا « بلاد القبط » أو « أرض القبط » مثلا وهو ما كانوا يقولونه عن غيرها كـ (بلاد العرب) أو (أرض الروم) أو غير ذلك . بل كانوا يقولون « مصر » .

والمعروف أنه كانت توجد علاقات تجارية بين الجزيرة العربية ومصر في الجاهلية ، فكان كثير من العرب يترددون عليها ، منهم عمرو بن العاص . ففيما أخرجه ابن عبد الحكم[1] عن هذه الزيارة أن عمرو بن العاص التقى في فلسطين بشماس فلما سأله : أين بلادك ؟ قال : مصر في مدينة يقال لها الإسكندرية ولم يقل

(1) فتوح مصر والمغرب ، صفحة 76 .

« قبط » أو « بلاد القبط »، على الرغم من أن الرجل كان شماسا أي من رجال الدين .

ولما ظهر الإسلام وتوالى نزول آيات القرآن الكريم على الرسول ﷺ ورد ذكر « مصر » في كثير من الآيات . قال ابن زولاق إنها ذكرت في القرآن الكريم في ثمانية وعشرين موضعا وقال السيوطي « بل أكثر من ثلاثين »[1] ذكر منها قوله تعالى ﴿ **اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم** ﴾[2] . وقوله تعالى : ﴿ **وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه** ﴾[3] . وقوله سبحانه : ﴿ **وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا** ﴾[4] . وقال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام : ﴿ **ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين** ﴾[5] . وقال تعالى حكاية عن فرعون : ﴿ **أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى** ﴾[6] ولم يرد اسم « مصر » صراحة في غير ذلك من الآيات ، وإنما أشار القرآن إليها بكلمات أخرى مثل « المدينة » و « جنات وعيون » ، و « الأرض » ، وغير ذلك من الأوصاف[7] .

أما الأحاديث النبوية ، فإن البخاري لم يورد في صحيحه شيئا ذكر فيه اسم « مصر » أو غيره كـ (قبط) مثلا . أما مسلم فقد أورد في صحيحه حديثا واحدا بروايتين مختلفتين ، لم تذكر مصر في الأولى وذكرت في الثانية على أن الذي اتفقت فيه الروايتان هو عدم ذكر « قبط » . ففي الرواية الأولى ، وقد أوردها مسلم على الوجه التالي : « حدثني أبو الطاهر أخبرنا ابن وهب أخبرني حرملة وحدثني هارون

---

(1) حسن المحاضرة ، صفحة 5 .
(2) البقرة / 61 .
(3) يوسف / 21 .
(4) يونس / 87 .
(5) يوسف / 99 .
(6) الزخرف / 51 .
(7) حسن المحاضرة ، صفحة 8 و 9 .

ابن سعيد الأيلي حدثنا ابن وهب حدثني حرملة « وهو ابن عمران التجيبي » عن عبد الرحمن بن شماسة المهري قال : « سمعت أبا ذر يقول : قال رسول الله ﷺ إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرا ، فإن لهم ذمة ورحما فإذا رأيتم رجلين يقتتلان في موضع لبنة فاخرج منها . قال فمر بربيعة وعبد الرحمن ابني شرحبيل بن حسنة يتنازعان في موضع لبنة فخرج منها .

أما الرواية الثانية فقد جاء فيها حدثني زهير بن حرب وعبيد الله بن سعيد قالا حدثنا وهب بن جبير حدثنا أبي سمعت حرملة المصري يحدث عن عبد الرحمن بن شماسة عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ « إنكم ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط[1] فإذا فتحتموها فاحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحما ، أو قال ذمة وصهرا ، فإذا رأيت رجلين يختصمان فيها في موضع لبنة فاخرج منها قال : فرأيت عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة وأخاه ربيعة يختصمان في موضع لبنة فخرجت منها »[2] .

أما غير ذلك من الأحاديث التي ذكر فيها اسم « القبط » فالواضح أنها لم تكن على شرط الشيخين ، وبالتالي فلا يعتد بها خاصة وأن مضمونها لا يختلف بإقحام اسم « القبط » عليها ، فهي توصي المسلمين خيرا بسكان مصر .

ولقد فهم البعض من ذكر القبط أن المقصود بها أتباع مذهب الطبيعة الواحدة المسيحي الذين يعرفون الآن بـ (الأقباط) ولكن هذا خطأ ، إنما المقصود هم سكان مصر الذين كانوا يوصفون جميعا بأنهم « قبط » . وذلك حسب ادعاء « أصحاب الدم النقي » أنفسهم فقد قالوا إن « قبط » هي تصحيف لكلمة « إيجيبتوس » اليونانية التي كانوا يطلقونها على مصر . إذن فـ (قبط) هم كل سكان مصر قبل الفتح الإسلامي .

---

(1) القيراط جزء من أجزاء الدينار والدرهم وغيرهما ، وكان أهل مصر يكثرون من استعماله والتكلم به .
(2) صحيح مسلم ، المجلد الخامس ، صفحة 404 - 405 من طبعة الشعب .

وفيما يتعلق بالحديث الذي أخرجه ابن عبد الحكم ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفيه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا فتح الله عليكم مصر ، فاتخذوا فيها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير أجناد الأرض » فقال أبو بكر : ولم يا رسول الله ؟ قال « لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة » فإن هذا الحديث قد فسر على غير وجهه حيث زعم البعض أن المقصود هم « القبط » وهذا خطأ لأن المسلمين لم يكونوا يتخذون جنودا من أتباع الديانات الأخرى . فإذا قيل إنه يقصد بعد أن يسلموا ، فعندئذ لا يكونون « قبطا » بل مسلمين ، ويكون مصدر الخير ليس كونهم « قبطا » أو « مصريين » وإنما مصدره الإسلام الذي كان كذلك بالنسبة لغيرهم وهم العرب الذين كانوا قبل اعتناقهم له ضعافا متفرقين يستذلهم جيرانهم من روم وفرس ويحتقرونهم .

ومع ذلك ، فقد عرف العرب الكلمة « قبط » التي وردت في مواضع كثيرة ومختلفة من كتبهم وتصانيفهم ، سواء أكانت خاصة بالسيرة أم بالتاريخ . ولقد حاولنا أن نجد شيئا بشأن ما ذكره الدكتور مراد كامل [1] عن تصحيفهم لكلمة « إيجيبتوس » إلى « قبط » وكيف حذفوا علامة الرفع (وس) ثم الحركة الأولى التي ظنوها حرف استهلال فخلص لهم في النهاية اسم « القبط » ولكننا للأسف لم نعثر على أثر ولو ضئيل يقودنا إلى ما زعم أنه حدث . ففيما عدا ما ذكره الحموي [2] من أن « قبط » ، بالباء الموحدة ، هي اسم لأخي « قفط » بن مصريم لم نجد تفسيرا لهذا الاسم . ومعنى كلام الحموي أن « قبط » لا علاقة لها ، لا من قريب ولا من بعيد ، بكلمة « إيجيبتوس » الإغريقية ، وإنما هي اسم أصلي لإنسان وليست تصحيفا أو تحريفا لاسم آخر . وهو ما قاله ابن تغري بردي أيضا [3] : « والقبط ولد مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام » وقال عن الاسم « مصر » إنه أعجمي لا ينصرف ، وقيل : هو اسم عربي مشتق ، ولكل قائل دليل ،

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 227 .

(2) معجم البلدان ، المجلد الرابع ، صفحة 383 .

(3) النجوم الزاهرة ، الجزء الأول ، صفحة 31 .

وقيل غير ذلك أقوال كثيرة يأتي ذكر بعضها [1] .

وعلى الرغم من ذلك فإننا سنفترض أن العرب سمعوا كلمة « إيجيبتوس » وصحفوها إلى « جبط » أو « قبط » . فقد كان كثير منهم يترددون على الشام ، بل وعلى مصر أيضا في الجاهلية للتجارة . فقريش كانت تقوم برحلة الصيف إلى الشام تحمل قوافلها البضائع إلى هذه البلاد وتعود منها محملة ببضائع أخرى . وكانت أول ما تنزل في البلاد الرومانية تنزل في « أيلة » وهي المعروفة بـ (العقبة) ومنها تذهب إلى غزة على حدود مصر الشرقية ، وهناك تتصل بتجار البحر الأبيض . وليس من شك في أن بعض أعضاء القافلة كانوا يعرفون اللغات المستخدمة في الشام ، ومنها اليونانية .

ويقول أحمد أمين [2] : « بل لا نستطيع أن نصدق أن قافلة كبيرة كهذه تنتقل بتجارتها العظيمة لتتعامل مع أمة أجنبية من غير أن يكون فيها أفراد يعرفون لغة الذين يتعاملون معهم ، ويكونون واسطة للتعارف بينهم ـ قد تقول : إنهم كانوا يعرفون اللغة الأجنبية كما يعرفها التراجمة « اليوم » ، وهؤلاء ليسوا أهلا لنقل مدنية ولا أدب » . وبطبيعة الحال فإن سماع اسم بلد ونطقه مصحفا هو من السهولة بمكان ، بل إنه مما يحدث باستمرار ، لا من التراجمة ، بل ومن الذين اجتازوا بعض مراحل تعلم لغة من اللغات الأجنبية . وهناك كلمات كثيرة فارسية ورومانية ومصرية وحبشية نقلها هؤلاء التجار وأمثالهم وأدخلوها في لغتهم [3] .

وقد ورد في كتب السيرة والتاريخ خبر لقاء « هرقل » إمبراطور الروم بأبي سفيان الذي كان في زيارة للشام في تجارة لقريش . وكيف أنه لما أمر « هرقل » صاحب شرطته في الشام أن يحضر له من يوجد بها من العرب جمع له عددا من الأفراد كان

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 48 .
(2) فجر الإسلام ، صفحة 15 .
(3) أحمد أمين ، المرجع السابق ، صفحة 16 .

أبو سفيان من بينهم [1] . وفي رواية أخرى أنه أرسل ، أي « هرقل » ، إلى صاحب العرب الذي بالشام في ملكه يأمره أن يبعث إليه رجالا من العرب يسألهم عن الرسول ﷺ ، فأرسل إليه ثلاثين رجلا منهم أبو سفيان [2] . ومعنى وجود ما يسمى بصاحب العرب أنه كان يوجد منهم عدد كبير استدعى أن يتم تعيين موظف أو ما شابه ذلك ليكون مسئولا عنهم .

كذلك هناك قصة لقاء عمرو بن العاص بذلك الشماس المصري في فلسطين وحضوره معه إلى الإسكندرية . هذا بالإضافة إلى ما كان يوجد من العرب على حدود الشام كالغساسنة الذين كانوا يخالطون الروم ، فضلا عن بعض القبائل العربية الأخرى مثل لخم وجذام وكلب وقضاعة ، وطائفة من تغلب الذين كانوا يكثرون في القسم الجنوبي من الشام أكثر منهم في القسم الشمالي ، بحكم الجوار لبلادهم وكانوا يتكلمون لغة هي مزيج من الآرامية والعربية . وربما يكون تصحيف كلمة « إيجيبتوس » قد جاء من جانبهم وانتقل منهم إلى من يجاورهم من عرب شبه الجزيرة . كذلك كان هناك كثير من البدو الرحل ينتقلون بين فلسطين وشبه جزيرة سيناء ، وقد يصلون إلى الدلتا في الأحوال التي كانت فيها مصر تعاني من الضعف وعدم الاستقرار فتقل رقابتها على الحدود .

ليس ذلك وحسب ، بل إن الكلمة « إجيبتوس » ربما تكون قد ترددت في داخل شبه الجزيرة العربية ذاتها فسمعها العرب وصحفوها . فقد ذكر بعض مؤرخي الفرنج أنه كان في مكة نفسها بيوت تجارية رومانية يستخدمها الرومانيون للشئون التجارية وللتجسس على أحوال العرب . كذلك كان فيها أحباش ينظرون في مصالح قومهم التجارية [3] .

---

(1) ابن كثير ، البداية والنهاية ، المجلد الثالث ، صفحة 263 .

(2) المرجع السابق ، صفحة 266 .

(3) أحمد أمين ، المرجع السابق ، صفحة 13 .

ولا شك أن هؤلاء وأولئك كانوا يذكرون اسم « إيجيبتوس » بين أسماء البلاد التي يجلبون تجارتهم منها .

كذلك لا يجب أن ننسى اليهود الذين حلوا بالجزيرة العربية وأقاموا في « يثرب » و « فدك » و « خيبر » وغيرها ، وهم الذين كانوا قد عاشوا تحت الحكم اليوناني الروماني وتأثروا بالثقافة اليونانية تأثرا كبيرا ، فهم بلا شك كانوا يرددون بعض الأسماء الإغريقية ومن بينها « إجيبتوس » أي مصر حيث كانت تقيم جالية كبيرة جدا من إخوانهم في الإسكندرية .

ومع ذلك ، فإنه يبدو أن الاسم « إجيبتوس » وتصحيفه « جبط » أو « قبط » لم يحظ بدرجة من الشيوع والانتشار إلى الحد الذي يجعله يطغى على الاسم الذي عرفه ، العرب ، وأيضا اليهود ، هذه البلاد به ، وهو « مصر » . ليس ذلك وحسب بل إنه يبدو ، بوضوح شديد ، أن العرب وكذلك اليهود ميزوا بين الاسمين « إجيبتوس » أو « قبط » وبين « مصر » فأطلقوا الأول على السكان وأطلقوا الثاني على الإقليم .

وهكذا يتضح لنا أن للتصحيف مصادر كثيرة ومختلفة ولذلك فإننا لا نستبعد حدوثه وإن كنا لا نقر الدكتور مراد كامل على ما ذهب إليه بشأن الطريقة التي حدث بها هذا التصحيف ، ونرجح أن يكون قد وجد فيما قاله « فولني » ضالته المنشودة ، وهو يبحث عن دليل يؤيد به ادعاءه ، بعد أن أدرك ما فيه من وهن وضعف .

نعم لقد عرف العرب كلمة « قبط » ووردت في كتبهم وتصانيفهم ، ولكن ليس بالمعنى الذي أراد « أصحاب الحق » و « ذوو الدماء النقية » أن يوهمونا به ، وهو أن المقصود بها أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزت) [1] وهم

---

(1) مذهب الطبيعة الواحدة ، أو المونوفيزتي Monophysite هو المذهب الذي نشأ أثناء الجدال النسطوري كرد على ترجيح نسطور للطبيعة البشرية للمسيح إلى الحد الذي طغت معه على طبيعته الإلهية ، فإذا بأتباع =

الذين أصبحوا يعرفون بـ (القبط) بعد تطورات سوف نوضحها .

ومن بين أهم الوثائق التي وردت بها كلمة « القبط » ذلك الكتاب الذي بعث به الرسول ﷺ إلى حاكم مصر المدعو « المقوقس » . وهو واحد من بين كتب أخرى بعث بها الرسول إلى غير المقوقس من حكام البلاد المجاورة للدولة الإسلامية الناشئة ، منهم « هرقل » إمبراطور الروم والنجاشي ملك الحبشة وكسرى ملك فارس .

وقصة هذه الكتب وردت مفصلة في كتب التاريخ الإسلامي . فقد أورد الطبري (1)

= كيرلس بطريرك كنيسة الإسكندرية يرجحون الطبيعة الإلهية للمسيح على طبيعته البشرية بحيث ظهر المسيح كإله فقط . وجاءت طبيعته البشرية في المرتبة الثانية . وفي تطور لاحق قالوا باندماج الطبيعتين الإلهية والبشرية في المسيح اندماجا تاما ، وابتلاع الأولى للثانية . أو بتحديد آخر إن المسيح ليس له إلا طبيعة إلهية . ولذلك أطلق على هذا المذهب « الطبيعة الواحدة » مونوفيزت وسمي أتباعه بالمونوفيزتيين . وكان ديوسكوروس الذي خلف كيرلس على كرسي كنيسة الإسكندرية عام 444 ميلادية أول من تبنى هذا المذهب وأصبح رئيسا للمونوفيزتيين في الإسكندرية .

وقد أثار هذا المذهب جدلا شديدا في العالم المسيحي . فقد بادر أنصار الطبيعة الواحدة إلى عقد مجمع في إفسوس عام 449 قام بإقرار العقيدة الجديدة . وعندئذ قام البابا « لاون » الكبير بطريرك كنيسة روما بالتحرك فوصف المونوفيزت بالهرطقة وأطلق على مجمع إفسوس وصف « مجمع اللصوص » . وفي مجمع « خلقدونية » الذي عقد عام 451 تم شجب مذهب الطبيعة الواحدة ومحاكمة الأساقفة الذين أيدوه ، فبادر هؤلاء إلى إعلان توبتهم ، وأصدر المجمع بيانه الذي أقر عقيدة الطبيعتين ، والذي جاء به « إننا باتفاق الأصوات ، تابعو الآباء الإلهيين نعلم أن يعترف بالمسيح الواحد ذاته ابن الله الوحيد بطبيعتين غير ممتزج ولا متغير ولا منفصل ، ولا مفترق ، غير منفصل إلى وجهين أو منقسم ، ولكنه هو الابن الواحد ذاته والإله الكلمة الوحيد » .

ومع ذلك فقد انتشر مذهب الطبيعة الواحدة فظهر في فلسطين وسوريا وما بين النهرين وتزعم الدعوة إليه المدعو « يعقوب البرادعي » الذي قام بتنظيم أتباع المذهب وظل يعمل بنجاح لصالح المونوفيزتية لمدة زادت على السبعة والثلاثين عاما (541 - 578) وأصبح المذهب يعرف باسمه في هذه المناطق ، أي المذهب اليعقوبي . بل إن بعض العلماء المسلمين أطلقوا على أتباع مذهب الطبيعة الواحدة بمصر اسم « اليعقوبيين » . انظر : ابن حزم ، الفصل في الملل والأهواء والنحل ، الجزء الأول ، صفحة 48 . وانظر أيضا : تاريخ الكنيسة المسيحية لـ (سميرنوف) من صفحة 262 إلى صفحة 278 .

(1) تاريخ الطبري ، المجلد الثاني ، صفحة 85 .

خبر الكتاب الذي بعث به الرسول إلى المقوقس ، غير أنه لم يورد نص الكتاب . وكل ما قاله إن الرسول ﷺ بعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية فأدى إليه كتاب رسول الله ﷺ وأهدى المقوقس إلى رسول الله أربع جوار منهن مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ . وفي موضع آخر [1] ذكر أنه في السنة السادسة للهجرة كتب رسول الله ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط يدعوه إلى الإسلام فلم يسلم .

كذلك جاء في البداية والنهاية [2] أن رسول الله ﷺ بعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية . وذكر على لسان حاطب أنه بعثه إلى المقوقس ملك الإسكندرية . ولم يورد نص الكتاب . أما ابن الأثير [3] فقد اقتصر على القول إنه ﷺ أرسل حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس بمصر ، ثم أضاف قائلا « فأما المقوقس فإنه قبل كتاب النبي ، ﷺ ، وأهدى إليه أربع جوار ، منهن مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ، ﷺ » . وكذلك في حياة الصحابة [4] .

أما ابن القيم الجوزي [5] فقد قال : « وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس واسمه جريج بن مينا ملك الإسكندرية عظيم القبط » ولم يذكر نص الكتاب . .

أما نص الكتاب الذي حمله حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس فهو : « بسم الله الرحمن الرحيم .. من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، فاسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 90 .
(2) ابن كثير ، الجزء الرابع ، صفحة 272 .
(3) الكامل في التاريخ ، المجلد الثاني ، صفحة 210 .
(4) الكاندهلوي ، المجلد الأول ، صفحة 117 .
(5) زاد المعاد ، المجلد الأول ، صفحة 30 .

مرتين . ﴿ **يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾[1] .

وهناك خلاف بين المؤرخين والمستشرقين الغربيين حول الكتب التي بعث بها الرسول ﷺ ، وبالذات كتابيه إلى « هرقل » و « كسرى » . فمنهم من ذهب إلى التشكيك في الواقعة برمتها ، على اعتبار أنها فكرة خيالية « فيجب بالتأكيد أن نعتبر من غير المحتمل جدا أن سياسيا رزينا مثل محمد كان يضع ، في هذا الوقت ، نصب عينيه هدفا محددا جدا هو فتح مكة ، كانت تساوره مثل هذه الفكرة الخيالية عن إسلام هرقل أو ملك فارس ممن كان القرآن العربي المبين غير مفهوم لهم بمثل ما كان الإنجيل غير مفهوم لمحمد ومواطنيه ، ولم يكن في مستطاعه أن يجبرهم أو يغريهم بمزايا يعرضها عليهم . من المشكوك فيه جدا أن محمدا فكر البتة في دينه باعتبار كونه دينا للعالم كله » . وواضح أن الذين كتبوا هذا الكلام في الموسوعة الإسلامية الميسرة نظروا إلى الرسول ﷺ كسياسي وليس كنبي ورسول ، ولذلك استبعدوا أن تساوره فكرة إسلام هرقل أو ملك فارس التي اعتبروها فكرة خيالية ، وزعموا أن القرآن غير مفهوم لهم بمثل ما كان الإنجيل غير مفهوم للرسول ومواطنيه . علما بأن الرسول لم يدعهم إلى تعلم القرآن أو قراءته ، بل دعاهم إلى عبادة الله الواحد وترك عبادة الثالوث والنار . وهو مبدأ بسيط للغاية ، وفي منتهى الوضوح . أما قولهم إنه لم يكن في مستطاعه أن يجبرهم أو يغريهم بمزايا يعرضها عليهم ، فإنه قول يؤكد ما قلناه من أنهم ينظرون إلى الرسول كرجل سياسة أو كزعيم لجماعة وليس كنبي ورسول ؛ فالأول ، أي رجل السياسة هو الذي يكتب لنظرائه يدعوهم إلى اتباعه إذا توفرت لديه القوة الكفيلة بإجبارهم إذا هم رفضوا ، أو يملك من المزايا ما فيه إغراء لهم على الاستجابة له ، وليس كذلك الأنبياء والرسل ، فهم لا يملكون لأنفسهم ولا

---

(1) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، صفحة 65 ، وانظر أيضا محمود أبو الفيض المنوفي الحسيني ، سيرة سيد المرسلين ، الجزء الثاني ، صفحة 79 .

لغيرهم نفعا ولا ضرا وإنما عليهم البلاغ والله يهدي من يشاء ، فإذا اهتدى لمس بنفسه ما في الأمر من مزايا عظيمة وفوائد جمة .

كذلك فقد كذبوا بقولهم إن الإسلام جاء من أجل العرب فقط وإنه « إذا كان بعد فتح مكة قد أعلن الحرب أيضا على أهل الكتاب ، فالغزوات التي قام بها تثبت أنه لم يكن يفكر إلا في العرب الخاضعين للحكم البيزنطي أو الفارسي ، ولا يمكن إقامة الدليل على تجاوز هذا في مشروعاته »[1] . فالثابت من القرآن الكريم والسنة النبوية أن الرسول ﷺ بعث للكافة . وأما قولهم إنه لا يمكن إقامة الدليل على أنه تجاوز هذا في مشروعاته ، فإنه قول عجيب ، بل وجدير بالسخرية ، لأنهم يرفضون تصديق أن يكون الرسول قد بعث بكتب إلى الملوك والحكام ، وهي من بين الأدلة على أن الدعوة إلى الإسلام عالمية وليست عربية ، وذلك دون أن يقدموا أسبابا معقولة تدعم رفضهم لها . وهناك من ذهبوا إلى نفي هذه الواقعة من أصلها قائلين إنها لو كانت قد حدثت حقيقة لوجد الكتابان في وثائق الدولة الرومانية ، أو على الأقل الكتاب الموجه إلى « هرقل » إمبراطور الروم . وهو سبب غريب لنفي الواقعة ، إن دل على شيء فإنما يدل على التعنت ، خاصة وأنه ليس هناك ما يمنع من أن يكون الكتاب قد فقد لسبب أو لآخر ، هذا بالإضافة إلى أن كل المصادر الإسلامية قد أجمعت على أن الرسول ﷺ بعث بكتب إلى أولئك الحكام ، وليس معنى عدم العثور على هذه الكتب التي أرسلت منذ مدة طويلة تزيد على الثلاثة عشر قرنا في وثائق الدولة الرومانية أنها لم ترسل .

ومن المستشرقين والمؤرخين من نظر إلى أمر تلك الكتب نظرة تنطوي على السخرية والتهكم إذ لم يتصوروا أن يكتب الرسول ، وهو في نظرهم الرجل البدوي الذي ليس له شأن كبير ، إلى « هرقل » إمبراطور الرومان[2] . وهؤلاء لفرط غرورهم فاتهم أن يدركوا أن مخاطبة الرسول ﷺ لأولئك الملوك والحكام بما فيهم

---

(1) هـ . ا . ر . جب وج . هـ . كالمرز ، الموسوعة الإسلامية الميسرة ، الجزء الثاني ، صفحة 956 .
(2) حيدر بامات ، مجالي الإسلام ، صفحة 51 .

« هرقل » و « كسرى » ليس بالعمل الذي يسعى المسلمون إلى ادعاء حدوثه ، لأنه ، من ناحية ، ليس إعجازا أو مغامرة فوق طاقتهم ، ومن ناحية أخرى ليس مما يمكن اعتباره شرفا يريدون أن يحظوا به . فما « هرقل » إلا حاكم من بين حكام كثر أنزل بهم المسلمون الهزائم المنكرة وسحقوا جيوشهم ، لا لشيء إلا لقصر نظرهم وضيق أفقهم وشدة عنادهم واستكبارهم . أما المقوقس « عظيم القبط » فإنه لولا كتاب رسول الله ﷺ إليه لطواه النسيان وما سمع به إنسان .

ومن هؤلاء المؤرخين الذين أظهروا تهكما ملحوظا المؤرخ الإنجليزي « ويلز »[1] الذي قال « وبينما كان هرقل يعيد النظام إلى نصابه في سوريا ، وصلته رسالة أحضرت إلى موقع أمامي للحراسة الإمبراطورية عند بصرى في جنوب دمشق ، كانت الرسالة مكتوبة بالعربية إحدى اللغات السامية ، ولابد أن أحد التراجمة تلاها على مسامع الإمبراطور – إن كانت قد وصلت أصلا – كانت الرسالة واردة من إنسان يسمى محمد رسول الله ، وهي تدعو الإمبراطور إلى عبادة الله الواحد الأحد وشهادة أن لا إله إلا الله . ولم يسجل لنا التاريخ ما قاله الإمبراطور في تلك الرسالة .

ولكن هناك من المؤرخين والمستشرقين من أقروا بالواقعة وأشاروا إليها في كتبهم ؛ منهم ل . ا . سيديو الذي قال إن كسرى مزق كتاب رسول الله بينما قابله هرقل بجواب لطيف ، وأرسل إليه عظيم مصر المقوقس ونجاشي الحبشة بعض الهدايا[2] .

ولقد شاءت الأقدار أن تظهر فجأة النسخة الأصلية للكتاب الذي بعث به الرسول ﷺ إلى « هرقل » . وذلك عام 1977 ؛ فقد أعلن الملك حسين ملك الأردن هذا الحدث قائلا إنه لم يعلن الخبر إلا بعد أن أجريت فحوص ودراسات

---

(1) موجز تاريخ العالم ، صفحة 195 .

(2) تاريخ العرب العام ، صفحة 70 .

علمية دقيقة قام بها علماء غربيون ، وقد أثبتت هذه الدراسات ، والتحاليل أن الوثيقة التي عثر عليها قد كتبت على الرقاع التي كانت مستعملة آنذاك للكتابة ، وأن نوع الحبر هو النوع الذي كان مستعملا ، وأن الخط والأقلام هي خطوط ذلك الزمان وأقلامه . وقد أودع الملك حسين هذه الوثيقة في متحف خاص[1] . ومنذ ذلك الحين لم نسمع رأي المؤرخين والمستشرقين الغربيين في موضوع الرسائل التي بعث بها الرسول ﷺ إلى « هرقل » وغيره . صحيح أن الغالبية العظمى ممن سبق أن شككوا في حدوث هذه الواقعة قد غادروا عالمنا هذا إلى العالم الآخر ، إلا أن كثيرين غيرهم حلوا محلهم في صفوف المناوئين للإسلام والمشككين فيه وسوف نسمع منهم كلاما شبيها بذلك الذي سبق لأسلافهم أن قالوه بعد العثور على كتاب رسول الله ﷺ إلى المقوقس ، فرحم الغرب لم يصبه العقم وما زال يلد الأفاعي .

ولواقعة العثور على كتاب الرسول إلى المقوقس مغزى بالغ الأهمية ، فقد عثر عليها عام 1852 في أحد الأديرة القديمة الواقعة بالقرب من أخميم بصعيد مصر . وكان الرجل الذي عثر عليها واسمه « بارتلمي » **Barthelemy** قد وجدها مصادفة حين عثر على مخطوط عربي له مظهر رث موضوع بداخل غلاف له مظهر قبطي . وعندما حاول أن ينزع الأوراق التي صنع منها الغلاف دون أن يمزقها تبين له أن الغلاف يتكون من عشرات من صفحات الإنجيل المكتوب باللغة القبطية ، بالخط القديم والتي كانت قد ألصقت إلى بعضها لكي تكون غلافا صلبا . وكان هذا الغلاف يتكون من ثلاثة أجزاء هي الغلاف الأمامي والغلاف الخلفي وهما من صفحات الإنجيل التي ألصقت إلى بعضها ، والكعب الذي يصلها ببعضها ، وكان من الجلد . ولما فتح الغلاف وجد بداخله الكتاب الذي كان من مادة الصلصال أو الفخار التي كان العرب يستخدمونها للكتابة عليها . وبمراجعة النص المكتوب تبين أنه مطابق تماما للنص التقليدي الذي نجده في كتب التاريخ الإسلامية .

---

(1) الدكتور أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، المجلد الأول صفحة 337

ولكن « بارتلمي » أضاف شيئا غريبا وهو أنه عثر على ما يثبت أن الرسول ﷺ بعث بأربع نسخ من كتابه هذا ، وهو ما أثار دهشته ، أي دهشة بارتلمي وجعله يتساءل : ولماذا يبعث بأربع نسخ ولم يكتف بواحدة خاصة وأن الرسول الذي حملها كان يستطيع ، في حالة فقده للنسخة الوحيدة ، أن يخبر المقوقس بمضمونها بطريقة شفوية ؟

كذلك أضاف قائلا إن هناك احتمالا كبيرا في أن تكون إحدى هذه النسخ قد حفظت في كنيسة البطريركية في القاهرة (كنيسة الأنبا مرقس) ، وإن كان لم يتحقق من ذلك . وقال أيضا إنه حصل على خطاب من محمد (ﷺ) يرد فيه على الخطاب الذي بعث به المقوقس إليه . وهذا يعني أن المقوقس أرسل رده على كتاب الرسول إليه وأن الرسول بعث بكتاب آخر إلى المقوقس ردا على رده !

وبعد العثور على الكتاب علق المستشرق « نولدكه » Nöldeke على الوثيقة باختصار قائلا « لقد حصلنا على أصل عاش بصورة عجيبة ، أصل لا سبيل إلى الشك في صحته » ولكن « نولدكه » المعروف بتعصبه ضد الإسلام ما لبث أن رجع عن رأيه هذا فشكك في الكتاب من ناحية المادة التي كتب عليها ومن ناحية الخط الذي كتب به ومن ناحية الخاتم الذي ختم به . وتبعه آخرون أبدوا اعتراضات أخرى لا تقل وهنا وضعفا عن اعتراضاته . منهم « كايتاني » Caetani وفرجينيا فاشا Virginia vacca . وقد رد عليهم الأستاذ محمد حميد الله الذي أورد قصة العثور على الكتاب في مؤلفه الهام الذي كتبه باللغة الفرنسية[1] فقال : إنها اعتراضات لا تبلغ حدا من الجدية يجعلنا نرفض إمكانية أن تكون الوثيقة التي عثر عليها في مصر صحيحة . ويذكر أن السلطان عبد المجيد اشترى الوثيقة وأودعها في القسم الديني من متحف السرايا في إستنبول .

وعلى الرغم من إننا لا نتمسك بكون الوثيقة التي عثر عليها « بارتلمي » هي

---

(1) Muhammad Hamidullah, Le Prophete De L' Islam. Tome 1, P. 296.

ذاتها الكتاب الذي بعث به الرسول ﷺ ، خاصة وأن أحدا من العلماء المسلمين ، وما أكثرهم ، لم يكلف خاطره ويقوم بفحصها للتأكد من حقيقتها ، غير أننا لا نحب أن نترك الموضوع قبل أن نتعرض لبعض الأمور الهامة وبالذات ظروف العثور عليه في أحد الأديرة القديمة والطريقة التي تم حفظه بها ؛ فما معنى أن توجد هذه الوثيقة في دير وليس في أي مكان آخر ؟ وما معنى أن تحفظ داخل غلاف مصنوع من عشرات الصفحات من الإنجيل مكتوبة بخط قبطي قديم ؟ معنى ذلك ببساطة أن الذين فعلوا ذلك هم من القبط وليس من غيرهم ومعناه أيضا أن الوثيقة ، من وجهة نظرهم ، لها أهمية خاصة تستحق من أجلها أن يضحوا بعشرات من صفحات الإنجيل ليصنعوا منها غلافا يحفظونها بداخله . ومعناه ثالثا أنه قد بذلت جهود للحفاظ عليه ، حيث نقل من مكانه الأول إلى أماكن أخرى إلى أن استقر في ذلك الدير القديم في منطقة أخميم . فلماذا كان كل ذلك إذا كان الكتاب ليس له قيمة أو كان غير حقيقي ؟ ثم ، وهذا هو المهم ، من هو صاحب المصلحة في تزوير الكتاب ووضعه في هذا المكان ؟ هل هم المسلمون وقد علمنا ما فيه الكفاية بشأن إهمالهم لوثائقهم الحقيقية وتفريطهم المخزي في مخطوطاتهم الأصلية ، وعدم حرصهم على حفظ ما بقي تحت أيديهم منها . أم غير المسلمين ممن برعوا في هذه الألاعيب وأتقنوا هذه الأساليب حتى تفوقوا فيها على أربابها ؟ ولكن ما هي مصلحتهم ، أو ما هي الفائدة التي ستعود عليهم ؟ إنها مجرد تساؤلات ليس إلا ، نريد منهم أن يردوا عليها قبل أن يعترضوا على المادة التي كتب عليها الكتاب والحبر والخط وما إلى ذلك . وهي الأمور التي أرادوا ، بما عرف عنهم من مكر ولؤم ، أن يشغلوا بها الناس عما هو أهم .

فالملاحظ أن كتاب الرسول ﷺ إلى المقوقس استحوذ على قدر من اهتمام المؤرخين والمستشرقين الغربيين يفوق اهتمامهم بالكتب الأخرى مجتمعة ، إلا أنه يلاحظ أيضا أن جهودهم في هذا الصدد كانت أشبه بجهود الثيران التي تدير الساقية لترفع الماء ، وما ذلك إلا لأنهم وضعوا على أعينهم عصابة التعصب ، ومضوا يتحركون في دأب يديرون ساقية البحث لترفع حقدهم على الإسلام وكراهيتهم له لتصبها على صفحات الكتب . ولقد وجدوا ضالتهم في كتاب الرسول ﷺ إلى

المقوقس دون بقية الكتب لسبب واضح هو ارتباط الكتاب بأكثر من واقعة على جانب كبير من الأهمية ، أولها حفاوة المقوقس بالرسول الذي حمل إليه الكتاب وإهداؤه الهدايا إلى الرسول ﷺ ، ومن بينها أربع جوار منهن مارية . وثانيها : تسري الرسول ﷺ بمارية هذه ، التي أنجبت له ولدا سماه إبراهيم .

وبالنسبة للواقعة الأولى ، فقد ضايقهم وأوغر صدورهم أن يقال إن المقوقس أهدى الرسول ﷺ فتيات مسيحيات ليتسرى بهن . وهذا في نظرهم عار كبير إذ كيف لمسيحي أن يرضى لمسيحية أن تعاشر عربيا ، بل ومسلما ؟ ويدعون كذبا أن الكنيسة المسيحية لم تكن تقر ذلك أبدا وبالتالي فإنه لا يتصور حدوثه !! فما الحل ؟ الحل هو نفي أن يكون هناك شخص اسمه المقوقس . ونسوا لفرط انشغالهم بالكيد للإسلام والمسلمين أن تاريخ الكنيسة حافل بما هو أشد وأنكى سواء قبل ظهور الإسلام أو بعده[1] .

أما الواقعة الثانية ، فإن نفيهم أن يكون المقوقس قد أهدى الرسول ﷺ جواري من بينهن مارية القبطية لأنه لم يكن هناك من يسمى بالمقوقس ، أنه لم تكن هناك جارية ولا ابن أنجبته اسمه إبراهيم ، وأن الأمر كله محض اختلاق . وذلك لتأكيد اتهامهم للرسول ﷺ بأنه ادعى كذبا أن الله قد أنزل عليه القرآن بواسطة الوحي ، بينما هو الذي قام بوضعه .

ومما لا شك فيه أن الرسول ﷺ بعث بكتاب إلى « المقوقس » حمله إليه حاطب ابن أبي بلتعة ، وأن المقوقس استلم الكتاب وعرف ما فيه ، سواء بواسطة مترجم أم بواسطة حاطب نفسه الذي ذهب البعض إلى أنه كان يعرف اللغة اليونانية[2] . وهو ما لا نرجحه .

ولقد ظلوا ينكرون أن يكون الرسول ﷺ بعث بكتاب إلى المقوقس ، فلما

---

(1) دكتور أحمد علي المجدوب ، العادات الجنسية لدى المجتمعات الغربية .

(2) الدكتور أحمد شلبي ، المرجع السابق ، صفحة 337 .

ظهر الكتاب أخذوا ينكرون أن يكون قد وجد شخص اسمه المقوقس ، فمنهم من راح يتساءل في سذاجة مفتعلة : من يكون المقوقس هذا ؟ هل هو زعيم ديني أم مجرد رئيس سياسي ؟ . ومنهم من لجأ إلى المراوغة والاحتيال فيما يشبه لعبة الثلاث الورقات فراح يتساءل من يكون « المقوقس » هل هو « سيروس » Cyrus الإغريقي نائب الإمبراطور وحاكم مصر ، أم « بنيامين » Benjamin البطريرك المونوفيزيتي ؟ أم شخص ثالث ؟ . فكأن صاحب هذا السؤال الساذج واحد من هؤلاء المحتالين الذين يقفون على الأرصفة المنزوية في الأماكن المزدحمة يهتفون بالمارة وهم يحركون ، على منضدة أمامهم ، ثلاث ورقات كتب على كل واحدة منها اسم وأخذوا يغرون المارة بأن يشيروا إلى الورقة التي عليها الاسم الصحيح لكي يحصلوا على الرهان أو يخسروا مبلغا من المال .

والغريب في أمر هؤلاء الناس اللئام بلا أدنى شك هذا الذي يفعلونه ، وبلا حياء ، من الكيل بكيلين للشيئين المتماثلين . فالمعروف أن الشعوب على اختلافها تخطيء أو تصحف ما يوجد لدى غيرها من أسماء الأشخاص والأماكن والأشياء ، وهو ما نفعله إلى الآن ، وما يفعلونه هم أيضا فنحن نقول « صلاح الدين » بينما ينطقونها هم « سلادين » ، ولنرجع إلى أسماء الفلاسفة والعلماء المسلمين لنرى كيف كتبوها أو نطقوها وسوف نلاحظ العجب فالكندي الفيلسوف يسمونه « الكندوس » Alkindus ، وابن رشد يسمونه « أفيروس » Averroes أما عالم التنجيم عبد العزيز القابس فيسمونه « الكابتيوس » Al Cabitius وصحفوا اسم « الرازي » إلى رازاس « Rhases » وهناك الكثير من أسماء الأماكن والمدن التي صحفوها فأصبحت مختلفة تماما عن الأسماء الأصلية[1] .

كذلك العرب غالبا ما كانوا يكتبون أسماء الملوك والقادة والزعماء الرومان بنفس الطريقة بل وأحيانا كانوا يتركون الاسم الأصلي للشخص ويطلقون علية اسما آخر ،

---

(1) زيغريد هونكه ، شمس العرب تسطع على الغرب ، الصفحات 152 ، 154 ، 169 ، 244 .

قد يكون صفة لشيء في الشخص كعاهة أو ما شابه ذلك ، مثال ذلك تسميتهم لأحد القادة الرومان باسم « الأعيرج » والقائد هو جورج الذي كان يقود أحد الجيوش الرومانية . وهو ما تغاضى عنه المؤرخون والمستشرقون طالما أن الاعتراض عليه لا يفيد في النيل من الإسلام ، بل إنهم قد يبررون الخطأ ويفتعلون الأدلة ويصطنعون البراهين للتأكيد على العلاقة بين الاسم الخاطئ والاسم الصحيح ، إذا كان في ذلك مصلحة لهم . وهو ما رأيناه في حالة « قبط » و « إيجيبتوس » حيث ادعوا وبثقة غير عادية أن الأول تصحيف للثاني وساقوا شرحا عجيبا للكيفية التي تم بها التصحيف . كل ذلك لأن لهم مصلحة في الربط بين الاسمين « قبط » و « إيجيبتوس » ، على الرغم من الاختلاف البين بينهما . أما « مقوقس » فإنها كلمة غريبة بل لقيطة ليس لها أصل في أي لغة من اللغات ولا شبيه قريب أو بعيد ، لا يدرون من أين جاء بها العرب ! فأي براءة وأي سذاجة ؟ ترى لو أنه كانت لكم مصلحة في وجود من يحمل هذا الاسم هل كنتم ستتظاهرون بالعجز والحيرة وقلة الحيلة ؟ أم كنتم ستخرجون علينا بكلام علمي منمق عن كلمة « مقوقس » وأصلها وكيف صحفت وما أضيف إليها وما حذف منها ، وعدد الذين حملوا هذا الاسم منذ أيام آدم إلى اليوم . بل إنهم لو كان لهم مصلحة في القضية المطروحة لقالوا لك : وما أهمية الاسم ؟ المهم هو الوقائع التي لعب فيها هذا الرجل دورا بارزا . ثم يسوقون إليك البراهين الموضوعية والأدلة المادية التي أجادوا اصطناعها ، والتي تجعلك ، في النهاية ، تعترف بأنه كان هناك رجل اسمه المقوقس . أما إذا كان الأمر ليس في صالحهم فإنهم يأخذونك إلى متاهات لا سبيل إلى الخروج منها ، كما سبق أن بينا .

فمن هو المقوقس ؟

فيما يتعلق بشخصية المقوقس فإن ما ورد بشأنها في الكتب القليلة التي اعترف أصحابها بوجوده لا يخلو من تناقض وغموض ، مما يدل على كذب ما يدعيه الغربيون

من إحاطتهم بأدق تفاصيل التاريخ وسبقهم في ميدان حفظ البيانات وتسجيل الوثائق فقد ذهب بعضهم إلى القول بأن « المقوقس » هو « كورش » الذي عينه « هرقل » سنة 631 بطريركا على الإسكندرية ورأسا للإدارة المدنية في وقت معا ، وأنه كان قبل ذلك أسقفا لـ (فاسيس) في القبق (القوقاز) . فالرجل[1] ، أي المقوقس ، روماني كما نرى .

أما « سيديو » فيقول « إنه كان قبطيا ، أي مصريا ، وأن المصريين كانوا بعيدي النظر بانتخابهم رئيسا في شخص المقوقس ، الرجل الماهر الداهية الذي كان عظيم مصر حين غزو « أنوشروان » إياها فكان يأخذ ضريبتها كلها لنفسه بدلا من إرسالها إلى القسطنطينية أو طيسفون (المدائن) فجمع بذلك مالا كثيرا فبدا سخيا نحو أبناء وطنه ، فزاده كرمه نفوذا ، فما كان أحد ليباري في تمثيله لجميع الأقباط ، فأرسل محمد إليه رسولا فقبل محمد هديته ، فوجد العرب فيه حليفا نافعا بعد حين »[2] . أما عن اسمه فيقول إنه كان يسمى « سيروس » .

أما « جلوب » فإنه يقول إن المقوقس كان بطريقا للأقباط في الإسكندرية يحكم مصر في تلك الأيام ، وقد اتخذ موقفا انهزاميا[3] . ولم يذكر لنا اسمه الأصلي .

وهكذا نراهم لا يعلمون إن كان اسم الرجل « قورش » أم « سيروس » Cyrus أم « مقوقس » . كذلك فإنهم لا يعلمون إن كان مصريا أم رومانيا ، وأيضا يجهلون التاريخ الذي عهد إليه فيه بحكم مصر وهل كان ذلك قبل غزو الفرس لمصر أم بعد خروجهم منها أثر هزيمة الروم لهم ؟

ففي رأي « بروكلمان » أن المقوقس كان رومانيا عينه الإمبراطور « هرقل » بطريركا على الإسكندرية وحاكما لمصر وذلك في سنة 631 . في حين أن « سيديو »

---

(1) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الأمريكية ، صفحة 99 .

(2) تاريخ العرب العام ، صفحة 129 .

(3) إمبراطورية العرب ، صفحة 50 .

يرى أنه كان قبطيا أي مصريا ، وأنه كان عظيما للقبط أثناء احتلال الفرس لمصر (619) وأنه استمر بعد خروجهم منها (628) . ومعنى ذلك أنه حكم في ظل الفرس والروم . أما جلوب ، فإنه يرى أن المقوقس كان بطريركا للأقباط في الإسكندرية .

فالخلاف بين المؤرخين والمستشرقين يدور حول ثلاثة أمور هي : المقوقس وهل هو « قيرس » أو « سيروس » أو « كورش » ، وهذه الأسماء الثلاثة تصحيف لاسم (Cyrus) البطريرك الروماني الذي عينه الإمبراطور « هرقل » حاكما على مصر ، أم هو « بنيامين » بطريرك مذهب الطبيعة الواحدة ، أم شخص ثالث ؟ والأمر الثاني مرتبط بالأول وهو : هل كان « المقوقس » رومانيا ، أم مصريا « قبطيا » ؟ . أما الأمر الثالث الذي يدور حوله الخلاف فهو : التاريخ الذي عين فيه المقوقس ، أو قيرس أو سيروس بطريركا وحاكما لمصر ؟

وفيما يتعلق باسم « مقوقس » فقد سبق أن بينا كيف أنه يمكن أن يكون تصحيفا لاسم قيرس Cyrus وذكرنا بعض الأمثلة التي أدى فيها التصحيف إلى تغيير الاسم الأصلي إلى درجة تجعله مختلفا عما انتهى إليه التصحيف . ويقول محمد حميد الله[1] إن كلمة « مقوقس » ليست عربية ولا قبطية ، ويرجح أن تكون معربة عن الفارسية ، وأن الفرس كانوا يطلقونها على البطريرك القبطي أثناء احتلالهم لمصر وأخذها العرب عنهم . فالرئيس الديني في غرب إيران كان يسمى (ماجوباتي) Magupati ومعناها رئيس المجوس . ويوجد هذا الاسم في صور أخرى منها (ماتكموجان) و (موباذ) Maupadh[2] فهل تكون « مقوقس » اسما كان يطلقه الفرس على الزعيم الديني لمصر ؟

ويقول أيضا إن العرب تقول إن « مقوقس » معناها البناء الكبير ، وإنها جاءت من الكلمة « قوس » التي تعني المعبد العالي[3] .

---

(1) Hamidullah, op. cit., p. 297 .

(2) في اللغة البهلوية : موبد (مكوبت) = الزاهد ، انظر كتاب تنسر ، أقدم نص عن النظم الفارسية قبل الإسلام ، صفحة 33 .

(3) في لسان العرب : القوس بضم القاف : رأس الصومعة ، وقيل هو موضع الراهب ، وقيل صومعة الراهب ، وقيل هو الراهب بعينه .

أما الدكتور باهور لبيب[1] فإنه يرى أن كلمة « مقوقس » هي تحريف للقب اليوناني Μεγαυχῆς الذي معناه حرفيا « عظيم الفخامة » . ويقول « ويظهر لنا أن كلمة المقوقس منحوتة من هذه الكلمة اليونانية ، لأن الجيم والقاف مخرجهما واحد عند النطق ، فميج تصبح مق و المقطع (أو) يصبح (و) والكلمة « كيس » تصبح قس وإذا أضفنا « الـ » للتعريف فتصبح المقوقس .

أما ما ذكره بعض الإخباريين العرب من أن اسم المقوقس هو « جريج بن مينا » وهو قول ابن كثير ، وأضاف إليها « القبطي »[2] . وجريج هي الشكل العربي لاسم « جريجوار » أو « جورج » ، ومينا هو اسم الملك الذي وحد الوجهين القبلي والبحري ، فإنه لم يرد في أي مصدر أنه كان هناك بطريرك بهذا الاسم . ويبدو أن المؤرخين والإخباريين العرب التقطوا اسم جريج بن مينا من مصادر غير عربية وخلطوا بينه وبين اسم بنيامين بطريرك مذهب الطبيعة الواحدة الذي عرفه العرب باسم « أبو بنيامين » ، كما في ابن عبد الحكم . وربما يكونون قد خلطوا بين جريج هذا وشخص يدعى « أبو مينا » كان مطرانا لبابليون .

وهكذا نلاحظ أن ابن كثير وغيره ممن ذكروا أن المقوقس كان اسمه « جريج ابن مينا » أو ابن ميتاهي ، أو غير ذلك قد أضافوا مزيدا من الغموض والتعقيد على شخصية المقوقس . وبقي التساؤل عما إذا كان هو « قيرس » أو « قورش » الذي عينه هرقل سنة 630 أو 631 ، بطريركا على الإسكندرية ورأسا للإدارة المدنية كما قال بروكلمان ، أم هو « سيروس » الذي تولى البطريركية أثناء احتلال الفرس لمصر واستمر في موقعه بعد عودة الروم ، كما قال « سيديو » .

والواقع أن هذين الرأيين ليسا صحيحين وذلك للأسباب الآتية :

أولا – أن قول بروكلمان إن هرقل عين « قورش » أو المقوقس في عام 631 معناه

---

(1) دراسات عن ابن عبد الحكم ، هامش صفحة 88 .

(2) البداية والنهاية ، المجلد الرابع ، صفحة 272 .

أن هذا الرجل لم يكن موجودا بمصر عندما حضر إليها « حاطب بن أبي بلتعة » في عام 628 يحمل كتاب الرسول ﷺ ، فإلى من سلم الكتاب ؟

ثانيا — أن قول « سيديو » إن « سيروس » أو المقوقس كان قبطيا ، مصريا ، وإنه استمر في كرسي البطريركية وحاكما على مصر منذ أن تم انتخابه لهذين المنصبين قبل غزو الفرس لمصر واستمر كذلك أثناء احتلالهم لها ، وبعد أن عاد الروم إليها . هذا القول وإن كان يقدم إجابة للسؤال الخاص بمن هو البطريرك الذي تسلم كتاب الرسول ﷺ إلى « المقوقس عظيم القبط » إلا أن الأخطاء التاريخية العديدة التي اشتمل عليها تمنع من التعويل عليه .

ثالثا — أن ما قاله « جلوب » يفتقر إلى التحديد حيث إنه لم يبين لنا من هو المقوقس ، وكل ما قاله إنه كان بطريقا للأقباط في الإسكندرية ويحكم مصر في تلك الأيام ، ولم يبين ما إذا كان رومانيا أم مصريا ، أو ما هو اسمه الأصلي .

وعلى ذلك فإن السؤال الخاص : بمن هو المقوقس ؟ وهل كان رومانيا أم مصريا ؟ لا يزال بدون إجابة محددة وواضحة . ولعله لا يخفى علينا ما لهذا الموضوع من أهمية كبيرة للأسباب الآتية : أنه إذا كان هناك شخص يدعى المقوقس ، الذي هو عظيم القبط ، فإن العنوان الذي حمله كتاب الرسول ﷺ يكون صحيحا ، أما إذا لم يكن هناك مثل هذا الشخص ، فإن ذلك يجعل الإجراء الذي اتخذه الرسول بإرسال كتاب لشخص غير معين ، يبدو إجراء يفتقر إلى الدقة ومشوبا بالعفوية التي تقترب من علم تقدير المسئولية ، وهو ما ننزه الرسول عنه . فقد كان ، بلا شك ، يعرف لمن يوجه خطابه ، واسمه وعمله ، حتى ولو كان الاسم مصحفا ، أو محرفا ، فقد كان ذلك من الأمور التي يتساهلون بشأنها في الماضي ، نظرا لضعف الاتصال بينهم ، أو انعدامه .

كذلك يوجد احتمال آخر ، وهو أن يكون حاطب بن أبي بلتعة ، الذي حمل كتاب الرسول إلى المقوقس ، قد سلمه لشخص آخر غير المقوقس ، ليس عظيما للقبط ، وإنما مجرد أسقف أو مطران دون أن يكتشف ذلك ، أو أنه اكتشفه ولكنه

لما عاد إلى المدينة لم يخبر الرسول ﷺ بذلك ، بل وقدم له كتابا نسبه إلى المقوقس دون أن يكون كذلك !!

ولكن ما حدث من الشخص الذي قابله حاطب بن أبي بلتعة يجعل احتمال حدوث ذلك ضعيفا ، إن لم يكن مستحيلا . فما هي الحقيقة ؟

إن التعرف على الحقيقة بشأن المقوقس : من هو ؟ وهل هو الذي استلم الرسالة من حاطب بن أبي بلتعة أم شخص آخر غيره ؟ تتطلب أن نتعرف على الأوضاع التي كانت قائمة في مصر قبل غزو الفرس لها ، وأثناء وجودهم فيها ، ثم بعد خروجهم وعودة الروم إليها مع تحديد تاريخ كل حدث على وجه الدقة نظرا لما لذلك من أهمية عظيمة .

سبق أن بينا كيف حدث الانشقاق في الكنيسة المسيحية الشرقية عقب ظهور مذهب الطبيعة الواحدة (451) . ومنذ ذلك التاريخ وأتباع هذا المذهب من السكان في مصر يستقلون بكنائسهم عن الكنائس التابعة لمذهب الطبيعتين ، ويختارون بطارقتهم بأنفسهم ، بينما تقوم الحكومة الرومانية بتعيين بطارقة الكنيسة الرسمية التي أطلق عليها مناوئوها من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة اسم الكنيسة الملكانية باعتبارها تابعة للملك أو الإمبراطور الروماني[1] .

وكان طبيعيا أن تنظر حكومة بيزنطة وكنيستها إلى هذا الوضع بقلق وعدم ارتياح ، وأن تحاول إعادة الوحدة إلى الكنيسة بكل السبل ، بما في ذلك القوة ، ولكنها فشلت ، شأنها في ذلك شأن كل من لا يواجه الفكر بالفكر . وتمثل فشلها ، لا في إصرار « المونوفيزت » على موقفهم ، بل وانضمام آخرين إليهم ، ممن كانوا يضمرون العداء للحكومة لأسباب ليس لها علاقة ، لا من بعيد ولا من قريب ، بالعقيدة ، وإنما هي أسباب ترجع إلى ما كانت هذه الحكومة تحملهم به من أعباء لا قبل لهم بها .

---

(1) William G. de Burgh. The Legacy of the Ancient World, p. 426 - 427 .

واستمر الحال على ذلك مدة قاربت على القرن ونصف القرن كانت جهود الحكومة والكنيسة البيزنطيتين قد أصابها الوهن نتيجة لما لمستاه من عناد خصومهما ، وما تحقق لمذهب الطبيعة الواحدة من انتشار ، وأدركتا أن استمرارهما في اتباع ذات الأساليب سوف يؤدي إلى مزيد من الفشل .

والواقع أن الخلاف حول طبيعة السيد المسيح ، وهل هي إلهية فقط أم إلهية وبشرية في آن معا كان محصورا بين زعماء المذهبين ، الملكاني والمونوفيزتي ، أو مذهب الطبيعة الواحدة فقط . أما من عداهم ، فإنهم لم يكونوا يفقهون معنى لهذا الخلاف ، وكل ما كان يعنيهم من الانضمام إلى هذا المذهب أو إلى ذاك هو الفائدة التي ستعود عليهم أو الضرر الذي سيتفادونه .

لذلك فإن الحكومة والكنيسة البيزنطيتين ما إن خففتا من وطأتهما على مذهب الطبيعة الواحدة[1] ، وتم تعيين بطريرك جديد للكنيسة الملكانية يتميز بالحكمة وبعد النظر ، ولين العريكة ، فضلا عن خصال أخرى كحب الخير والرحمة والعدل ، حتى أخذ الوضع يتغير بدرجة محسوسة ؛ فقد التف المصريون حول البطريرك « يوحنا الرحوم » الذي شغل كرسي البطريركية في الكنيسة الملكانية في أوائل القرن السابع ، وخصوه بحبهم واحترامهم لأنه كان يساعد المحتاج وينتصف للمظلوم من ظالمه ، بغض النظر عن التبعية المذهبية لمن يقصدونه .

كذلك فقد بادر الأغنياء والقادرون إلى التبرع للكنيسة بالأموال لكي تنفقها في وجوه الخير ، وفيهم كثيرون من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة ممن كانوا قد اكتشفوا الأساليب غير السليمة التي تتبعها كنيستهم في إنفاق ما يقدمونه لها من تبرعات . وتدلنا الثروة التي قيل إن الكنيسة الملكانية كانت تمتلكها على ما بلغه أتباعها من كثرة ؛ فقد كان لدى يوحنا الرحوم أسطول مكون من ثلاث عشرة سفينة تجارية كبيرة تنقل التجارة بين الإسكندرية وشواطئ بحر الأدرياتي ، فضلا عن كميات

---

(1) Paul Johnson, A History of Christianity, p. 87 .

كبيرة من الذهب .

ومما عرف عن هذا الرجل أنه لم يكن يقصر نشاطه في ميدان الخير على مصر فقط ، بل كان يتجاوزها إلى غيرها من البلاد . فعندما استولى الفرس على مدينة القدس وعانى سكانها من قلة الطعام أرسل إليهم ألف قطعة ذهبية وألف جوال من القمح وألف كيل من البقول الجافة وألف رطل من القديد وألف رطل من السمك المقدد وألف دون من النبيذ وألف صانع من المصريين للمعاونة في إعادة بناء المدينة . ولم يمنعه من فعل ذلك ما كان يعلمه من وجود عدد كبير من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة بين السكان .

وكان الغزو الفارسي قد أدى إلى نزوح عشرات الألوف من سوريا وفلسطين إلى مصر وكان أول وصولهم إلى شرق الدلتا ، ولكن الفرس كانوا في أثرهم فانطلقوا متجهين إلى الإسكندرية التي اندفعوا إليها كالسيل . وعندئذ لم يتردد يوحنا الرحوم في تقديم العون لهم . ولكن أعدادهم أخذت تتزايد حتى ضاقت بهم المدينة ولجئوا إلى السلب والنهب مما اضطر معه يوحنا إلى الهرب من الإسكندرية بصحبة حاكم مصر الروماني وقائد الجيوش المدعو « فبكتياس » قاصدين جزيرة قبرص ، ولم يلبث يوحنا أن مات سنة 617[1] .

والثابت تاريخيا أن الفرس استولوا على الإسكندرية عام 616 وأتموا احتلال مصر كلها عام 619 . وبطبيعة الحال فإن الحكومة الرومانية لم تعين بطريركا آخر مكان يوحنا الرحوم لأن الفرس لم يكونوا ليسمحوا له بدخول الإسكندرية مقر عمله ، بل والمرجح أنهم كانوا سيقتلونه . وهكذا بقي كرسي البطريرك الملكاني شاغرا واختفى الأساقفة والمطارنة وكل القسس ، أو فروا من مصر خوفا من الفرس ، كما لجأ أتباع المذهب إلى التظاهر بتركه ، بل والتنديد به إذا استلزم الأمر ، بعد ما تعرضوا له من إيذاء وملاحقة من جانب أتباع مذهب الطبيعة الواحدة .

---

(1) أحمد حسين ، موسوعة تاريخ مصر ، الجزء الثاني ، صفحة 373 .

فعندما دخل الفرس مصر أظهروا العطف على أنصار مذهب الطبيعة الواحدة لما يعلمونه من عدائهم لمذهب الطبيعتين ، المذهب الرسمي للإمبراطورية الرومانية ، كما حرموا هذا المذهب بأن منعوا أتباعه من ممارسة أي نشاط ديني . وكان بطريرك مذهب الطبيعة الواحدة عند دخولهم مصر يدعى الأنبا « أندرونيكوس » الذي شغل هذا المنصب في سنة 614 ، فبادر إلى التعاون معهم ، واضطهد خصومه ، ولكن بدون إسراف . فلما توفي سنة 622 قام الفرس بتعيين « بنيامين » ، فقام هذا بمعاملة أتباع المذهب الملكاني بقسوة شديدة ونكل بهم بلا رحمة [1] .

في هذه الأثناء كان الإمبراطور هرقل يعد جيوشه للثأر من الفرس واسترداد الأقاليم التي كانوا قد انتزعوها من الإمبراطورية ، واستعادة الصليب المقدس الذي أخذوه من القدس ويلاحظ أن جهود هرقل لم تقتصر على الجانب العسكري فقط ، بل شملت غيره من الجوانب وبالذات ما يتعلق بالقضاء على الانقسام الذي أصاب الكنيسة [2] ، وإعادة توحيد المذهبين . وفي أثناء الحملة التي شنها على الفرس في عام 620 تقابل مع الأساقفة المونوفيزت ومنهم أثناسيوس بطريرك المونوفيزت السوريين و (كير) أو (قيرس) أسقف فازيس (المقوقس فيما بعد) تقابل معهم في « كولخيدا » ودخل معهم في البحث بشأن القضية المختلف عليها عن طبيعتي يسوع المسيح . ويروي لنا « سميرنوف » [3] ما حدث فيقول : « فعرض عليه أساقفة المونوفيزت الفكرة بأن المونوفيزت يمكن أن يوافقوا على الانضمام إلى الكنيسة الأرثوذكسية إذا كانت تعترف بأن في المسيح يسوع فعلا واحدا ، أو إظهار إرادة واحدة فقط . وهذا الموضوع بشأن ما إذا كان للمسيح إرادة واحدة أو إرادتان لم تكن الكنيسة قد بحثته بعد . ولكن حيث إنها تعترف بأن في يسوع طبيعتين فكأنها تعترف ضمنيا بإرادتين ؛ لأن طبيعتين مستقلتين إلهية وبشرية يجب أن تحوي كل

---

(1) G. C. J. Baron Bunsen. God in History, P. 116 .

(2) ج . م . هنسي ، العالم البيزنطي ، صفحة 122 .

(3) تاريخ الكنيسة المسيحية ، صفحة 278 .

منهما عملا مستقلا ، فطالما أنه توجد فيه طبيعتان فيجب أن تكون فيه إرادتان . فإما أن يكون في المسيح طبيعة واحدة وإرادة واحدة ، أو أن يكون فيه طبيعتان وإرادتان . وهكذا يكون المونوفيزت قد أرادوا أن يستدرجوا الأرثوذكس إلى الاعتراف بالطبيعة الواحدة .

ولما كان هرقل يهدف إلى غاية محددة هي القضاء على الانقسام وعودة المونوفيزت إلى الكنيسة الأرثوذكسية في القسطنطينية فإنه لم يهتم بتمحيص الأمر وشرع بحماس يضم المونوفيزت على أساس من هذا الموضوع ، أي موضوع الإرادة الواحدة . ولكي يمهد للأمر كلف (كير) أو (قيرس) أو المقوقس أسقف فازيس بأن يوجه سؤالا بشأن الإرادة الواحدة إلى « سرجيوس » بطريرك القسطنطينية ، فأجاب هذا جوابا ملتويا حيث قال : إن المجامع لم تصل إلى حل لهذا السؤال . ولكن بعض الآباء سمحوا بالقول بأن في المسيح الإله الحق فعلا واحدا محييا . ولكنه أضاف قائلا : إنه إذا وجد عند آباء آخرين كلام أو تعليم آخر يثبت إرادتين وفعلين فيجب الموافقة على هذا التعليم .

وفي سنة 630 عين هرقل أثناسيوس المونوفيزتي بطريركا شرعيا على إنطاكية الذي وافق على الاتحاد بين الكنيستين . ويضيف « سميرنوف » وفي تلك السنة عينها عندما شغر الكرسي البطريركي في الإسكندرية أقام عليه بطريركا (كير) أو قيرس أو المقوقس أسقف « فازان » أو « فازيس » وفوضه بالتفاوض مع مونوفيزت الإسكندرية بشأن الاتحاد مع الكنيسة الأرثوذكسية وبعد عودة الاتصالات مع المونوفيزت ، وخصوصا المعتدلين نشر (كير) في سنة 633 تسعة بنود للاتفاق ، كان البند السابع منها خاصا بالتعليم عن الإرادة الواحدة في المسيح وهو مطلب المونوفيزت . فالمونوفيزت المعتدلون وافقوا على هذه البنود وشرعوا ينضمون إلى (كير) أما المتعصبون فرفضوا [1] .

---

(1) تاريخ الكنيسة المسيحية ، المرجع السابق ، صفحة 279 .

فإذا كان الأمر كذلك وكان الخلاف قد انتهى ورضخت الكنيسة البيزنطية واعترفت بأن المسيح له إرادة واحدة وطبيعة واحدة فلماذا بادر « بنيامين » إلى عقد اجتماع في مدينة الإسكندرية لما بلغه مقدم « قيرس » أو « المقوقس » إلى مصر ، وعن المهمة التي كلفه بها هرقل وهي العمل على طمأنة أتباع مذهب الطبيعة الواحدة وإحاطتهم علما بما استقر عليه الرأي بشأن الطبيعة الواحدة والإرادة الواحدة ، وكيف أنهم انتصروا على خصومهم .

إن ما حدث هو بكل المقاييس مفاجأة . ذلك لأن « بنيامين » بدلا من أن يزف البشرى لأتباعه ، إذا به يلقي فيهم خطابا دعاهم فيه إلى الثبات على عقيدتهم حتى يوافيهم الموت وكتب إلى الأساقفة يأمرهم بالهجرة إلى الجبال والصحارى إلى أن يزول الخطر . ثم قام بعد ذلك بمغادرة الإسكندرية إلى الصعيد حيث اختفى !! فيم كل هذا[1] ؟ وماذا كان سيصنع غير هذا لو أن هرقل أعلنه بالحرب وتوعده بالويل والثبور ؟ إن الرجل لم يفعل إلا ما كان « المونوفيزت » أنفسهم يطالبون به ، فماذا كان بنيامين يريد أكثر من ذلك . ونتوقف هنا لنبحث في أمرين : الأول السبب الذي جعل « بنيامين » يتصرف بهذه الطريقة الغريبة . والثاني : التاريخ الذي حدث فيه ذلك .

وفيما يتعلق بالسبب الذي جعل « بنيامين » يختفي بعد أن نصح أتباعه بالفرار فهو بكل وضوح خوفه من انتقام الرومان بسبب خيانته لهم وما أنزله بأتباع المذهب الملكاني من صنوف التعذيب والاضطهاد . لذلك فإنه ما إن رأى الفرس يتركون مصر وسمع بنبأ تعيين « قيرس » بطريركا وحاكما حتى تملكه الذعر . ولم يهمه في كثير أو في قليل ما استقر عليه الرأي من اعتراف كنيسة بيزنطة بأن المسيح له إرادة واحدة وطبيعة واحدة ، فما له هو وهذا الأمر إنما الذي أهمه هو حياته ومنصبه ، إنه

---

(1) انظر ى . ا . بليايف ، العرب والإسلام والخلافة العربية ، صفحة 30 الذي أرجع عداء بطريرك الإسكندرية وغيره من البطارقة لبطريرك القسطنطينية إلى حسدهم له وطمعهم في منصبه لما يدره من أموال كثيرة وما يحيط به من أبهة .

يريد أن يبقى حيا وزعيما لأي عدد من الناس يصدقون ما يقوله لهم : طبيعة أو اثنتين أو حتى ثلاثة . لذلك فإنه وقد تشبث بمنصبه اختار رجلا يدعى أجاثون Agathon ليحل محله ، فتنكر هذا في زي مدني ، وكان يمارس التجارة ويقوم بزيارة أتباع المذهب سرا بعد أن يرخي الليل سدوله [1] .

كذلك فإن بنيامين كان يخشى انتقام المصريين أنفسهم منه ، ليس أتباع المذهب الملكاني فقط ، بل وأتباع المذاهب الأخرى الذين نكل بهم أثناء الاحتلال الفارسي . ونتساءل هنا : هل لو كانت المونوفيزت (مذهب الطبيعة الواحدة) أغلبية ، كما تزعم بعض الكتب ، هل كان زعيمهم يتصرف بهذه الطريقة فيختفي بعد أن ينصح أتباعه بالفرار ؟ بالقطع لا . إذن فتصرفه هذا يدل على أن أتباعه كانوا قلة لا يعتد بها ، خاصة بعد أن زال الخلاف بين المذهبين ووجد من كانوا يتبعونه أنه لم يعد هناك ما يبرر مناوأة الرومان ، أو بالأحرى الكنيسة الملكانية .

وهناك فضلا عن ذلك سبب آخر على جانب كبير من الأهمية وهو تحالف « بنيامين » مع الفرس أعداء المسيح ، والذين استولوا على صليب الصلبوت من القدس ، فهذا التحالف كان له أسوأ الأثر في نفوس المسيحيين ، حتى من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة الذين أحسوا أن هذا التحالف لا يضر بالدولة الرومانية فقط ، بل ويضر بالمسيحية ذاتها .

وبطبيعة الحال فإنه لم يكن يوجد وراء تصرفات « بنيامين » وأنصاره ما يسمى بـ (الدافع الوطني) أو (القومي) ، فمثل هذا الدافع كان قد اختفى تماما منذ العهد البطلمي وهو ما سوف نوضحه في الفصل الأخير من هذا الكتاب .

فما هو التاريخ الذي حدث فيه ذلك ؟

الثابت تاريخيا أن الفرس تركوا مصر والإسكندرية عام 627 ، وبطبيعة الحال فإن « بنيامين » رآهم بعينيه وهم يرحلون وكان ذعره يزداد يوما بعد يوم لإدراكه

---

(1) Hamidullah, op. cit, p. 392 .

أن هذا الرحيل سوف يتبعه عودة الروم ومجيء « قيرس » أو سيروس . وبالنظر إلى ما يكتنف الفترة الزمنية التي دارت فيها الحروب بين الفرس والروم من غموض ، لا ندري إن كان متعمدا أم لا ؟ حيث إن ما ورد بشأنها في كتب التاريخ لا يزيد في أغلب الأحوال عن فقرة أو فقرتين ، وقد يصل إلى صفحة . فإننا سنحاول تتبع سير المعارك وتحديد تواريخها توصلا إلى تحديد التاريخ الذي وصل فيه المقوقس إلى الإسكندرية . وهل هو سابق أم لاحق لوصول حاطب بن أبي بلتعة إليها حاملا كتاب الرسول ﷺ إلى المقوقس .

يقول « لانجر » [1] إن هرقل بدأ حروبه الثأرية ضد الفرس ابتداء من عام 622 ، وأحرز نصرا حاسما في وقعة نينوى (12 ديسمبر) 627 مكنه من الزحف على المدائن سنة 628 . بينما يقول « ويلز » [2] إن هرقل ظل ردحا من الزمن يتجنب الدخول في معركة كبيرة أثناء جمعه قواته ثم تقدم إلى الميدان بكل جد في عام 623 فلقي الفرس على يديه سلسلة من الهزائم كللت بمعركة نينوى عام 627 . ونجد في مرجع ثالث [3] إضافة توضح بعض الشيء سير المعارك بين هرقل والفرس حيث ورد أن أول هزيمة ألحقها هرقل بالفرس أسفرت عن استيلائه على قليقية ففصل بذلك آسيا الصغرى عن بلاد الشام وأرغم الفرس على الانسحاب من الغرب . وفي السنة التالية (624) اندفع نحو « ميديا » مباشرة فاستولى عليها . أما « ديورانت » [4] فيقول إن هرقل أبحر بأسطول إلى البحر الأسود ثم اخترق « أرمينية » وهاجم بلاد الفرس من خلفها ودمر « كلورمية » مسقط رأس زرا دشت وأطفأ نارها المقدسة الخالدة عام 624 . ويقال إن الفرس لما هزموا في نينوى عام 627 بادروا إلى الانسحاب من البلاد التي كانوا قد احتلوها ومن بينها مصر .

---

(1) موسوعة تاريخ العالم ، المجلد الثاني ، صفحة 478 .
(2) معالم تاريخ الإنسانية ، المجلد الثالث ، صفحة 743 .
(3) تاريخ العالم ، المجلد الرابع ، صفحة 692 .
(4) قصة الحضارة ، الجزء الأول ، المجلد الرابع ، صفحة 296 .

إذن فالثابت أن الجيش الفارسي غادر مصر عام 627 ، أي قبل وصول حاطب ابن أبي بلتعة الذي يلاحظ وجود خلاف حول التاريخ الذي حضر فيه إلى مصر حاملا كتاب رسول الله ﷺ إلى المقوقس . ولما كان قد قيل إن الرسول بعث بكتبه إلى الملوك والحكام في وقت واحد ، ومن بينهم كسرى ، فإن ابن سعد يجزم بأن بعث عبد الله بن حذافة إلى كسرى كان في سنة سبع في زمن الهدنة التي أعقبت الحديبية . ويقول ابن حجر الهيثمي في فتح الباري إن صنيع البخاري يقتضي أن يكون بعث عبد الله بن حذافة في سنة تسع للهجرة ، فإنه ذكره بعد غزوة تبوك . وقد ذكر أهل المغازي أنه ﷺ لما كان بتبوك كتب إلى قيصر وغيره . ويقول ابن حجر إن كتابه ﷺ إلى قيصر هذه المرة غير المرة التي كتب إليه مع دحية الكلبي فإنها كانت في زمن الهدنة كما صرح به في الخبر وذلك في سنة سبع [1] .

ويذهب الاستاذ محمد حميد الله إلى أن التاريخ الذي حضر فيه حاطب إلى مصر يوافق (مايو – يونيو) 628 [2] ، على اعتبار أن ذلك كان في السنة السابعة للهجرة وهو ما سوف نتخذه أساسا لمناقشته فيما قاله ، على الرغم من وجود احتمال كبير في أن يكون حضور حاطب في السنة التاسعة للهجرة الموافقة لسنة 630 للميلاد . ولكن ، حتى لو أننا اعتبرنا بحضوره في السنة السابعة (628) فإنه ليس هناك ما يمنع من أن يكون « قيرس » قد حضر إلى مصر عقب خروج الفرس منها . ولقد أدهشنا من الأستاذ حميد الله ، أنه على الرغم من إقراره بأن مجيء حاطب بن أبي بلتعة إلى الإسكندرية كان بعد بضعة شهور من خروج الفرس من مصر ، غير أنه مضى إلى القول « ويبدو أن حاكم المدينة (يقصد الرسول ﷺ) لم يكن يعرف اسم حاكم مصر ، لذلك جعل عنوان الرسالة الموجهة لمصر « إلى المقوقس عظيم القبط » حملها حاطب بن أبي بلتعة الذي ربما كان يعرف مصر . ويقول السهيلي إنه قد اصطحب معه شخصا يدعى جبر كان مسيحيا ولما أسلم أعتق . ويضيف

---

(1) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، المجلد السابع ، صفحة 734 .

(2) Hamidullah, op. cit, p. 292 .

في موضع آخر قوله « ويمكننا أن نتخيل الذعر الذي أصاب البطريرك القبطي في هذه اللحظة ، عندما وصل مبعوث النبي وسلم إليه رسالة يدعوه فيها إلى الإسلام . ففي هذه الحالة لا يمكن أن ننتظر من البطريرك أن يترك دينه ويعتنق دينا آخر ، لا يكاد يعرف عنه شيئا » [1] . وفي موضع ثالث يطرح الأستاذ حميد الله افتراضا ثالثا هو أن يكون حاطب بن أبي بلتعة قد قابل الرجل الذي خلف البطريرك بنيامين بعد أن هرب من الإسكندرية ويتساءل : فهل قابل مبعوث النبي مطرانا وليس البطريرك ؟

وهكذا نلاحظ أن الأستاذ حميد الله مضى ينتقل من افتراض إلى افتراض آخر حتى بدا أخيرا وكأن الافتراض الأول قد أصبح حقيقة ، وهو أن المقصود بـ (عظيم القبط) بنيامين وليس قيرس أو (كير) . ذلك أنه بعد أن افترض أنه لم يكن بالإسكندرية غير بطريرك واحد هو بطريرك المونوفيزت بنيامين عاد ليفترض أن الرسول ﷺ لم يكن يعرف اسم الشخص الذي بعث إليه بالكتاب فوصفه بأنه عظيم القبط لكي تصادف أي إنسان يعتبر نفسه أو يعتبره انصاره كذلك عند وصول الرسالة . ونسي حميد الله أن (عظيم القبط) تسبقها كلمة المقوقس ، أو لعله لم ينسها ، حيث أنه سبق له أن افترض أن تكون كلمة فارسية أطلقها الفرس على عظيم القبط في وقتهم ، وهو بنيامين الذي خلف أندرونيكوس . ثم افترض أن حامل الرسالة ، أي حاطب بن أبي بلتعة لم يقابل بنيامين الذي كان قد هرب ، وإنما قابل الذي خلفه والذي يدعى أجاثون . ونسي الأستاذ حميد الله تماما أنه قال إن حاطبا وصل إلى الإسكندرية بعد بضعة شهور من رحيل الفرس عنها وعن مصر كلها ، وعلى الرغم من إسرافه الملحوظ في اللجوء إلى الافتراض ، إذا به فجأة يصبح مقترا فيأبى أن يفترض أن يكون الروم قد عادوا ومعهم قيرس بعد خروج الفرس ، وأن يكون حاطب قد قابل المقوقس الحقيقي وليس بنيامين أو الرجل الذي خلفه وراءه .

وفيما يتعلق بتساؤله : هل قابل مبعوث النبي مطرانا وليس بطريركا ؟ نقول له :

---

(1) Ibid, 293 .

بل قابل بطريركا هو المقوقس الحقيقي الذي يحمل اسم Cyrus أي سيروس أو قيرس أو كير أو ما شئت من الأسماء المصحفة التي اختلفت حتى في كتب المؤرخين والمستشرقين الغربيين أنفسهم .

وسوف يتساءل البعض : كيف ؟ والرجل ، أي قيرس ، لم يعين إلا في عام 630 في قول ، وفي عام 631 في قول آخر . ولقد سبق أن قلنا إنه وإن كان عام تسعة للهجرة الذي يذهب البعض إلى أنه هو العام الذي بعث فيه الرسول بكتبه إلى الملوك والحكام ومن بينهم المقوقس– يوافق عام 630 للميلاد الذي ذهب رأي إلى أنه هو العام الذي عين فيه « كير » أو « قيرس » بطريركا للإسكندرية وحاكما على مصر مما يمكن معه القول إن حاطبا كان بمقدوره أن يقابل المقوقس الحقيقي وليس بنيامين أو أجاثون . غير أننا سنلتزم في بحثنا بالرأي الذي ذهب إلى أن الكتاب أرسل إلى المقوقس في عام سبعة للهجرة . وبناء على ما قيل من أن تعيين المقوقس كان في سنة 631 فإن هذا يعني أنه قد مضت ثلاثة أعوام بين حضور حاطب ومجيء المقوقس إلى مصر ، أو إلى الإسكندرية على سبيل التحديد ، ليس ذلك وحسب ، بل إن اجتماع بنيامين وأتباعه في الإسكندرية كان في ذات العام أي 631 أيضا . ونحن نسأل هذا البعض كما نسأل أيضا الذين زعموا أن قيرس لم يعين إلا في عام 631 وإن اجتماع بنيامين بأتباعه كان في ذلك العام أيضا : إذا كان الفرس قد غادروا مصر عام 627 فهل ظلت بلا حكومة حتى عام 631 أي لمدة خمسة أعوام ؟ أم إنه كانت هناك حكومة تباشر مهامها في الخفاء ؟ وكيف رضي الرومان بهذا الوضع ؟

إننا لو قبلنا هذا الفرض ، أو الزعم بمعنى أصح ، الذي لم يرد بشأنه شيء فيما ذكرته كتب التاريخ عن هذه الفترة لكان من حقنا أن نسأل « أصحاب الحق » ذوي الدماء النقية : لماذا وقد خلت مصر ، ميراثكم ، من كل من الفرس والروم لم يبادر أسلافكم إلى إقامة حكومة (وطنية) والإسراع بإعداد جيش قوي يستطيع أن يحول دون عودة الرومان ؟ أم أن أسلافكم لم يكونوا على وعي بكونهم « أصحاب الحق » وأن دماءهم نقية ؟ . لقد كانوا أغلبية بل وأغلبية عظمى ، كما زعمتم ، وكانوا على استعداد للتضحية بأنفسهم وبما يملكون من أجل ما يعتقدون ، وهو ما قيل إنهم

فعلوه ، فهل كان « الاستقلال » واسترداد مجد الوطن ورفض الخضوع للرومان من بين ما يعتقدون أم لا ؟ .

إن الوقائع ، بغض النظر عن التواريخ التي لا يدري أحد مدى دقتها تقول وبوضوح شديد إنه أعقب خروج الفرس من مصر إصابة بنيامين بالذعر ودعوته إلى عقد اجتماع . والفرس خرجوا من مصر عام 627 . فهل « عقب » تعني انقضاء أربع أو خمس سنوات قبل أن يحدث الخروج أثره ويظهر الذعر على بنيامين ؟ وهل سمع أحد أن دولة كانت تحتل إقليما ثم انتزعته منها دولة أخرى ، ومع ذلك فإنها لما جلت عنه تلكأت الدولة الأولى في العودة إليه لمدة أربع سنوات ، تركته أثناءها بلا حكومة أو جيش ؟ بل والأغرب من هذا ما فعله زعيم الأغلبية الساحقة من السكان الذي ظل كل هذه المدة ينتظر بينما ذعره يتنامى يوما بعد يوم إلى أن بلغ الذروة فبادر إلى الفرار ونصح أغلبيته الساحقة بأن تحذو حذوه تاركا (وطنه) للمغتصبين دون أن يفكر في أن يبذل من أجله قطرة عرق وليس قطرة دم ؟

كذلك فقد قيل إن الإمبراطور هرقل سعى بجد إلى القضاء على الانقسام الذي كانت الكنيسة والدولة تعانيان منه ، وذلك أثناء استعداده لخوض المعركة الفاصلة مع الفرس ، وأن لقاءه مع « قيرس » أو « كير » وغيره من البطاركة المونوفيزت كان يهدف إلى تحقيق الوحدة الدينية لكي يتمكن من مواجهة عدوه . فالمنطق يقضي بأنه حالما يغادر الفرس مصر ، وكان ذلك قبل أن ينزل بهم الهزيمة النهائية ، يكون عليه أن يبادر إلى استردادها والبدء في تنفيذ الاتفاق الخاص بوحدة الإرادة ووحدة الطبيعة لدى المسيح ، على الأقل من أجل ضمان ولاء السكان في مصر والحيلولة دون تعاونهم مع الفرس مرة أخرى ، إذا قدر لهؤلاء أن يعودوا إلى مصر مرة أخرى ، أو حتى مجرد تقديم العون لهم في صراعهم مع الرومان ، لا أن يترك مصر بلا جيش أو حكومة أو قيادة دينية لمدة تزيد على أربعة أعوام وهو لا يدري إن كانت ستبقى هادئة ساكنة تنتظر عودته إليها أم ستثور وتتمرد وتوجه إليه ضربة من الخلف أثناء استعداده لخوض المعركة الفاصلة مع الفرس ؟

أما قول « سميرنوف » [1] إنه لما شغر الكرسي البطريركي في الإسكندرية عام 630 أقام هرقل عليه « كير » أو قيرس وفوضه بالتفاوض مع مونوفيزت الإسكندرية بشأن الاتحاد مع الكنيسة الأرثوذكسية ، فإنه قول يفتقر إلى التحديد ، فهو لم يبين ما إذا كان كرسي البطريركية مشغولا ببطريرك آخر تولاه من بعد خروج الفرس وحتى سنة 630 أم أنه كان شاغرا منذ رحيل يوحنا الرحوم . فإذا كان يقصد هذا المعنى الأخير فإنه ينطبق عليه ما قلناه بشأن ترك مصر بلا حكومة أو قيادة دينية لمدة ثلاث سنوات ، أي من خروج الفرس إلى تعيين قيرس . أما إذا كان يقصد المعنى الأول وهو أن كرسي البطريركية لم يكن شاغرا بل كان عليه بطريرك مات أو عزل قبل تعيين « كير » فما هو اسم هذا البطريرك ؟ ومتى كان تعيينه ؟ وكيف كانت نهايته ؟ ثم كيف تمكن من العمل في الإسكندرية دون جيش يشد أزره ، خاصة وأنه كان يواجه خصوم الحكومة والكنيسة من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة ؟ وماذا كان موقفه من بنيامين ؟ وموقف بنيامين منه ؟ خاصة وأنهم يزعمون أن بنيامين كان في الإسكندرية حتى عام 631 .

كل هذه الأسئلة ليس لها إجابات فيما كتب عن تلك الفترة الهامة من التاريخ ، ولكن ليس معنى ذلك أنه لا توجد لها إجابات عند من يعرفون الحقائق ولكنهم يحرصون على إخفائها لأن ظهورها ليس من مصلحتهم فقد روجوا الأكاذيب عن الاضطهاد والظلم والتشرد في الصحراوات والجبال هربا ممن ؟ هربا من أناس تنازلوا عن مذهبهم واعتنقوا مذهب الطبيعة الواحدة وقبلوا شروطهم وبعثوا إليهم برجل منهم مونوفيزتي مثلهم فإذا بهم يرفضون التعامل معه حتى قبل أن يلتقي بهم وفروا من ذنب عظيم ليس له علاقة بالمرة بالعقيدة أو بالملة ، و لم يكتفوا بهذا بل شوهوا صورة الرجل أمام العالم وادعوا عليه بما لم يفعله .

والذي نرجحه ، ولا يوجد ما يدحضه ، أن الجيش الروماني عاد إلى مصر

---

(1) تاريخ الكنيسة المسيحية ، صفحة 279 .

عام 627 عقب خروج الفرس منها وليس هناك أدنى شك في أن المقوقس كان بصحبة هذا الجيش بعد أن عينه الإمبراطور هرقل بطريركا للكنيسة الملكانية ورئيسا للإدارة المدنية (الحكومة) ، وهي المرة الأولى التي يتم فيها الجمع بين هذين المنصبين . وقد فعل هرقل ذلك لكي يتمكن المقوقس من تنفيذ السياسة الجديدة التي تهدف إلى إعادة الوحدة إلى الكنيسة بعد أن قبلت كنيسة بيزنطة ما طالب به البطارقة المونوفيزت ومنهم المقوقس نفسه الذي جاء تعيينه بطريركا للكنيسة الملكانية على خلاف العادة ، بل وقوانين الكنيسة الأرثوذكسية التي لا تسمح بتولي بطريرك مونوفيزتي رئاسة كنيسة أرثوذكسية ، ولكنها قبلت ذلك رغبة منها في رأب الصدع وتصفية الخلافات بين المذهبين ؛ مذهب الطبيعة الواحدة ومذهب الطبيعتين .

ولو أن تعيين المقوقس اقتصر على الوظيفة الدينية فقط لقلنا إنه يحتمل أن يكون حضوره إلى مصر قد تأخر لمدة سنتين أو ثلاثة بعد عودة الإدارة المدنية والجيش الرومانيين ، ولكن الرجل عين رئيسا للحكومة أيضا مما يحتم عليه أن يكون في مقدمة العائدين .

كذلك فإنه لم يكن هناك بطريق آخر في الإسكندرية لا ملكاني ولا مونوفيزتي بعد هروب بنيامين إلى أسيوط وبقائه مختفيا عن الأنظار خوفا من القبض عليه ومحاسبته عما فعله أثناء الاحتلال الفارسي . أما السواد الأعظم من أتباع المذهب ، وهم الذين لم تمكنهم ظروفهم من الفرار ، فإنهم ما لبثوا أن انضموا إلى المقوقس بعد أن علموا أن موضوع الخلاف قد انتهى ، دون أن يبحثوا فيما كان يدور حوله الخلاف ؛ لأنهم كانوا يدركون أنه يبلغ درجة من الغموض والتعقيد إلى الحد الذي يعجزون معه عن فهمه . لذلك أصبح المقوقس عظيما للقبط بالفعل وليس بالقول يتكلم باسمهم ويدافع عن مصالحهم ويشترط من أجلهم دون أن يعترض عليه أحد أو ينافسه إنسان ، ولم لا وهو مونوفيزتي أصيل ؟

وسواء أخذنا بما قيل من أن بعث الرسول ﷺ بكتابه إلى المقوقس عظيم القبط كان في السنة السابعة ، أو أخذنا بالقول الآخر وهو إنه كان في السنة التاسعة ، ففي

كلا التاريخين كان المقوقس موجودا بالإسكندرية يدير شئون مصر ويرأس كنيستها التي وإن كانت أرثوذكسية (ملكانية) إلا أنها تتبع مذهب الطبيعة الواحدة . وفي وصف حاطب بن أبي بلتعة للكيفية التي قابل بها المقوقس الدليل على أن الرجل كان في حالة من الطمأنينة لا يعاني من خوف أو ذعر ، يقيم في قصره المطل على البحر يحيط به أعوانه . فقد قال حاطب إنه « لما وصل الإسكندرية وجد المقوقس في مجلس يشرف على البحر ، فركب البحر ، فلما حاذى مجلسه أشار بكتاب رسول الله ﷺ بين إصبعيه ، فلما رآه أمر بالكتاب فقبض ، وأمر به ، فأوصل إليه [1] .

لقد قرأ المقوقس الكتاب ، وكان أول ما قرأه كلمات « المقوقس » و « عظيم القبط » . وسوف نفترض أنه تغاضى عما في اسمه من خطإ ، لأنه لم يكن يسمى المقوقس . فهل يمكن أن نتصور أن يكون قد تغاضى أيضا عن وصفه بـ (عظيم القبط) ؟ بينما هو ليس كذلك ، وإنما حاكم روماني غريب ورئيس للكنيسة الملكانية ، بينما القبط ، كما يزعمون ، هم أتباع مذهب الطبيعة الواحدة المعارض لمذهب الطبيعتين ، الذي سنفترض أنه كان لا يزال مذهب الكنيسة الملكانية أم أنه كان سيثور في وجه حامل الرسالة لهذه الإهانة التي لحقته ، أو على الأقل يلفت نظره في حزم إلى هذا الخطإ الذي مس كرامته وحط من شأنه إذ أنزله من درجة الحاكم العام لمصر إلى مجرد زعيم لمذهب أو رئيس لفئة أو لجماعة معارضة . هذا بالإضافة إلى ما في وصفه بعظيم القبط (باعتبار القبط هم أتباع مذهب الطبيعة الواحدة) ، من شبهة التهكم أو السخرية ، لأنه ليس عظيما للقبط أو زعيما لمذهبهم .

ولكن المقوقس لم يغضب أو يلفت نظر حاطب بن أبي بلتعة إلى أن هناك خطأ ، بل رحب به وطيب خاطره بكلام رقيق ورده إلى بلده محملا بالهدايا . وهذا يدل على أن الصفة (عظيم القبط) كانت صحيحة . فهو فعلا رئيس القبط ، كل القبط ، أي سكان مصر جميعا مونوفيزتيين وملكانيين ونبطا وفينيقيين وقليقيين

---

(1) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، صفحة 65 .

وسوريين وفلسطينيين ويهودا ومن أي ملة أو مذهب ، وليس رئيسا أو عظيما للمونوفيزتيين فقط ، حتى ولو لم يكونوا على خلاف معه .

كذلك فإنه ليس من المتصور أن نبيا يدعو حاكما إلى اعتناق الدين الذي يدعو إليه يخاطبه بطريقة فيها مساس بتشخصه أو بصفته ، أو تنطوي على انتقاص من سلطانه وهيبته . ولنا أن نتصور ما يمكن أن يحدث لو أن ملكا أو حاكما بعث بكتاب إلى رئيس الولايات المتحدة يصفه فيه بأنه رئيس الهنود الحمر ، أو كتب إلى ملكة إنجلترا يصفها بأنها رئيسة حزب العمال ، أو حتى حزب المحافظين ، أو أنها عظيمة السكسون أو النورمانديين ، لا شك فيما سيؤدي إليه هذا التصرف من ردود أفعال بالغة السوء .

أما لو أن أتباع مذهب الطبيعة الواحدة كانوا هم كل القبط لكان زعيمهم « بنيامين » هو عظيم القبط وليس المقوقس . ولكن الرجل كان هاربا ، كما ذكرنا ، فلم يكن بوسع حاطب أن يقابله . أما « أجاثون » الذي أنابه عنه أثناء اختفائه فلا نظن أنه هو الذي رآه حاطب في مجلس يشرف على البحر ، لأنه هو الآخر كان يعيش متخفيا ، ولو كان بمقدوره أن يقيم في قصر يشرف على البحر بحيث يراه الناس كما رآه حاطب ، لكان بنيامين أولى بهذا .

ويلاحظ على ما كتبه المؤرخون والإخباريون العرب أنه لم يرد به شيء يشير ، لا من بعيد ولا من قريب ، إلى أن أتباع المذهب المونوفيزت كانوا يشكلون أي أغلبية بين السكان ، بل لم يرد لهم ذكر إلا في مواضع قليلة للغاية . أما كل الكلام فكان عن « القبط » بمعنى سكان مصر جميعا ، فيما عدا الروم واليهود . ولذلك فإنه لما عقد الصلح بين عمرو بن العاص والمقوقس بعد معركة بابليون اشترط أن يدفع القبط خاصة ، دون الروم واليهود : « أن يفرض عن كل نفس ديناران ، شريفهم ووضيعهم ، من بلغ الحلم ، ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ، ولا النساء شيء ، فبلغ عدد من تجب عليهم ستة آلاف ألف نفس (ستة ملايين) كانت فريضتهم يومئذ اثني عشر ألف ألف دينار

في كل سنة [1] أي اثني عشر مليونا . أما اليهود فقد بلغ عدد من فرضت عليهم الجزية أربعين ألف يهودي ، أما الروم فكانوا ستمائة ألف سوى النساء والصبيان ، فرضت عليهم الجزية أيضا [2] . فإذا صح ما يدعيه أصحاب الدم النقي من أنهم كانوا هم القبط وغيرهم لم يكونوا كذلك ، فأين الإغريق المتمصرون ، والمصريون المتأغرقون والنبط والشوام والفينيقيون والمالطيون والإيطاليون والأحباش وغير هؤلاء وأولئك ممن استوطنوا مصر على مر السنين .

والدليل على ذلك أن المقوقس أو « قيرس » كان يتفاوض مع عمرو بن العاص باسم الروم والقبط معا ، وأن زعماء القبط كانوا معه في حصن بابليون يشاورهم ويشيرون عليه فهو إذن عظيمهم . وإلا فكيف يقبلون بتمثيله لهم ورئاسة وفدهم الذي يفاوض المسلمين كذلك فإنهم لما رضوا بأداء الجزية كان الشخص الذي أعلن ذلك هو المقوقس . فلما رفض « هرقل » الصلح وبعث إلى المقوقس خطابا شديد اللهجة يؤنبه فيه على خضوعه لشروط المسلمين أبلغ المقوقس عمرو بن العاص بذلك وقال له إنه وإن كان الصلح لن يسري على الروم إلا أنه سيظل ساريا على القبط : « وإنما سلطاني على نفسي ومن أطاعني ، وقد تم صلح القبط فيما بينك وبينهم ، ولم يأت من قبلهم نقض ، وأنا متم لك على نفسي ، والقبط متمون لك الصلح الذي صالحتهم عليه ، وعاهدتهم ، وأما الروم فأنا منهم بريء ، وأنا أطلب إليك أن تعطيني ثلاث خصال . قال له عمرو : ما هن ؟ قال : لا تنقض بالقبط ، وأدخلني معهم ، وألزمني ما لزمهم ، وقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ما عاهدتك عليه ، فهم متمون لك على ما تحب ، وأما الثانية : إن سألك الروم بعد اليوم أن تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئا وعبيدا ، فإنهم أهل لذلك ، لأني نصحتهم فاستغشوني ، ونظرت لهم فاتهموني ، وأما الثالثة : أطلب إليك إن أنا مت أن تأمرهم يدفنوني في أبي يُحنس بالإسكندرية [3] .

---

(1) فتوح مصر والمغرب ، صفحة 103 .

(2) المرجع السابق ، صفحة 121 .

(3) فتوح مصر والمغرب ، صفحة 105 و 106 .

فهل هذا كلام رجل يكره القبط ويقتلهم وينكل بهم ؟ أم كلام رجل يحبهم ويخاف عليهم ولا يرضى أن يروحوا ضحايا لحرب ضروس لا تبقي ولا تذر ؟ ثم كيف يجرؤ على أن يطلب من عمرو بن العاص أن يدفنه القبط في كنيسة أبي يحنس بالإسكندرية وهو الذي كان قد نكل بهم وقتلهم فأصبحوا يكرهونه أشد الكراهية ؟ هل سمع أحد بمثل هذا ؟ رجل يعهد إلى أشد أعدائه بأن يدفنوه ، وأين ؟ في كنيستهم ؟

وللمرة الثانية ، أو الثالثة نسألهم : إذا كان أتباع مذهب المونوفيزت ، أو كما يقولون عن أنفسهم « القبط » هم الأغلبية العظمى في مصر فلماذا لم يبرز بطريقهم « بنيامين » ليفاوض العرب ، بدلًا من أن يظل هاربا في الصحراء ؟[1] ولماذا لم يعلنوا رفضهم أن يفاوض المقوقس العرب باسمهم لأنه عدوهم اللدود ، وأن يختاروا شخصا آخر غير البطريق الهارب ليرأس وفدهم في المفاوضات . أم أن الأقباط الذين كانوا في الحصن مع المقوقس لم يكن فيهم أحد من المذهب اليعقوبي ، وإذا كانت الإجابة بنعم ، فلماذا سموا أقباطا ؟

الحقيقة أن الجميع كانوا أقباطا أي مصريين يستوي في ذلك من كان من أتباع المذهب اليعقوبي ومن كان من أتباع المذهب الملكاني ، ومن كان لا يتبع مذهبا ، وما أكثرهم . والدليل على ذلك أن كتاب الأمان الذي كتبه عمرو بن العاص ورد فيه « أهل مصر » لا القبط ، مما يدل على أن العرب كانوا يستخدمون الكلمتين كمترادفين، أي لهما نفس المعنى . فقد جاء في الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم . لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ولا يساكنهم النوبة .. ومن دخل في صلحهم من الروم والنوبة ، فله مثل ما لهم وعليه

---

(1) ذهب الدكتور باهور لبيب ، دون سند ، إلى القول بأن عمرو بن العاص أعطى الأنبا بنيامين صك الأمان له وللأقباط جميعا ، وهذا غريب لأن بنيامين لم يرد له ذكر في كل ما كتب عن المفاوضات بين المسلمين والروم بزعامة المقوقس بينما كان بنيامين هاربا . انظر ما ذكره الدكتور باهور لبيب في : دراسات عن ابن عبد الحكم ، المرجع السابق ، صفحة 82 .

مثل ما عليهم ، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا »(1)

وبطبيعة الحال فقد بقي عدد كبير من الروم في مصر ، انضموا إلى غيرهم من أبناء البلاد الأخرى الذين كانوا قد انتقلوا للعيش فيها منذ سنوات فاختلطوا بالسكان الذين كانوا خليطا من المصريين المتأغرقين ، والإغريق المتمصرين وهؤلاء وأولئك اختلطت في عروقهم دماء مختلفة منها الهكسوسي والآشوري والليبي والنوبي والأثيوبي والفارسي وأخيرا الإغريقي ، والجميع مصريون أو قبط التي هي تصحيف لكلمة « إيجيبتوس » الإغريقية .

وقد ورد في كتب التاريخ خبر ذلك القتال الذي خاضته بعض القرى التي كان يقيم بها مصريون متأغرقون وهي : بلهيت والخيس وسلطيس ، فإنهم لما هزموا وقع سباؤهم بالمدينة فردهم عمر بن الخطاب وصيرهم وجماعة القبط أهل ذمة وكان لهم عهد لم ينقضوه . وهذا يعني أن عمر بن الخطاب اعتبرهم من ضمن السكان وليسوا غرباء .

وهناك دليل آخر على أن العرب لم يكونوا يعتبرون أتباع المذهب اليعقوبي هم كل القبط بل كان القبط عندهم هم كل سكان مصر فيما عدا الرومان واليهود . فبالنسبة للجزية التي كانت تحصل من السكان ، كان العرب يقولون إنه قد تم تحصيل مبلغ كذا من القبط (2) ، فلو أننا أخذنا بما يدعيه أصحاب الدم النقي من أنهم هم كل القبط لكان معنى ذلك أن العرب لم يكونوا يحصلون الجزية من غير القبط وهو ما لا يمكن تصوره ، حيث إنهم أي العرب كانوا لا يتهاونون في تطبيق الشروط التي قررها الإسلام على سكان البلاد التي يفتحها المسلمون وهي كما قال عبادة بن الصامت للمقوقس : أما أجبتم إلى الإسلام .. فإن أبيتم إلا الجزية فأدوا إلينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت

---

(1) ابن كثير ، المرجع السابق ، الجزء السابع ، صفحة 98 .

(2) البلاذري فتوح البلدان ، صفحة 217 .

عن آخرنا أو نصيب ما نريد منكم[1] . فلا سبيل إذن إلى الادعاء بأن أتباع المذهب اليعقوبي كانوا هم وحدهم الذين يؤدون الجزية ، وأن ما يذكره المؤرخون العرب بشأن المبالغ التي كانت تحصل كجزية ينصرف إليهم .

وأخيرا قد يتساءل البعض ، ولابد أن يتساءلوا : لقد فتح العرب مصر وأقاموا بها وأصبحوا يوصفون بالمصريين أو بأهل مصر حيث جرت عادتهم على أن ينسبوا الناس إلى البلاد التي يقيمون فيها فيقولون العراقيين والشاميين ، والمصريين ، أو أهل العراق وأهل الشام وأهل مصر . ففي الفتنة التي ذهب ضحيتها الصحابي الجليل عثمان بن عفان رضي الله عنه وصف المؤرخون الجماعة التي ذهبت من مصر للاشتراك في عزل عثمان بأنهم : « أهل مصر » [1] فمن باب أولى أن يوصف سكان مصر قبل الفتح الإسلامي لها بـ (أهل مصر) أو بـ (المصريين) .

فلماذا ظلوا يسمون السكان بـ (القبط) ؟ ولماذا لم يسموهم المصريين أو أهل مصر ؟ مثلما كانوا يقولون عن أنفسهم .

وقبل أن نجيب على هذا التساؤل ندعو القارئ إلى أن يستحضر في ذهنه أو أن يستوحي خياله صورة للمجتمع المصري الذي كان قائما وقت الفتح العربي ، أو لجماعة منه تواجدت في مكان ما وليكن السوق مثلا ، وليحاول أن يستنتج كنه اللغة التي يتفاهمون بها فيما بينهم ، إنها اللغة اليونانية ، إذن فما هو اسم مصر في هذه اللغة ؟ إنه « إيجيبتوس » التي قيل إن العرب صحفوها إلى « قبط » . معنى هذا أن السكان كانوا يطلقون على أنفسهم اسم « الجبط » التي يقولون إن العرب نطقوها « القبط » فهم قد جاروهم فيما كانوا يفعلونه . ولكنهم أيضا أسموهم المصريين . والدليل على ذلك تلك القصة التي تتحدث عن الفتى « المصري » الذي ضربه ابن عمرو بن العاص فلما شكاه والده إلى عمرو ولم ينتصف له منه رحل إلى المدينة حيث تقدم بشكواه إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي انتصف له

---

(1) ابن قتيبة الدينوري ، الإمامة والسياسة ، الجزء الأول ، صفحة 38 .

قائلا : اضرب ابن الأكرمين .

وكما هو معلوم ، فقد أخذ كثير من القبط يعتنقون الإسلام ، وهنا وجد المسلمون أنفسهم وجها لوجه أمام وضع فرضته عليهم الظروف . ذلك أن المصريين كانوا يدينون بالمسيحية ويؤدون صلواتهم باللغة القبطية ، وهي في حقيقتها يونانية ليس فيها من المصرية القديمة غير ستة حروف فقط ، فربط المسلمون بين صفة القبطية وبين الدين ، بحيث أصبحت كلمة « قبطي » مرادفة لكلمة مسيحي . لذلك فإنهم وجدوا أنه من الضروري أن يكفوا عن وصف القبطي (المصري) الذي يعتنق الإسلام بأنه قبطي ووصفه بالمصري . وشيئا فشيئا ازداد عدد المصريين (المسلمين) ، وانخفض عدد الأقباط (المسيحيين) حتى انتهى الأمر بقصر صفة القبط على المصريين الذين أبوا اعتناق الإسلام وبقوا على المسيحية [1] .

والملاحظ أن المسلمين لم يكونوا يميزون فيمن يطلقون عليهم وصف الأقباط بين أتباع مذهب الطبيعة الواحدة وأتباع المذهب الملكاني أو غيرهم من أتباع المذاهب الأخرى ، بل اعتبروهم جميعا « قبطا » وهو ما فعلوه في البلاد الأخرى كالشام والعراق حيث كانوا يقولون عن المسيحيين جميعا « نصارى » دون أن يميزوا بينهم بحسب المذاهب ، وما أكثرها . وكذلك وصفوا القبط فيما بعد فقالوا « النصارى » .

وفي الفصل الأخير من هذا الكتاب ، الذي نتناول فيه موضوع الورثة سنبين من هم « القبط » الذين حافظوا على أصالتهم وحفظوا دماءهم نقية بحيث لا يخالطها أي دم آخر ، وذلك في معرض حديثنا عن تطور الديانة في مصر بعد أن فتحها الإسكندر وإلى أن ظهرت المسيحية والظروف التي ظهرت فيها ، ومن هم الذين اعتنقوها أولا .

وهكذا نلاحظ أن (قبطا) لم تكن تطلق على « مصر » وإنما كانت تطلق على

(1) انظر : سير توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، صفحة 123 ، حيث يقول « وقد جلب الفتح الإسلامي إلى هؤلاء القبط ذلك اللفظ الذي يطلق على المسيحيين من اليعاقبة » .

كل سكان مصر . أما الاسم الذي كان يطلق على هذا البلد فهو « مصر » وورد في الكتب المقدسة واستخدمته الشعوب جميعا فيما عدا الإغريق . وكما هو معروف فإن التوراة ، رغم كونها الكتاب المقدس لليهود ، فإن المسيحيين على اختلافهم ، يؤمنون بها ويسمونها « العهد القديم » ، ويتكون منها ومن « العهد الجديد » وهو الإنجيل ، كتابهم المقدس . فلماذا يصر هذا الفريق من الدكاترة والأساتذة الأقباط على ما يزعمونه من أن مصر كانت تسمى « إيجيبتوس » ويكذبون ما ورد في التوراة على الرغم من أن ما ورد بها من المفروض أن يكون كلام الله ، وإلا فما معنى أن تسمى كتابا مقدسا ؟ .

وربما يقولون ولماذا تبدون حماسا لما ذكرته التوراة بشأن اسم مصر بينما أنكم في غير ذلك من الأمور تشككون فيما ورد في التوراة بشأنها وتقولون إن اليهود حرفوها ؟ وردنا على ذلك أن اسم مصر ليس من الأمور التي يهم اليهود تحريفها لعدم وجود مصلحة لهم في ذلك ولو كان لهم مصلحة لفعلوا مثلما فعلتم ، بل إن اليهود ، وبدون قصد ، ساهموا في الترويج لاسم « إيجيبتوس» الإغريقي وذلك بقيامهم بترجمة التوراة من السريانية والعبرية إلى الإغريقية عندما أوفدوا عددا من أحبارهم إلى الإسكندرية بناء على طلب « بطليموس » حيث ترجموا كلمة « مصرايم » أو « مصر » التي كانت في التوراة إلى كلمة « إيجيبتوس » التي وجدوا أن الإغريق يستخدمونها للدلالة على مصر . فاليهود قد ساهموا ، بغير قصد ، في شيوع وانتشار كلمة « إجيبتوس » في العالم المسيحي الذي يعتبر التوراة قسما من الكتاب المقدس . والغريب في الأمر حقا ما نراه من حرص اليهود على تغيير الأسماء العربية للمدن والقرى الفلسطينية ، بل وتغيير اسم الضفة الغربية كلها ، وإطلاق أسماء يهودية يقولون إنها الأسماء الأصلية التي وردت بالتوراة ، بينما نصر نحن على استخدام كلمة « إيجيبت » بدلا من « مصر » التي وردت في القرآن الكريم .

ويبدو أن بعض الإخوة الأقباط أدركوا ما في تفسيرهم لكلمة « قبط » ، وما ادعوه من وجود علاقة بينها وبين كلمة « إيجيبتوس » من ضعف شديد ، فأرادوا أن يحتاطوا للأمر حتى لا يفقدوا السند الذي يعتمدون عليه في إثبات حقوقهم في

« مصر » باعتبارهم أحفاد الفراعنة دون غيرهم . وأسعفتهم الأساطير الإسرائيلية ، وما ورد في كتب المفسرين والمؤرخين من هذه الإسرائيليات . ومن الذين نشطوا في هذا السبيل الأستاذ زكي شنودة ، الذي أوحى إليه ذكاؤه الموروث عن الفراعنة أن يلجأ إلى عالم مسلم هو المقريزي وليس إلى التوراة ، على الرغم من أن ما ذكره المقريزي موجود في التوراة ، ولكنه اعتقد أن الاستدلال بما ذكره العالم المسلم ربما يقنع المسلمين بصحة دعواه أكثر مما تقنعهم التوراة . وبالتالي فقد نقل عن المقريزي قوله إن كلمة « قبط » مشتقة من اسم « قفطايم » أحد أولاد مصرايم بن حام بن نوح ، والذي قيل إنه أتى بأولاده إلى هذه البلاد فسميت باسمه ، وإنه لما كثر أولاده منح كلا منهم إقليما من أقاليمها ، وكان نصيب « قفطايم » المنطقة الواقعة بين أسوان والأشمونين من أعمال محافظة أسيوط ، فسميت إحدى بلادها باسمه وهي « قفط » من أعمال محافظة قنا الآن ، وتقع على الشاطئ الشرقي للنيل شرق الأقصر . و « قفط » تصحيف للفظ الفرعوني لمدينة قبطيو التي كانت عاصمة للإقليم الخامس من أقاليم الصعيد وكعبة المعبود « مين » منذ أيام الدولة القديمة .

وقد جاء ذكر لهذه المدينة فيما كتبه المؤرخ اليوناني « بلوتارخس » في كتابه « إيزيس وأوزوريس » [1] حيث قام بوصف ما كان المصريون يفعلونه أحيانا للتعبير عن كراهيتهم واحتقارهم لإله الشر « ست » .

وقد تردد صدى القصة الإسرائيلية عن « مصرايم » و « قفطايم » فيما كتبه المؤرخون المسلمون عن مصر ، ففضلا عما قاله المقريزي في هذا الشأن ، ذكر ابن تغري بردي [2] : « أنه لما حضرت مصرايم الوفاة عهد إلى ولده « قفطيم » وكان قد قسم أرض مصر بين بنيه ، فجعل لقفطيم من قفط إلى أسوان ، ولأشمون من أشمون إلى منف ، ولأتريب الحوف كله ، ولصا من ناحية صا البحيرة إلى قرب

---

(1) هيرودوت يتحدث عن مصر .

(2) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج 1 ، صفحة 49 ، وابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، صفحة 12 ، وياقوت ، معجم البلدان ، المجلد الخامس .

برقة ، وقال لأخيه « فارق » لك من برقة إلى المغرب ، فهو صاحب إفريقية وأولاده الأفارق . فلو أننا أخذنا ما قاله هؤلاء المؤرخون كله دون الاقتصار على الجزء الخاص بـ (قفطيم) الذي يقال إنه الجد الأعلى للقبط ، لوجدنا أن مصر سميت بهذا الاسم نسبة إلى « مصرايم » بن حام بن نوح الذي قسمها بين أبنائه بحيث نال كل واحد منهم أحد أقاليمها . ولو قبلنا ما ذهب إليه الأستاذ زكي شنودة من الاحتكام إلى قصة المقريزي وغيره من المؤرخين المسلمين ، وهي جميعا من الإسرائيليات التي لا ترق على الشك ، فإن معنى هذا أن قبطا كانوا يعيشون في الجزء الذي آل إلى « قفطيم » ، أي الإقليم الممتد من قفط إلى أسوان . فهم إذن ليسوا كل المصريين ، وإنما مجرد جزء من شعب مصر . وحتى في الفترة السابقة على توحيد القطرين ، أي الشمال والجنوب ، لم يكن القطر الجنوبي الذي يقع فيه الإقليم الذي آل إلى « قفطايم » يسمى بلاد « القبط » أو المملكة القبطية ، أو أي شيء من هذا القبيل . وكل ما ثبت أنه حمل هذا الاسم ، إن صحت القصة الإسرائيلية عن قفطايم بن مصرايم ، هو مدينة « قفط » التي لا زالت قائمة حتى الآن ، مثلها في ذلك مثل بقية المدن التي كانت تحمل أسماء مصرية قديمة وما زالت تحملها إلى الآن . فأقصى ما يمكن تصوره في هذا الصدد أن يكون الإقليم الخامس من أقاليم الصعيد الذي كانت « قفط » عاصمة له قد حمل اسم هذه المدينة وتميز في علاقته بالسلطة المركزية التي يجلس على رأسها فرعون بنوع من الاستقلال الذاتي .

ويقول « رالف لنتون » [1] في ذلك إنه من المعروف أن حكام الأقاليم كانوا ينحدرون من صلب الملوك الذين حكموا الأقاليم المختلفة قبل توحيد مصر . وبالرغم من تلك المحاولات التي كان الملوك الأقوياء يقومون بها للحد من قوة حكام المقاطعات والتقليل من أهميتهم ، فإنهم احتفظوا بإخلاص رعاياهم لهم . بل وكانوا يصبحون ملوكا صغارا في كل وقت تضعف فيه الحكومة المركزية . فلعل قفط كانت إقليما من هذه الأقاليم ، فوصف سكانها بأنهم « قبط » . أما مصر كلها وأنها كانت تسمى « قفطا »

(1) شجرة الحضارة ، الجزء الثالث ، صفحة 25 .

أو « قبطا » فهذا ما لم يقل به أحد .

ومما يكشف تناقض أصحاب هذا الرأي وافتعالهم الواضح للأدلة التي يسوقونها لتأييد ما يزعمونه بشأن علاقتهم بالمصريين القدماء ، أنهم على عكس ما ذهب إليه جمهور المؤرخين المسلمين الذين صدقوا الأسطورة الإسرائيلية ، من أن مصر سميت كذلك نسبة إلى « مصرايم » بن حام بن نوح ، يقولون إنها تنسب إلى قفطايم أو قفطيم بن مصرايم وما ذلك إلا ليدللوا على أن نسل قفطايم ، أي القبط هم المصريون ، وهو كما نرى تشويه للقصة . فإذا كان لابد من قبول هذه الأسطورة الإسرائيلية فإن الأقرب إلى المنطق أن ننسب « مصر » إلى « مصرايم » لا إلى « قفطايم » ، وبالتالي فإن كل نسل أبناء « مصرايم » بما فيهم نسل ابنه « قفطايم » هم المصريون .

كذلك فإنه يترتب على هذه الأسطورة نتيجة في غاية الأهمية ، وهي أن أول من سكن مصر من البشر هم « مصرايم » ونسله بما فيهم « قفطايم » ، حيث إنه لا يتصور أن يكون غيرهم قد سبقهم إلى الإقامة بها لأن الطوفان كان قد قضى على كل من كان يعيش على ظهر الأرض من بشر وحيوانات ، ولم يبق إلا نوح والذين ركبوا معه في السفينة ، وهم الذين عمروا الأرض بعد الطوفان . ولقد قالوا إن « مصرايم » هو أحد أبناء حام بن نوح وأن قفطايم هو ابن « مصرايم » وأحد أحفاد حام . وطبقا للتقسيم اليهودي[1] للبشر إلى حاميين وساميين وآريين وهو التقسيم العنصري الخبيث الذي جر على البشرية ويلات وكوارث ، فإن المصريين ينتمون إلى الجنس الحامي وليس إلى الجنس السامي أو الآري وهو ما ذهب إليه بعض العلماء وما سوف نعرض له فيما بعد .

ونستمر مع ما زعموه بشأن كلمة « إهيجيبتوس » التي أصلها « هيكوبتاه » الأشورية .. وكنا قد انتهينا إلى أنه لا توجد أي علاقة بين الكلمتين . فما هو أصل كلمة « إيجيبتوس » وما هو معناها الحقيقي ؟

---

(1) الدكتور عبد الله خورشيد البري ، القبائل العربية في مصر ، صفحة 3 .

أصل ومعنى كلمة « إيجيبتوس » :

سبق أن ذكرنا أن المصريين القدماء لما اتصلوا بالإغريق القدماء أطلقوا عليهم اسم (حاونيبوت) وكان ذلك في الألف الثانية قبل الميلاد . ويقول العالم « جاك فركونيه » إن المصريين كانوا يشيرون بهذه الكلمة إلى البرابرة الأجانب . ولما ازدادت العلاقات بين الجانبين وعرف المصريون الإغريق بشكل أفضل وذلك في الدولتين الوسطى والحديثة تغير مدلول كلمة (حاونيبوت) فأصبحت تدل على السواحل الآسيوية البعيدة ومجموعة الشعوب التي تسكن تلك المناطق الساحلية ، ولم تعد تعني البرابرة أو الهمج الأجانب . ولقد انتهى « جاك فركونيه » إلى هذا الرأي العلمي بعد دراسة عميقة وجادة تتبع فيها الكلمة في دلالاتها المختلفة عبر العصور .

وإذا نظرنا إلى هذا الذي قاله « جاك فركونيه » في ضوء المعلومات التي توفرت عن طبيعة العلاقات بين الشعوب ، سواء في الماضي البعيد أو القريب ، بل وفي الحاضر الذي نعيشه ، سنجد أن وصف المصريين ، في الألف الثانية قبل الميلاد ، للإغريق بالبرابرة أو الهمج الأجانب لم يكن غريبا أو عجيبا ، ذلك أن الشعوب القديمة كانت تنظر إلى بعضها البعض نظرة استعلاء وغرور وكبرياء ، بغض النظر عما قد يكون بعضها قد بلغه من تقدم ، أو أحرزه من تحضر ومدنية ، فإن ذلك لم يكن ليؤثر كثيرا في حكم شعب على غيره أو في نظرته إليه . فهناك دائما من الأمور ما يجعل أي شعب يعتقد أنه أفضل من غيره ، في هذه الناحية أو تلك .

من ذلك أن بعض الشعوب كانت تعتز بمعتقداتها وترى أن الشعوب التي لا تشاركها فيها هي شعوب بربرية أو همجية ، أو على الأقل متخلفة ويجب إكراهها على ترك معتقداتها وهو ما تفعله الولايات المتحدة الآن ومعها الغرب ، فهم يعتقدون أنهم رسل الحضارة ، وأنهم المسئولون عن تقدم العالم . والبعض الآخر من الشعوب كان يعتز بلغته ويحكم على الشعوب الأخرى التي لا يفهم كلامها ولا تفهم كلامه بالهمجية . والعرب من الشعوب التي اعتزت بلغتها أشد الاعتزاز ولذلك وصفوا الشعوب الأخرى بأنها « أعجمية » وقالت عنهم الأعاجم ، يقول الزمخشري :

الأعجمي ، الذي لا يفصح ولا يفهم كلامه من أي جنس كان ، والعجمي منسوب إلى أمة العجم [1] . كذلك قالوا « بربر » لمن يخلط في الكلام فلا يفهم الناس ما يقول [2] ، وهو نفس المعنى الذي للكلمة barbarism الإنجليزية والتي تستخدم لبيان أن شخصا استعمل الكلمات التي تتنافى والفصاحة ، ومنها barbaric ومعناها همجي أو غير متمدن [3] .

وهناك غير الدين واللغة الكثير مما يمكن للشعوب أن تعتبر مخالفة غيرها لها فيه موجب لوصفها بالهمجية والبربرية ، غير أنه يلاحظ أن ما يجعل بعض الشعوب تعتقد أنها تفضل به غيرها ، ربما يكون هو نفسه الذي يحط من شأنها لدى غيرها ، وهو ما يحدث إلى يومنا هذا .

ويقول أدولف أرمان وهرمان رانكه [4] إن المصريين القدماء كانوا بالنسبة لليونانيين موضوعا للدعاية الرخيصة فكانوا يتندرون على ذلك الشعب الذي يعبد الثيران بدلا من ذبحها ، ويقوم بتقديس السمك بدلا من أكله ، والحداد على القطط الميتة بدلا من سلخها . كذلك فإن « هيرودوت » حين زار مصر كتب معلقا على ما رآه فيها فقال « إن المصريين يختلفون كل الاختلاف عن سائر الشعوب في عاداتهم وسننهم » [5] .

وبطبيعة الحال فإن المصريين المعاصرين الذين أجج الغرب وأعوانه حماسهم للفراعنة ، وألهب غيرتهم عليهم لن تنتابهم الدهشة إزاء وصف أجدادهم المزعومين للإغريق بأنهم همج وسوف يتطوعون لتقديم الحجج والبراهين ، كدأبهم دائما ، لإثبات سلامة موقف المصريين القدماء وصحة حكمهم على الإغريق . وربما شغلهم

---

(1) الكشاف ، الجزء الثالث ، وانظر القرطبي ، الجزء الخامس عشر ، ولسان العرب .

(2) المعجم العربي الأساسي ، صفحة 142 .

(3) قاموس المورد .

(4) مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ، المقدمة .

(5) هيرودوت يتحدث عن مصر ، صفحة 116 .

هذا عن السؤال عن الاسم ، أو الوصف الذي كان الإغريق يطلقونه على المصريين القدماء ، ولا نظن أنهم سيتذكرون اسم « إيجيبتوس » لا لشيء إلا لأن الذين غرروا بهم أقنعوهم أن معناه « القبط » أو « المصريين » . ولذلك فإنهم سوف يسألون : وماذا كانوا يسمون المصريين ؟

والإجابة : أنهم كانوا يسمونهم « إيجيبتوس » . وما معنى « إيجيبتوس » ؟ . معناها الهمج أو البرابرة الأجانب . أو هكذا كانت تعني في أول الأمر تماما كما كانت تعني كلمة (حاونيبوت) . فكما أن المصريين القدماء كانوا يعتبرون غيرهم من الشعوب همجا ، فإن هذه الشعوب كانت بدورها تعتبرهم كذلك . فكما أن العرب القدماء كانوا يطلقون على من لا يفصحون بالعربية وصف « الأعاجم » فكذلك اليونانيون كانوا يسمون من عداهم « البرابرة » [1] ثم انقلب مدلول اللفظ بعد ذلك فصار يؤدي معنى الازدراء والاحتقار [2] . فكأننا حين نقول عن أنفسنا إننا « إيجيبتسيون » أو « إيجيبتوس » نقر ونعترف بأننا همج أو برابرة ، بل كأننا نقر ، ضمنيا ، بأننا كنا جديرين بازدراء واحتقار الإغريق وغيرهم من شعوب أوروبا التي أخذت هذا الاسم عنهم . والمدهش حقا أن الشعوب بعد أن تقطع شوطا كبيرا في طريق المدنية والتحضر تكف عن التطوع بإطلاق أسماء أو صفات على بعضها البعض ، أو على الأقل تتحفظ في ذلك فتتخير أوصافا ليس فيها الكثير ، أو الملحوظ ، من المهانة ، كما يفعل الغرب في عصرنا هذا إذ يصف بعض الشعوب بالبدائية ويصف البعض الآخر بالتخلف ، وقد يخففها إلى العالم الثالث أو الدول النامية .

ولقد اختفت كلمة (حاونيبوت) لتحل محلها كلمة « الإغريق » خاصة بعد أن احتل هؤلاء « مصر » وفرضوا عليها اسم : « إيجبت » سواء كانوا يعنون به معناه الأول « الهمج » أو يعنون به شيئا غير ذلك ، ولنا أن نتخيل ما كان يمكن للإغريق أن يفعلوه بالمصريين لو أنهم وصفوهم أو نادوا عليهم بالكلمة القديمة (حاونيبوت) .

---

(1) A Short History of The World, p. 131 .

(2) دائرة معارف الشعوب ، المجلد الأول ، صفحة 630 .

ومع ذلك فقد شاءت الأقدار أن يحتل الرومان « مصر » فأطلقوا على كل من كان يقيم بها اسم « إيجيبتوس » بما في ذلك الإغريق الذين كانوا قد وفدوا إليها منذ القرن الثامن ق . م وأقاموا بها وأصبحوا من أهلها تضاعفت أعدادهم بعد فتح الإسكندر المقدوني لها . وكذلك اليهود وغيرهم من شتى شعوب الأرض الذين استوطنوها .

وسواء أكان الإغريق قد أطلقوا على المصريين وصف الهمج « إيجيبتوس » جريا على عادة الشعوب القديمة في وصف بعضها البعض بالهمجية ، أم لأنهم عندما وفدوا إليها في القرن الخامس عشر للتجارة كانت تمر بحالة من التدهور وبخاصة في المناطق الساحلية التي كانت هدفا لهجوم القراصنة ولصوص البحر ، أو بسبب ما كانت عليه أحوال عامة الشعب من تخلف وفقر حيث كان الحكام يستنزفون دخول الناس ليعيشوا هم في بحبوحة ليس هناك ما هو أقوى في الدلالة عليها مما اشتملت عليه الرسوم والصور والتماثيل والمعابد والقبور والأهرامات ، وكل ما تركه الفراعنة ، فإن الكلمة « إيجيبتوس » أو « جيبطوس » لا تزال تحتفظ بين مفردات اللغة اليونانية بمعناها القديم الذي انبعث حيا في مناسبة من أغرب المناسبات التاريخية ، التي سنتناولها فيما يلي ، غير أننا سنمهد لها بتوجيه نظر القارئ الأريب إلى ما للكلمة من أهمية ، وبوجه خاص إذا ما كانت تتعلق بمجموعة من الناس ، كأن تكون وصفا لهم مثلا ، فإنها بمضي الوقت ومع كثرة استخدامها ، لا تلبث أن تمارس ضربا من الإيحاء يجعلها تتسع في دلالاتها لتشمل صورا وأخيلة لم يكن لها علاقة بها في الأصل ، وهو ما نلاحظه بالنسبة لمن يسمون بـ (الهنود الحمر) سكان أمريكا الشمالية الأصليين ، فإن هذا الوصف أصبح بفضل الدعاية الأمريكية ، يوحي لمن يسمعه ، أو يشاهد صورا للهنود الحمر ، بالوحشية والهمجية والتخلف ، بل والإجرام ، ويبعث على الازدراء والاحتقار ، على الرغم من أن الحقيقة خلاف ذلك ، فالوحوش والهمج والمتخلفون هم الغزاة الأوروبيون الذين أعملوا القتل والسلب والنهب والاغتصاب في هذا الشعب المسالم ، حتى انتهى الأمر بالقضاء على غالبيته العظمى ، ومن بقي منه قام البيض المتحضرون بإجباره على العيش فيما يسمى معازل وهي معسكرات

أقاموها في مناطق نائية تفتقر الحياة فيها إلى الكثير مما ينعم به المغتصبون .

كذلك كلمة « إجيبتوس » الإغريقية ، فقد كانت تعني في أول أمرها الهمج أو البرابرة الأجانب باعتبار الاختلاف في اللغة أو في الثقافة ، ولكنها مع الوقت اتسع مدلولها ليشمل الاختلاف في اللون وفي السحنة ، فإذا قيل « إيجيبتوس » دلت على أناس سمر البشرة ، جعد الشعر ، لهم عادات معينة . وهذا ما ذكره « هيرودوت » في حديثه عن مصر . فقد روى قصة قال فيها إنه بعد أن وصل فرعون مصر « سيزوستريس »[1] في غزوه إلى نهر « فاسيس » (أشهر أنهار « كولخس » الواقعة على شاطئ البحر الأسود) كر عائدا إلى مصر تاركا جزءا من جيشه هناك لاستعمار الديار . كما يحتمل أن تكون طائفة من الجنود – وقد أنهكها السير – بقيت بمحض إرادتها على ضفاف نهر « فاسيس » . وكان ذلك في القرن الثالث عشر ق . م . ويقول « هيرودوت » إنه قد اتضح له أن « الكولخيين » مصريون ، وذلك بعد أن استجوب كلا الشعبين ، أي الكولخيين والمصريين ، فتبين له أن تذكر « الكولخيين » المصريين أقوى من تذكر هؤلاء إياهم . ويقول[2] : « هذا مع أن طائفة من المصريين صرحت لي بأنها تعتبر « الكولخيين » بعضا من جيش « سيزوستريس » ولقد خمنت ذلك بنفسي ، لأن « الكولخيين » سمر البشرة ، جعد الشعر – ولكن ذلك لا يؤدي في الحقيقة إلى دليل ما لأن غيرهم من الناس لهم هذه الأوصاف – وإنما يؤيدني علاوة على ذلك أنهم وحدهم مع الأثيوبيين والمصريين – وهذا دليل قوي – يمارسون دون سائر البشر عادة الختان منذ البداية . إذ إن الفينيقيين والسوريين بفلسطين أنفسهم يعترفون بأنهم أخذوا هذه العادة عن المصريين . أما السوريون الذين يقطنون على ضفاف نهري « ثرمودون »

---

(1) يقول الدكتور أحمد زكي إن هيرودوت خلط بين سنوسرت الثالث ورمسيس الثاني في حديثه عن الفرعون المسمى « سيزوستريس ، حيث يظهر من كلامه أنه يقصد به رمسيس الثاني الذي حكم في القرن الثالث عشر ق . م . وخلفه ابنه منفتاح حوالي 1230 والذي يقال إنه فرعون موسى .

(2) هيرودوت يتحدث عن مصر ص 220 .

و « بارثينيوس » و « الماكرونيون » الذين يجاورونهم فيقولون إنهم تعلموها حديثا من « الكولخيين » . وهؤلاء وحدهم هم الذين يعرفون الختان . ويظهر أنهم يمارسونه كما يمارسه المصريون تماما . وأما فيما يتعلق بالأثيوبيين والمصريين ، فلا أستطيع أن أقول أي الشعبين أخذ هذه العادة عن الآخر . إذ الظاهر أنها عادة قديمة عندهم . أما أن الشعوب قد تعلمتها من اختلاطها بالمصريين ، فبرهاني على ذلك ساطع ، لأن الذين يختلطون باليونانيين من الفينيقيين لا يقلدون المصريين فيما يختص بأعضاء التناسل ، بل يتركون ذريتهم بلا ختان . ويضيف « هيرودوت » إلى ذلك قوله إن هناك عادة أخرى كان « الكولخيون » يشبهون فيها المصريين « فهم والمصريون فقط كانوا يصنعون التيل بنفس الطريقة ، كما أن طريقة الحياة واللغة متشابهة عند الشعبين » .

وسواء أكان ما قاله « هيرودوت » عن « الكولخيين » وأصلهم المصري صحيحا أم لم يكن ، فإن الذي يهمنا هو ما أصبح لكلمة « إيجيبتوس » وتعني « مصر » و « جيبت » أو « جيبسي » من دلالة ترتبط ارتباطا وثيقا بالمظهر والعنصر والسمات والثقافة . فعلى الرغم من أنها ظلت تطلق على سكان مصر ، حتى بعد أن عرفهم الإغريق على حقيقتهم وتبين لهم أنهم ليسوا همجا ولا برابرة ، سواء قبل غزو الإسكندر المقدوني لمصر أو بعد غزوه لها فإن الكلمة ظلت تستخدم بحسب أصلها في اللغة الإغريقية ومعناها الهمج أو البرابرة لذلك فإنه لما ظهر البدو الرحل الذين يسمون « الغجر » في اليونان في القرن الرابع عشر بعد الميلاد أطلق عليهم اليونانيون اسم « جيبسي » Gypsies وقبطس Guphtos ونلاحظ بالنسبة للكلمة الثانية مدى مطابقتها لكلمة « قبط » فهي تُنطق مثلها . والغريب في الأمر أن هؤلاء « الغجر » لما ظهروا في عام 1322 ميلادية في مدينة تسمى « مودون » وهي مدينة حصينة وميناء هام على الساحل الغربي لشبه جزيرة المورة بجنوب اليونان والتي كانت محطة رئيسية على الطريق التي تصل بين البندقية ويافا بفلسطين كانوا يطلقون على

« مودون » هذه اسم « مصر الصغرى » وقالوا عن أنفسهم إنهم مصريون[1] وأيدوا ادعاءهم هذا برواية ذكروا فيها أنهم غادروا مصر وهم وثنيون وظلوا كذلك حتى ظهرت المسيحية فاعتنقوها ثم ارتدوا عنها إلى عبادة الأوثان ، ولكنهم عادوا فاعتنقوا المسيحية من جديد تحت ضغط الملوك والحكام ، واضطروا آخر الأمر إلى أن يجوبوا آفاق الأرض[2] .

ويقول الكاتب « فرانسوا دي فودي فولتييه » إن اطلاق الغجر اسم « مصر الصغرى » على مدينة « مودون » ربما يرجع إلى ما يوجد من شبه بين هذا المكان وبين دلتا النيل حيث إنه كان أرضا خصبة تقع وسط منطقة جافة ، ولهذا السبب سمي غجر أوروبا فيما بعد بـ (المصريين) Egyptians أو « جيبسي » Gypsies[3] . كما أن زعماءهم كثيرا ما كانوا يطلقون على أنفسهم لقب دوق أو كونت « مصر الصغرى » . ولقد ظلوا يوصفون بـ (المصريين) طوال القرون الوسطى سواء من العامة أو من الحكام أو من رجال الدين . ففي الرسائل الصادرة لهم من البابا « مارتن الخامس » وصفوا بأنهم « جماعات مصرية » وهو نفس الوصف الذي أطلقه عليهم الملك « جاك الرابع » عاهل إسكتلندا في رسالة توصية وجهها إلى الملك « جان » ملك الدانمارك عام 1505 . كذلك فإن شكسبير في روايته الشهيرة « عطيل » استخدم صفة مصرية بمعنى غجرية في وصفه للمرأة التي كانت قد أعطت لأم عطيل المنديل الذي ما لبث هو أن ورثه عنها وقدمه إلى زوجته هدية لها دليلا على وفائه ، والذي أدى فقدان « ديدمونة » له إلى حدوث المأساة التي تدور حولها الرواية ، فقد قال « شكسبير » إن الأم تلقت المنديل من امرأة مصرية وهو يعني غجرية .

ومما لا شك فيه أن تفسير « فرانسوا دي فولتييه »[4] لإطلاق اسم « مصر

---

(1) ENCYCLOPEDIA AMERICANA Volume 13, p. 646 .

(2) Howard Greenfeild, Gypsies, p. 8 .

(3) Hazlitt. W. Carew, Faiths and Folklore of the British Isles, p. 113 .

(4) رسالة اليوسكو ، العدد 281 أكتوبر 1984 .

الصغرى » على مدينة « مودون » يشوبه الضعف وتعوزه القدرة على الإقناع لأكثر من سبب منها : أن هناك أراضي كثيرة يتوفر فيها ما يتوفر في دلتا النيل ، من حيث كونها أرضا خصبة تقع وسط منطقة جافة . فلماذا اختار « الغجر » مصر بالذات ، ودون غيرها عند البحث عن اسم يطلقونه على منطقة « مودون » التي أقاموا فيها ؟ . وإذا كانت هذه المنطقة تشبه دلتا النيل فقد كان يكفي أن يسموها « الدلتا » أو « دلتا النيل » خاصة وأن كلمة « دلتا » يونانية الأصل ، وكان اليونانيون أول من أطلقها على المنطقة المحصورة بين فرعي النيل .

كذلك فإن دلتا النيل ليست كل مصر ، بل هي جزء صغير من مصر مما يفهم منه أن الغجر وهم يسمون « مودون » باسم مصر الصغرى لم يكن حاضرا في أذهانهم الشبه بينها وبين دلتا النيل ، وإنما كان قصدهم أن تكون نموذجا لمصر كلها لا لدلتا النيل فقط ، بحيث تذكرهم بوطنهم الأصلي الذي غادروه وهم على الوثنية ، أي في تاريخ أبعد كثيرا من القرن الرابع عشر الميلادي ، يقع قبل ميلاد المسيح بفترة طويلة . والمعروف أن تاريخ الشعوب يبقى محفوظا في ذاكرتها ينقله كل جيل إلى الذي يليه .

وهكذا نلاحظ العلاقة ، لا بين ما ذكره « هيرودوت » وبين قصة هؤلاء الغجر وحسب ، بل وبين الاسم « جيبسي » و « جبتوس » ، وبين الشكل والسحنة واللون والشعر وغيرها كالعادات واللغة . وجاء في دائرة معارف المرأة : أن كثيرين من الأوروبيين يعتقدون أن الغجر Gypsies جاءوا من مصر ، ولهذا السبب سموا المصريين ، ولذلك يطلقون عليهم أحيانا كلمة « إجبشيان » نظرا لما لوحظ من أنه يوجد لديهم كثير من المعتقدات الدينية الشبيهة إلى حد كبير بما كان لدى المصريين القدماء »[1] .

ويتبين مما تقدم أن الإغريق ، وقت أن كانوا لا يعرفون المصريين حق المعرفة

---

(1) The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets, p. 360 .

أطلقوا عليهم اسم « جيبت » أو « جبطوس » أي الهمج أو الغجر ، وعلى مصر اسم بلاد الهمج فلما زادت صلاتهم بمصر وعرفوا المصريين بشكل أفضل لم يغيروا كلمة « إيجيبتوس » التي قال الدكتور مراد كامل إن الحرفين الأخيرين منها علامة رفع في اللغة اليونانية وهما (الواو والسين) بينما أن الحرف الأول (الألف) الذي اعتقد العرب أنه أداة استهلال ، وبالتالي فإنه باستبعاد هذه الحروف الثلاثة تبقى لنا كلمة « جيبت » أو « جبط » وأيضا « جبس » وكلها تحورت إلى « قبط » ولكن تغير مدلولها فلم تعد تعني الهمج أو الغجر على الأقل بالنسبة لإطلاقها على المصريين ، وإن كانت لا تزال تستخدم ، سواء في اللغة اليونانية ، أو في اللغات الأوروبية لوصف الغجر والهمج .

وبعد أن احتل الإغريق مصر بقيادة الإسكندر المقدوني أصبح كل من يقيم بها يسمى مصريا وهو ما يحدث الآن بالنسبة لمن يهاجرون إلى الولايات المتحدة وأستراليا وكندا والذين يوصفون بأنهم أمريكيون أو أستراليون أو كنديون ، وكذلك أولادهم وأحفادهم . واستمر الحال في مصر على ذلك بعد مجيء الرومان . فلما ظهرت المسيحية في مصر كان انتشارها بطيئا جدا ، كما سبق أن ذكرنا ، فحتى عام 390 ميلادية كانت الوثنية موجودة في كافة أرجاء البلاد وكانت معابد الآلهة وبالذات « سيرابيس » قائمة تمارس فيها الطقوس إلى أن أصدر الإمبراطور « ثيودسيوس الكبير » أمره في ذلك العام بتحطيم تمثال هذا الإله في معبده الذي كان في الإسكندرية . وأعقب ذلك اضطهاد الوثنيين لحملهم على اعتناق المسيحية . فازداد عدد المصريين الذين اعتنقوا هذه الديانة ، ولكنهم جميعا لم يكونوا يدركون ، بأي شكل من الأشكال أبعاد الخلافات المذهبية التي ظهرت على نطاق واسع وبالذات بين أنصار الطبيعة الواحدة للمسيح وأنصار الطبيعتين .

ويقول « سير توماس أرنولد »[1] إنه « من المرجح أن تأثير المسيحية في السواد الأعظم من أهل مصر كان قليلا في القرن السابع ، وأن التعليقات النظرية

---

(1) الدعوة إلى الإسلام ، صفحة 125 .

التي استغلها زعماؤهم في إثارة الكراهية والمقاومة في وجه الحكومة البيزنطية كان يمكن أن يدركها عدد قليل جدا من الناس » .

وهكذا تطورت دلالة كلمة « إيجيبتوس » عبر التاريخ فكانت في أول أمرها تعني « الهمج أو البرابرة » ثم تغير مدلولها بعد أن عرف الإغريق مصر على حقيقتها ، وأصبحت تدل على الشعب الذي يقيم في هذا البلد . وبعد أن فتحها الإسكندر انضم الإغريق الذين هاجروا إلى مصر إلى جملة من يوصفون بـ (الإيجيبتوس) بما في ذلك كل من كان قد وفد إليها واستقر فيها ومن اختلطت دماؤهم بدماء الغزاة المتعاقبين . وبعد احتلال الرومان لها وأيلولة الحكم إليهم اعتبروا الجميع « إيجيبتوس » . فلما فتحها العرب أطلقوا اسم « قبط » في بادئ الأمر على كل المقيمين بمصر ، ثم بعد ذلك خصوا به الذين بقوا على المسيحية و لم يعتنقوا الإسلام دون تفرقة بينهم بحسب المذهب أو الملة على ما سبق أن بينا .

صحيح أن كثيرين من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة حاولوا أن يوهموا العرب بأن أصولهم ترجع إلى الفراعنة وأنهم من نسلهم ولذلك فإنهم كرهوا الروم الذين كانوا فضلا عن كونهم غزاة غرباء فإنهم حاولوا إكراههم على اعتناق مذهبهم القائل بالطبيعتين . وبالفعل فإن عددا لا بأس به من المؤرخين صدقوا ما قيل لهم ، وهم في الحقيقة معذورون لأنهم لم يكونوا قد ألموا بعد بتاريخ البشرية ، وكان لديهم شغف عظيم بالعلم والمعرفة لذلك لم يترددوا في تدوين ما سمعوه ، تماما كما حدث لهم قبل ذلك مع اليهود الذين أربكوا العقل العربي بخرافاتهم وأساطيرهم وأوهامهم .

أما وقد ظهرت الحقائق وتبدد الظلام الذي كان يخيم على الأحداث والوقائع ، فإنه لم يعد مقبولا أن تترك الأساطير والخرافات والأوهام لتعمل عملها في إفساد العقول وتزييف الوعي لما في ذلك من خطورة خاصة بعد أن عمد البعض إلى استغلال هذا الوضع من أجل بلوغ أهداف شريرة تنتهي بتقسيم أبناء هذا البلد إلى « أصحاب حق » وغرباء ، وإلى ذوي دماء نقية وذوي دماء مختلطة ، وإلى ورثة ومتطفلين . هذا الكلام الذي يعبر عن عنصرية ذميمة لم يعد لها وجود إلا في إسرائيل وجنوب أفريقيا بعد أن اختفى من الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية أثر الحملات

القوية والمستمرة التي شنت عليه وعلى أصحابه .

وعلى الرغم من وضوح براعتهم ، فإننا نوجه إليهم سؤالا ، قد يبدو ساذجا بعد كل ما ذكرناه من أقوالهم : ما جدوى إثارة هذا الموضوع الذي لا تنفرد به مصر دون العالم ؟ فأنتم تعلمون أنه لا يوجد مكان في هذا الكوكب الذي نعيش عليه نجا من الغزو ، أو حال دون هجرة الشعوب إليه حائل . فمنذ ما قبل التاريخ ، وإلى اليوم وإلى ما شاء الله كانت وما تزال وستظل الهجرات تحدث بمختلف الأحجام ، فتنتقل أقوام من مكان إلى مكان ، فتستقر فيه وتمتزج بسكانه الأصليين ، أو السابقين ، أو تقضي عليهم وتحل محلهم ، مما أدى إلى القضاء على ما يسمى « الجنس النقي » الذي أصبح الحديث عنه شبيها بالحديث عن الأساطير والخرافات . ففيما عدا بعض مجموعات معينة من الأنماط البشرية مثل سكان المناطق القطبية الشمالية (الإسكيمو) ، والأقزام ومجموعات السكان الأصليين من الأستراليين الذين ظلوا لفترة طويلة في عزلة تامة عن العالم مما أدى إلى تقوية الملامح الجنسية الخاصة بهم فإنه لا يوجد اليوم أي جنس من الأجناس « نقي » حقا ، في أي مكان . ولقد كان الروائي الإنجليزي « كبلنج » الذي اشتهر بعنصريته الذميمة يعتقد أن بعض الأجناس البشرية التي تتميز بالنقاء كانت توجد في منطقة ما من العالم في بعض الأزمنة ، وأنها كانت تتمتع ببعض الصفات التي لا تتوفر في غيرها من الجماعات مثل الفضيلة والشجاعة والقوة وهو اعتقاد خاطئ بلا جدال ، ففضلا عن أنه لم يتم حتى الآن تعريف المقصود بعبارة « العنصر النقي » فإن عدم وجود أي مجموعة بشرية يمكن أن تتميز عن مجموعة أخرى بصفات حاسمة وقاطعة ويشترك جميع أفرادها في هذه الصفات هو من الأمور التي لم تعد بحاجة إلى تأكيد .

أما إذا كان المقصود بكلمة « العنصر النقي » هو هذه المجموعات المعزولة عن الآخرين بحكم البيئة والعادات لحقب زمنية طويلة ، فإن ذلك يكون جائزا ، فهذه المجموعات موجودة فعلا ولكنها مجموعات بدائية .. إذ إنه لم توجد ولن توجد المجموعة البشرية المتحضرة التي ليست في الأصل خليطا . ويضيف « فيليب ماسون » إلى ذلك قوله : « وإذا كان الأمر كذلك وكان معنى كلمة « عنصر نقي » هو

العنصر المتخلف فهل يصبح من المرغوب فيه الإبقاء على نقاء هذا العنصر ؟ »[1]
بل إن هذه المجموعات القليلة المنعزلة نسبيا قد فقدت خلال خمسمائة السنة الأخيرة ما يطلق عليه « النقاء الجنسي » مما جعل أسطورة الجنس النقي بدعة من اختلاف العنصريين تناقض الحقائق العلمية[2] .

ويقول « سبتينو موسكاتي » : « ففكرة شجرة الإنسان التي تصور توالد الشعوب واللغات شعبا عن شعب ولغة عن لغة لم تعد أمرا يقبل بدون تمحيص . فمن الجلي أنه في العصور السابقة للتاريخ ، كما هي الحال في العصور التاريخية ، ربما كانت العلاقات بين الشعوب واللغات ذات طبيعة معقدة متغيرة نعجز كل العجز عن تتبعها ، ففكرة عملية التباين المطرد يجب أن نكملها ونقومها بفكرة عملية التمازج ، حيث نجد العناصر اللغوية أو الجنسية تتدانى بفضل أسباب سياسية أو ثقافية ولا تتباعد[3] .

ومع ذلك ، وعلى الرغم من وضوح هذا الأمر وبالذات بالنسبة لمن يعتبرون أنفسهم ويعتبرهم غيرهم ممن هم على شاكلتهم ، من أقطاب العلم والفكر لا يتورعون عن الحديث عما يسمى « نقاء الدم » و « أصالة السلالة » ويضعون أحكاما تعسفية لثبوت النسب واستحقاق الوراثة والجدارة بالوطن دون الآخرين الذين يصفونهم بالغرباء والدخلاء الذين منهم على سبيل التمويه ، المغاربة والأتراك والشراكسة ، بينما هم يقصدون كل من كان ، من وجهة نظرهم ، لا يحمل الدم الفرعوني وينتمي إلى السلالة الأصيلة !!

ولا نظن أنه قد غاب عنهم أن الشعوب الأوروبية التي يدينون لها بالولاء لسبب معروف ، ويتحمسون لها ويجندون أنفسهم لفرض ثقافتها وفكرها علينا ، هي الأولى

---

(1) فكرة صائبة عن الأجناس والعنصرية ، صفحة 31 .
(2) نستورخ ، أجناس البشرية ، صفحة 94 .
(3) الحضارات السامية ، صفحة 53 .

بالحديث عن الأحقية بالوراثة وأصالة السلالة لأن عهدها بمن يعتقدون في عرف هذه الفئة ، دخلاء أقرب كثيرا من عهد مصر . ليس ذلك وحسب ، بل إنه إذا جاز الحديث عن الدخلاء والغرباء لكانت شعوب الأمريكتين وجزر البحر الكاريبي ، وأستراليا ونيوزلندا ، وهي الأقاليم التي اغتصبها الأوروبيون منذ قرون قليلة ، وقضوا أو كادوا يقضون على سكانها ، هم الأولى بذلك خاصة وأنها قد سلبت كل حقوقها وحرمت من خيرات بلادها .

والمثير للدهشة حقا ما نلاحظه من اهتمام غير عادي بالفراعنة ، والإصرار على ذكر بنوتنا لهم أو أبوتهم لنا مما لا نجده لدى الشعوب الأخرى التي ورثت آثارا ليست بالقليلة سواء في عددها أو في قيمتها ، فالإيطاليون مثلا لا يقولون عن الرومان القدماء ما نقوله نحن عن المصريين القدماء . ولم نقرأ لعالم أو مفكر من علمائهم ومفكريهم كلاما يقول فيه إنه من نسلهم وإن غيره ليسوا كذلك ، ناهيك عن أن يقال عن رئيس للدولة إنه أول رئيس روماني الأصل منذ ألف سنة مثلا كما زعم الأثري سليم حسن وغيره . وفي إنجلترا التي يرجع أصل الأسرة المالكة فيها إلى إحدى القبائل الألمانية ، لم نسمع أحدا يقول أن إنجليزيا أصيلا أولى من الملكة إليزابيث بالحكم . ولقد كان أكبر القادة العسكريين في الحرب العالمية الثانية وهو المارشال « مونتجمري » من أصل فرنسي وعلى وجه التحديد من مقاطعة « بريتاني » الفرنسية ، ومع ذلك لم يقل أحد إنه أصيل أو دخيل كما تفعل هذه الفئة المغرضة .

وهل أدل على التناقض ، بل والاضطراب الفكري من مثل هذا الكلام الغريب الذي أوقع الشباب في الحيرة ، إذ يقولون لهم إن مصر ظلت تحكم من جانب المغتصبين آلاف السنين بينما يحدثونهم عن بطولة صلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس والسلطان قلاوون وغيرهم من الحكام المسلمين العظام الذين دفعوا عن هذه البلاد شرور التتار وإجرام ووحشية الصليبيين ، فكيف يكونون أبطالا وهم مغتصبون شأنهم شأن من هزموهم ودفعوهم بعيدا عن مصر ؟ ولكن هكذا أراد الأصلاء أصحاب الدم النقي ومن يؤيدهم من الماركسيين الفاشلين والعلمانيين التافهين الذين ليس لديهم من بضاعة غير ما حشا الغرب به رءوسهم من أفكار شاذة .

ولقد أسفرت الكشوف الأثرية التي أجريت في مصر عن وجود مقابر وجماجم تبين منها أن مصر ، منذ عصورها الأولى عرفت شعوبا مختلفة وأقواما متباينين وفدوا عليها من الشرق ومن الغرب ، واختلطوا بمن كان يقيم بها من سكان ، هذا فضلا عمن وفدوا إليها بعد ذلك ابتداء بالهكسوس وانتهاء بالعرب ، أو لنستبعد العرب لأنهم طبقا لمفهوم أصحاب الدم النقي يعتبرون دخلاء ولنقتصر على الأثيوبيين والأشوريين والفرس والليبيين والإغريق والفينيقيين والرومان ، بل والهنود والبربر وشعوب أخرى لا يعلم عددها إلا الله انصهرت كلها في بوتقة واحدة هي مصر فأين كان أصحاب الدم النقي من كل هذا ؟ هل كانوا يقيمون في الكهوف فلم يدروا بما كان يحدث ؟ أم كانوا قد فرضوا على نسائهم « حزام العفة » الذي عرفته أوروبا أثناء الحروب الصليبية ؟ ولماذا لم ينهضوا للدفاع عن حقوقهم والذود عن ميراث أجدادهم ؟ إنهم لو كانوا حقا أحفادا لخوفو وخفرع ومنقرع ورمسيس ومنفتاح وكل هذه السلسلة الطويلة من الملوك الفراعين وسكتوا على الظلم كل هذه القرون لدوت صرخات أبي الهول تملأ أرجاء العالم تعلن تبرؤه منهم ولعنه لهم ، ولعل ادعاءاتهم هذه هي السبب في ابتسامة السخرية التي ترتسم على فم أبي الهول ، والتي احتار العلماء في تفسيرها .

وإذا تغاضينا عما زعمه هذا البعض بشأن نقاء الدم وأصالة السلالة بعد ما ثبت عدم صحته ومخالفته للعلم وللمنطق ، واكتفينا بما زعموه من أنهم أصحاب الحق الأصليين ، فإن هذا الزعم ، على فرض صحته ، لا يعطيهم الحق في أن يكونوا الورثة ، دون غيرهم ، للفراعنة ولحضارتهم . ذلك لأن اعتناق المسيحية على مذهب الطبيعة الواحدة ، وهو مذهب الكنيسة المصرية لا يقوم ، وحده ، دليلا على أن معتنقيه ينحدرون من أصل فرعوني ، على خلاف غيرهم الذين ينحدرون من أصول « بزراميطية » فليس هناك سبب واحد ، معقول لحدوث ذلك ، حتى لو أخذنا بعين الاعتبار ما تقدم من أوجه شبه بين الديانة المصرية القديمة والمسيحية فالديانة الإغريقية هي الأخرى يوجد بينها وبين المسيحية أوجه شبه كثيرة . ولا زلنا لا ندري كنه العلاقة بين الانتماء للفراعنة وبين اعتناق المذهب المونوفيزتي ، وما إذا كان الإيمان

بهذا المذهب هو في حد ذاته دليلا على الانحدار من الفرعونية ونقاء الدم !! وهل إذا اعتنق يهودي ، مثلا ، المسيحية على هذا المذهب يصبح من أصحاب الحق ويصير دمه نقيا أم ماذا ؟ . وهنا يطرح الافتراض العكسي نفسه : ماذا بشأن الأقباط الذين اعتنقوا الإسلام عقب الفتح ، هل يفقدون صفتهم كأصحاب حق ويصبح دمهم غير نقي أم ماذا ؟ خبرونا بالله عليكم يا من نصبتم من أنفسكم أوصياء على الشعوب تصنفونها كما تشاءون .

وليس أدل على الجهل والغفلة من تلك الأقوال والشعارات الفارغة التي تتردد بين الحين والحين وتشتمل على عبارات غاية في الغرابة والشذوذ مثل « مصر للمصريين » وكأن أحدا قد قال إنها ليست للمصريين وإنما للهنود أو لسكان فولتا العليا . و « مصر مقبرة الغزاة » على الرغم من أنه لا توجد في طول البلاد وعرضها مقابر لهؤلاء الغزاة تقوم كدليل على صحة هذا القول ، والمقابر الوحيدة التي يمكن أن تعد كذلك هي الموجودة في العلمين بين الإسكندرية ومرسي مطروح والتي لم يسمها أحد كذلك ، بل نهتم بها ونتعهدها بالعناية والرعاية لأنها كما يقولون تجذب السائحين من ألمان وانجليز . فأين هي مقابر الغزاة أيها الورثة الأنقياء ؟ هل تريدون أن تعرفوا ، إذا لم تكونوا قد عرفتم ؟ اسألوا علماء الوراثة والأجنة وكل ما يتعلق بالتناسل ويتصل بالأرحام وسوف يخبرونكم .

هذا الشعار العجيب « مصر مقبرة الغزاة » وهو الشعار الطنان الذي ينبعث كلما تعرضت مصر للعدوان ، نخطه على الجدران ونكتبه في الصحف والمجلات بخط أحمر كبير دون أن نفكر في معناه الحقيقي ، وإنما نفهمه بمعناه اللفظي وهو أن مصر مقبرة حقيقية للغزاة بينما الحقيقة غير ذلك . فالمعنى أن الغزاة ينصهرون في الشعب المصري ويمتزجون به بعد حين حتى يصبح من المتعذر التمييز بينهم وبينه . حدث هذا مع الأثيوبيين والنوبيين والليبيين والإغريق ، بل والهكسوس أيضا على الرغم مما يقال من أنهم لم يمتزجوا بالمصريين و لم يحدث أبدا منذ أن عرفت مصر الغزاة على اختلافهم أن انعزلت عنهم أو انعزلوا عنها طالما أنه كان في جيوش الغزاة رجال وكان في مصر نساء فلابد من حدوث الاختلاط .

لاحظنا مما تقدم كيف تتابعت الأفكار أو الأوهام فكرة وراء فكرة وهما وراء وهم . وكل فكرة منهما تكمل الأخرى وترتبط بها ، تماما كتلك القطع من العصي التي تلتحم ببعضها من عند أطرافها ذات النهايات الحلزونية ، إلى أن تتكون منها عصا طويلة يستطيع من يستخدمها أن يصل بها إلى موضع الانسداد فيخترقه بدفعة واحدة قوية أو بدفعات متتابعة ، حسبما تقتضيه الحال . فمن فكرة القومية المصرية (الفرعونية) إلى فكرة (أصحاب الحق الأصليين) إلى فكرة (السلالة النقية والدم الذي لم يخالطه دم آخر غريب) ، إلى فكرة (العصر القبطي) .

وهذا الانتقال من فكرة إلى أخرى لم يحدث عفوا ، كما أنه ليس بالحركة العشوائية ، وإنما هو انتقال تم التخطيط له بدقة وإحكام وبعد دراسة وبحث ، وذلك من أجل بلوغ هدف محدد كما سبق أن قلنا .

وسوف نلاحظ أنه كلما مضينا مع أفكار هذه الفئة وتتبعنا أوهامها ازددنا اقترابا من الهدف الذي ترمي إلى بلوغه ، ورأيناه واضحا جليا ينتصب في الأفق الغارق في حمرة الغسق وكأنه وحش رهيب يدق الأرض بقدميه الضخمتين وهو يتقدم في ثبات نحو ضحيته المسكينة مصر لكي يمزقها إربا .

ونحن إذا رصدنا مقولة أو وهم « العصر القبطي » ومحصناها وأخضعناها للبحث والتحليل فسوف نلاحظ أن موقعها يتحدد وراء المقولات السابقة وأنها تكون معها منظومة يربط بين وحداتها هدف واحد . فما هي هذه المقولة وما هو معناها ؟

العصـــر القبطـــي :

قد تعتري الدهشة البعض إذا علموا أن أول من دعا إلى إطلاق وصف العصر القبطي على حقبة معينة من التاريخ لم يكن من أصحاب الدم النقي وإنما هو من الغرباء أو الدخلاء الذين لا يجري في عروقهم الدم الفرعوني ، أو على الأقل توجد منه كمية ضئيلة تسربت إلى عروقه بطريقة أو بأخرى . ولكن لأنه يضمر نفس المشاعر نحو الإسلام ، بحكم كونه ماركسيا متحمسا لديه الاستعداد لعمل أي شيء من أجل عزل الإسلام والحيلولة دون قيامه بدوره ، فقد رأى من واجبه أن يضع

بذرة في الحقل الملعون ، ثم يتركها لأصحاب الشأن ليعتنوا بها إلى أن تنمو وتطرح ثمارها الشيطانية .

فمنذ ما يقرب من العشرين عاما نشرت مجلة الطليعة دراسة للدكتور إسماعيل صبري عبد الله اقترح فيها وببساطة شديدة العدول عن استخدام كلمات « فن وأدب » قبطي إلى استخدام كلمة عصر قبطي . ليس ذلك وحسب بل واقترح أيضا وببساطة أشد أن نضع العصر القبطي المزعوم محل العصر الروماني ، وادعى بجرأة لا يحسد عليها أن العصر القبطي « يغطي قرونا ستة ما بين اعتناق المصريين المسيحية وبين الفتح العربي ، فقبل هذا لم يطرأ تغيير جذري مع عناصر الحضارة المصرية القديمة . أما في العصر القبطي فقد ظهرت معالم جديدة » .

هكذا وببساطة شديدة لا ندري بماذا نسميها ؟ ألغى الرجل عصرا وأحل محله عصرا آخر دون أي سند أو دليل . ولو أنه قصد بكلمة « قبطي » المعنى الحقيقي لها وهي مصري ، حيث أطلقها الإغريق على المصريين منذ ما قبل القرن العاشر قبل الميلاد ، لقلنا إن حماسه لمصر في العصر الروماني وغيرته على فنها وأدبها من أن تظل بلا هوية هو الذي دفعه إلى أن يقول هذا الكلام ، على الرغم من أن هذا الدافع أو غيره لا يغير من الحقيقة شيئا . ولكن الدكتور إسماعيل صبري حدد بدقة متناهية ما يرمي إليه وذلك حين قال إن الحقبة التي يدعو إلى تغيير وصفها تغطي قرونا ستة ما بين اعتناق المصريين المسيحية وبين الفتح العربي ، أي أنه يقصد بـ (قبطي) المسيحي المصري وهو بذلك يكون قد وقع في خطإ تاريخي ، فضلا عن أخطاء أخرى كثيرة سوف نبينها للقارئ . فهو جعل للعصر القبطي المزعوم بداية مبكرة جدا تسبق ظهور المسيحية لا في مصر فقط بل وفي أي مكان آخر غير فلسطين ، بل وقبل أن يسمع الناس شيئا عن المسيح ذاته ، وله أن يرجع إلى المؤرخين القدامى أمثال « بليني » ويوسفيوس .

ثم إننا لو تجاوزنا عن هذا الخطإ فإن هناك خطأ كبيرا أكبر منه يتعلق بطبيعة الفن والأدب فبناء على ما قاله يكون الناس في مصر ممن كانت لديهم قدرات إبداعية في مجال الفن والأدب قد بادروا إلى إنتاج فنون وآداب مسيحية حالما سمعوا عن المسيح أو حتى رأوا داعية مسيحيا ، وهو ما لا يمكن تصوره بالنظر إلى ما هو

معروف من اختلاف الإنسان عن الآلة فهو لا يعمل بأزرار بحيث إذا وجهناها يمينا أنتج فنا وأدبا إغريقيين ، وإذا وجهناها يسارا أنتج أدبا وفنا قبطيين أو مسيحيين . كلا يا دكتور إسماعيل فأنت رجل تتعاطى العلم أو لتقل عالما ، ثم إنك ماركسي شديد الاهتمام بالمناهج والأدوات والنظريات ولا نظن أنك يمكن أن تتساهل مع شخص أخطأ في حق ماركس أو إنجلز أو لينين بأن قال كلاما من شأنه إحداث تداخل بين المفاهيم أو خلط بين المصطلحات . ولا نظن أنك تجهل أن مصطلح « عصر » لا يطلق إلا إذا توفرت شروط معينة ، وأنه في مثل هذه الأمور لا يكون الحماس أو الغرض أو أي دافع آخر مبررات مقبولة للتجاوز عن خطإ رجل مثلك .

كذلك فإن الدكتور إسماعيل صبري لم يحدد لنا ما يعنيه بـ (التغيير الجذري) الذي حدث في عناصر الحضارة المصرية القديمة في ما أسماه « العصر القبطي » ولم يكن قد حدث قبل ذلك ؟ هل صنع المباخر والصلبان والقلل وبعض أنواع النسيج والصور هي مما يصح أن نطلق عليه وصف عصر « وحضارة » ؟ لو أن الأمر كان كذلك فمعناه أن الفن هو الحضارة ، وهذا ما لم يقل به أحد ، حتى ولا الدكتور نفسه الذي إذا سألناه عن الحضارة السوفيتية فسوف يذكر لنا كما هائلا من الأشياء والأمور وليس الفن وحده .

ولعله يعلم أن مفهوم الحضارة ليس بالبساطة التي تناوله بها ، فقد اختلف العلماء بشأن تحديده وتعريفه ولا يزالون مختلفين .

أما الخطأ الكبير الذي وقع فيه وأتاح الفرصة لغيره ليستغله ، فهو إطلاقه وصف « عصر » على الفترة الزمنية التي ظهر فيها ما يسمى بالفن القبطي . ولسنا ندري كيف فهم كلمة « عصر » فاقتراحه إحلال عصر محل عصر بهذه البساطة الشديدة يدل بوضوح على أنه لم يرجع إلى المعنى الاصطلاحي للكلمة ، وهو معنى لا يختلف في مصدر عنه في الآخر . فقد جاء في دائرة المعارف الأمريكية أن العصر Era هو الحقبة الزمنية التي تقع بين حدثين كبيرين وجاء في المعجم العربي الأساسي « عصر » : زمن طويل « العصر الحجري » ، زمن ينسب إلى شخص أو دولة أو حدث . وفي قاموس المورد : نظام كرونولوجي يبدأ من نقطة زمنية محددة تميزت

بحادثة هامة ، حدث هام يستهل به عهد ما . فأين هو الحدث الهام أو الشخصية الهامة أو الدولة التي يمكن أن ننسبَ إليها أو إليه ما يسمى بالعصر القبطي ؟ وهل لاحظ الدكتور فيما قرأه ، وهو كثير ، أن الفن كان وحده العامل الذي يؤرخ به لقيام حضارة وسقوطها أو لبداية عصر وانتهائه أم أنه مجرد عنصر واحد من بين عناصر كثيرة ، بل وعنصر تابع لغيره لأنه نتيجة لعوامل تتفاعل في إطار « العصر » وليس مستقلا .

والغريب في الأمر أن الدكتور إسماعيل صبري يحدد نهاية « العصر القبطي » بالفتح العربي ، ولم يحدد لنا لماذا فعل هذا . كذلك جعل بداية العصر القبطي ستة قرون قبل هذا الفتح أي ستمائة سنة ، ولما كان الفتح العربي قد حدث في سنة 642 ميلادية فمعنىٰ ذلك أن « العصر القبطي » يبدأ سنة 42 ميلادية أي وقت أن كان السيد المسيح قد بدأ رسالته التي تهدف إلى هداية خراف إسرائيل الضالة ففي ذلك الوقت كانت أقواله تنقل بطريقة أو بأخرى إلى المصريين الذين أبدوا حماسا وإيمانا لم يبدهما اليهود في فلسطين للرسول الذي جاء لهدايتهم . ليس ذلك وحسب بل إن الفن والأدب انقلبا رأسا على عقب ليسايرا الدين الجديد فبدأ على الفور يظهر فن قبطي وأدب قبطي واختفى كل ما هو روماني !! وليس من شك في أن الدكتور لم يقرأ شيئا عن دخول المسيحية إلى مصر ، ولو أنه فعل لعلم أن انتشارها في مصر كان في أول أمره بطيئا جدا بحيث اقتصرت على عدد محدود من الناس الذين لا علاقة لهم بفن أو بأدب . وحتى القرن الرابع عندما صدر إعلان قسطنطين كان عدد الوثنيين في مصر أكثر من عدد المسيحيين وهو ما كشف عنه ارتداد « جوليان » .

وجريا على عادةٰ أصحاب فكرة أو وهم السلالة النقية أو الأصلية في استغلال التاريخ بطريقة تخدم أهدافها بحيث يظهر أفرادها أمام الناس كأنهم لا ينطلقون من فراغ ، فقد التقطوا عبارة « الفن القبطي » ليحولوها إلى « العصر القبطي » . وببساطة شديدة مضوا يرددون هذه العبارة الأخيرة وكأن ذلك أمر عادي . ولقد كان من المحتمل أن يكون كذلك لولا ما سبق من ترديدهم للأفكار التي تجعل لطائفة

من شعب مصر حقوقا ، وتوحي إليهم بالعمل من أجل استردادها .

وكما كان متوقعا ، فإن هذا الخطأ غير المقصود ، أو المقصود أخذ طريقه إلى كتابات أصحاب الحق الذين بادروا إلى دسه في السياق التاريخي ليأخذ مكانه بين الأوهام والأحلام ؛ ففي صحيفة الأهرام الصادرة بتاريخ 9 مايو 1990 قال الدكتور غالي شكري في مقال له عنوانه « ثقافة الوحدة الوطنية » يعدد العصور التي مرت بها مصر ، إنها أي مصر « كانت متعددة الأديان والمذاهب سواء في عصر الفراعنة ، أو في عصر اليونان والرومان ، أو في العصر القبطي ، أو في العصور الإسلامية المختلفة » فكأن الدكتور غالي لم يقتنع بما اقترحه الدكتور إسماعيل صبري من إحلال العصر القبطي محل العصر الروماني لسبب ما فأبقى عليه وحشر ما أسماه العصر القبطي بينه وبين العصور الإسلامية . وهو بذلك لم يحذف من التاريخ عصرا كاملا واكتفى بإضافة عصر جديد بكل ما تعنيه الكلمة من معنى . وهكذا يكون الفتح العربي قد أنهى عصرا قبطيا بأحداثه ومقوماته ومظاهره ، وبمعنى آخر يكون هذا الفتح قد سلب أصحاب الحق حقهم . ولم لا وقد كان العصر عصرهم أقاموه في أعقاب العصر الروماني الذي لا ندري كيف انتهى وما هو الحدث الجلل الذي أنهاه ، طبقا لتعريف العلماء لمفهوم « العصر » .

والواقع أننا باعتبارنا مصريين ، كنا نتمنى أن يكون هناك عصر قبطي أو « إيجيبتي » بدلا من العصر الروماني ، أو حتى قبله ولكن التاريخ ، كما هو معروف لا يعبأ بالأمنيات ولا يعيرها اهتمامه ، سواء عند كتابته ، أو فيما بعد فلا أحد يصدق ما يدعيه فرد أو جماعة بشأن أحداث لم تقع ، ولكنه قد يولي هذه الادعاءات اهتمامه باعتبارها تكشف عن رغبات أو نوايا يراد لها أن تتحقق .

ومع ذلك فإننا لا يجب أن ننكر ما يتمتع به الدكتور غالي شكري من كرم وتسامح حيث إنه أبقى على العصور الإسلامية في موضعها بعد العصر القبطي ، وإن كان لم يقيمها من حيث دورها في رحلة التمدن العالمية . وربما يكون السبب في ذلك أنه فيما كتبه لم يكن معنيا بهذا الأمر ، على خلاف زميله الدكتور أمير بقطر الذي ضرب بالموضوعية والأمانة العلمية وكل ما تعارف عليه الناس من قيم ومثل

عرض الحائط وألغى بجرة قلم الحضارة الإسلامية ، ودورها في التمدن العالمي ووضع الحقبة التاريخية التي ساد فيها الإسلام فيما أسماه « العصور المظلمة » التي جعل بدايتها عام 400 بعد الميلاد ونهايتها عام 1300 . وذلك حين قال :

« لقد مر بالحضارة الإنسانية ثلاث مراحل . المرحلة الأولى عصر الأنهار التي زهت فيها المدنية وترعرعت على ضفاف الأنهر الكبرى في العالم القديم – الفرات ودجلة والنيل العظيم . والمرحلة الثانية عصر البحر المتوسط ، وهي الفترة التي ازدهرت فيها الحضارة الإغريقية والرومانية ، أي في سنة 800 قبل الميلاد إلى سنة 400 بعده . ثم استولى على الحضارة الإنسانية سبات عميق حينما أرخت عليها العصور المظلمة سدولها منذ سنة 400 بعد الميلاد تقريبا إلى سنة 1300 بعد الميلاد . ثم نهضت الحضارة من هذا السبات الطويل فجاءت المرحلة الثالثة ، وهي عصر الحضارة الأطلنطية التي تلألأت أنوارها على جانبي المحيط الأطلسي منذ 1300 بعد الميلاد إلى عصرنا الحاضر حتى أبهرت الأبصار وأذهلت العقول » .

وبطبيعة الحال ، فإنه لا يوجد تفسير لهذا الذي قاله « الدكتور » أمير بقطر غير أن يكون لسبب أو لآخر لم يقرأ كتابا في التاريخ ، سواء بالعربية أو بغيرها من اللغات ، أو أن يكون على درجة من التعصب بلغت من الشدة حدا جعله عاجزا عن رؤية الحقيقة التي لا يمكن أن تخفى على أحد .

إننا لو سألنا سائقا في أسبانيا عن الحضارة العربية الإسلامية لأخبرنا بما يملأ كتابا ، فما بالنا بـ (دكتور) لم يسمع عن هذه الحضارة وهو يعيش في بلد لا يخلو موضع فيها من أثر عظيم ينطق بما كان عليه المسلمون من حضارة ومدنية ، لكنه التعصب الذي يعمي الأبصار فيجعل رجلا ينتسب إلى العلم يعجز عن رؤية الآثار الإسلامية على الرغم من أنها تطالعه أينما ولى وجهه .

وهكذا تتابعت الأوهام والأحلام ، كل واحد منها يكمل الآخر فمن وهم القومية المصرية « الفرعونية » إلى وهم « مصر للمصريين » وكأن أحدا قال إن مصر ليست للمصريين ، إلى وهم « السلالة الأصلية » وأصحاب الدم النقي وكلاهما ألقى

ضوءا على المقصود بمصر للمصريين ثم وهم « العصر القبطي » الذي أريد به تحديد الزمن الذي ضاع فيه الحق . ولم يبق في « الجراب » إلا القليل ، والقليل جدا .

وقبل أن ننهي هذا الفصل نتناول وهما آخر ذكرته الدكتورة سميرة بحر . وهو وإن كان قوي الصلة بالفصل الأخير من هذا الكتاب الذي خصصناه للميراث والورثة غير أن تناوله في نهاية الفصل الرابع هو بمثابة توطئة للفصل الخامس . فالدكتورة سميرة بحر ، متأثرة بالأوهام التي تقدم الحديث عنها ، تصورت أن الفراعنة قد تركوا ميراثهم الضخم لطائفة معينة ، أو على سبيل التحديد لهيئة معينة ، دون هيئات ومؤسسات المجتمع المصري هي الكنيسة القبطية .

ونحن وإن كنا نقدر الدوافع التي جعلت الدكتورة سميرة بحر تقول في معرض حديثها عن الكنيسة القبطية إنها « في تراثها العريق قد ورثت الحضارة المصرية في جميع مناحيها ، في اللغة والأدب والفن ، حتى أن من أراد أن يعرف عن مصر القديمة ، لا مندوحة له أن يتوقف أول ما يتوقف عند الكنيسة القبطية ويتأمل تراثها وما حملته في أحضانها عبر التاريخ وما رعته وحافظت عليه من ذخائر الماضي التليد ، تراث جعل الأقباط يختلفون جذريا عما يشار إليه على أنه فئات أو أقليات أخرى عاشت في مصر كاليونانيين والإيطاليين والمغاربة والأتراك والأرمن واليهود وغيرها من المجموعات البشرية المتباينة التي استوطنت مصر »[1] فهي دوافع لا شك في نبلها لأنها تنبع من الرغبة في إحراز المزيد من الالتحام والعلاقات الحميمة مع الغالبية المسلمة ، وهو ما يدل عليه استخدامها لكلمتي : فئات أو أقليات ، اللتين يبدو أنهما لاترضيانها ، على الرغم من أن استخدام هذه الكلمة أو تلك لا يتجاوز في معناه الدلالة العددية .

ومع ذلك فإننا لا نوافقها على ما ذهبت إليه من إقامة ما سمته بالاختلاف الجذري على موضوع وراثة الكنيسة للحضارة المصرية . وذلك لسببين : الأول ، أن الحضارة المصرية القديمة وغير القديمة ليست ميراثا لأحد أو لجهة بالذات ، وإنما هي ميراث لكل المواطنين . وهو ما سوف نعرض له في الفصل التالي . أما السبب

---

(1) الأقباط في الحياة السياسية المصرية ، صفحة 7 .

الثاني ، فإن من أسمتهم بالمغاربة والأتراك وتقصد بهم الفاطميين والعثمانيين ، كانوا ولا يزالون أعضاء في الأمة الإسلامية ، وأقاموا دولا إسلامية دافعت عن البلاد الإسلامية بما فيها مصر ، وبذلوا دماءهم وأموالهم في سبيل ذلك ، وكان للأتراك فضل حماية المسلمين من السقوط فريسة في أيدي الصليبيين ، سواء قبل قيام الدولة العثمانية أو بعدها . وأعتقد أن الدكتورة سميرة بحر لن تختلف معي فيما للحياة والحرية من أفضلية على ما تسميه تراثا حافظت عليه هذه الجهة أو تلك ، فما جدوى أن تكون لدينا أهم الآثار وأعظمها بينما تستعبدنا دولة أجنبية ، تترية أو صليبية ؟

أما قولها إن الكنيسة القبطية « ورثت الحضارة المصرية في جميع مناحيها ، في اللغة والأدب والفن » فإنه كان يجب عليها أن تذكر لنا كيف ورثتها ومتى وبأي حق ؟ وما هو وضع من لا ينتمون إلى هذه الكنيسة من هذا الميراث ؟ . ليس ذلك وحسب ، بل إنها لم توضح ما إذا كان هذا الميراث يقتصر على الآثار الفرعونية فقط ، أم يشمل غيرها مما خلفه الإغريق والرومان ، وإذا لم يكن يشمل هذه الآثار فمن هم الذين لهم الحق في أن يرثوها وأشك كثيرا في أن الدكتورة سميرة بحر لديها إجابات على هذه الأسئلة ، وأشك أكثر في استعدادها لتقديم هذه الإجابات لو أنها كانت لديها وذلك لسبب بسيط هو أن ما قالته ليس له علاقة بالعلم لا من بعيد ولا من قريب وإنما هو كلام من إملاء العاطفة ليس أكثر ، ومثله لا يمكن البرهنة على صحته . وهنا تبرز مشكلة من أخطر المشكلات التي نواجهها في سعينا للأخذ بالأسلوب العلمي عند تصدينا لمشكلاتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ألا وهي عدم احترام كثير من المفكرين والباحثين والعلماء أو من يتعاطون العلم للمناهج العلمية والأساليب العلمية السليمة والحقائق المستقرة وذلك بسبب يرجع إلى الأهواء والأطماع والعواطف التي كثيرا ما تتسلط عليهم وتتحكم في أفكارهم فتجعلهم يديرون ظهورهم إلى الحقائق ويولون وجوههم نحو الأوهام وقد غلب على ظنهم أن الناس جميعا على خطإ وهم وحدهم على صواب ، أو معتقدين أن الناس في حالة من الغفلة مما يجعلهم غير قادرين على التمييز بين الحقيقة والوهم وبين الخطإ

والصواب . ولكنهم ، في الحقيقة واهمون . صحيح أن الحقائق قد تختفي تحت طبقات من غبار الأكاذيب ، ولكنها دائما ، شأنها في ذلك شأن الماس ، سرعان ما تتألق ويشع بريقها إذا ما أزيل عنها الغبار .

الفصل الخامس

الميراث والورثة

الفرعونية من حيث كونها ميراثا يدعي الأحقية به فريقان ، أحدهما غير محدد العدد ولا تتوافر لديه أسانيد واضحة أو براهين ساطعة أو أدلة قاطعة تدل على وجود صلة ما بينه وبين المورث ، وإنما يكتفي بوجوده في بيت هذا المورث كدليل على وجود رابطة بنوة مباشرة بينه وبينه تمنحه الحق في أن يرثه . وهذا الفريق يضم عددا لا بأس به من المفكرين المسلمين الذين يدينون بالولاء للغرب ويحملون أمانة الدعوة إلى أفكاره ومبادئه واتجاهاته ومواقفه . ولعل أبرزهم أحمد لطفي السيد وطه حسين وحسين فوزي صاحب التصريح الشهير في حيفا المغتصبة .

أما الفريق الآخر ، فإنه يتميز عن الفريق الأول في أمور كثيرة ، فهو يضم طائفة محددة من الناس ويسند ادعاءه بحقه في الميراث ببراهين وأدلة أجاد اصطناعها وأتقن ترتيبها حتى بدت للوهلة الأولى وكأنها صحيحة مائة بالمائة ، فاستطاع بذلك أن يوهم الكثيرين من أعضاء الفريق الأول بصحة دعواه وعدالة مطلبه . وبطبيعة الحال فإن الأمر ليس أمر كثرة ، خاصة إذا كانت هذه الكثرة ، إما جاهلة بحقائق التاريخ ، وإما جاهلة بكل شيء بما في ذلك حروف الأبجدية . فهناك دائما فرق واضح بين الحق وبين الباطل ، وبين الصدق وبين الكذب ، وبين الأمانة وبين الخيانة وهكذا . فإن يكن الباطل مغريا والكذب براقا والخيانة جذابة فليس معنى ذلك أنها اكتسبت صفة الحق أو الصدق أو الأمانة ، حتى لو انخدع بها معظم الناس . ولو كان اعتقاد الناس في شيء واقتناعهم به ، رغم ما فيه من قبح وشر ، من شأنه أن يضفي عليه الشرعية أو يجعله مباحا ، أو يضمن له البقاء لكنا ، إلى الآن ، نعبد الأصنام التي كانت الشعوب القديمة ، على إختلاف أوطانها تسجد لها وتقدم القرابين .

وقبل أن نتعرض لادعاءات هذا الفريق أو ذاك بالدراسة والبحث لنبين مدى صدقها أو حتى جديتها ، فإننا سنوجه السؤال التالي إلى هؤلاء الذين يدعون أنهم أصحاب الدم النقي والورثة الوحيدون للفراعنة ، ما الهدف من ترديد هذا الكلام ؟ وما غرضكم من تزييف التاريخ ؟ تصوروا وأنتم الذين تستلهمون الغرب في كثير من الأمور وتباهون بنظمه وأوضاعه وأحواله أن بعض الإنجليز خرجوا على الناس بادعاءات مماثلة لادعاءاتكم وزوروا على الناس تاريخا كما زورتم بأن قالوا إنهم أحق من غيرهم بالانتساب إلى الكلتيين أو البريطون أو ذموا النورمانديين أو الساكسون فما الذي تتصورون أنه سيحدث ؟ هل سيقابل كلامهم هذا بالصمت ؟ أم أن كثيرين سوف ينبرون لهم ، لا نقول مفندين أكاذيبهم ، بل نقول موجهين إليهم السؤال الذي وجهناه إليكم وهو : إلى ماذا تهدفون وما هو غرضكم ؟ أو على الأقل سيسألونهم : ما أهمية هذا الموضوع ؟ ولماذا يثار ؟ وما الفائدة التي ستعود على الإنجليز من إثارته ؟ أما عندنا فإننا للأسف الشديد لم نتعود أن نطرح الأسئلة التي تتعلق بالأمور الهامة والخطيرة . ولذلك ترانا نتقبل معظم ، إن لم يكن كل ما يقال لنا على أنه صحيح وحقيقي .

والأدهى من ذلك أن شيوع حالة « المعلمة » أو ادعاء العلم والتظاهر بالثقافة بلغ مستوى الظاهرة الجديرة بالاهتمام نظرا لما تؤدي إليه من عواقب وخيمة أصابت المجتمع بأضرار فادحة ، حيث إنه في مثل هذا الجو تشيع الأكاذيب وتنتشر الافتراءات ، ويصبح طمس الحقائق وترويج الأباطيل أمرا سهلا ، نظرا لما يتوافر لدى أدعياء العلم ومنتحلي صفة المثقفين من استعداد لترديد كل ما يصل إلى أسماعهم أو يقع عليه نظرهم من معلومات أو معارف دون أن يجشموا أنفسهم عناء التحري عن مدى صدقها أو البحث فيما إذا كانت صحيحة أو كاذبة . وإنما يكتفون بترديدها لإظهار مدى ما هم عليه من اطلاع والإعلان عما حصلوه من علم .

ومما يضاعف من خطورة هذا الوضع ما يتسم به هؤلاء الأدعياء من عناد واضح إزاء الحقائق ، وإعراض شديد عن مواجهتها إذا تيسر لهم ذلك ، نظرا لما يتملكهم من إحساس مبالغ فيه بالثقة بأنفسهم يصل إلى درجة الغرور ، يجعلهم لا يقبلون بأي

حال التنازل عما التقطوه من أفكار أو استعاروه من آراء خاطئة ، ظنا منهم أن ذلك أمر يمس ذواتهم وينال من شأنهم ويحط من قدرهم .

أما الإجابة على هذه الأسئلة التي افترضنا أن الإنجليز أو غيرهم من الشعوب الغربية سوف تطرحها إذا أثيرت لديها مثل هذه القضايا فإننا نعتقد أن القارئ الذكي قد عرف إجاباتها منذ أن قرأ الفصل الأول من هذا الكتاب وبقي أن نتلقى إجابة الذين لا يكفون عن إثارة هذه القضايا .

ولا زلنا مع موضوع الميراث والورثة . فمما لا شك فيه أن ميراث المصريين القدماء شأنه شأن أي ميراث ضخم وعظيم ، كفيل بأن يغري الكثيرين بانتحال صفة الورثة ، والادعاء بوجود علاقة قرابة بينهم وبين أصحاب الميراث ، ومن اصطناع الأدلة وافتعال البراهين التي تثبت حقهم في الحصول على التركة ، كلها أو بعضها . غير أن ميراث الأمم يختلف عن ميراث الأفراد سواء من حيث طريق انتقال ملكيته ، أو من حيث أسلوب توزيعه . فبينما ميراث الأفراد ينتقل من المورث إلى الوارث إذا قام الدليل على وجود علاقة قرابة من درجة ما بينهما ، طبقا لما تنص عليه الشرائع والقوانين ، فإن ميراث الأمم ينتقل إلى الوارث الذي تقوم علاقة مصاهرة أو نسب بينه وبين المورث ، أو ينتقل إلى من وضع يده زمنا كافيا على الإقليم الذي يوجد فيه الميراث نفسه . فليس بشرط أن يكون الوارث قريبا من الدرجة الأولى أو الثانية أو من أي درجة كانت للمورث ، وإنما يكفي أن يكون قد ارتبط بأقرباء المورث برابطة المصاهرة أو النسب لكي يكون له الحق في أن يشاركهم ميراثهم وهو ما يحدث عندما تمتزج أمة غازية بأمة مغزوة .

وكذلك عندما يحتل شعب أرض شعب آخر ويقيم بين ظهرانيه ، كما حدث في الأمريكتين وفي أستراليا ، وفي نيوزيلندا أو غيرها . فالحكومات الأمريكية ، سواء في نصف القارة الشمالي أو في نصفها الجنوبي أو في وسطها ، وكذلك الحكومتان الأسترالية والنيوزيلندية ، باسم شعوبها هي الوارثة لما تركته الشعوب التي كانت تعيش في هذه المناطق ، ولا يستطيع أحد أن يجادلها في هذا ، حتى ولو كان من أبناء الشعوب التي كانت تعيش في هذه الأقاليم قبل أن يستولي عليها الأوروبيون .

كذلك فإن أسلوب توزيع الميراث يختلف بالنسبة للأفراد عنه بالنسبة للأمم . فبينما تتم عملية توزيع الأنصبة على الأفراد الذين ثبت حقهم في الميراث بحسب درجة قرابتهم أو غير ذلك من الشروط ، فإنه بالنسبة للأمم لا تقع عملية توزيع من أي نوع ، نظرا لعدم قابلية الميراث للتجزئة أو للتمليك ، وإنما يتساوى الجميع في الانتفاع بالتركة بحيث لا يئول لأحد منهم أي جزء منها .

وعلى الرغم من استقرار هذا الوضع بالنسبة لكل أمم الدنيا التي آل إليها ميراث الأمم السابقة ، فإن الوضع اختلف بالنسبة للمصريين القدماء ، حيث ادعى البعض أنهم الورثة وحدهم ، دون غيرهم وأنهم بالتالي أصحاب الحق الأصليون ، ومضوا يدللون على صحة ادعاءاتهم بأدلة اصطنعوها وبراهين افتعلوها ، قاصدين من ذلك إسقاط حق غيرهم في الانتساب إلى الفراعنة ووصفهم بأنهم دخلاء وغرباء وطارئون ليس لهم الحق في أن يعيشوا على الأرض التي تركها الفراعنة لأحفادهم ذوي الدم النقي الذين لهم الحق وحدهم في إدارة شئونها وتوجيه دفة الأمور فيها بحسب ما يتفق ومصالحهم وهو موقف غريب وغير معقول ، حتى ولو افترضنا صحة ادعاءاتهم وسلمنا بصدق أدلتهم وسلامة براهينهم ، لأن مقتضى ذلك أن تعيد كل أمم الدنيا النظر في أصول شعوبها لترى أي طائفة أو فئة من هذا الشعب أو ذاك هي صاحبة الحق في ميراث الأمة الأصلية دون غيرها من الطوائف الداخلة في تكوين الشعب ، وبالتالي تستأثر دونها بالحق في إدارة شئون الدولة وتوجيه دفة الأمور فيها ، وتعيد إلى الوجود بالتالي نظام السادة والعبيد الذي كانت تطبقه الشعوب القديمة ، أو على الأقل تقسم الشعب إلى مواطنين ورعايا ، أو إلى مواطنين من الدرجة الأولى وآخرين من الدرجة الثانية .

ونظن أنه لن يتم استثناء شعب من الشعوب من عملية المراجعة هذه ، سواء أكان في الشرق أم في الغرب . ويا حبذا لو أن هؤلاء الأدعياء مضوا إلى أبعد من هذا فطالبوا بالاستئثار ، لا بالميراث الحضاري فقط ، بل وبالأرض أيضا فدعوا إلى إعادة العناصر التي ثبت عدم انتمائها إلى الشعب الأصلي إلى حيث جاءت . وهكذا يعاد توزيع السكان من جديد على خريطة العالم لتعود الأوضاع إلى ما كانت عليه

في العصور الموغلة في القدم ، ويسترد كل شعب اسمه الأول الذي عرف به قديما كالمصريين والأشوريين والبابليين والفينيقيين والإغريق والسلت أو الكلت والغاليين وغيرهم ويتم إخلاء الجزر البريطانية ممن يثبت أنهم من أصل دانماركي أو ساكسوني أو نرماني أو غير ذلك من الشعوب التي وفدت عليها . وكذلك فرنسا وإسبانيا وألمانيا وإيطاليا[1] وغيرها من الدول . أما أمريكا بقسميها الشمالي والجنوبي ، فلا نظن أن أحدا سيبقى فيها غير الهنود الحمر بعد أن يتم إجلاء كل من هاجر إليها منذ اكتشافها إلى الآن ، وكذلك أستراليا ونيوزيلندا وكل الجزر التي استعمرها الأوروبيون .

ليس ذلك وحسب ، بل إن الشعوب التي عاشت في العالم القديم لن تنجو بدورها من عملية المراجعة هذه ، حيث ثبت من البحوث العلمية التي أجراها العلماء أن هجرات كبيرة وأخرى صغيرة وغزوات قد حدثت في العصور الأولى من عمر البشرية وأدت إما إلى طرد الجماعات الأصلية من مواطنها التي كانت تقيم فيها ، وإما إلى الإبقاء عليها والعيش معها والامتزاج بها .

حدث هذا بالنسبة لسكان مصر الأول ، حيث وفدت إليها جماعات أخرى ، سواء من الجنوب ، أو من الشرق أو من الشمال . وحدث مثله للشعوب الأخرى التي كانت تقيم في وديان الأنهار . بل إن سكان أوروبا ليسوا إلا نسل الجماعات والقبائل التي هاجرت من الشرق إلى الغرب قديما . ويقول « فيليب ماسون »[2] : إذا ما دقق عالم في الأجناس البشرية نظره في عينات البشر التي يمر عليها في رحلة يقوم بها من شمال السويد إلى جنوب إيطاليا فإنه يصادف أول ما يصادف الجنس الشمالي الذي يتصف بالقوام الفارع والرءوس الطويلة والشعر الأشقر .. ثم ما يلبث أن يصادف في منتصف الرحلة الألبيين الأقوياء ذوي الرءوس المستديرة والعيون العسلية ، وأخيرا يصل في نهاية الرحلة إلى شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط الذين يتميزون بلونهم الداكن قليلا وبالرءوس الطويلة .

---

(1) فكرة صائبة عن الأجناس والعنصرية ، صفحة 22 .

(2) E . H . Dance : Europe and The Old World , British and Foreign History . Book 1 . p. 83 .

وفي رحلة أخرى يبدؤها هذا العالم من الأورال إلى بريتاني فإنه سوف يلاحظ نفس الاختلاف . وعلى أية حال فإنه يصل في نهاية كل من الرحلتين إلى أناس يختلفون تماما عن هؤلاء الذين بدأ من عندهم في كل رحلة . كذلك يصادف المسافر من بيشاور إلى مدراس أو كلكتا عبر لاهور ولكناو نفس الحالة .

وبطبيعة الحال ، فإن هؤلاء الناس وأولئك ليسوا نباتا وضعت بذرته في تربة هذه الأقاليم ، منذ البداية فنضج وأثمر وظل يخضع لهذه العملية عبر السنين دون أن يختلط بغيره من النباتات ، وإنما هم بشر يتحركون وينتقلون تبعا للظروف والأحوال . بل إن النباتات ذاتها لا تخضع لهذا النوع من العزل وإنما تختلط بغيرها بوسائل مختلفة . ولكن أصحاب الدم النقي يصرون على إنكار هذه الحقائق البسيطة .

وكما حدث بالنسبة للشعوب الأوروبية حدث مثله للشعوب الشرقية ، بل إن ما حدث لهذه الشعوب سبق بكثير ما حدث للشعوب الغربية . فالشعوب التي تتكلم اللغات السامية وفدت في العصور التاريخية من الجزيرة العربية . ويقول « سبتينو موسكاتيني »[1] إن المصادر التاريخية تسجل هذه الهجرات ، وهي هجرات لم يكن بد منها إزاء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للصحراء ، فهذه الأحوال تؤدي إلى ميل مستمر من قبائل الرعي البدوية إلى الاستقرار في المناطق الخصبة حول الصحراء ، والأخذ بأسباب الحياة الزراعية . ولهذا يبدو أن الشعوب السامية اللغة تؤلف كتلة واحدة ، لا باجتماعها في صعيد جغرافي واحد والتحدث بلهجات لغة واحدة فحسب ، ولكن باشتراكها في أصل حضاري تاريخي واحد أيضاً فكيف يمكن تحديد الشعوب الأصلية والتعرف على نسلها أو ورثتها لإعطائها ما تدعي أنه حقها الأصيل في الميراث ؟

ومما يسترعي الانتباه ، بل ويثير الدهشة أيضا أننا لا نجد مثيلا لهذا الادعاء المفرط في السذاجة ، بل والسطحية ، في هذا الوقت ، إلا بين اليهود الذين اغتصبوا

---

(1) الحضارات السامية القديمة ، صفحة 49 .

فلسطين ، بالإضافة إلى هذه القلة من الناس في مصر .

وعلى الرغم من أنه كان قد ظهر في بريطانيا في وقت من الأوقات شيء من الاهتمام بالأصول التي ينتمي إليها الإنجليز المحدثون وادعى البعض أن الإنجليز تيوتونيون في الأصل (جنس يشمل الألمان والدانمركيين وجيرانهم الإنجليز) ، كما أنه في أواخر أيام الملكة « فيكتوريا » ادعت كتب التاريخ أن سكان الجزر السابقين كانوا قد أبيدوا أو طردوا إلى « ويلز » بواسطة القبيلة الألمانية التي ينحدر عنها الإنجليز ، وكذلك بواسطة السكسونيين ، غير أن الموضوع برمته قضي عليه بالرأي الراجح الذي يذهب إلى أن الإنجليز المحدثين إنما هم نتاج نشأ عن اختلاط البريطانيين الذين تخلفوا في البلاد بعد جلاء الرومان ، بالسكسونيين والدانمركيين والنورمانديين وكثير غيرهم ، وأنه ليس هناك من هو أصيل ومن هو دخيل[1] . وبعد ذلك لم نسمع أن أفرادا أو جماعات ، ادعت أنها من ذرية سكان بريطانيا الأصليين وأنها أولى بوراثتهم من غيرها ، أو أن دماءها نقية لم يخالطها دم آخر ، أو غير ذلك من الهراء الذي لا يكف البعض عن ترديده بين الحين والحين فيما يصنفونه من كتب[2] .

ومع ذلك فإننا سنناقش هذا الادعاء ، ونتناوله بالبحث والتمحيص والتحليل لنعرف ما فيه من صحة ، نظرا للدور الهام الذي لعبه في تشكيل الفكر المصري الحديث . فنحن لا زلنا نسمع البعض يتحدث عن أول حاكم لمصر من شعبها ، منذ كذا ألف سنة . وهذا معناه أن كل الحكام الذين تولوا الحكم في مصر خلال هذه الفترة الزمنية الطويلة لم يكونوا مصريين بل كانوا أجانب وغرباء . كذلك نسمع البعض ، وبخاصة في هذه الأيام ، يقول ، وبلا خجل إننا لسنا عربا ، ويتحدث عن العرب كما لو كان يتحدث عن أقوام غرباء لا تربطه بهم علاقة ، وربما يتكلم عن الأمريكيين أو الفرنسيين بود أكثر مما يتحدث عن العرب . أما الإسلام ، فإنه لا يعتبره رابطة

---

(1) فيليب ماسون ، المرجع السابق ، صفحة 8 .

(2) احتفلت بريطانيا عام 1986 بمرور تسعمائة عام على الغزو النورماندي لإنجلترا السكسونية القديمة (1086) ولم يرتفع صوت يقول إن النورمانديين غرباء ودخلاء وإن هناك من هم أصلاء وأصحاب حق لأنهم ينتمون إلى السكسونيين القدماء ، الذين أورثوهم دماءهم النقية !

تستأهل النظر إلى العرب كإخوة أو حتى أصدقاء . وهو اتجاه ، إن دل على شيء فإنما يدل على الجهل بحقائق التاريخ ، أو محاولة تجاهلها لأسباب مختلفة منها الإحساس الواضح بالدونية الذي يحاول أصحابه أن يعالجوه بواسطة الوهم الذي ملأ عقولهم وصور لهم أنهم فراعنة من جنس البحر الأبيض المتوسط ، وبالتالي فهم أقرب للأوروبيين منهم للعرب . أما السبب الثاني فهو التعصب لفكرة الأصالة والدم النقي التي لا تقل ضحالة وتفاهة عن الفكرة السابقة . وكلتا الفكرتين تكشفان عن إفلاس أصحابهما وعجزهم المزري ، فضلا عن ضيق أفقهم وقصر نظرهم . ولو أنهم كانوا غير ذلك لفعلوا شيئا لوطنهم ولأمتهم يرفعها مما يتصورون أنه حضيض تردّت فيه ، ولكنهم للأسف يكتفون بترديد كلمات قرءوها أو سمعوها تتحدث عن علاقة وهمية مع أناس مضوا واندثروا ، لا تربطهم بهم أية علاقة .

والملاحظ أن موضوع « المصريين الأصلاء ، أصحاب الحق الأصليين ، ذوي الدم النقي » لم يحظ بما هو جدير به من اهتمام من جانب الباحثين المسلمين ، بل إن بعضهم ، لسبب أو لآخر آثر أن يعتنق وجهة النظر التي تروج لهذه الأفكار وحرص على أن يضمنها كتبه ومقالاته ومحاضراته . وبقدر حرص كثيرين منهم على استعارة ونقل ما يكتبه الغربيون عن مصر القديمة وحضارتها يكون إصرارهم على عدم نقل ما يكتبه هؤلاء عن علاقة الفراعنة بهؤلاء الذين يزعمون أنهم أحفادهم ، بل إن بعضهم يدعي ، كذبا ، وجود علاقة بين هؤلاء وبين الفراعنة . ولا زلت أذكر ما كتبه أحدهم ، وبجرأة شديدة عن الشبه الشديد بين جمال عبد الناصر والفراعنة ، على الرغم مما هو ثابت من أن بني مر وهي موطن أسرة عبد الناصر تدخل ضمن أحد المراكز الكبرى التي استقرت بها القبائل العربية ، بل وما يؤكده اسم البلدة ذاته « بني مر » . ولكنه النفاق .

أما البعض الآخر من المؤرخين المسلمين ، فإنه يلجأ إلى الصمت إزاء ما يحدث ، وكأن الأمر لا يعنيه ، أو كأنه يخشى إن هو تعرض له بالبحث أن يصيبه ضرر أو يلحقه أذى ، وكيف لا والأمر يتعلق بموضوع « الوحدة الوطنية » الذي اختلقه البعض من أجل مصالح معينة ، ثم تمادوا فجعلوا منه صنما يعبد ووثنا يطأطئ الناس رءوسهم أمامه ، لا إجلالا وتقديسا ، بل خوفا ورهبة . وهكذا خشي كثير

من الباحثين والمفكرين والمؤرخين ، إن هم تصدوا للرد على الأكاذيب الخاصة بالدماء النقية وأصالة الانتماء إلى الفراعة وما يستخدم للتدليل عليها من كلمات مثل « إيجيبت » و « قبط » ، أن يتهموا بالعداء للوحدة الوطنية وتعكير صفو السلام الاجتماعي ، لذلك فقد آثروا السلامة وفضلوا العافية على عناء البحث ومتاعب الدراسة موجهين جهودهم إلى موضوعات أخرى تخلو مما ينغص عليهم عيشهم . وهكذا خلا الميدان للأدعياء ومروجي الأكاذيب يصولون فيه ويجولون محتمين بمظلة « الوحدة الوطنية » ومتسلحين بهراوة « السلام الاجتماعي » وكأني بهم يقولون وقد جحظت عيونهم ونفرت عروقهم : من الذي يستطيع أن يرد علينا ؟ من الذي يجرؤ على الخروج على « الوحدة الوطنية » بإنكار ما نقوله من أننا أحفاد الفراعنة وأصحاب الحق الأصليون وذوو الدم النقي ؟ من ؟ من ؟

ومع ذلك ، وبالرغم من كل ذلك ، فإننا نقول لهم إنه لا الوحدة الوطنية ستحميكم ولا السلام الاجتماعي سيذود عنكم وذلك لسبب بسيط هو أنكم بما تقولونه إنما تضربون هذه الوحدة في الصميم وتعكرون صفو السلام الاجتماعي . كذلك فإنكم وقد اقتحمتم ميدان العلم والبحث تكونون قد احتكمتم إلى العقل والمنطق لا إلى الهوى والغرض ، وبالتالي أصبحتم ملتزمين ، شئتم أم أبيتم ، بما سوف يسفر عنه البحث العلمي بشأن ادعاءاتكم ، ولن يفيدكم بعد ذلك التباكي على الوحدة الوطنية ، والتظاهر بالعويل وشق الجيوب ولطم الخدود على السلام الاجتماعي . وسوف نبدأ معكم بموضوع « المورث » أو الفراعنة الذين تزعمون أنكم ورثتهم ثم بعد ذلك نتناول موضوع « الورثة » لنعرف ما إذا كنتم أحفاد الفراعنة بحق وورثتهم أم لا .

أولا : المورثون (الفراعنة) :

المورثون هم (الفراعنة) الذين نعرفهم جميعا ، فهم أصحاب هذه الآثار الكثيرة التي تنتشر في كل مكان من مصر ، من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال ، ومن

الصحراء الشرقية إلى الصحراء الغربية والذين تشهد أهراماتهم وتماثيلهم ومعابدهم على ما بلغوه في مضمار الحضارة . ويبدأ تاريخ المصريين القدماء حوالي 4777 قبل الميلاد وهو ما يسمى بعصر الأسرات الأولى ، وينتهي في 525 قبل الميلاد حين غزت فارس مصر . أي أن عمر الحضارة المصرية القديمة (الفرعونية) امتد طوال 4252 عاما .

ويكتنف الغموض نشأة المجتمع المصري القديم ، سواء من حيث الزمن الذي ظهر فيه هذا المجتمع في وادي النيل ، أو من حيث أصله . وبالنسبة للتاريخ الذي ذكرنا أن تاريخ المصريين القدماء بدأ فيه فإنه في الحقيقة يختلف تماما عن تاريخ ظهور المجتمع المصري ، وهو ما نظن أنه لم يغب عن فطنة القارئ .

من أين جاء المصريون القدماء :

يقول « هـ . ج . ويلز »[1] إن هناك شكا يدور حول أصل المصريين القدماء وهل هم أول من سكن مصر أم أنهم وفدوا إليها واختلطوا بسكانها الأصليين أو طردوهم منها . فقد تبين مما عثر عليه من آثار ترجع إلى العصرين الحجريين القديم والحديث ، وجود اختلاف واضح بين الأقوام الذين عاشوا في مصر في ذينك العهدين وبين المصريين القدماء (الفراعنة) ويستطرد « ويلز » قائلا : « ولسنا نعرف على وجه التحقيق هل هؤلاء الأقوام الرعاة أهل العصر الحجري الحديث الذين تركوا هذه البقايا ، هم الأسلاف الأقربون للمصريين ، إذ كانوا يدفنون موتاهم ، ولكنهم قبل أن يواروهم التراب كانوا يقطعون أجساد الموتى إربا والظاهر أنهم كانوا يأكلون أجزاء من لحمهم ، ولعلهم فعلوا ذلك عن شعور احترام منهم للراحلين ، فكان الموتى يؤكلون للتكريم على حد تعبير السير فلندرز بتري » .

ويضيف إلى ذلك قوله « وتنتهي آثار هؤلاء الأقوام البدائيين حوالي سنة 5000

(1) معالم تاريخ الإنسانية ، الجزء الأول ، صفحة 195

قبل الميلاد أو قبل ذلك وعندئذ يظهر المصريون الحقيقيون على مسرح التاريخ . أما الأقوام السابقون فهم من بناة الأكواخ ، كما أنهم على حال من ثقافة العصر الحجري الحديث منحطة الدرجة نسبيا . بينما الأخيرون قوم ينسبون إلى العصر الحجري الحديث وهم متمدينون يستخدمون مباني من الطين والخشب بدلا من الخصاص التي كان يأوي إليها سابقوهم ، وكانوا يقطعون الأحجار وينحتونها ، وسرعان ما انتقلوا إلى عصر البرونز . ولهم كتابة قوامها الصور تكاد تضارع في تقدمها ما يعاصرها من كتابة السومريين وإن اختلفت عنها في خصائصها .

ويقول تفسيرا لهذا الاختلاف بين السكان القدماء والمصريين الذين عرفوا بالفراعنة : « ربما كانت هناك غزوة قام بها شعب جديد جاء من بلاد العرب بطريق عدن ، فنزلوا في مصر العليا وأخذوا يهبطون رويدا رويدا إلى دلتا النيل . وقد كتب عنهم الدكتور « واليس بدج » يصفهم بأنهم « غزاة من الشرق » ولكن آلهتهم وطرائقهم كانت – ككتاباتهم التي تقوم على الصور – مختلفة فعلا عما كان لدى السومريين ، فمن بين أشكال أوائل آلهتهم شكل للإله فرس البحر ، ومن ذلك تتجلى سمتها الأفريقية البارزة » .

ولقد ثبت من البحوث التي قام بها العلماء أن هؤلاء الأقوام الذين كانوا يوجدون بمصر قبل عصر الأسرات كانت لهم حضارتان إحداهما في مصر السفلى وتسمى حضارة « مرمدة » ، والأخرى في مصر العليا وتسمى حضارة « تاسا » .

ويقول « رالف لنتون »[1] ومع أنه ما من شك في أن أسلاف كل من الفريقين قد وفدوا من جنوبي غربي آسيا ، فإن أسلاف « المرمديين » قد عبروا برزخ « سيناء » في حين وصل أسلاف « التاسيين » إلى مصر العليا عن طريق البحر متخذين الطريق البري ولم يتخذوا طريق النيل .

أما « إمرى » فإنه يرى أن القوم الذين وفدوا إلى مصر إنما جاءوا من وادي

(1) المرجع السابق ، صفحة 25 .

الفرات في العراق ، بينما يقول البعض الآخر إنهم جاءوا إما من شمال أفريقيا ، وإما من الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر . ويرجح عالم الآثار « إمرى »[1] أن السبب الحقيقي فيما حدث من تغيير كبير في مصر منذ نحو 3400 سنة قبل الميلاد حيث تحولت بسرعة من ثقافة العصر الحجري الحديث المتقدمة ، مع ما تختلط به هذه الثقافة من صفات قبلية ، إلى مملكتين لهما نظام سليم ، إنما يرجع إلى أن شعبا جديدا قد غزا وادي النيل جالبا معه أساس الحضارة التي يجوز أن نسميها بالحضارة الفرعونية . كما أنه يرجح – بناء على بعض الشواهد التي استخلصها مما عثر عليه من آثار أن الغزو كان جماعيا ، وأن الغزاة كانوا من منطقة ما بين النهرين في العراق . ويقول « إمرى »[2] فحوالي نهاية الألف الرابع قبل الميلاد نجد القوم المعروفين في الأساطير « اتباع حورس » يكونون على ما يبدو السادة المتحضرين ، أو الجنس السيد الذي يحكم مصر كلها . ومما يعزز النظرية القائلة بوجود هذا الجنس ذي السيادة اكتشاف مقابر من أواخر العصر السابق للأسرات في الجزء الشمالي من الوجه القبلي تحتوي على بقايا آدمية لقوم جماجمهم أكبر حجما وأجسامهم أضخم من أجسام السكان الأصليين . وكان الاختلاف بينا حتى ليستحيل القول بأن هؤلاء القوم انحدروا من السكان الأصليين السابقين . ولابد أن اندماج الجنسين كان ملحوظا ، ولكنه لم يكن من السرعة بحيث يمكن اعتباره قد تم عندما توحدت البلاد ، إذ كان من المستطاع خلال العصر العتيق كله التمييز بين طبقة السادة المتحضرين وبين عامة الشعب ، لا سيما فيما يختص بعادات الدفن . ونجد عند نهاية الأسرة الثانية فقط الدليل على أن الطبقات السفلى من الشعب تستعمل العمارة الجنائزية وطريقة الدفن التي يستعملها السادة » .

وفيما يتعلق بالمكان الذي دخل منه الغزاة فإن « إمرى » يرجح أن يكونوا قد سلكوا في غزوهم لمصر طريق وادي الطميلات الذي يقع في شرق الدلتا ، حيث

---

(1) مصر في العصر العتيق ، ترجمة راشد محمد نوير ، صفحة 29 .

(2) المرجع السابق ، صفحة 30 .

استطاعوا أن يكتسحوا الدلتا ومنها ساروا على حافة الصحراء إلى أن وصلوا إلى المجرى الرئيسي للنيل فأخضعوا الوجه القبلي لسيطرتهم . كما يرى أن الغزو استغرق فترة زمنية طويلة وبغزوات عديدة وقادة مختلفين وقبائل متنوعة ، وأنه أدى في النهاية إلى تأسيس ولايات عدة تتصارع على الزعامة ، وفي فترة لاحقة تكون من هذه الولايات مملكتان متنافستان إحداهما في الشمال والأخرى في الجنوب ، ويحكم كلا منهما بيت ملكي وسادة من نفس الجنس وعرف كلاهما بأتباع حورس ، أو (أنصاف الآلهة) طبقا لما ورد في تاريخ مانيتون . ويقول « إمرى »[1] ويبدو أن العاصمتين الأصليتين لهاتين الدولتين كانتا « بوتو » في الوجه البحري و « هيراكوبتوليس » في الوجه القبلي ، ولكن عندما تمت الوحدة النهائية كانت أهم المدن الرئيسية في هاتين القوتين هما (سايس) في الشمال و (طيبة) أو (أبيدوس) في الجنوب . ويضيف قائلا : إن لديه من الأسباب ما يدعوه إلى الظن بأن مملكة الشمال كانت أسبق من مملكة الجنوب في السعي إلى الوحدة حيث هاجمتها وتمكنت من هزيمتها فسيطر ملوك الشمال على وادي النيل كله لفترة من الزمان غير أن ميزان القوى ما لبث أن انقلب لصالح الجنوب الذي أخضع الدلتا لحكم ملوك الوجه القبلي . ويقول إنه عثر في مدينة « هيراكوبتوليس » وهي العاصمة الدينية القديمة للجنوب على وثائق الحروب الخاصة بالوحدة والتي تسجل هزيمة الشمال أولا بواسطة ملك يسمى « العقرب » ثم على يد الملك « نعرمر » الذي يعتبره كثير من المؤرخين الملك « مينا » .

أصل المجتمع المصري القديم :

وفيما يتعلق بانتماء المصريين القدماء إلى أحد الأجناس ، يقول الدكتور جمال حمدان[2] إن لأحد علماء الأنثروبولوجيا ويدعى (سيليجمان) رأيا في أصل

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 33 .

(2) شخصية مصر ، الجزء الثاني ، صفحة 267 .

المصريين القدماء هو أنهم ينتمون إلى الجنس الحامي وليس إلى الجنس السامي أو الآري . وإن هذا الرأي هو السائد بين جمهرة الأنثروبولوجيين ، ويضيف قائلا : وجوهر النظرية أن المصريين القدماء ينتمون أساسا إلى مجموعة من الحاميين الشرقيين ، الذين ينتشرون حاليا في كل شمال شرق أفريقيا حتى القرن الأفريقي ، والذين يؤلفون مع الحاميين الشماليين في شمال غرب أفريقيا (أي إقليم أطلس أو البربر أو المغرب) مجموعة لغوية واحدة .

ورغم وجود فروق محلية كثيرة في اللغة كما في الجنس ؛ نتيجة للانتشار الجغرافي الواسع المدى لكلتا الشعبتين ، الأولى على المحور الطولي والثانية على المحور العرضي ، فإنهما معا وحدة إثنية أو إثنولوجية واحدة لا شك ، من أصل واحد مشترك بلا جدال ، بل من أصل ضيق وتشعبهم وتباينهم لم يقع إلا منذ عهد حديث للغاية نسبيا ، ربما في أواخر عصر الجفاف بالصحراء .

وبطبيعة الحال ، فإن الحاميين والساميين وغيرهم يرجعون إلى أصل واحد مشترك وبالتالي إلى مكان واحد كانوا يقيمون فيه قبل أن ينفصلوا . ولا يختلف العلماء بشأن ذلك المكان وأنه كان في جنوب شبه الجزيرة العربية أو إلى الشرق من ذلك المكان ومنه جاءوا إلى أفريقيا عند القرن الأفريقي (الصومال)[1] ثم انطلقوا في رحلة إلى مصر (الحاميين الشماليين) وفي أثناء رحلتهم الطويلة تركوا على امتداد الطريق جماعات منهم تنتشر كالجزر البشرية في الصحراء ابتداء من إرتريا حتى جنوب صحراء مصر الشرقية . وهذه الجماعات التي تعرف في مجموعها باسم (البجا) هي التي تعد اليوم بمثابة الممثلين الأحياء لقدماء المصريين في عصر ما قبل الأسرات ، أو هم كما يقول سيليجمان « قدماء المصريين الأحياء »[2] .

ولقد توافرت شواهد قاطعة على حدوث تغير تدريجي في تركيب السكان منذ بداية عصر الأسرات . فما إن نصل إلى عصر بناة الأهرامات حتى نجد أنه قد ساد

---

(1) Hassan Dafalla, The Nubian Exodus, p. 45 .

(2) دكتور جمال حمدان ، المرجع السابق ، صفحة 269 .

بين السكان عنصر جديد له بنية أعرض وأضخم وكذلك جمجمته أكثر عرضا وانتفاخا ووجهه أيضا ، كما أن فكه أشد وأغلظ . وكلها صفات أجنبية كان ظهورها فجأة في بداية عصر الأسرات واستمرت في عصر بناة الأهرامات وما لبثت أن امتدت نحو جنوب مصر أثناء الدولة الوسطى إلى أن بلغت النوبة . وهي تغيرات نشأت عن مؤثرات أجنبية دخيلة ، يفترض عادة أنها أرمينية ألبية ، ربما يكون مصدرها الشام أو الشمال .

وفيما يتعلق بما قيل عن المجموعات التي يطلق عليها اسم (البجا) فإن الدراسات التي أجريت على جماجم المصريين القدماء كشفت عن أنهم يشابهون (البجا) ، فالرأس مستطيل نسبته بين 73 و 75 ، والجسم نحيل والشعر أسود مموج قليل الكثافة على الوجه ، والعيون سوداء ، والقامة فوق المتوسط (نحو 168 سم) . ويضيف الدكتور محمد عوض محمد إلى ذلك قوله[1] : « إن المصري يكون في الغالب أسمر البشرة ، مموج الشعر ، والعيون سوداء واسعة ولوزية الشكل ، والشعر أسود أو بني داكن وهو على الجسم والرأس مستطيل ، والقامة متوسطة أو فوق المتوسطة والأصل في الجسم أن يكون نحيلا ، على الرغم مما نراه بخلاف ذلك في المدن ، والعنق مستطيل .

هذا هو الأصل ، وهناك اختلافات نتيجة هجرات قديمة أو حديثة ، فقد دخل إلى مصر في عصر بناة الأهرام سلالة ذات رأس عريض نوعا وجمجمة مختلفة ، نراها بوضوح في تمثال « شيخ البلد » وتمثال « الكاتب » . كذلك نرى أحيانا أن الشعر لولبي ، مع أن سائر الوجه قوقازي . وهذا يرجع في الأرجح إلى الزواج أو التسري بجوار من الجنوب وهناك أشخاص وليسوا بالقليلين ألوانهم أكثر بياضا ، والشعر فيه صهوبة ، أو شقرة ، والعيون قد تكون أيضا رمادية أو عسلية خفيفة . وقد فسرها بدخول عناصر شركسية ، أو مرتزقة في العهد الفرعوني المتأخر ، أو عناصر ليبية .

---

(1) الشعوب والسلالات الأفريقية ، صفحة 334 .

ويقول الدكتور محمد عوض محمد إن سكان مصر « يتألفون من الجماعات الأولى التي نزلت إلى الوادي ، وما عقبه من نسل على مدى السنين ، ومن سيل لا ينقطع من المهاجرين من جزيرة العرب . وبعض النازحين من شمال أفريقيا . هذه هي العناصر الرئيسية وقد انضم إليهم بعض عناصر أخرى ، بسبب اتخاذ الملوك في بعض الأزمنة جنودا من المرتزقة وبسبب التجارة مع سكان البحر المتوسط وبعض العناصر الشركسية والبلقانية ونحوها »[1] .

وهذا ما جعل أصحاب الدم النقي وغيرهم يقولون إن المصريين القدماء أجدادهم ينتمون إلى ما يسمى « جنس البحر الأبيض » ، يريدون بذلك الأوروبيين ، وأن يبتعدوا بقدر الإمكان عن العرب والعروبة . وعلى الرغم من قلة المعلومات المتوفرة حاليا عن الأنماط الجنسية أو العرقية للشعوب التي كانت تقيم على شواطئ هذا البحر ، فإنها على قلتها تشير إلى أن النمط الإيراني أو الشرقي كان هو السائد أصلا في المنطقة السامية كلها ، ويشمل المنطقة الممتدة بين إيران وشمال أفريقيا كلها بما في ذلك الشام والعراق والجزيرة العربية وفلسطين ومصر حتى المغرب العربي . وهذا النمط يتميز ببشرة بيضاء أو لوحتها الشمس ، وشعر أسمر ، وعينين داكنتين ، وشعر كثيف في موضع اللحية وعلى الجسد ، وقامة متوسطة ، وبنية نحيلة ، ورأس طويل له مؤخرة بارزة ، ووجه طويل ، وأنف قوي أشم مستقيم أو محدودب ، وشفتين ممتلئتين ، وذقن بارز[2] .

وفي رأي « كيث » أن ما يسمى بجنس بحر أبيض متوسط يرجع في الأصل إلى الجنس القوقازي الذي تكون في غرب آسيا ومنه انتشر إلى أوروبا وإلى شمال أفريقيا ، شمال الصحراء ، ويقدم « كيث » أدلة قوية على ذلك ، كما أنه لا يستبعد أن القوقازيين قد استقروا في مصر السفلى في تاريخ سابق بكثير لعصر ما قبل الأسرات ، ولهذا فقد يكون العنصر ذو الرأس الكبير الذي عثر عليه بمصر السفلى

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 332 .

(2) المرجع السابق ، صفحة 331 .

هو من أصل قوقازي[1] .

ولقد سبق أن ذكرنا كيف أن « سيليجمان » يرى أن المصريين القدماء ينتمون أساسا إلى مجموعة الحاميين الشرقيين ، الذين ينتشرون حاليا في كل شمال أفريقيا حتى القرن الأفريقي ، والذين يؤلفون مع الحاميين الشماليين في شمال غرب افريقيا مجموعة لغوية واحدة . وأن هؤلاء وأولئك يؤلفون ومعهم المجموعة السابقة في الجزيرة العربية أو غرب آسيا العربية فرعا من جنس البحر الأبيض المتوسط الأوروبي القوقازي ، وإن كان البعض – خطأ – يقصر العلاقة مع الأوروبيين على الحاميين الشماليين دون الشرقيين مميزا إياهم باسم الجنس الليبي .

وهكذا يواجه أصحاب دعوى الأصالة والدم النقي الحقيقة أينما ولوا وجوههم ، وهي أن بين المصريين وعرب الجزيرة قرابة « أنثروبولوجية » وتشابها جنسيا . وأن هذه القرابة الأنثروبولوجية والتشابه الجنسي هما اللذان يقدمان الإجابة على السؤال الهام : رغم الأعداد الكبيرة من عرب الجزيرة التي جاءت إلى مصر ، واختلاطها الواسع المدى بالمصريين لم يتغير التركيب الأساسي لجسم السكان أو دمهم . لماذا ؟ .

والإجابة أن العنصر العربي من أصل قاعدي واحد مشترك مع العنصر المصري الذي لا يختلف جسميا عن « البدوي » كما يضعها « كيث » ، فكلاهما أقارب جنسيا منذ ما قبل الإسلام بل وما قبل التاريخ . والصفات الجسمية الرئيسية متشابهة متقاربة خاصة الرأس الطويل ولون البشرة والشعر والعين والطول والقوام . إلخ . حتى عنصر الرأس العريض السائد في عرب الجنوب – وهي منطقة عرض الرأس مؤكدة – لم يكن غريبا على مصر ، حيث رأينا في المصريين القدماء عنصرا بازغا من عرض الرأس منذ عصر الأسرات المبكر .

وهو ما فسره كثير من العلماء بأن الهجرات العربية إلى مصر سبقت الإسلام

---

(1) الدكتور جمال حمدان ، المرجع السابق ، صفحة 267 .

بزمن بعيد ، فهي ترجع إلى عصور موغلة في القدم من تاريخ مصر الفرعونية . ونجد في سجلات الفراعنة إشارات كثيرة ومنتظمة إلى جماعات البدو الشرقية تطلب الإذن بالدخول إلى مصر أو تتسلل عبر سيناء من الجزيرة العربية والشام إلى الصحراء الشرقية وأطراف الوادي والدلتا حيث تضرب بجذورها إلى الأبد[1] .

وبالإضافة إلى الهجرات الكبيرة ، فإن مصر تعرضت لغزوات عديدة ، فضلا عن حركات التسلل الهادئ التي كانت تنتقل فيها أعداد قليلة من الناس إلى داخل حدود مصر لكي تستقر هنا أو هناك ، وكانت مع الوقت تصل في حجمها إلى حجم الهجرات الكبيرة . وإذا كانت الغزوات الحربية ذات تأثير محدود في عملية الاختلاط الجنسي بين المصريين والجيوش الغازية إلا أن تأثيرها لا يمكن إنكاره خاصة إذا أمضت الجيوش الغازية وقتا طويلا في مصر أو إذا تحول الغزو إلى استعمار طويل ، كما حدث للغزو الهكسوسي ثم الإغريقي . والمعروف أن الحروب قديما كانت تؤدي إلى وقوع أعداد كبيرة في الأسر وما يليه من استرقاق الأسرى وكذلك كانت نساء المهزومين يقعن في سبي المنتصرين فيصبحن عبدات أو محظيات ، وفي جميع الأحوال يحدث اختلاط للدماء بين الأسرى المستعبدين والسبايا من جهة وبين السكان الأصليين[2] ، خاصة وأن الروح التي كانت سائدة في تلك العصور لم تكن تعرف الحواجز العنصرية أو اللونية ولا الوعي القومي الحاد بالمفهوم الحديث[3] .

كانت الهجرات إلى مصر تنشط في عهود ضعفها ، ففي القرن الثامن قبل الميلاد واجهت مصر ظروفا شديدة القسوة ، حيث دب الخلاف بين أمراء الأقاليم فباتوا يتنازعون فيما بينهم ، حتى عمت الفوضى البلاد وانعدم الأمن ، وضعفت الرقابة على الحدود ، فتدفق عليها عدد كبير من المهاجرين ما بين يونانيين وفينيقيين وبدو وغيرهم ، ثم غزا الأثيوبيون مصر عام 721 قبل الميلاد بجيش يقوده الأمير

---

(1) جمال حمدان ، المرجع السابق ، صفحة 298 .

(2) A Short History of the World , Vol . 1 , P . 20 .

(3) جمال حمدان ، المرجع السابق ، صفحة 280 .

« بعنخي » ، ولكن أحد الأمراء المصريين ويدعى « نفتخت » انتهز عودة الغازي إلى بلاده ونصب من نفسه فرعونا على مصر لمدة ثمانية أعوام ، فلما مات خلفه ابنه « بوخوريس » أمير « سايس » حوالي عام 718 ق . م ، ولكن مصر ما لبثت أن عادت إلى سلطان الأثيوبيين[1] . وكانت في كل مرة تزداد ضعفا مما جعل ملك أشور « سنحريب » يسخر منها ومن حاكمها فقال في رسالته إلى « حزقيا » : « على من اتكلت حتى عصيتني ، هو ذا قد اتكلت على مصر ، واتخذت عكازه هذه القصبة الرضوضة التي إذا اتكأ عليها إنسان دخلت في كفه وثقبتها . كذلك فرعون ملك مصر لجميع المتكلين عليه »[2] .

وفي القرن الثامن أيضا ازدادت بشكل ملحوظ أعداد الإغريق الذين هاجروا إلى مصر والذين بلغ من كثرتهم وقوة شوكتهم أن اتخذوا لتجارتهم سوقا قرب « سايس » عرفت أول أمرها باسم قلعة الملطيين ثم أطلق عليها من بعد ذلك اسم « نوكراتيس » (700 ق . م) . وما لبث الملك « أبسماتيك » أن اعتمد اعتمادا كليا على الإغريق الذين ملأ بهم بلاطه وجعل منهم خاصة جنده وحرسه وعهد إليهم بالدفاع عن الثغور وحمايتها من المعتدين ، ثم بالغ في إكرامهم حين أطلق أيديهم في إنشاء المزارع والمؤسسات التجارية في « سايس » (صا الحجر) ونكراتيس . ولنا أن نتصور ما يمكن أن يفعله أناس بلغوا هذه الدرجة من القوة في شعب ضعيف مغلوب على أمره ، لا نظن أنه يجرؤ على الدفاع عن شرفه ونقاء دمه وهو الذي عجز عن حماية وطنه والدفاع عن مصدر رزقه .

والغريب في الأمر أنه لما قام أحد أبناء مصر وأعلن الثورة على الفرعون (راح – إيب – رع) الذي يعرفه الإغريق باسم « إبريس » والذي كان قد بالغ في تقريب الأغارقة والاعتماد عليهم ، إذ بهذا الثائر ويدعى « أحموسي » ويعرفه الإغريق باسم « أمازيس » ، لما أحرز النصر على غريمه واعتلى العرش عام 568 ق . م ، يحتفظ

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 332 .

(2) سفر الملوك ، الإصحاح 18 ، 20 و 21 .

بالإغريق من حوله ، بل وعمد إلى الزواج بأميرة إغريقية يسمونها « لاديكي » Ladiki كانت من أغارقة برقة بليبيا . وبطبيعة الحال فإن كثيرا من الأمراء المصريين وغيرهم من الطبقة الحاكمة حذوا حذو مليكهم ، خاصة وأن البلاد كانت تعج بالأسر الإغريقية بما فيها من نساء جميلات . وهكذا ظهر جيل جديد من المصريين ذوي الأمهات اليونانيات .

وكان طبيعيا أن يسفر اعتماد الملوك على اليونانيين عن كارثة ؛ ذلك أنه لما غزا « قمبيز » ملك فارس مصر عام 525 ق . م انهزم الجنود الأغارقة عند « الفرمة » وولوا الأدبار ، فتبعهم قمبيز إلى منف حيث ضرب عليهم الحصار إلى أن استسلموا وآثر ملك مصر « أبسماتيك الثاني » الانتحار خشية الوقوع في يد قمبيز . والظاهر أن احتلال الفرس لمصر أرضى الإغريق الذين كانوا يقيمون فيها ، وليس أدل على ذلك من انضمام عدد كبير منهم إلى صفوف الغزاة . وقد ازداد نشاطهم في البلاد يومئذ وتتابعت هجرة قومهم إليها ، كما ازدهرت تجارتهم في « نوكراتيس » .

وفضلا عن الإغريق ، فإن أعدادا كبيرة من الأجانب من مختلف الشعوب المجاورة لمصر وفدوا إليها فازدحمت بهم المدن ، وبلغ من كثرتهم أن اضطروا إلى الإقامة حول المعابد مما عاق زوارها عن أداء الطقوس للآلهة . وفيما نقش على تمثال رجل يدعى « دازي – حور – رسنه » الذي عاش أيام الفتح الفارسي لمصر ، وكان فيما يظهر أميرا للبحر عند دخول الفرس إلى مصر – ذكر الرجل أنه استطاع بسلوكه أن يستدر عطف الفاتح على المواطنين ، ويثير اهتمامه بمعبد « سايس » حين شكا إليه ما يؤذي الحجيج في هذا المعبد من عبث النزلاء الأجانب الذين يقيمون من حوله . وكيف أن قمبيز حين سمع ذلك فعل ما لم يفعله الملوك من آل فرعون إذ أصدر أوامره بإخراج هؤلاء الغرباء من دورهم ثم أمر بها فهدمت وأسكن أصحابها خارج أسوار المدينة . فهل بعد هذا وغيره يمكن القول إن المصريين ظلوا محتفظين بنقاء دمهم وبأصالة سلالتهم ؟ طبعا لا ، ومن يقل بغير ذلك فهو من المكابرين الذين لا يعيرون الحقائق التاريخية أي اهتمام أو احترام لا لشيء إلا ليدافعوا عن وهم لا وجود له إلا في رءوسهم .

وهكذا نلاحظ أن الدماء اختلطت في عروق المصري منذ فجر حياته . فبعد أن وفد أتباع حورس إلى مصر واختلطوا بمن كانوا يقيمون بها ، لم يتوقف وفود الشعوب وبالتالي لم يتوقف الاختلاط الجنسي . وهناك دليل على ذلك يرجع إلى أيام الملك « خوفو » حيث لوحظ أن ابنته تبدو في أحد النقوش شقراء ، ذات شعر أصفر محمر والبشرة بيضاء . ويقول الدكتور جمال حمدان : « المرجح أن هذه الحالة النادرة هي شذوذ بحت يرجع إلى أصول غير مصرية ، ربما ليبية ، وإن دلت في الوقت نفسه على أن المؤثرات الأجنبية داخلت الدماء المصرية منذ وقت مبكر جدا »[1] .

فإذا كان هذا هو حال الملوك المؤلهين ، فماذا كان حال الشعب الذي لم تكن له حصانة من أي نوع ؟

نهاية المجتمع المصري القديم (الفرعوني) :

وكما أن الغموض يكتنف نشأة المجتمع المصري القديم فإنه يكتنف أيضا نهاية هذا المجتمع سواء من حيث الزمن الذي بدأت فيه هذه النهاية ، أو من حيث الطريقة التي وقعت بها . وللمؤرخ « أرنولد توينبي » رأي في المجتمع المصري القديم (الفرعوني) يخالف فيه كثيرا من المؤرخين الغربيين ، يقول فيه إن هذا المجتمع لم يكن له (آباء) ولم يخلف ذرية . ولا يجوز لأي مجتمع حالي أن يدعي الانتساب إليه ، فالحضارة المصرية القديمة في رأيه من الحضارات الميتة التي لم تنجب أية حضارة أخرى على الإطلاق[2] .

ويقول : « ولقد تحدثنا عن هذا المجتمع على اعتبار أنه ظل قائما فترة تقرب من أربعة آلاف سنة قبل الميلاد . إلا أنه لم يكن حيا أثناء نصف تلك الفترة ،

---

(1) جمال حمدان المرجع السابق ، صفحة 275 .

(2) مختصر دراسة للتاريخ ، الجزء الأول ، صفحة 51 .

بل كان ميتا ولم يدفن ، فإن أكثر من نصف التاريخ المصري عبارة عن خاتمة ضخمة » .

وهناك من ينزل بهذه الفترة التي اعتبر المجتمع المصري فيها ميتا إلى النصف أو أقل ، منهم المؤرخ « رالف لنتون »[1] الذي يؤرخ لذلك الموت بالقرن الثامن قبل الميلاد ، عندما أخذ المصريون يزيدون من استخدام الإغريق الذين أثبتوا تفوقهم كجنود مرتزقة . ومنذ الأسرة التاسعة عشرة وما تلاها من أيام أخذ الجنود يلعبون دورا هاما في الحياة السياسية . ويقول إنه « لم يكن الفلاحون قوة يعمل حساب لها ، ولم يهتموا أيضا بالحياة السياسية ولهذا السبب كان المتنافسون على العرش أو مؤسسو الأسرات الجديدة يعتمدون اعتمادا كليا على الليبيين والنوبيين أو المرتزقة من الإغريق لأجل تأييدهم كما كان ذلك أيضا سببا في جعل الحاكمين الذين بيدهم السلطان يسعون إلى اكتساب ودهم عن طريق غمرهم بالهدايا .

ويقول الدكتور أحمد بدوي[2] : « كان الإغريق وبخاصة أهل « ملاطية » ينتشرون في الدلتا منذ أيام القرن الثامن قبل الميلاد حين أخذوا يمدون أنفسهم إلى مصر قديما . وكانوا من قبل قد انتشروا في حوض البحر الأبيض ، وأخذوا يترددون على ثغور مصر عند مصاب النهر ، وبخاصة مصبه الغربي « عند أبي قير » يبلغونه من « بحر إيجة » في سهولة ، ويأمنون عنده نشاط من كان ينافسهم من الفينيقيين . واستطاعوا حوالي عام 700 قبل الميلاد أن يتخذوا لتجارتهم سوقا قريبا من « سايس » . ويقول إن « أبسماتيك » فرعون مصر في القرن السابع قبل الميلاد (663) أراد أن يحتاط لحادثات الأيام وفاجعات الليالي فنظر في الدلتا ، وهي يومئذ غاصة بالأغارقة ، ينتشرون فيها للبيع والشراء إلى سوق لهم في « نوكراتيس » فقرر أن يفيد منهم ، فوسع عليهم سوقهم تلك . وبذلك انتشر الرخاء المادي في مصر ، وأفاد « أبسماتيك » نفسه من ذلك فائدة مادية كبرى . ولما أغراه كل ذلك ،

---

(1) شجرة الحضارة ، المجلد الأول ، صفحة 53 .

(2) هيرودوت يتحدث عن مصر ، التعليق ، صفحة 42 .

استخدم الأغارقة في بلاطه وعساكر جيشه عددا كبيرا » .

ولقد كان من نتيجة ذلك ضعف المشاعر الوطنية لدى المصريين ، بل اضمحلالها في بعض الأحوال ففضل الجنود المصريون الهجرة إلى إثيوبيا ، بعد أن كفروا بوطنهم ، حيث انضموا إلى ملكها الذي كان يعد لشن هجوم على مصر . ويقول « هيرودوت » إن عددهم بلغ مائتين وأربعين ألف جندي . وإنه لما علم فرعون مصر بهجرتهم من البلاد اقتفى أثرهم إلى أن لحق بهم وكلمهم يحاول إقناعهم بالعودة وألا يهجروا آلهة أبائهم وأولادهم ونساءهم ، فكان رد أحدهم عليه أن أشار إلى عورته قائلا : أينما وجدت هذه سيكون لنا نساء وأطفال[1] .

وهكذا فإن الإغريق يكونون قد بدءوا في التسلل إلى مصر والاختلاط بأهلها في وقت سابق على غزو الإسكندر لها بما يزيد على ثلاثة قرون .

ومما يدل على أن اختلاط المصريين بغيرهم من الشعوب كان يجري بانتظام ، حتى قبل أن يتسلل إليها الإغريق أن الملك « أبسماتيك » نفسه قد أحاط الشك بأصله ففريق من المؤرخين يرجع أصله إلى « ليبيا » وفريق آخر يرجع به إلى « إثيوبيا » وفريق ثالث يرى أنه مصري . وممن قالوا إنه « ليبي » المؤرخ الألماني « ماير » حيث ذهب إلى أنه من أسرة غريبة ، وأن أصلها قد يرجع إلى فلول أسرة ليبية نزلت بمصر وانتشر أفرادها في أقاليمها أواخر أيام الرعامسة .

ومع ذلك ، فإننا لو افترضنا أن ما ذهب إليه « توينبي » و « لنتون » غير صحيح على إطلاقه ، واعتبرنا أن المجتمع المصري القديم ظل حيا حتى سنة 525 قبل الميلاد عندما قضى الفرس على آخر فرعون مصري ، فإن الفترة التالية التي بدأت في سنة 332 قبل الميلاد ، عندما غزا الإغريق مصر بقيادة الإسكندر المقدوني ، تعد في رأي كل المؤرخين تقريبا الفترة التي مات فيها المجتمع المصري القديم تماما ، وأخذ جسمه يتحلل ويفقد خواصه ، ويظهر مجتمع جديد أخذ ينمو شيئا فشيئا حتى إذا

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 108 .

بلغ أشده ظهر اختلافه التام عن المجتمع السابق .

فقد ترتب على غزو الإغريق مصر نزوح أعداد غفيرة من اليونانيين إليها واندماجهم في سكانها مما أدى إلى التأثير بشكل واضح في الخصائص الأصلية للمصريين . ويقول سير هارولد إدريس بيلي[1] : « فكذلك جرى في خلال القرن الذي تلا موت الإسكندر ، إذ انساب تيار كالسيل المنهمر لا ينقطع من المهاجرين اليونان نحو الشرق والجنوب ، غمر البلاد التي كان يرجع الفضل لعبقرية الإسكندر في أن فتحت لهم أبوابها .. فلما وجد أولئك المتوطنون أن الشقة بعدت بهم عن وطنهم اليوناني وأنهم حيث يقيمون يعيش بين ظهرانيهم آسيويون أو مصريون كان حتما مقضيا أن يستسلموا إلى الاندماج في الوسط المحيط بهم » .

كذلك يذكر « جوجيه » أن مصر شهدت في القرن الثالث قبل الميلاد هجرة يونانية قوية وحقيقية . ولقد تراخت هذه الهجرة بعد ذلك في أواخر العصر البطلمي ، لكن بعد أن كانت قد حققت حجما مؤثرا بالفعل وتحولت إلى استعمار استيطاني لا شك فيه[2] .

ويفسر « توينبي » غلبة اليونانيين على المصريين في ذلك العهد بما كان هؤلاء قد بلغوه من عجز جعلهم غير قادرين على صد عدوان اليونانيين الذين وفدوا إلى البلاد بكثرة « إذ طفق سكان اليونان يتكاثرون بفضل انتصار سكان السهول على سكان الجبال أثناء العصر السابق من التاريخ الهليني . واستتبع ذلك ضغط السكان على وسائل المعيشة في بلاد اليونان مما زود التوسع الهليني بقوة متفجرة حفزتهم على أن يتبعوا تشييد المراكز التجارية فيما وراء البحار ، بالعمل على جعل هذا العالم الجديد » يونان عظمى « عن طريق توطين سريع وكثيف لمستعمرين يونانيين »[3] .

---

(1) الهلينية في مصر ، صفحة 49 .

(2) دكتور جمال حمدان ، المرجع السابق ، صفحة 282 .

(3) مختصر دراسة للتاريخ ، الجزء الثالث ، صفحة 374 .

وهكذا يتبين أن المصريين ، الذين سنفترض أنهم كانوا حتى مجيء الإغريق ، لا يزالون كالفتاة العذراء ، محتفظين ببكارتهم أو ما يسميه أحفادهم المزعومون نقاء دمائهم ، قد واجهوا غزوة جديدة تختلف عما سبقها من غزوات ، سواء من حيث الظروف التي وقعت فيها أو من حيث دوافع الغزاة وأهدافهم . صحيح أن العماليق (الهكسوس) أقاموا في مصر ما يقرب من قرنين (وفي رأي آخر خمسة قرون) ، وأقام الفرس مدة مماثلة (525 - 332 ق . م) في حين فرض الإغريق حكمهم عليها مع استعمارهم لها مدى ثلاثمائة عام (332 - 30 ق .م) واحتلها الرومان مدة تزيد على ستمائة سنة (30 - 641 ميلادية) . غير أن المصريين استطاعوا ، على حد زعم البعض ، أن يحتفظوا بنقائهم العرقي ، أو كما يزعم البعض الآخر استطاعوا أن يقبروا الغزاة ، أليست مصر مقبرة الغزاة ؟ وابحث ما شئت عن مقابر كل من غزا مصر !! وتسألهم ، هؤلاء الذين يقولون إن مصر مقبرة الغزاة فيقولون لك أذابتهم ، فتمصروا وأصبحوا مصريين أقحاحا . هكذا فعلوا بالهكسوس وبالفرس وبالإغريق وبالرومان وبطبيعة الحال فعلوه بالعرب . وهذا هو مثار الدهشة ، بل السخرية لأن أصحاب هذا الزعم يقولون وبجرأة لا يحسدون عليها إن استيعاب المصريين وهضمهم للغزاة أدى إلى تحول هؤلاء وفقدهم لخصائصهم وانسلاخهم عن أصولهم وصيرورتهم مصريين ، في حين أن المصريين ظلوا كما هم ، دون أن يتأثروا بمن غزوهم !! فهل سمع أحد أو قرأ كلاما أعجب من هذا .

وكأن هؤلاء الذين يقولون هذا الكلام لم يسمعوا شيئا عن علم الوراثة ! ولم يقرءوا عن اختلاط الأنساب ، ولم يلاحظوا ما لا يمكن أن تفوت ملاحظته على أبسط الناس وهو أننا إذا وضعنا نقطة من الحبر في كأس به ماء فإن لون الماء يتغير ، ولن نتحدث عن التفاعلات الكيميائية بين مادة وأخرى لئلا تكون من الغموض بحيث لا يفهمونها . وسنكتفي في هذا الصدد بما ذكره « بيتري » بشأن عملية الامتزاج بين الجماعات ، وبالذات من حيث عنصر الزمن الذي يحتاج إليه الامتزاج ، فهو بعد أن يستبعد الفترة التي تلي مجيء الوافدين ، سواء بالغزو أو بالهجرة الجماعية الكبيرة ، بالنظر لما يعقبها من الأسباب التي تحول دون الاختلاط كحواجز الكراهية

واختلاف العقيدة والمكانة الاجتماعية يقول إنه بعد سقوط هذه الحواجز بمضي المدة فإنه بافتراض أن متوسط الجيل 30 سنة ، فإنه يكون لكل فرد في عملية الاختلاط عشرة أجداد في مدى القرن الواحد ، وذلك حتى باستبعاد زيجات الأقارب . من ثم يكون لكل فرد مليون من الأجداد في ستة قرون ، وعشرة ملايين جد في سبعة قرون ، ومائة مليون من الأجداد في ثمانية قرون . ومعنى هذا أنه في غضون سبعة أو ثمانية قرون يضمن الاختلاط أن كل عرق في إحدى السلالتين قد امتزج بكا عرق من السلالة الأخرى .

ويقول الدكتور جمال حمدان إنه إذا صحت هذه الحسابات المثيرة . ثم طبقناها على تاريخ مصر الطويل ، لأدركنا مدى عمق عملية امتصاص الغزاة والدخلاء والوافدين[1] .

والغريب أن يفسر الدكتور حمدان عملية الامتزاج من هذه الوجهة فيسميها (امتصاصا) لا امتزاجا أو اختلاطا ، وكأنها تتم من جانب واحد ، فتبدو فيها مصر كما لو كانت نحلة تمتص رحيق الأزهار لكي تفرزه عسلا فيما بعد ، دون أن يطرأ عليها هي ذاتها أي تغيير . وهذا ليس بصحيح فالتزاوج يؤدي إلى نتيجة تختلف تماما عن النتائج التي تؤدي إليها عملية الامتصاص ؛ فبه يحدث تفاعل بين ماء كل من الأنثى والذكر وبين الحيوان المنوي للذكر والبويضة الأنثوية بحيث تنتقل الخصائص الوراثية للاثنين إلى الأبناء فيأتون مختلفين عن الأبوين بدرجات متفاوتة ، فليست العملية امتصاصا وإنما هي امتزاج واختلاط جنسيين . ولكنه الحماس العاطفي لمصر الذي يجعل ، حتى العلماء ، يتجاهلون أبسط المبادئ العلمية . واستخدام الدكتور حمدان وغيره لكلمة الامتصاص يتسق مع ما يقال من أن مصر مقبرة الغزاة ، أي أنهم يقبرون فيها بواسطة (الامتصاص) ! فكأن مقابرهم الأرحام وليس الأرض .

وبطبيعة الحال فإن الزمن ليس العنصر الوحيد في عملية الامتزاج ، ولكن يوجد

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 318 .

إلى جانبه عناصر أخرى لا تقل عنه أهمية في مقدمتها الاستعداد للامتزاج الجنسي أو الاختلاط ، وهو الذي يشترط توافره لدى الغزاة والمهاجرين هجرة جماعية أكثر مما يشترط توافره لدى السكان الأصليين . فهؤلاء يكونون في الحالتين أضعف من أن يرفضوا اختلاط الغزاة بهم لأنهم وقد هزموا لا يقدرون على اتخاذ أي موقف رافض لما يريده هؤلاء . ولقد أشرنا إلى ما كان يقع من أفعال اغتصاب على نطاق واسع لنساء المهزومين قلما كانت تفلت منه امرأة أو فتاة .

وإذا كان قد قيل إن الفرس لما غزوا مصر ترفعوا عن الزواج بالمصريات ، بدافع من الإحساس بالتميز العنصري ، فإن هذا لم يمنعهم من اغتصاب المصريات حال دخولهم مصر لأن هذه كانت عادة لا تحيد عنها الجيوش ، خاصة إذا كانت قد قطعت مسافات طويلة استغرقت زمنا قد يصل إلى ثلاثة شهور أو أكثر يقضيها الجنود بعيدا عن زوجاتهم مما يجعلهم متلهفين إلى النساء . كذلك فقد كان قواد الجيوش يبيحون المدن المهزومة لجنودهم يفعلون بسكانها ما يشاءون مكافأة لهم على انتصارهم .

وإذا كان الاغتصاب يقع في المدن على وجه الخصوص بحيث يكاد الريف أن يكون بمنأى عن الاعتداءات الشهوانية للجنود ، فإن آثار الاختلاط كانت لا تلبث أن تمتد إلى الريف ، بمضي الوقت بسبب ما كان يحدث من هجرة الريفيين إلى المدن وزواجهم من سكانها الذين اختلطت دماؤهم بدماء الغزاة ، أو بسبب انتقال بعض سكان المدن إلى الريف وزواجهم من سكانه .

ومن بين العجائب الكثيرة التي يمتلئ بها التاريخ المصري قديما وحديثا ذلك الذي قيل عن رفض المصريين الزواج من الهكسوس ، وهو ما لم يسمع به أحد عن أي مجتمع آخر تعرض للغزو مثلما تعرض له المجتمع المصري . ولا ندري كيف مارس المصريون هذا الرفض مع غزاة ، قيل عنهم إنهم كانوا هُمجا غلاظا ؟ . وما الذي كان المصري المغلوب على أمره يملكه لمنعهم من الزواج بابنته أو حتى اغتصابها ؟ . لقد رأينا كيف كان الفرنسيون (المتحضرون) يغتصبون النساء المصريات في كل مرة هاجموا فيها قرية أو مدينة . فما بالنا بالهكسوس الأجلاف !! على حد قول معظم

المؤرخين المصريين وغيرهم ، الذين اتخذوا موقفا معاديا للهكسوس بدون سبب واضح على الرغم من أنهم لا يختلفون عن غيرهم ممن غزوا مصر بعد أن لمسوا ضعفها وتدهور الأحوال فيها ، أم أن الأمر يختلف بالنسبة للهكسوس لأنه قيل إنهم كانوا عربا (العماليق) وبالتالي فإنهم ليسوا جديرين بغزو مصر وإنما الجدير بذلك هم الإغريق والرومان أصحاب الحضارة !

ومع ذلك فإن هؤلاء البدو (الشاسو) أو الهكسوس كانوا هم الذين عزفوا عن الزواج بالمصريات وليس العكس والسبب في ذلك يرجع إلى ما هو معروف من تفضيل البدو اختيار زوجاتهم من قبيلتهم نفسها ؛ فقوة التقاليد والرغبة في النقاء الجنسي ، وهما أمران لهما أهمية كبيرة في الحياة القبلية ، تجعلان من اتخاذ الزوجات الأجنبيات أمرا بغيضا[1] . وهو ما يرجح أن يكون الهكسوس هم الذين رفضوا الزواج من مصريات وليس العكس .

ولكن هذا التقليد كان لا يلبث أن يضعف بعد جيلين أو ثلاثة فتحدث حالات زواج مختلط ، خاصة مع ما هو معلوم من أن العواطف البشرية والمشاعر الإنسانية كثيرا ما تجعل الفرد يتمرد على القيود التي تحد من تدفق عواطفه .

وإذا كان قد قيل إن الذي جعل الفرس ينفرون من المصريين ولا يتزوجون من نسائهم هو كراهية الفرس للأصنام بعد أن جنحوا إلى التوحيد في ذلك الوقت فلما رأوا المصريين يعبدون الحيوانات والأصنام نفروا منهم[2] . فإن الهكسوس ، على خلاف الفرس ، كانوا مثل المصريين يعبدون الأصنام . ولذلك فإنه ما إن انقضى الجيل الثاني منهم حتى أخذ الجيل الذي تلاه يقبل على الزواج من المصريات . وكما سبق أن ذكرنا ، فإن الآباء والأخوة لم يكن بمقدورهم أن يرفضوا طلبا لرجل من الهكسوس للزواج من ابنتهم أو أختهم . ويقول « بتري » في كتابه « تاريخ مصر » إن ما أصابه الهكسوس من مدنية بعد قرن من غزوهم لمصر ، يبدو كأثر للأمهات

---

(1) سبتينو موسكاتيني ، المرجع السابق ، صفحة 55 .

(2) هـ . إيدرس بل ، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي ، صفحة 38 .

المصريات في الجيلين الثاني والثالث ، وهو ما أدى فيما بعد إلى أن يقيموا لأنفسهم نظاما للحكم على الطريقة المصرية فمارسوا عادات البلاد واحتفظوا بحكام وطنيين تحت سلطانهم ، ليضمنوا ولاء الشعب[1] .

ولقد لوحظ أن الاختلاط لم يكن قاصرا على أفراد الشعب ، بل امتد ليشمل الملوك أنفسهم مما يدل على مدى اتساعه . فلم يكد الملك الهكسوسي رقم ستة يموت حتى اعتلى العرش ملك نصف هكسوسي ونصف مصري . ويقول « بتري » إن عصر الاختلاط بين المصريين والهكسوس استمر من سنة 2256 إلى سنة 1738 قبل الميلاد[2] .

ويذهب « سليم حسن »[3] إلى أبعد من ذلك فيقول إنه كان هناك اختلاط بين المصريين والهكسوس على نطاق واسع ، وخاصة بعد أن هدأت حدة مقاومة المصريين للغزاة ، وهي المقاومة التي استمرت طوال عهود الملوك الستة الأولين من ملوك الهكسوس الذين قضوا حياتهم في قتال ملوك طيبة لإخماد شوكتهم ، واستعملوا مع المصريين القسوة والفظاظة اللتين استمر أثرهما في هؤلاء أمدا طويلا ، وأثارت فيهم الكراهية لهم . وأنهم مالوا بعد مدة إلى حضارة مصر وتركوا الفظاظة واستعملوا الرأفة والرحمة وشرعوا في إحياء البلاد وتجديد ثروتها وأدخلوا في مصالحهم الحكومية موظفين وكتبة من المصريين وصاروا يستعملون في مراسلاتهم الملوكية الديباجات المصرية القديمة ، ودانوا بديانة مصر .

وفي عهد الأسرة الثانية اتسعت دائرة التمدن ، وهاجر كثير من أهل الشام والعرب إلى مصر لإكرام ملوكها لهم لكونهم من أبناء جنسهم ، وأنهم استخدموا كثيرا منهم في الجيش الذي كان مقامه في معسكر « أواريس » فكانوا عدتهم في سيطرتهم على مصر ، وأن المهاجرين لما استوطنوا مصر غلبت عليهم حضارتها وصاروا

---

(1) مرجريت مري ، مصر ومجدها الغابر ، صفحة 74 .

(2) إسماعيل مظهر ، مصر في قيصرية الإسكندر المقدوني ، صفحة 58 .

(3) مصر القديمة .

كالمصريين في جميع الأحوال ، إلا أنهم حافظوا على لغتهم الأصلية ، وأن الملك أحمس لما طرد الهكسوس بقي منهم جماعة في ضواحي « أواريس » أظهروا له الطاعة والانقياد فأبقاهم في ملكه واستوطنوا بين الصحراء وفروع النيل الشرقية ، وأن الذين بقوا منهم غالب قومهم ، وأنهم حازوا بعض امتيازات ميزتهم عن المصريين الذين أطلقوا عليهم اسم « بي أمو » وأنهم حصلوا من المصريين على وظائف مهمة ومنها الكهانة ، فأدى ذلك إلى إدخال معبوداتهم في الديانة المصرية فاحترمها المصريون وبنوا لها المعابد في منف ، وأن كل ذلك كان سببا في سريان اللغة السامية في البلاد وتعلمها غالب المصريين والليبيين .

كذلك فإن بعض المصريين سموا أولادهم بأسماء هكسوسية . ويذكر « شاروبيم »[1] أن بعض الآثار التي عثر عليها في شمال مصر وجد عليها نقوش تفيد أن الهكسوس اهتموا بإعمار البلاد وتحسين مرافقها ، وكانوا صالحي الإدارة وأنهم اقتبسوا عادات المصريين وتسامحوا في عبادتهم ومعابدهم وأن كثيرا من المصريين اختلطوا بهم واقتبسوا منهم أشياء كثيرة ولا سيما في البناء وأن شكل أبي الهول المجنح من مبتكراتهم وأنه أنشئ في عهدهم مدينة جديدة كانت مزيجا من ميول وروح وذوق الطارئين والمستقرين .

ويضيف المؤرخ « بروجش » Brugsch إلى ذلك قوله إن المصريين اقتبسوا من مخالطة الهكسوس معارف كثيرة ، ولا سيما من حيث الأبنية فأخذوا عنهم أشكالا جديدة ، ويعد أبو الهول المجنح من مبتكراتهم . كما أخذوا عنهم استخدام الخيل والمركبات التي كان الهكسوس أو « الشاسو » العماليق قد غلبوهم بها[2] .

وهكذا فإن الهكسوس ، مثلهم مثل أي شعب يغزو شعبا آخر ، اندمجوا وامتزجوا بالمصريين . صحيح أن معظم الإقليم الجنوبي من مصر ظل غير خاضع

---

(1) محمد عزة دروزة ، تاريخ موجات الحس العربي ودولها ومآثرها في وادي النيل (مصر والسودان قبل العروبة الصريحة) ، صفحة 128 .

(2) جرجي زيدان ، العرب قبل الإسلام ، صفحة 73 .

لهم وبالتالي لم يحدث اختلاط بينهم وبين سكانه ولكن الذي لا شك فيه ، أنه بعد رحيلهم حدث اختلاط بين هؤلاء السكان وبين مواطنيهم في الشمال الذين كانوا قد اختلطوا بالهكسوس وأخذوا عنهم كثيرا من خصائصهم .

وظلت مصر ، بعد رحيل الهكسوس ، تتعرض لعمليات تسلل ، تختلف في الحجم ، من جانب الشعوب المجاورة لها كانت تلعب دورا ليس بالهين في تغيير خصائص المصريين . كذلك فقد غزاها الأشوريون والليبيون والإثيوبيون والفرس ، وفي كل مرة كان الجنود في الجيوش المنتصرة يقومون باغتصاب النساء أينما حلوا .

وبطبيعة الحال ، فإنه يحق لنا أن نسأل « أصحاب الدم النقي » : إلى أي الفراعنة ينتسبون ؟ هل إلى فراعنة عهد الأسرات ابتداء من « مينا » فصاعدا ؟ أم إلى فراعنة ما بعد خروج الهكسوس من « أحمس » فصاعدا ؟ أم إلى فراعنة ما بعد الأشوريين بداية من الفرعون « أبسماتيك » فصاعدا ؟ . إلى أي هؤلاء الفراعنة ينتسبون ؟ . إن هؤلاء غير هؤلاء غير هؤلاء فإلى أيهم ينتسبون ؟ والجميع كما رأينا قد اختلطوا بالغرباء سواء أكانوا مهاجرين أم غزاة فامتزجت الدماء في عروقهم بدمائهم الآسيوية والأفريقية وفقدت بذلك نقاءها . فكيف يقولون إن دماءهم نقية وهؤلاء هم أجدادهم ؟!

ومع ذلك فسوف نفترض أنهم كانوا على حق بشأن الهكسوس الذين قالوا عنهم إن المصريين رفضوا الاختلاط بهم احتقارا لشأنهم وازدراء بهم لأنهم كانوا يعتبرونهم شعبا أدنى منهم مقاما وينظرون إليهم كهمج متبربرين . فماذا بشأن الإغريق ، وقد كانوا لا يقلون عنهم حضارة ومدنية ؟ هل قبلوا الاختلاط بهم أم رفضوا لأسباب أخرى غير التحضر والتمدن ؟

لقد رأينا كيف أن الإغريق تدفقوا إلى مصر بأعداد غفيرة منذ القرن السابع قبل الميلاد حيث أقاموا لأنفسهم مراكز تجارية كما انخرطوا في الجيش كجنود مرتزقة فأصبح لهم مركز متميز وسط شعب مقهور مغلوب على أمره . وكان الإغريق قد ازدادوا معرفة بمصر فلم يعودوا ينظرون إلى المصريين باعتبارهم همجا متبربرين ، خاصة بعد

أن زار مصر بعض مفكريهم وفلاسفتهم ومنهم أفلاطون وسولون وغيرهما واطلعوا على ما كانت عليه من تقدم ملحوظ في مجال العلوم والفنون ، ولكنهم ظلوا مع ذلك يسمونها باسم « إيجيبت » ، سواء بحكم العادة ، أو بدافع من الرغبة في تحقير المصريين شفاء لما كان في صدورهم ، أي الإغريق ، من حقد عليهم لسبقهم إياهم في مضمار الحضارة والتمدن وهو ما يمكن أن نلاحظه بوضوح فيما كتبه « هيرودوت » عن مصر ، حيث مضى يقارن بين الحضارتين المصرية والإغريقية ويحاول أن يرجح كفة حضارتهم دون أن يفوته الظهور بمظهر المنصف ، بين الحين والحين فيشيد ببعض مظاهر الحضارة في مصر .

وبعد أن غزا الإسكندر مصر وتدفق مئات الألوف من بلاد اليونان واستقروا بالبلاد من أقصاها إلى أقصاها ، كعادة اليونانيين . ومع اختفاء السبب الذي زعم أصحاب الدم النقي أنه حال دون اختلاط المصريين بالهكسوس ، فضلا عن سبق معرفة المصريين بالإغريق ، سواء كتجار أو كجنود مرتزقة في جيش مصر يروحون ويغدون بين ظهرانيهم ، فإن الاختلاط كان أمرا لابد منه ، خاصة وأن الإغريق كانوا معروفين بشدة شهوتهم وتعلقهم بالنساء .

وإذا كان الجنود الإغريق المرتزقة قد اضطروا إلى التصرف بطريقة لائقة مع المصريين أثناء عملهم في خدمة الملوك الفراعنة ، فإنهم بعد غزو الإسكندر لمصر وصيرورتهم أصحاب الأمر والنهي ، لم يعد هناك ما يلزمهم بالتظاهر باللياقة وحسن المعاملة للمصريين ذكورا وإناثا . وإذا كانوا قد جلبوا معهم زوجاتهم مما يمكن معه القول إنهم كانوا في غنى عن اغتصاب المصريات فإن ذلك لم يحدث إلا في مرحلة تالية للغزو ، وبعد أن كانوا قد مارسوا حقهم كاملا مع المصريات . بل إنه بعد أن انقضت الفترة التالية للغزو وهدأت الأوضاع فإن كثيرا من الجنود كانوا غير متزوجين وبالتالي فإنهم كانوا يشبعون شهوتهم إلى النساء بمعاشرة المصريات ، سواء برضائهن أو قهرا رغم أنوفهن . ولم يكن الجنود المتزوجون يقبلون أن يقفوا موقف المتفرج فكانوا بدورهم يقلدون زملاءهم غير المتزوجين فيما يفعلونه . وكان ذلك يحدث بكثرة مع نساء الطبقة الدنيا التي كانت تضم الفلاحين الفقراء وغيرهم من

أعضاء هذه الطبقة . وربما يكون من المفيد أن نتعرض للتركيب الطبقي للمصريين ونحن نبحث في عملية الاختلاط بينهم وبين الإغريق .

التركيب الطبقي للمصريين ودوره في عملية الاختلاط :

لما دخل الإغريق مصر كان المجتمع فيها ينقسم إلى عدة طبقات منها الفلاحون (الطبقة الدنيا) ومنها الطبقة الوسطى ، التي تتكون من الصناع والجنود المحترفين ، ثم الطبقة الأرستقراطية التي كانت تتكون من النبلاء والموظفين والكهنة وعلى رأسهم جميعا كان فرعون الذي كانت قدسيته تسمو به فوق مستوى الطبقات . أما الكتبة فإنهم كانوا يحتلون مركزا متوسطا بين الطبقة العليا والطبقة الوسطى [1] .

وفضلا عن انقسام المجتمع المصري إلى هذه الطبقات الثلاث ، فإنه كان ينقسم فيما بينه إلى طائفتين كبيرتين هما الأحرار والعبيد ، وإن كانت العبودية تلعب هنا ، بوصفها عاملا اقتصاديا ، دورا أقل في الأهمية عما تقوم به في أجزاء أخرى من العالم الهيلانستيكي .

وقد لعب هذا التركيب الطبقي دورا هاما فيما جرت عليه عملية الاختلاط بين المصريين والإغريق غداة غزو هؤلاء لمصر ، وظل يلعب دوره فيما بعد متفاعلا مع العوامل الأخرى التي جدت والتي سنشير إليها في حينها . وعلى هذا فإنه يمكننا التمييز في عملية الاختلاط أو الاندماج بين الإغريق والمصريين بين ثلاث مراحل : الأولى منها تقع زمنيا بين دخول الإغريق مصر بقيادة الإسكندر المقدوني وأواخر القرن الثاني قبل الميلاد وقد استغرقت هذه المرحلة قرابة القرنين . في حين تقع المرحلة الثانية بين هذا التاريخ واحتلال الرومان لمصر وصيرورتها ولاية رومانية (30 / 31 ق . م) . أما المرحلة الثالثة فتشمل الفترة الواقعة بين هذا التاريخ وفتح المسلمين لمصر بقيادة عمرو بن العاص . وسوف نتناول هذه المراحل بالدراسة فيما يلي .

---

(1) رالف لنتون ، شجرة الحضارة ، المجلد الثالث ، صفحة 58 .

المرحلـة الأولـــى :

إذا تحدثنا عن الاختلاط بمعنى الزواج ، فإنه من الطبيعي أن يكون بطيئا ومحدودا في أول الأمر ، نظرا لما يكتنف علاقة الغزاة بالشعب المهزوم من كراهية وخوف وعدم ثقة من جانب المهزومين ، يقابلها زهو مشوب بالاحتقار وتظاهر بالشجاعة الممتزجة بالغرور والاستكبار يضاف إلى ذلك عدم ثقة بالمهزومين وعدم اطمئنان إليهم . وإن كنا نظن أن هذه المشاعر لم تكن على نفس الدرجة من القوة التي كانت موجودة أثناء احتلال الهكسوس لمصر ، نظرا لمعرفة المصريين السابقة بالإغريق ، ومعرفة هؤلاء بهم . صحيح أن المصريين كان يعتمل في نفوسهم ما يعتمل عادة في نفس كل إنسان كان سيدا ثم أصبح تابعا خاضعا لخادم الأمس ولكن ما كان قد توفر لدى المصريين من خبرة التعامل مع الغزاة جعلهم أكثر استعدادا لقبول الأمر الواقع والخضوع لمقتضياته .

ومع ذلك فليس من المستبعد قيام حالات زواج بين بعض المصريين والإغريق الذين كانوا على خلاف كل الغزاة السابقين قد علموا برغبة قائدهم الإسكندر في توحيد العالم تحت قيادة قومه وكان لا يني يدعو جنوده إلى الاختلاط بالشعوب التي تم لهم غزوها وإخضاعها . بل وضرب لهم المثل بنفسه حين تزوج من « ستاتيرا » ابنة ملك الفرس « دارا » ، كما اقترن ثمانون من قادته بزوجات فارسيات أو إيرانيات . وكان قد سبق للإسكندر أن تزوج عام 427 ق . م . من روكسانة ابنة أحد القادة الفرس ، وهي التي أنجبت له ابنه الإسكندر الصغير . ولم يكن هذا كله مجرد مظاهر سياسية ، وإنما كان عملا رمزيا يكاد يكون مقياسا ويعبر عن فكرة الإسكندر الرائعة بوجوب عقد قران بين أوروبا وآسيا [1] .

كذلك فإن إقدام الكهنة المصريين على تيسير مهمة الإسكندر في مصر حين

---

(1) هـ . إيدرس بل ، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي ، صفحة 40 .

أخبروه بالنبوءة التي تقول إنه ابن الإلٰه آمون ، الذي زعموا أنه كلمه حين زار معبده في واحة سيوة التي توجوه بها ملكا . كل ذلك جعل مشاعر العداء لدى الجانبين تخف كثيرا . أما ما فعله الكهنة فإنه يكشف عن أمر على جانب كبير من الأهمية ، ألا وهو أن طبقة البيروقراطية المثقفة المصرية وعلى رأسها الكهنة قد رحبت بالغزو وأضفت عليه الشرعية ، فعملت بذلك على إزالة الرهبة منه من نفوس المصريين ونالت بالتالي وبسرعة الحظوة لدى الغزاة ، وحظيت برضائهم . ومنذ تلك اللحظة وهي لا تكف عن التقرب إليهم ، بوضع إمكاناتها في خدمتهم وتذليل كل ما يعترضهم من صعاب .

وما فعلته هذه الطبقة ليس غريبا عليها فقد قامت لتؤدي هذا الدور ، يستوي لديها أن تقوم به لحساب هذا الحاكم أو ذاك ، طالما أنها تحتفظ بامتيازاتها وتحصل على ما تعتقد أنه حق لها . والملاحظ أن الملكية المؤلهة تفترض وجود طبقة مثقفة تؤيدها وتسهل الاحتفاظ باستقرار مكانها على منصة الشرف [1] . لذلك كان إحساس هذه الطبقة بحاجة الملوك المؤلهين لها واضحا فعملت على الاستفادة من الأوضاع إلى أقصى حد . ولعل هذا يفسر الدافع إلى مبادرة الكهنة إلى تأليه الإسكندر ، فقد كانوا حريصين على بقاء نظام الملكية المؤلهة حتى ولو كان الملك أجنبيا ، طالما أنه سوف يبقي عليهم وعلى امتيازاتهم ، ومن أهمها إعفاؤهم من مشاركة العاملين في الأرض ، الذي يقول عنه « توينبي » إنه يعتبر سمة تمجيد البيروقراطية المصرية لنظامها الذاتي في كل عصر من عصور التاريخ المصري .

وقد اقتضى حرص الطبقة الارستقراطية المصرية على امتيازاتها أن تتسرب إلى الغزاة وأن تتمثلهم وتداهنهم على حساب الطبقتين الآخريين ، المتوسطة والدنيا .

والملاحظ أن الطبقة الارستقراطية المصرية كانت من الضخامة إلى الحد الذي لفت انتباه المؤرخين المتخصصين في دراسة التاريخ المصري القديم ، فقد لاحظوا

---

(1) مختصر دراسة للتاريخ ، المجلد الثاني ، صفحة 81

التوسع المستمر في إنشاء الوظائف المختلفة التي كانت تضم حكام الأقاليم والقضاة والقواد والكتبة وحملة الأختام ، ومستخدمي الضياع والموظفين الرسميين المشرفين على الأعمال العامة ، ومنهم حاكم القلعة وقائد عام الجيش ، ومسجلين حكوميين للإشراف على تحصيل الضرائب المستحقة ومراقبين للخزانة ورئيس محكمة وقائد للشرطة ، وقائد للجند ومحاسبين ومشرفين على الترع ومشرفين على شئون المقاطعات ومشرفين على شئون الصحراء ومشرف على الصيادين . وكل هذه الوظائف وغيرها كانت توجد في كل مقاطعة من المقاطعات المصرية التي كان عددها في الدولة الحديثة سبعا وستين مقاطعة منها اثنتان وأربعون بالوجه القبلي وخمس وعشرون بالوجه البحري . هذا بالإضافة إلى الوظائف الأخرى التي كانت تخصص لكل مدينة مثل المحافظ وكاتب السجلات ورئيس الشرطة .

ولنا أن نتصور ما حدث من اختلاط بين المصريين والإغريق نتيجة لما قامت به هذه الطبقة الكبيرة العدد من تصرفات تنطوي على التقرب من الإغريق وإظهار الولاء لهم والاستعداد لتلبية كل طلباتهم ومن بينها الزواج ببنات هذه الطبقة ، أو زواج أبنائها من إغريقيات ولو كن من حثالة القوم تقربا وزلفى للسادة الذين يملكون بيدهم مقاليد الأمور ، ومن أجل أن يأتي أولادهم وفيهم بعض من الدم الإغريقي فيفتح ذلك لهم الأبواب .

والملاحظ أن البطالمة لم يحدثوا إلا تغييرات قليلة جدا في التقسيم الإداري للبلاد واستمر العمل بنظام الوظائف القديمة في عهدهم ، ولكنهم أطلقوا عليها أسماء إغريقية [1] . فهم قد استوعبوا الحكمة التي توخاها الفراعنة من وجود هذا الجيش العرمرم من الموظفين وهي وجود فئة ترتبط مصالحها بمصالحهم فتحرص على وجودهم وتذلل الصعاب أمامهم غير عابئة بالشعب الذي تنتمي إليه . وفرض البطالمة اللغة الإغريقية كلغة رسمية للبلاد مما استلزم أن يتعلم الموظفون المصريون هذه

---

(1) بيري ، الحياة الاجتماعية في مصر القديمة ، صفحة 110 .

اللغة حتى يمكنهم الاستمرار في عملهم . وتلا ذلك محاكاتهم لسادتهم الجدد في كل شيء تقريبا ، ومن ثم اتسعت الفجوة بينهم وبين العامة من فلاحين وعمال الذين ظلوا محتفظين بلغتهم وعاداتهم وتقاليدهم وبثقافتهم الموروثة بصفة عامة . وبينما بدأت عملية الاندماج بين البيروقراطية المصرية والغزاة الإغريق عن طريق التزاوج ، فإن هذه العملية كانت قد بدأت قبل ذلك منذ اللحظة التي دخل فيها الغزاة البلاد وذلك عن طريق الاغتصاب واتخاذ الحظايا من الفلاحات تحت مسمى الخادمات ، وهي الظاهرة التي لم تنقطع على مدى التاريخ المصري ، حيث اعتاد السادة سواء من أهل البلاد أم من غيرهم أن يتخذوا خادمات من الريفيات الصغيرات ، رضي أباؤهن أو لم يرضوا . وما كان بمقدورهم أن يرفضوا والطبقة المثقفة التي تعمل في خدمة الحكام مستمرة في القيام بدورها في تبرير القهر وتسويغ الظلم والخنوع .

وليس أدل على خضوع الكهنة ومن ورائهم كل الموظفين الذين كانوا يكونون طبقة الأرستقراطية المصرية من ذلك الذي حدث عندما أراد بطليموس الأول أن يوحد الدينين اليوناني والمصري بقوله إن « سرابيس وزيوس آله واحد ، فإذا بالطبقة الأرستقراطية وعلى رأسها الكهنة تستجيب له . ويقول « جيبون »[1] إن الكهنة الأذلاء الذين أغراهم سخاء البطالمة ، خضعوا دون مقاومة لسلطان إله « بنطس » Bontus ووضعوا له تاريخا شريفا وطنيا يتسلسل فيه نسب ذلك المغتصب السعيد الحظ إلى عرش وفراش (أوزوريس) زوج (إيزيس) وملك مصر السماوي ، وأصبحت الإسكندرية التي اختصها هذا الإله بحمايته تفخر باسم مدينة « سيرابيس » Serapis .

ومع ذلك فإن أوضاع كل من المصريين والإغريق في هذه المرحلة لم تتخذ شكلا ثابتا بحيث يمكن القول إن المجتمعين استقر كل منهما إزاء الآخر بحيث انعزل هؤلاء عن أولئك اكتفاء بقيام كل منهما بدوره ، المصريون كشعب خاضع ،

---

(1) اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، المجلد الثاني ، صفحة 147 .

والإغريق كشعب مسسيطر متحكم . فهذا أمر لا يمكن تصوره . ولكن الحقيقة ، كما يقول سليم حسن [1] « أن كل شيء كان في حالة غليان وفي فاعلية جبارة ، وكأن الإنسان في هذه الحالة يقول إن هذا المجتمع لم يكن قد وجد بعد ، وإنه كان في سبيل الظهور إلى عالم الوجود . وعلى ذلك فإن من الصعب جدا أن تصاغ الأحكام المتساوية لإعطاء صورة متناسقة ، ومن المحتمل هنا أنه يجب على الإنسان أن يبحث عن سبب سوء المفهومات العديدة في العلم الحديث الذي أصبح ممثلوه يعاملون المجتمع في العهد البطلمي الأول بوصفه موضوعا ثابتا وكأنه صورة ثابتة ناضجة دون أن يعرفوا أو يروا أو يفهموا المتناقضات التي كانت تميزه .

وهكذا فإن سليم حسن يعيب على بعض المؤرخين تصوراتهم الخاطئة للمجتمع المصري في العهد البطلمي التي ذهبت بهم إلى حد اعتبار أن المجتمعين المصري والإغريقي كانا في حالة من الثبات إزاء بعضهما ، غير متفاعلين .

المرحلـــة الثانيـــة :

وتبدأ بعد حوالي قرنين من غزو الإسكندر لمصر إلى تاريخ احتلال الرومان لها . وفي هذه المرحلة ازداد اختلاط الإغريق بالمصريين ، ولم يعد قاصرا على الطبقة الأرستقراطية المصرية ، وإنما تجاوزها إلى الطبقة الوسطى بعد أن تدخلت عوامل جديدة يرجع معظمها إلى الإغريق أنفسهم ، وفي مقدمة هذه العوامل ضعف الرابطة بين الإغريق الأوائل وبين وطنهم القديم بعد أن انقضى قرنان على وجودهم في مصر ، وكذلك روابط الدم التي كانت قد تضاءلت شيئا فشيئا [2] .

كما بدأ الانحلال يدب في كل شيء ، فانتقل البطالمة من الرذائل الطبيعية إلى الرذائل غير الطبيعية ، ومن الذكاء إلى الغباوة ، وانطلقوا يتزوجون بلا قيد وبسرعة

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 189 .

(2) المرجع السابق ، صفحة 173 .

أفقدتهم احترام الشعب ، وانغمسوا في الترف انغماسا صرفهم عن إدارة دفة الحرب والحكم ، وأفقدهم آخر الأمر القدرة على التفكير .. فنسوا على مر السنين لغتهم وأخذوا يتكلمون خليطا فاسدا من اللغتين اليونانية والمصرية ، وازداد عدد من يتزوجون منهم بأخواتهم زيادة مطردة ، كما كان يفعل أهل البلاد ، ومن يتزوجون من أسر مصرية فاندمجوا في السكان وعبد الآلاف منهم الآلهة المصرية [1] .

ويقول الدكتور جمال حمدان [2] : « من الثابت أن الإغريق الذين كانوا يقيمون خارج المدن الإغريقية الأربع تزوجوا من مصريات على نطاق واسع ، خاصة بعد تراخى الهجرة الإغريقية الوافده . وبهذا نشأت في الريف جاليات مختلطة من المصريين والإغريق » . ويضيف قائلا إن البعض يصل بهذا التزاوج والاختلاط إلى حد الفناء في جيل إغريقي مصري جديد يذكرنا بما حدث بعد ذلك في مصر نفسها من امتزاج الترك والشراكسة بالمصريين . ويذهب « ماسبيرو » إلى حد القول بأن المصريين كانوا سائرين إلى اليونانية ، كما ساروا إلى العربية بعد ذلك .

وهذا كله يوحي بأن الإغريق النازحين إلى مصر لم يغادروها إلى وطنهم الأصلي بعد نهاية سيطرتهم عليها وتمصرهم وإنما أقاموا بها نهائيا حتى ذابوا فيها . مما يدل على وجود حد أدنى على الأقل من الأثر الجنسي للوجود الإغريقي في مصر أيا عد نوعه ، غزوا أو تسربا أو هجرة [3] .

المرحلـــة الثالثـــة :

وتبدأ باستيلاء الرومان على مصر وتنتهى بفتح العرب لها (30 ق . م – 641 م) وفيها بلغت عملية الاندماج ذروتها بعد أن اختفت تماما الرابطة المادية بين

---

(1) ول ديورانت ، المرجع السابق ، صفحة 82 .

(2) شخصية مصر ، المجلد الثاني ، صفحة 283 .

(3) المرجع السابق ، صفحه 284 .

من كان قد أقام في مصر من الإغريق وبين وطنهم القديم بعد أن مضى عليهم هم ونسلهم ثلاثة قرون أقاموها في مصر ، وكانت بلادهم القديمة قد وقعت بدورها في أيدي الرومان وأضحت خاضعة لهم ، فكأنهم فقدوا وطنهم الأول ووطنهم الثاني (مصر) حيث هبطت مكانتهم التي كانوا يتمتعون بها كحكام وسادة إلى مكانة أقل لا تميزهم في شيء عن المصريين الأصلاء ، أو الذين اختلطت دماؤهم بدماء إغريقية .

وهناك خطأ شائع ناشئ عن تصور غير صحيح للمجتمع الإغريقي في مصر ، حيث يشيع الاعتقاد بأن هذا المجتمع كان متجانسا يتكون كله من جماعات من الإغريق تتمتع بنفس الحقوق والمزايا ولها نفس المكانة . وهذا ليس بصحيح ، ذلك لأن الجماعات الإغريقية التي جاءت إلى مصر كانت تتمتع بمزايا تتناسب وما لموطنها الأصلي في بلاد الإغريق من أهمية . فالإغريق الذين ينتسبون إلى آسيا الصغرى ، وبخاصة الذين وفدوا من إقليم « كاريا » وجزر بحر « إيجه » كانوا يحتلون المكانة الرفيعة ومثلهم الإغريق الأصليون الذين وفدوا من صقلية وجنوب إيطاليا ، ومن بلاد اليونان نفسها ومن « تساليا » و « تراقيا » و « مقدونيا »[1] . وهؤلاء وأولئك كانوا يكونون الأرستقراطية الإغريقية منذ غزو الإسكندر المقدوني لمصر . وإلى جانبهم وجدت جماعة أخرى تنتسب إلى مناطق أقل أهمية ولكنها مع ذلك تفخر بهيلينيتها وتتخذ من انتسابها إليها وسيلة لإثبات حقها في الحصول على جزء من الغنيمة . وبحسب ما كان أفرادها يحصلون عليه كانت تتحدد انتماءاتهم إلى إحدى الطبقتين الوسطى أو الدنيا . وهما الطبقتان اللتان امتدت إليهما عملية الاندماج في هذه المرحلة ، خاصة بعد أن ساءت أحوال كثير من الإغريق فكفوا عن احتقار الفقراء من المصريين ، بعد أن شاركهم في فقرهم أعداد كبيرة من الإغريق الذين كانوا في المرحلة الأولى من مراحل الوجود الإغريقي في مصر يعانون من الضياع تقريبا ، ولا يكادون يجدون من ينتمون إليه ويقيمون علاقات معه ، فالأرستقراطية

---

(1) سليم حسن ، المرجع السابق ، صفحة 166 .

الإغريقية تنبذهم وكذلك الطبقة الإغريقية الوسطى ، فلم يجدوا لهم مكانا إلا بين الطبقة الفقيرة من السكان الأصليين ، حيث كانت الهلينية تعوضهم عن مذلة الفقر بشعور وهمي بأنهم أصحاب السلطان ، أو أقارب أصحاب السلطان !! .

وقد انتهى كل ذلك باستيلاء الرومان على مصر واعتبارهم الجميع مصريين وإغريقا سواء ، فلم يميزوا بينهم في المعاملة اللهم إلا في حالات استثنائية قليلة .

وقد فند الدكتور « بيكرمان Bickermann » حجج الذين قالوا عكس ذلك من المؤرخين والعلماء ، وأثبت أنهم كانوا مخطئين ، ففي رأيه أن « جميع السكان في مصر كانوا ، في نظر الرومان ، مصريين ، فيما عدا الرومان الأحرار وفريقا آخر من المتمتعين بالرعوية والساكنين في المدن اليونانية الثلاث ذات الاستقلال الذاتي ويضاف إلى هؤلاء في أغلب الظن ، وإن كان هذا غير مؤكد ، جماعة عرفوا باسم الكاتوكي Katoikoi وهم سلالة المستوطنين العسكريين في الفيوم . ويقول سير هارولد بيلي معقبا على كلام « بيكرمان » وإن ما لدينا من أدلة بينة خاصة بفريضة الخراج على الرأس ليؤيد رأي « بيكرمان » هذا [1] .

والمعلوم أن الإغريق لم يؤسسوا مدنا يونانية في مصر فيما عدا المدينة التي أسسها بطليموس والتي سميت « بطلمية » ptolemais نسبة إليه ، وكانت تقوم على الضفة الغربية من النيل في مصر العليا (محلها الآن المنشأة بمحافظة قنا) . وهي بالإضافة إلى الإسكندرية وإلى المدينة اليونانية القديمة « نقراطيس » Naucratis الواقعة في غرب الدلتا (محلها الآن نقراس وكوم جعيف ونبيرة مركز إيتاي البارود) تمثل وحدها في مصر فكرة الهلينية التقليدية عن البوليس (Polis) أو المدينة ، وما تتمتع به من حكم ذاتي . وفيما عدا هذه المدن الثلاث فإن اليونانيين كانوا يقيمون بين ظهراني الشعب المصري وهو ما سهل عملية اندماجهم فيه [2] .

---

(1) سليم حسن ، المرجع السابق ، صفحة 96 .

(2) المرجع السابق ، صفحة 52 .

أما بقية المدن (Metropolis) حسبما كانوا يطلقون عليها ، فقد كانت في أغلب الظن بلدانا ذات مساحات لا بأس بها ، ولكنها كانت في تقدير اليونانيين لا تزيد ، في الحق ، كثيرا عن قرى مفخمة ، وذلك لأنه على الرغم من إطلاق اليونانيين عليها اسما اصطلاحيا في عجزه كلمة مدينة أي بوليس (Polis) ، مثل « هرموبوليس » Hermopolis أي مدينة « هرمس » Herms (الأشمونين مركز ملوي) أو (هيراقليوبوليس) Heracleopolis أي مدينة هرقل ، فإنها لم تكن تتمتع بأي قدر من الحكم الذاتي ، وإنما كانت تخضع لسلطان موظف موكل يتولى الحكم في محيط ذلك الإقليم .

ولذلك فإن استثناء الرومان لبعض الإغريق من المعاملة كمصريين اقتصر على من كان يقيم منهم في المدن الثلاث وهي : الإسكندرية وبطلمية ونقراطيس . أما ما عداهم فقد عوملوا معاملة واحدة دون أدنى نظر إلى كونهم مصريين أو إغريقا والسبب بطبيعة الحال هو صعوبة التمييز بينهم بعد أن بلغ الاندماج مداه وأصبح هناك أجيال كاملة من المصريين الذين اختلطت في عروقهم الدماء المصرية بالدماء الإغريقية وكان ذلك أوضح ما يكون في القرى أما في المدن فقد اختلطوا عن طريق الزواج والمصاهرة . ولم يوصم الزواج بين اليونانيين والمصريين بالعار ولم يمنع صاحبه من أن يكون له أصدقاء من الرومان . أما زواج الرومان من المصريين ذكورا كانوا أو إناثا فقد منع من حيث المبدإ [1] .

بعد أن بينا للقارئ كيف بدأت عملية الاندماج وكيف تطورت ، والعوامل التي لعبت دورا فيها ، نبين له المجالات المختلفة التي حدث فيها الاندماج ، سواء لدى المصريين أو لدى الإغريق .

أولا ـ الـــزواج :

عرفنا أن الإغريق عاشوا في مصر ، وبالذات في الدلتا التي انتشروا فيها بعد

---

(1) دكتورة آمال الروبي ، مصر في عصر الرومان ، صفحة 282 .

أن أقاموا مراكز تجارية لهم قبل مجيء الإسكندر بأكثر من ثلاثة قرون ، فليس من المستبعد ، بطبيعة الحال ، أن يكون بعضهم قد تزوج من مصريات . فلما جاءوا إلى مصر غزاة اختلف وضعهم إذ أصبحوا سادة البلاد ، إلا أنه بالنظر إلى كثرة أعدادهم فقد ضاقت بهم المدن اليونانية وهي الإسكندرية ونقراطيس وبطلمية ، حيث وضعت لسكانها قوانين خاصة تحرم الزواج بين الأحرار فيها وبين المصريين . أما فيما عدا ذلك من أقاليم مصر التي انتشر فيها الإغريق ، فإنه لم يكن محرما عليهم الزواج بالمصريين وخاصة بعد أن فقدوا ما يمكن أن يكونوا أظهروه أول الأمر من اعتزاز بشخصيتهم وترفع عن مخالطة غيرهم ، فأخذ الزواج يعم بينهم وبين المصريين وبدءوا يسمحون باتخاذ أسماء مصرية يطلقونها على أفراد أسرهم ويتشكلون ويتطبعون شيئا فشيئا بظروف البيئة المحيطة بهم بمختلف الطرق والأوضاع [1] .

ومما ساعد على شيوع ظاهرة الزواج بين المصريين والإغريق ما حدث من انخفاض شديد في أعداد المهاجرين اليونانيين إلى مصر نتيجة لانخفاض معدلات المواليد في بلادهم من ناحية ، ولضخامة الأفواج التي هاجرت منها إلى البلاد المجاورة ، فأدى ذلك إلى ضعف الروح الإغريقية تدريجيا بين إغريق مصر وخاصة الذين يقيمون خارج المدن الإغريقية .

كذلك فإن ضعف حركة الهجرة من اليونان إلى مصر صاحبه الأخذ بنظام توريث الإقطاعات لأبناء الإغريق الذين كان البطالمة منحوها لهم فأدى ذلك إلى أن أصبحت لأرباب الإقطاعات مصالح دائمة في مصر « وقد كانت رعاية هذه المصالح تتطلب منهم أن يداروا أهل البلاد وألا يشمخوا بأنوفهم عليهم . وفي الوقت نفسه أخذ البطالمة يتبعون سياسة جديدة في معاملة المصريين ، فإنهم في عهد بطليموس الرابع أخذوا يفسحون المجال أمام المصريين ويمنحونهم من الامتيازات ما رفع من شأنهم وضيق الشقة بينهم وبين الإغريق وساعد على التقريب بين العنصرين ، وقد

---

(1) ب . ج . إلجود ، مصر ، صفحة 31 .

أسهمت هذه العوامل في إضعاف الروح الإغريقية بين إغريق الأقاليم » [1] .

ويقول سليم حسن عن هذه الفترة : « كانت هناك عوامل كثيرة تعمل في الحياة الاجتماعية لمصلحة التدخل المتبادل وامتزاج الأقليات سويا . ويجب أن نقتبس من ذلك قبل كل شيء الحياة اليومية والعمل والحياة الأسرية حيث نصادف الزواج المختلط منذ زمن مبكر في هذه الفترة » [2] .

ويعبر عن شدة إقبال اليونانيين على الزواج من المصريين وخاصة في العصر الروماني ما حدث في عهد الإمبراطور « هادريان » ، إذ اضطر إلى إصدار قانون في عام 130 ميلادية يبيح به لسكان مدينة « أنطونيئو بوليس » التي أنشأها في المكان الذي غرق فيه عشيقه « أنطونيئوس » Antinoos في النيل التزاوج مع المصريين ، وهو ما كان محظورا في المدن الإغريقية الأخرى ، فساعد ذلك على سرعة الاندماج بين المصريين والإغريق ، وأدى إلى شيوع استعمال المصريين للأسماء الإغريقية ، مما أفقد الأسماء ما كان لها من دلالة على الجنسية ، فلم يعد يعرف ما إذا كان الشخص مصريا أم إغريقيا . كذلك أضاف بعض الإغريق أسماء مصرية إلى أسمائهم الإغريقية . وهذا وذاك لا يمكن أن يحدث إلا نتيجة لشيوع ظاهرة الزواج بين المصريين والإغريق ، وهي الظاهرة التي أدت في النهاية إلى أغرقة المصريين وتمصير الإغريق إلى الحد الذي أصبح معه من المتعذر التمييز بين الفريقين .

فما قاله الدكتور زاهر رياض عن أن الأقباط « احتفظوا بأسمائهم القبطية دليلا على مصريتهم ، بل وحرصوا على أن يعطوا أولادهم هذه الأسماء ليميزوا أنفسهم كمصريين وسط هذا البحر الذي لم يكن يعرف فيه المصري من غيره من رعايا الدولة فكانوا مثلا حيا للقومية المصرية » [3]. هذا الكلام لا قيمة له بالمرة بعد ما

---

(1) الدكتور إبراهيم نصحي ، تاريخ الحضارة المصرية _ العصر اليوناني الروماني والعصر الإسلامي ، المجلد الثاني ، صفحة 75 .

(2) سليم حسن ، المرجع السابق ، صفحة 178 .

(3) المسيحيون والقومية المصرية ، صفحة 52 .

ثبت من أن الأسماء المصرية فقدت ما كان لها من دلالة على الجنسية منذ أن احتل الرومان مصر فقد تسمى بها الإغريق كما تسمى المصريون بأسماء إغريقية . وإذا كان للأسماء المختلفة التي يستخدمها الأخوة الأقباط الآن من دلالة فهي أن مصر قد عرفت شعوبا وقبائل من الشرق ومن الغرب ومن الشمال ، ومن الجنوب ، وكلها وبلا استثناء تركت أسماءها ليتسمى بها المصريون أو الأقباط ، إذا شاء الدكتور زاهر . فأنت تجد بينهم من يحمل أسما فرعونيا لا يعرف عنه شيئا أكثر مما يعرفه زميله الذي يحمل اسما يهوديا ، وما أكثرها ، هذا بالإضافة إلى الأسماء العربية ، والتركية والفارسية والكردية والفرنسية والإنجليزية التي كثر استخدامها أثناء الاستعمار الإنجليزي لمصر ، ربما لقربها من الفرعونية !! أما الأسماء الإغريقية فهي لا تخضع للحصر ولا ندري إن كان من تسموا بها أقباطا أم إغريقا أم مزيجا من الاثنين . ولو أنصف الدكتور زاهر رياض لقال إن أسماء الأخوة الأقباط تعتبر متحفا متحركا يعبر بالأسماء عن الدماء التي اختلطت في عروق المصريين أو الأقباط وليس غير هذا .

ثانيا ـ الثقافـــة :

يقول سير هارولد بيلي [1] « إذا كان الشرقيون أو أكثريتهم قد اتخذوا لأنفسهم اللغة اليونانية لسانا ، والزي اليوناني لباسا ، واستوعبوا قسطا كبيرا من الثقافة اليونانية ، فإن اليونانيين بدورهم قد اقتبسوا كثيرا من البيئة الشرقية التي تحيط بهم ، وبخاصة في نطاق الدين » . ويصدق هذا القول بصفة خاصة على مصر حيث كان معظم المتوطنين من الأجانب غير مقيمين في دول المدن التي توافرت فيها الكفاية الذاتية وتمتعت بالحكم الذاتي وإنما كانوا متفرقين منتشرين في أنحاء البلاد بين ظهراني الأهلين من المصريين وعلى هذا النحو تكونت ثقافة خليط امتزجت فيها العناصر اليونانية بالعناصر المصرية امتزاجا تاما لا تنفصم عراه .

---

(1) الهلينية في مصر ، صفحة 61 .

ومن مظاهر اندماج الثقافتين تلك العادات المصرية التي لم يجد الإغريق غضاضة في الأخذ بها ومنها عادة زواج الأخ بأخته وهي العادة التي لم يكن الإغريق يقبلونها بينما كانت سائدة في الأسر الحاكمة المصرية . فقد تزوج بطليموس الثاني بأخته « أرسينوي الثانية » التي استطاعت أن تتزوج منه بعد أن نجحت في إقصاء زوجته وكانت تسمى كذلك « أرسينوي » وإبعادها إلى المنفى ، فاصبحت أخته زوجة شرعية له . والزواج بين الأخ والأخت الشقيقين في نظر المشاعر اليونانية مصدر إيذاء ومحط ازدراء يبلغ في مقداره مثلما هو في نظرنا ، فكان الأمر يتطلب من شعراء البلاط ورجال الدعاية بذل أقصى جهودهم وفنهم في سبيل جعله مستساغا .

كذلك فإن كليوباترا حين أقدمت على الانتحار اختارت أفعى من الأفاعي المصرية « كوبرا Cobra » وهي الحية المقدسة في مصر السفلى . وبوصفها فرعونا وسيدة القطرين ، لبست التاج المزدوج ، تاج العقاب رمز مصر العليا وتاج الحية رمز مصر السفلى ، والحية هي كاهنة إله الشمس ، وليس في لدغتها الخلود فحسب بل والألوهية كذلك .

ثالثا ـ الديـــــن :

لعب الدين دورا بارزا في اختلاط الإغريق بالمصريين ، فقد بدأ الإغريق بتشبيه الآلهة الإغريقية بالآلهة المصرية منذ عهد هيرودوت وطوال عهد البطالمة ، ثم أخذوا يعبدون الآلهة المصرية إلى جانب الآلهة الإغريقية . ويقول الدكتور إبراهيم نصحي [1] « ونستطيع أن نتصور أنه كلما أصبح الإغريق أكثر ألفة بالآلهة المصرية نتيجة لطول استقرارهم في البلاد والاختلاط بأهليها والتزاوج معهم كثر تقربهم إلى هذه الآلهة وتبع ذلك تسرب بعض الأفكار الإغريقية إلى بعض المذاهب المصرية التي كان الإغريق والمصريون المتأغرقون يمارسونها . وإذا كان من الجائز بوجه عام أن

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 136 .

إغريق المدن الإغريقية وعواصم المديريات (المحافظات) لم يصرفهم التعبد إلى الآلهة المصرية عن التعبد إلى آلهتهم الإغريقية ، فمما لا شك فيه أن عامة الإغريق المنتشرين في أرجاء البلاد أصبحوا بالتدريج أقرب إلى المصريين منهم إلى الإغريق و لم ينقض وقت طويل قبل أن تستوعبهم الأمة المصرية فيمن استوعبتهم العصور ، ومن ثم نقص عدد أتباع الديانة الإغريقية تبعا لعدد الذين تمصروا ، وبطبيعة الحال أيضا تبعا لعدد الذين اعتنقوا المسيحية .

وقد انتهى الحال إلى أن أصبح للفريقين ، المصريين والإغريق ، دين واحد ، وهو ما لا يتصور حدوثه إلا في حالة واحدة فقط هي الاندماج بين العنصرين ، ولذلك فإن الرومان وضعوا إدارة المعابد تحت إشراف الحكومة . ويرجح أن الحاكم العام الروماني هو الذي كان يتولى هذا الإشراف حتى عصر هادريان عندما أصبح ذلك من اختصاص موظف روماني كبير كان يدعى « أيديولوجوس » Idiologos ويحمل لقب (كبير كهنة الإسكندرية ومصر بأجمعها) .

وتبين الوثائق كيف كان هذا الموظف يشرف إشرافا دقيقا على كل ما يجري في المعابد . فقد كان يخضع لتعليماته ترتيب الوظائف الكهنوتية وتوليها ومباشرة الكهنة مهامهم ، بل والملابس التي يرتدونها [1] .

وإذا كان لأحد أن يطعن فيما عرضناه من أدلة على قوة الامتزاج وعمق الاندماج بين المصريين والإغريق ، فإن الدليل المستمد من ظهور المسيحية في مصر والأطوار التي مرت بها ، لهو من القوة والإحكام بحيث يتعذر توجيه أي طعن إليه .

ولقد بينا كيف أن « بطليموس » الأول فرض على المصريين إلها جديدا هو « سيرابيس » الذي أقام له معبدا كبيرا في الإسكندرية . ومع أن المصريين ، وبالذات الطبقة الدنيا ، رفضوا ، في أول الأمر ، ترك آلهتهم وعبادة الإلّه الجديد ، غير أنه بمضي الوقت ، ومع زيادة الاندماج بينهم وبين الإغريق ، أخذوا يقبلون على عبادة

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 138 .

« سيرابيس » ويقدمون القرابين له . وفي هذا دليل على الضعف الشديد في الروح المصرية والوهن المستمر في الشخصية المصرية ، حيث لم يكن المصري القديم يرضى بالتخلي عن آلهته بأي حال من الأحوال . ثم بلغ التحلل في الروح وفي الشخصية المصرية مداه مع ظهور المسيحية .

فقبل أن تظهر المسيحية في مصر كان عشاق المعرفة من الوثنيين المثقفين ، وهم خليط من اليونانيين والمصريين المتأغرقين يبذلون جهدا ملحوظا من أجل التعرف بسهولة على لاهوت الديانة اليهودية . ونتيجة لهذه المعرفة أخذت عقائد يهود الشتات تتغلغل بين الوثنيين غير الراضين عن ديانتهم الخاصة والباحثين عن المعرفة الحقيقية بالله ، خاصة بعد أن وفر لهم اليهود ترجمة يونانية للتوراة . وقبيل ظهور السيد المسيح نصادف عددا ليس بالقليل من سكان الإسكندرية قد اعتنق اليهودية ، وهؤلاء هم الذين عرفوا باسم « دخلاء الباب » إذا قبلوا الديانة اليهودية دون الختان ، و « دخلاء البر » إذا قبلوها مع الختان [1] .

كذلك فإن المسيحية ، كان أول ظهورها في الإسكندرية التي هيأت تجارتها الواسعة وقربها من فلسطين منفذا سهلا للديانة الجديدة ، التي يحيط الغموض ظهورها في الإسكندرية ، حيث تعمد الذين أرخوا للكنيسة المصرية أن يجعلوا لظهورها تاريخا مبكرا عن التاريخ الحقيقي . ومع ذلك فإن « مرقس » الداعية الأول للمسيحية في مصر لم يكن مصريا تجري في عروقه الدماء الفرعونية ، بل كان يهوديا من فلسطين ، وكان أول الذين لبوا دعوته واعتنقوا المسيحية من طائفة « ثيرابوتا » Therapeuta وهم ليسوا مصريين ، والآسينيين Essenians القاطنين في منطقة بحيرة مريوط [2] ، وهم طائفة من اليهود تمسكوا بالتوراة الحقيقية وآمنوا بعيسى نبيا ورسولا من البشر . وهو ما كانت تعتقده شيعة الأبيونيين بالإضافة إلى اعتقادها

(1) سميرنوف ، تاريخ الكنيسة المسيحية ، صفحة 17 .

(2) حبيون ، المرجع السابق ، الجزء الأول ، صفحة 393 ، وانظر أيضا : John Allegro , The Dead Sea Scrolls, p. 103 .

أن الديانة اليهودية هي الأصل والمسيحية فرع لها أو رافد ، فهي في نظرهم ليست ديانة جديدة ، بل امتداد للديانة اليهودية ذاتها . ومن هنا كان تعليمهم عن المسيح أنه ليس الله بل نبي عظيم فقط يشبه موسى ، تنحصر مهمته في تفسير الناموس وإكماله بإعطاء وصايا جديدة . كذلك فإنهم لم يكونوا يعتقدون فيما قيل عن فداء البشرية بواسطة الرب يسوع المسيح من الخطيئة واللعنة والموت [1] .

وكان عدد الذين اعتنقوا المسيحية قليلا ، غالبيتهم العظمى من الإغريق المتمصرين ممن درسوا الفلسفة الإغريقية في مدرسة الإسكندرية . ولذلك ظهر أثر جهودهم واضحا في المسيحية . فهم الذين أمدوها بفلسفتها الدينية ، وهي فلسفة إغريقية الأصل ؛ فآريوس قد استمد أفكاره عن طبيعة المسيح من أفلاطون عن طريق الرواقيين ، وفيلون وأفلوطنيس وأرجن . وبذلك أصبحت الأفلاطونية التي كان لها أعظم الأثر في اللاهوت المسيحي في نزاع مع الكنيسة [2] .

كذلك فإن المناقشات في أمور المسيحية كانت تدور في الإسكندرية باللغة اليونانية وبأسلوب يمتلئ بالمصطلحات الإغريقية الغامضة التي لا يمكن للناس البسطاء ، بل والمتعلمين أيضا ، أن يفهموها . مع ملاحظة أن المصطلحات اليونانية والكلمات الفنية الواردة في الفلسفة الأفلاطونية كانت موضع تقديس سواء من الإنجيل أو من الكنيسة .

والمعلوم أن الفلسفة تقوم على الجدل والنقاش ، وهو ما كان لدى الإغريق ولع شديد به على خلاف المصريين الذين لا نصادف لديهم ، في جميع مراحل تاريخهم ، مثل هذه العادة ، بل على العكس كانوا ميالين إلى قبول ما يفرضه عليهم الملوك والكهنة من عقائد بلا نقاش أو جدل لاعتقادهم أن الأمور الدينية لها من القداسة ما يمنع

---

(1) سميرنوف ، المرجع السابق ، صفحة 87 .

(2) ديورانت ، الجزء الثالث ، المجلد الثالث ، صفحة 392 .

من مناقشتها . ولكن امتزاجهم مع الإغريق ترتب عليه أن أصبحت الأجيال التي كانت ولادتها نتيجة لهذا الاختلاط ميالة إلى الجدل والنقاش ، دون أن ينتهي بهم ذلك إلى فهم الدين الذي يتجادلون فيه .

ويقول « جيبون » إن ولاية مصر حين احتضنت لغة اليونان وعاداتهم قد تناولت جرعات كبيرة من سموم الجدل الذي قام حول مذهب آريوس . وزودت الدراسة غير المألوفة لمذهب أفلاطون بما فيها من ميل عقيم إلى النقاش ، وتوفر المصطلحات المرنة المطاطة ، كل أولئك زود أتباع الكنيسة ورجال الدين بمعين لا ينضب من الألفاظ والتمييزات . وفي خضم نزاعاتهم الحادة ، نسوا في سهولة ذلك التشكك الذي تحبذه الفلسفة وذلك الخضوع الذي يحتمه الدين [1] .

كذلك فإن الإغريق المتمصرين وغير المتمصرين هم الذين وضعوا نظم الكنيسة الأولى في الإسكندرية . فضمنوها ما كان لدى الإغريق من نظم منها نظم « السنودس » أي مجامع الرؤساء الروحانيين في كل منها . كما استعاروا نظام المجلس التمثيلي من النماذج المشهورة في اليونان مثل مجالس المدن أو العصبة الآخية ، أو مجالس المدن الأيونية . وسرعان ما تقرر ، بحكم العادة ، أو كقانون ، أن يجتمع أساقفة الكنائس المستقلة في عاصمة الولاية في فترات معينة في الربيع والخريف [2] .

وعندما زار « هادريان » الإسكندرية وجد كنيسة تتألف من اليهود والإغريق بلغت من الأهمية ما يكفي لجذب انتباه هذا الأمير الفضولي المحب للاستقصاء . ولكن تقدم المسيحية ظل زمنا طويلا مقصورا على نطاق مدينة الإسكندرية فقط ، وهي في حد ذاتها مستعمرة أجنبية وظل أسلاف « ديمتريوس » ، حتى نهاية القرن الثاني ، هم الأحبار الوحيدين ، في الكنيسة المصرية ، ثم رسم ديمتريوس بيديه ثلاثة أساقفة وزاد عددهم إلى عشرين في أيام خلفه « هرقلاس » Heraclas . أما جمهور المواطنين

---

(1) جيبون ، المرجع السابق ، صفحة 622 .

(2) جيبون ، المرجع السابق ، صفحة 373 .

فقد استقبلوا الدين الجديد بفتور واشمئزاز [1] .

كذلك نلاحظ أن معلمي وتلامذة أول مدرسة مسيحية تأسست في الإسكندرية كانوا من اليونانيين متل « باندن » الذي ولد في أثينا ، وكان قبل اعتناقه للمسيحية منتسبا إلى مدرسة الرواقيين ، وطيطوس فلافي كليمنت كاهن الإسكندرية والذي خلف باندن في رئاسة المدرسة ، وأوريجان بن ليونيد الخطيب السكندري ، وديمتري أسقف الإسكندرية [2] .

وبعد ديمتري تولى منصب الأسقفية « إيراكل » وأعقبه « ديونيس » من سنة 248 حتى 265 ، وكلاهما يوناني . وكان الأخير من عائلة نبيلة وغنية في الإسكندرية . هذا بالإضافة إلى « جريجوريوس العجائبي » و « بامفيل » وغيرهما .

وكانت الأسقفيات تقوم في المدن اليونانية في مصر ، وهي الإسكندرية ونوكراتيس وبطلمية . وكان الأساقفة يونانيين ، إما ولدوا في مصر وإما ولدوا خارجها ثم جاءوا ليقيموا فيها فالأب « سينسيوس » Sinesius أسقف بطلمية ولد في « قوريني » حوالي عام 365 وقد درس علوم الرياضة والفلسفة في الإسكندرية على « هيباشيا » ، وظل إلى آخر أيام حياته صديقها الوفي ، وكان يسميها : « الشارحة الحقة للفلسفة الحقة » ، ثم زار أثينا وفيها قويت عقيدته الوثنية ، ولكنه تزوج بامرأة مسيحية في عام 403 واعتنق على أثر ذلك الدين المسيحي ، ووجد أن من المجاملة البسيطة لزوجته أن يحول ثالوث الأفلاطونية الحديثة المكون من الواحد والفكر ، والنفس ، إلى الأب ، والروح ، والابن [3] .

ولقد كان من النتائج التي ترتبت على ولوع الإغريق المتمصرين بالجدل أن انقسم أتباع المسيح في الثلاثة القرون الأولى من ظهوره إلى مائة عقيدة وعقيدة [4] . وهو

(1) المرجع السابق ، صفحة 394 .

(2) تاريخ الكنيسة المسيحية ، صفحة 119 .

(3) ديورانت ، الجزء الأول ، المجلد الرابع ، صفحة 126 .

(4) المرجع السابق ، الجزء الثالث ، المجلد الثالث ، صفحة 219 .

ما لم يكن للمصريين عهد به . وقال « سلسس » ساخرا : إن المسيحيين تفرقوا شيعا كثيرة حتى أصبح هم كل فرد منهم أن يكون لنفسه حزبا . واستطاع « إيرنيوس » أن يحصي في عام 187 عشرين شيعة مختلفة من المسيحيين ، وأحصى « إيفانيوس » في عام 384 ثمانين شيعة [1] .

ففي القرن الثاني الميلادي ظهرت الفرق الغنوصية التي تضم أكثر من خمسين شيعة خاصة . والتي ملأ أعضاؤها آسيا ومصر . ويقول « جيبون » إن الغنوصيين خلطوا إيمانهم بالمسيح بكثير من العقائد أو المذاهب الرائعة الغامضة في وقت معا ، تلك التي اشتقوها من الفلسفة الشرقية ، بل وحتى من ديانة زرادشت التي تتعلق بخلود المادة ووجود عنصرين والتسلل الغامض للعالم غير المرئي . وعندما انزلقوا إلى هذه الهوة السحيقة أسلموا قيادهم لخيال مهوش .

ويقول إن كل شيعة من الشيع الغنوصية تفاخرت بأساقفتها وعلمائها وشهدائها . وأخرج الهراطقة بدلا من الأناجيل الأربعة التي قررتها الكنيسة ، مجموعة كبيرة من التواريخ التي تلتئم فيها مناقشات المسيح وحوارييه وأعمالهم مع أفكار كل شيعة بعينها . وكان نجاح الغنوصيين سريعا واسع النطاق . والأرجح أنهم نشئوا في القرن الثاني وترعرعوا في القرن الثالث ثم خمدوا في القرن الرابع أو الخامس بقيام جدل ومناقشات أكثر عصرية [2] .

وهكذا لا نلمح للمصريين وجودا في كل ما كان يحدث ، فمالهم وهذا الجدل العقيم الذي ليس لهم سابق معرفة به . وإنما كان الجدل والنقاش والخلاف محصورا في المصريين المتأغرقين وفي الإغريق المتمصرين وفي اليهود من مختلف الشيع والفرق . ففي صحراء وادي النطرون كانت هناك شيعة « سيرابيون » المبجل [3] . وهناك أيضا « كاربوكراتس » ، و « باسليوس » ، و « فالنتين » من مصر الذين اتهموا

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 314 .

(2) جيبون ، المجلد الثاني ، صفحة 336 .

(3) المرجع السابق ، صفحة 491 .

بالهرطقة لأن « يسوع » كان في نظرهم مجرد بشر وابنا شرعيا ليوسف ومريم ، ولكنه كان أفضل أبناء الجنس البشري وأكثرهم حكمة ، وقد وقع عليه الاختيار ليكون أداة صالحة تعيد الإله الحقيقي الأسمى على الأرض [1] . وهناك أتباع « أبولليناريس » ، وأتباع « توفاشيانوس » الذين اضطهدهم « كيرلس » ، أسقف الإسكندرية الذي أمر بقتل « هيباشيا » .

وحتى بعد أن ظهرت « المونوفيزيتية » ، مذهب الطبيعة الواحدة ، في مصر فإنها والملكانية الأرثوذكسية لم تكونا المذهبين الوحيدين اللذين عرفهما المصريون وإنما كان يوجد إلى جانبهما مذهب ثالث أو طائفة ثالثة تدعى « الأبيسينيون » [2] . بل إن أتباع مذهب الطبيعة الواحدة كانوا منقسمين على أنفسهم إلى حزبين : متعصبين ومعتدلين ، فالمتعصبون علموا أن جسد « الرب » يسوع المسيح كان خالدا (غيربال) وأنه شعر بالجوع والعطش وما أشبه ، إما بحسب الظاهر وإما بإرادته الخاصة وليس بالطبيعة ومن هنا دعوا (أفترتودركيت) وأيضا (يوليانيين) من اسم رئيسهم يوليان أسقف جاليكرناك . وانقسم الأفترتودركيت أيضا إلى (أكتيستيت) و (كتيستولتري) . فالأول اعترفوا بأن جسد يسوع المسيح غير مخلوق ، والآخرون قالوا إنه مخلوق . والمعتدلون من المونوفيزيت وعلى رأسهم « سيفر » ، على العكس اعترفوا بأن جسد يسوع المسيح يشبه جسدنا وبالطبيعة معرض للفناء فدعوا لهذا (فترتولاري) وانفصل عنهم حزب (أغنوايت) أو تيمسني وعلم رئيسهم بأن يسوع لم يعلم بكل شيء [3] .

ولقد كان من نتيجة ذلك أن الغالبية العظمى من الناس عجزت عن فهم المقصود من المسيحية ، ولذلك بقوا على وثنيتهم . ففي القرن الرابع الميلادي كانت الأديان القديمة لا تزال هي أديان الكثرة الغالبة من سكان الإمبراطورية الرومانية بما فيهم

---

(1) جيبون ، المرجع السابق ، صفحة 491 .

(2) تاريخ الكنيسة المسيحية ، صفحة 276 .

(3) المرجع السابق ، صفحة 272 .

المصريون ، كما ظل الكهنة في مصر قائمين على خدمة آلهتهم الحيوانية الكثيرة بإخلاص وولاء[1] .

ولكن الأوضاع بدأت تتغير عقب إعلان قسطنطين الاعتراف بالمسيحية ، فكما هي العادة اتبعه أعوانه من قواد الجيوش والوزراء وعلية القوم في كل أقاليم الدولة ، بما في ذلك مصر . أما عامة الناس فإن « جيبون » يقول عنهم « ولما كانت غريزة المحاكاة تسيطر على عقول الطبقات الدنيا من المجتمع ، فإن الجماهير التابعة المعتمدة على غيرها سرعان ما تحذو حذو من يتميزون بكرم المولد أو بالقوة والسلطة والثراء » [2] . و لم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن قسطنطين لجأ إلى شراء ضمائر الناس بالمال فبدل اثنا عشر ألف رجل دينهم بالدين الجديد في روما في سنة واحدة ، فضلا عن عدد يتناسب معهم من النساء والأطفال مقابل رداء أبيض وعشرين قطعة ذهبية لكل واحد منهم . وبعث قسطنطين الكتب الدورية إلى كل الأقاليم التابعة للإمبراطورية الرومانية ومنها مصر يحض فيها جميع رعاياه على أن يقتدوا به دون إبطاء وأن يدخلوا في المسيحية . ودعم أوامره بقوة جيوشه التي بادرت إلى نشر ألوان من الإرهاب في كل مكان لإرغام الوثنيين على اعتناق المسيحية [3] .

ومع ذلك فقد قاوم عدد كبير من الناس محاولة فرض المسيحية عليهم وتمسكوا بوثنيتهم التي رأوا أنها أقرب إلى الفهم من الدين الجديد . ويقدر « جيبون » نسبة المسيحيين إلى إجمالي السكان في مدينة كبيرة هي « أنطاكية » التي كانت مركزا مسيحيا كبيرا ، بأنها لم تكن تزيد على الخمس (20%) [4] . ونرجح أن الوضع في الإسكندرية لم يكن يختلف عن ذلك ، ففي الثورة التي نشبت في المدينة عقب صدور قرار الإمبراطور « قسطنيوس » بعزل « أثناسيوس » من كرسي أسقفية

---

(1) ديورانت ، الجزء الثالث ، المجلد الرابع ، صفحة 296 .

(2) المرجع السابق ، صفحة 589 .

(3) جيبون ، المرجع السابق ، صفحة 591 .

(4) المرجع السابق ، صفحة 392 .

الإسكندرية ، اضطر حاكمها إلى استرضاء الوثنيين الذين كانوا إذ ذاك يكونون النسبة الغالبة من السكان ، وكانوا متذمرين ، ولكنه تمكن من إغرائهم في سهولة حتى لا ينتهزوا الفرصة ويثوروا على الحكومة . وتم تعيين « جورج الكبادوكي » أسقفا مكان أثناسيوس الذي تمكن من الفرار .

ليس ذلك وحسب ، بل إنه على الرغم من أعمال القمع الشديدة التي قام بها الإمبراطور « ثيودوسيوس » من أجل القضاء على الوثنية ، فإن أعدادا كبيرة تمسكت بها ، بل وجاهرت بذلك فكانت تقدم القرابين جهارا نهارا للإِلٓه « سيرابيس » في معبده الضخم في الإسكندرية واضطرت الحكومة إلى إغماض عينيها حتى لا تصطدم بهم .

ولنا أن نتصور كيف كانت الأوضاع في بقية أنحاء مصر ، ومقارنتها بما كانت عليه في الإسكندرية معقل المسيحية مع الأخذ بعين الاعتبار ما اتسمت به الأفكار الخاصة بالدين الجديد من غموض كان من الصعب على الإنسان العادي بل وفوق العادي أن يتغلب عليه .

وفي الصراع الذي كان لا ينفك ينشب بين الفرق والطوائف المسيحية في مصر لم يكن الزعماء الدينيون يترددون في اللجوء إلى أشد الأساليب قسوة كالسلب والنهب والاغتصاب والقتل . من ذلك أنه أثناء وجود « أثناسيوس » في كرسي أسقفية الإسكندرية حاول أن يقضي على فرقة دينية من أتباع « ميليتيوس » Miletius كانت توجد في مريوط ، فهاجم كنيستهم وقام بتحطيم القربان المقدس ثم جلد أو سجن ستة من الأساقفة وقتل ، أو على الأقل شوه ، أسقفا سابعا اسمه « أرسينيوس » دون رحمة أو شفقة [1] .

كذلك فإن « كيرلس » الذي اعتلى كرسي الأسقفية في الإسكندرية بعد ذلك لم يتردد في القضاء على خصومه ، أو من كان يتصور أنهم خصومه ، ومنهم الفيلسوفة

---

(1) جيبون ، المجلد الأول ، صفحة 638 .

الوثنية الشهيرة « هيباشيا » Hypatia التي سجل لنا التاريخ ما فعله أتباع كيرلس بها وبناء على أوامره « فقد انتزعت من عربتها ، وجردت من ملابسها وجذبت إلى الكنيسة حيث ذبحت كالشاة بيد قارئ الصلوات « بطرس » وفريق من المتعصبين المتوحشين قساة القلوب . ثم انتزع لحمها من عظامها بقشور المحار ، والقيت أطرافها المرتعدة في لهيب النار »[1] .

وكيرلس هو أيضا الذي تزعم الهجوم على نسطور الذي أنكر أن تكون العذراء أم الله (يسوع) واستطاع بفضل تشجيع خمسين أسقفا من مصر ، وتعضيد عدد من الأساقفة الآخرين الذين اشترى ذممهم أن يجعل مجمع « إفسوس » يصدر قرارا بعزل نسطور وحرمانه[2] ، ثم إنه هو الذي تزعم بعد ذلك مذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح وهي الطبيعة الإلّهية .

وما فعله « أثناسيوس » و « كيرلس » بجرأة ورباطة جأش لا يمكن أن يصدر عن « مصريين » لا حول لهم ولا قوة ، إنما يصدر عن إغربق ينتمون إلى نفس جنس الحكام وأصحاب السلطة وإلا ما سكتوا عليهم . وهو ما يكشف عنه ذلك الخطاب الذي وجهه الإمبراطور « جوليان » إلى سكان الإسكندرية عقب التمرد الذي انتهى بقتل « جورج الكبادوكي » ، الأسقف الذي خلف « أثناسيوس » على كرسي أسقفية الإسكندرية ، فقد قال لهم « إنهم تخلوا عن المسلك الرقيق الكريم الذي يدل على منبتهم اليوناني »[3] . فهل هناك كلام أوضح من هذا ؟

وبالإضافة إلى من سبق ذكرهم من آباء ومعلمي الكنيسة من الإغريق أو ذوي الأصول الإغريقية ، هناك « جورج الكبادوكي » أو كما أصبح يوصف « القديس » جورج الذي ولد في إيبفانيا بإقليم « كليكية Cilicia » في حانوت أحد المنجدين وأطلق عليه والداه ، أو اكتسب من تعليمه ، لقب « الكبادوكي » نسبة إلى إقليم « كبادوكية » . ومن هذا المنبت الحقير المغمور أمكنه أن يرفع نفسه بمواهب الإنسان

---

(1) المرجع السابق ، المجلد الثاني ، صفحة 501 .

(2) ديورانت ، الجزء الأول ، المجلد الرابع ، صفحة 101 .

(3) جيبون ، المرجع السابق ، صفحة 69 .

الطفيلي ، واستطاع أسياده الذين كان يتملقهم دون كلل أو ملل أن يحصلوا لتابعهم التافه الحقير على عقد تزويد الجيش بلحم الخنزير واستطاع جورج الكبادوكي أن يرقى إلى كرسي الأسقفية الذي كان يشغله « أثناسيوس »[1] . ويذكر « جيبون » ألوانا من الموبقات التي ارتكبها « القديس » جورج ، ثم يلوم أو يسخر من قومه (الإنجليز) الذين اتخذوا من هذا الأفاق « قديسا » وأطلقوا اسمه على أرفع أوسمتهم (ربطة الساق) .

وبالإضافة إلى « جورج » الكبادوكي ، فإن « ديمتري » أو « ديمتريوس » الذي يعد أول أسقف للإسكندرية كان إغريقيا ، وكذلك « بنتانيوس » الذي يقال إنه أول من أنشأ مدرسة مسيحية في الإسكندرية كان إغريقيا متمصرا . أما « أثناسيوس » أسقف الإسكندرية الذي اشتهر بعد حضوره مجمع « نيقية » فقد كان هو الآخر إغريقيا ولد في الإسكندرية عام 296 من أبوين إغريقيين وثنيين . كذلك فإن الأنبا « أندرونيقوس » الذي تولى البطريركية سنة 616 كان إغريقيا متمصرا ، والدليل على ذلك أنه كان يقيم في الإسكندرية معتمدا على قوة أسرته التي كانت على درجة كبيرة من الثراء ويتولى كثير من أفرادها مناصب إدارية هامة في المدينة مما لم يكن ليتاح لها لو أنها كانت أسرة مصرية خالصة ، لأن الإسكندرية كانت منذ العصر الإغريقي تتمتع بوضع خاص يميزها عن المدن المصرية الأخرى . ولا تمنح امتيازات كتلك التي كانت تتمتع بها أسرة أندرونيقوس إلا لمن كان من أصل إغريقي .

و « ديوسكورس » الذي خلفه « كيرلس » الذي يقول عنه « جيبون » إنه ورث عنه عقيدته في الطبيعة الواحدة المتجسدة وورث مواهبه ، ورذائله . ولكنه ما لبث أن واجه معارضة شديدة من خصومه انتهت بتقديمه إلى المحاكمة . ويقول « جيبون » عن محاكمة « ديوسكورس » وجيء بشهود لإثبات الحقائق الخاصة التي

---

(1) المرجع السابق ، صفحة 64 .

تدل على كبريائه وجشعه وقسوته ، واستمع آباء الكنيسة في مقت وكراهية إلى أن صدقات الكنيسة كانت تنفق في سخاء على الراقصات ، وأن قصره وحمامه ، كانا مفتوحين لعاهرات الإسكندرية ، وأن العاهرة « بانصوفيا » ، أو « إيرين » كانت تكرم علانية كخليلة البطريرك . ولقد انتهت المحاكمة بصدور قرار من المجمع بعزله ثم أمر الإمبراطور بنفيه[1] .

وهكذا فإن زعامة الكنيسة وصفوة معتنقي المسيحية كانت إغريقية صرفة أو إغريقية متمصرة ، أو مصرية متأغرقة . أما عامة الشعب فإنهم كانوا مسيحيين اسما للأسباب التي سبق أن ذكرناها ، مما جعل بعض مؤرخي النصرانية يذهبون إلى القول إن المسيحية لم تتغلغل في أعماق النفس المصرية . فـ (ليفيفر) يقول إن المسيحية لم تغير شيئا من روح الجنس المصري ولم تصل إلى التأثير في الحياة الخاصة للأفراد ولم تتحول الأرواح تحولا صادقا إلى المسيحية[2] . ويقول « جوستاف لوبون » إن مصر أكرهت على انتحال النصرانية[3] . ويقول « جاستون فييت » إن الشيء الذي لم يكن له أثر في مصر عندما دخلها العرب هو العقيدة والروح الديني . ويزيد « سير توماس أرنولد » الأمر وضوحا فيقول « أما الشرق الذي عرف بحبه للأفكار الواضحة البسيطة ، فقد كانت الثقافة الهلينية وبالا عليه من الوجهة الدينية لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة مليئة بالشكوك ، فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس ، بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها فلما أهلت آخر الأمر أنباء الوحي الجديد فجأة من الصحراء لم تعد تلك المسيحية الشرقية التي اختلطت بالغش والزيف وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية ، وتزعزعت قواعدها الأساسية ، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب ، لم تعد المسيحية بعد ذلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذي

---

(1) المرجع السابق ، المجلد الثاني ، صفحة 520 .

(2) الدكتور حسين مؤنس ، تاريخ الحضارة المصرية ، صفحة 367 .

(3) حضارة العرب ، صفحة 208 .

بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة »[1] .

وهكذا فإن غالبية الشعب كانت في حقيقتها وثنية وفي ظاهرها مسيحية ، وهؤلاء هم الذين كان اختلاطهم جنسيا بالإغريق في كثير من الأحيان وقتيا ، لذلك لم يصل تأثرهم بهم إلى حد أن ينكروا متلهم وينظروا إلى الأمور نظرتهم إليها . لذلك فإنه لما جاء الإسلام إلى مصر اعتنقوه دون أن يشعروا أنهم تركوا عقيدة كانوا يؤمنون بها حقا ، وحتى بالنسبة للذين كانوا قد أوغلوا بعض الشيء في المسيحية فإنهم وجدوا في الإسلام إنقاذا لهم من متاهة المذاهب المتضاربة ومشاكل الطبيعة والطبيعتين ، حتى إن بعضهم لم يروا في الإسلام إذ ذاك إلا مذهبا جديدا من مذاهب المسيحية ، فالانتقال مما كانوا عليه إلى الإسلام لم يكن في نظرهم خروجا من دين إلى دين [2] .

أما الذين بقوا على المسيحية فإنهم الإغريق الأقحاح والإغريق المتمصرون والمصريون المتأغرقون ، وهم نتاج أجيال تلو أجيال اختلطت بشكل مستمر ودائم مع الإغريق حتى غلبت دماؤهم اليونانية ما كان يجري في عروق هذه الفئة من دماء هي بذاتها خليط من دماء الغزاة والفاتحين والمهاجرين الذين عرفتهم مصر منذ البداية . ومن هنا يتبين لنا أن من يزعمون أنهم الورثة ، لم يخطئوا بقولهم عن المغاربة والأتراك وغيرهم إنهم أغراب عنهم ، فشتان ما بين الدم المغربي أو الدم التركي وبين الدم الإغريقي .

إذن فالعرب عندما جاءوا إلى مصر لم يجدوا فيها فراعنة أو مصريين قدماء وإنما وجدوا فيها شعبا اختلطت في عروقه دماء مختلفة أو كما جاء في إحدى دوائر المعارف الغربية « تعرضت مصر لغزوات كثيرة ، وكان الجنود من الجيوش الغازية يستقرون ويكونون أسرا وهذه الأسر ، بالتالي ، امتزجت ببقية السكان . وكانت النتيجة أنه

---

(1) الدعوة إلى الإسلام ، صفحة 89 .

(2) الدكتور حسين مؤنس ، المرجع السابق ، صفحة 368 .

لم يعد هناك عنصر مصري نقي . والأقباط هم نسل السكان الذين كانوا يقيمون بمصر عند غزو العرب لها »[1] . هذه هي الحقيقة وهذا هو الكلام العلمي الدقيق وما عداه هراء وسفسطة ، بل وهم وتضليل .

ولو توخينا الدقة لقلنا إن فئة وحيدة من شعب مصر النقي ، إذا جاز لنا أن نتغاضى عن كل ما تعرضت له مصر من غزوات وهجرات ، هي التي لها الحق دون غيرها في ادعاء الوراثة والحديث عن « الحق الأصيل » وعن « نقاء الدم » . هذه الفئة هي سكان الصحراوات المصرية الذين كانوا حقيقة بمنأى عن المؤثرات الأجنبية بسبب الصعوبات التي تكتنف الوصول إليهم حيث يقيمون ، وكذلك سكان الجبال والكهوف الذين يرتابون في كل غريب ولا يأنسون إلى أي دخيل . ولكن المعلوم أنه لا هؤلاء ولا أولئك تعلم اليونانية واكتسب العقلية الإغريقية .

رابعا ــ المشاعــر :

ومن مظاهر الاندماج بين المصريين والإغريق وحدة المشاعر ، فالمعروف أن المصريين القدماء كانوا يكنون شعورا بالكراهية الشديدة نحو اليهود ، فلما حدث الاندماج بينهم وبين الإغريق نقلوا إليهم هذا الشعور بالكراهية ، على الرغم من أن الإغريق لم يكونوا يكنون أي شعور عدائي نحو اليهود . فقد حثهم الإسكندر على الهجرة إلى مصر وعرض عليهم أن يكون لهم ما لليونان من حقوق سياسية واقتصادية . ثم جاء بطليموس الأول ، بعد استيلائه على أورشليم بآلاف من الأسرى اليهود الذين أطلق خلفه سراحهم ثم دعا في الوقت نفسه كثيرا من أثرياء العبرانيين إلى الإقامة فيها ومزاولة الأعمال التجارية والمالية . ولم يكد يستهل القرن الأول الميلادي حتى بلغ عدد اليهود في مصر مليونا من الأنفس ، يعيش عدد كبير منهم في الحي اليهودي من العاصمة الإسكندرية . لكنهم لم يكونوا مرغمين على الإقامة في

---

(1) Illustrated World Encyclopedia, p. 549 .

هذا الحي ، بل كان لهم مطلق الحرية في الإقامة في أي حي من أحيائها عدا « البروكيوم » الذي كان مقصورا على أسر الموظفين ومن يخدمونه ، وكانوا يختارون لأنفسهم مجلس كبرائهم ، ويمارسون شعائر دينهم ، وقد أقام « أنياس » حاخامهم الأكبر في عام 169 ق . م هيكلا عظيما في « ليونتبوليس » إحدى ضواحي الإسكندرية ، وخصص صديقه بطليموس السادس إيراد عين شمس للإنفاق على هذا الهيكل [1] .

ويتوافق ظهور مشاعر الكراهية نحو اليهود مع زيادة عملية الاندماج بين الإغريق والمصريين مما يدل على ما وصل إليه هذا الاندماج من عمق وقوة . فنتيجة لتوحيد الآلهة المصرية والإغريقية أصبح المصريون والإغريق شعبا واحدا له دين واحد ، في حين احتفظ اليهود بدينهم واشتغلوا بثقافتهم عن سائر أهل البلاد وخاصة فيما يتعلق بالزواج حيث إن شريعتهم تحرم الزواج بينهم وبين أهل الأديان الأخرى ، مما ضايق الإغريق ، خاصة وأن أهل البلاد الأصليين لم يكونوا يحرمون الزواج بينهم وبين الإغريق .

كذلك ونتيجة لاندماج الثقافتين المصرية والإغريقية ، انتقلت إلى الإغريق الأفكار التي كانت شائعة لدى المصريين عن اليهود ومن بينها تلك القصة التي نشرها المؤرخ « مانيثون » والقائلة بأن اليهود قد أخرجوا من مصر من عدة قرون لأنهم أصيبوا بداء الخنازير أو الجذام . وهو ما أدى إلى اشتداد الأحقاد بين الجانبين حتى بلغت ذروتها حين قام اليهود بتقديم العون للجيش الروماني بقيادة يوليوس قيصر عندما أوشك بطليموس على هزيمته ، فجاءت الإمدادات المؤلفة من أهالي آسيا الوسطى وسوريا بالاشتراك مع ثلاثة آلاف من اليهود يقودهم « مثيريداتيس البرغامي » ، واستولى هذا الجمع على « الفرما » عنوة وتقدم صوب « ممفيس » دون أي عائق ، ثم سار بحذاء الفرع الغربي للدلتا ميمما شطر الإسكندرية مما أدى إلى هزيمة بطليموس[2] .

---

(1) ول ديورانت ، المرجع السابق ، صفحة 76 .

(2) زكي علي ، كليوباترا ، سيرتها وحكم التاريخ عليها ، صفحة 14 .

وكان من نتيجة ذلك أن حصل اليهود من الرومان على كثير من الامتيازات بعد أن رحبوا باحتلالهم لمصر والتفوا من حولهم . مما أثار لدى الإغريق والمصريين المتأغرقين مشاعر الضغينة والكره لليهود ؛ فثاروا عليهم في الإسكندرية عام 38 ميلادية ونكلوا بهم ونهبوا حوانيتهم وخربوا دورهم وبيعهم . ثم نشب قتال آخر بين الفريقين بعد ذلك بحوالي أربعة أعوام ، حاول فيه اليهود أن يثأروا من الإغريق والمصريين المتأغرقين ، ولكن الحاكم الروماني تدخل وحال بين الفريقين والاستمرار فيما هم فيه . ومع ذلك فقد تجددت الاشتباكات فيما تلا ذلك من أعوام .

وهناك دليل آخر على وحدة المشاعر بين المصريين والإغريق نتيجة لعملية الاندماج وهو البرديات التي يدعوها الباحثون المحدثون . « أعمال الإسكندرية » أو « أعمال الشهداء الوثنيين » بسبب ما بينها وبين أعمال الشهداء المسيحيين من تشابه . فقد صادفت رواجا كبيرا ، لا في الإسكندرية فحسب ، بل في كل أنحاء العالم ، وتعتبر نموذجا للأدب الإغريقي الشعبي الذي كان يرمي إلى الإشادة ببطولة زعماء الإسكندرية وإثارة البغضاء ضد الحكم الروماني[1] . فلو أن هذه الأعمال كانت تخص الإغريق وحدهم لما صادفت هذا الرواج الكبير بين المصريين ، ولكن الحقيقة أن الاندماج المستمر بينهم وبين الإغريق كان قد أدى إلى ما يشبه وحدة المشاعر بين الفريقين ، إلى الحد الذي جعل من المتعذر التمييز بين المصريين وبين الإغريق .

كذلك يلاحظ أنه في خلال القرون الثلاثة التي كانت مصر فيها تحت حكم الإغريق لم يصدر عن المصريين عمل يعبر عن الكراهية والعداء للغزاة ، فيما عدا الثورة التي نشبت في الدلتا عام 216 ق . م ، ثم شملت مصر الوسطى ومصر العليا سنة 206 ق . م . وبقيت نارها مستعرة في البلاد حتى عام 184 / 183 ق . م . عندما وقعت « سايس » في قبضة بطليموس الخامس الذي خدع الزعماء المصريين فوعدهم بالعفو عنهم إذا استسلموا وأمنهم على حياتهم ثم أعدمهم بعد ذلك . فإن

---

(1) الدكتور إبراهيم نصحي ، المرجع السابق ، صفحة 117 .

معظم الثورات التي نشبت بعد ذلك لم يكن الطابع القومي واضحا فيها[1] ، بل العكس هو الصحيح ، فإن الطبقة البيروقراطية المثقفة المصرية كانت قد اندمجت تماما في المجتمع الإغريقي بعد أجيال استمرت خلالها عملية التزواج بين الشعبين ، مما أدى إلى طمس كل ما له علاقة بالوطنية وأصبح هناك فئة جديدة تتميز بمصالحها القائمة بذاتها ، وبأهدافها وأحلامها عن كل من المصريين الوطنيين الذين حافظوا على خصائصهم لا لسبب إلا لأنهم وجدوا أنفسهم خارج دائرة اهتمام الإغريق ؛ والإغريق الذين احتفظوا بإغريقيتهم ، سواء لرفضهم الاندماج لأسباب عنصرية ، أو لأنهم كانوا من الوافدين الجدد الذين لم تتح لهم بعد فرصة الاندماج في المصريين .

لذلك كانت الدوافع وراء الثورات التي نشبت فيما تلا ذلك من عهود تعبر بوضوح عن مصالح هذه الفئة ، أي الإغريق المتمصرين ، والمصريين المتأغرقين ، والتي كانت تتمثل في ترجيح كفة ملك على آخر ، أو الحصول على المزيد من الامتيازات على حساب الطبقتين الوسطى والدنيا من المجتمع المصري .

فالثورة التي نشبت عام 165 / 164 ق . م . كان يتزعمها إغريقي متمصر يدعى « ديونيسيوس بتوسيرابيس » وكان موظفا كبيرا في القصر الملكي . أما الهدف من الثورة فكان التخلص من بطليموس السادس وتولية أخيه الأصغر حكم مصر ، وهو ما يتضح منه أن فكرة التخلص من الحكم الإغريقي لمصر وإعلان استقلالها لم تكن واردة على ذهن أحد ممن تزعموا تلك الثورة . وقد اضطر « ديونيسيوس » إلى الفرار إلى مصر العليا بعد فشل الثورة واتفاق بطليموس السادس مع أخيه . ولقد تكرر هذا في الثورة التي حدثت أثناء حكم بطليموس الثامن وأخته كليوباترة الثانية ، فلم يكد الخلاف يدب بينهما حتى انقسم الناس ، مصريون وإغريق ، بل ويهود أيضا ، بين مؤيدين لبطليموس ، ومؤيدين لأخته . فنشبت الحرب الأهلية بين الفريقين . وعلى الرغم من أن نسبة كبيرة من المصريين كانت تقف إلى جانب

(1) محمد العزب موسى ، وحدة تاريخ مصر ، صفحة 60

بطليموس ضد كليوباترة الثانية إلا أن ذلك الموقف لم يكن تعبيرا عن أية مشاعر وطنية بل العكس هو الصحيح فقد كان من يسميهم المؤرخون بالمصريين يهدفون إلى تثبيت بطليموس على عرش البلاد دون أخته ، وهو ما يتنافى مع المشاعر القومية تماما .

كذلك كان الحال بالنسبة للثورات التي نشبت في أعوام 85 ، 78 ، 63 ، 58 ق . م . والتي لم يرتفع فيها صوت واحد ينادي باستقلال مصر أو بخلع البطالمة عن عرشها . وهو ما يمكن تفسيره باضمحلال الروح القومي لدى المصريين الناشئ عن الاندماج بينهم وبين الإغريق والذي جعل الناس لا يشعرون بأي غضاضة ، بل ولا يجدون غرابة في تولي الإغريق الحكم ، أو قل إن السبب كان اضمحلال المصريين أنفسهم وتحولهم إلى إغريق أو بالأحرى تأغرقهم .

والملاحظ أنهم كانوا ينظرون إلى الحكام البطالمة باعتبارهم ملوكا مصريين وليسوا أجانب ، وهو عكس ما كان عليه الحال في عهد الهكسوس حيث ظل الشعب ينظر إلى ملوكهم باعتبارهم أجانب غرباء اغتصبوا السلطة ، على الرغم مما بذله هؤلاء من جهود ، فيما بعد ، للتقرب إلى المصريين ، فتشبهوا بملوكهم واتخذوا لباسهم وانتحلوا اسماءهم واعتنقوا دينهم ونسبوا أنفسهم لآلهتهم . ولكن هل كان المصريون الذين امتزجوا بالإغريق هم أنفسهم المصريين الذين واجهوا الهكسوس وما زالوا بهم حتى أخرجوهم من بلادهم ؟ طبعا لا فهؤلاء غير أولئك أما السبب فابحث عنه في الغزوات والهجرات التي تعرضت لها مصر منذ ما بعد الهكسوس ، وما أحدثته في السكان من تغيير عميق ، بل جذري يسمح لنا بأن نقول إن المصريين القدماء لم يعد لهم وجود حقيقي ، وإنما هم مجرد أناس يقيمون على نفس الأرض التي كان يقيم فوقها السكان السابقون الذين دخل جزء من دمائهم في عروق عدد من الشعوب التي وفدت إلى مصر . ثم أكمل الإغريق ما كانوا قد بدأوه يوم أن وفدوا إلى مصر للتجارة ثم للعمل جنودا مرتزقة في جيوش الفراعنة المتأخرين ، ألا وهو إضافة المزيد من الدماء اليونانية إلى المزيج من الدماء المختلفة التي تجري في العروق والشرايين .

ويشير الدكتور زكي علي[1] إلى ما قاله بعض العلماء عن نظرة المصريين إلى الملوك من الأسرة البطلمية قائلا : « وقد دلل العالم الأمريكي « وليم لن وسترمان » في مقال له منشور في أعمال المؤتمر العالمي الخامس لعلم أوراق البردي ، على أن كليوباترة كانت ملكة مصرية صحيحة في نظر المصريين ، وأنها خلدت في الأدب الباقي من عصرها ومن العصر التالي على أنها مصرية . واستند في ذلك على ما جاء في أقوال « بلوتارخس ، حياة أنطونيوس ، الفصل 25 ، من أن كليوباترة كانت « المصرية » وأن المحاولة المسرحية الأخيرة من جانب كليوباترة في إقامة دولة عظيمة ذات سلطان واسع عن طريق التحالف مع الحزب الروماني الموالي لأنطونيوس ، كان العماد الأساسي فيها اعتقادها بأن ولاء الشعب المصري وإخلاصه لقضية الأسرة البطلمية ومليكه كان أمرا مسلما به . وأن ذلك الحلم الرائع الذي داعب خيال كليوباترة في الوصول إلى سلطان الحكم على إمبراطورية مترامية الأطراف ربما كان عديم الجدوى ، وينطوي على محاولة طائشة ومغامرة فاشلة ، لو لم تكن واثقة من تأييد المصريين من رعاياها وولائهم وإخلاصهم لها » .

ولما استولى الرومان على مصر عام 31 ق . م . لم يكد عام واحد ينقضي حتى ثار المصريون والإغريق معا ، فقد ثارت طيبة في مصر العليا ، وتبعتها « هيرءونيوليس » في شرق الدلتا ، ثم ثارت الإسكندرية . ولم تستقر الأوضاع إلا في عام 14 ميلادية أواخر حكم « أغسطس » واستمرت على ذلك أثناء حكم « تبيريوس » ، أي حتى عام 37 ميلادية عندما تولى « كاليجولا » الحكم .

وهكذا نلاحظ أن المصريين وليس اليونانيون فقط قد ثاروا على الرومان باعتبارهم غزاة ، في حين كان المتوقع أن يتحالفوا مع الرومان ضد الإغريق باعتبارهم محتلين مغتصبين ، أو على الأقل يتخذوا موقفا محايدا من كلا الجانبين باعتبارهما غاصبين أجنبيين ، ولكن الذي حدث أنهم شاركوا الإغريق الثورة على الرومان . وهذا يدل على مدى الاندماج الذي حدث بين الشعبين .

---

(1) كليوباترة ، المرجع السابق ، صفحة 141 .

فقبل أن يغزو الرومان مصر كان قد فر إليها أعداد غفيرة من الإغريق بعد أن استولى الرومان على بلادهم ، فجاءوا إلى مصر يحملون معهم إلى مواطنيهم أنباء ما نزل ببلادهم السابقة من ويلات وما أصابها من تدهور على أيدي الرومان . فقد قام القواد الرومان والمرابون ، ورجال الأعمال الذين حذقوا أساليب شراء غلات البلاد بأبخس الأثمان وبيعها بأغلاها ، هؤلاء كلهم قد قاموا باستنزاف خيرات البلاد . فلما قام مثرداتس بثورته ضد الرومان انضمت إليه المدن اليونانية التي كانت تتحرق شوقا إلى حريتها فلما أخفقت الثورة أنزل الرومان أشد العقاب بالمدن اليونانية ، فحوصرت أثينا حصارا أهلك فيها الحرث والنسل ونهبت كنوز هيكل « دلفي » و « أليس » و « إيدورس » . وبعد جيل من ذلك الوقت تقاتل « قيصر » و « بومبي » ، ثم أنطونيوس وبروتس على أرض اليونان ، وجندوا أهلها في جيوشهم ، واستولوا على محصولات البلاد وذهبها وجبوا في عامين ضرائب عشرين عاما وتركوا المدائن خاوية على عروشها ونهبت روما روائع الفن اليوناني وباعت من أهل « أبيروس » خمسة عشر ألفا في سوق الرقيق[1] .

ولذلك فإن ذكرى هذه الأحداث الأليمة المقرونة بذكرى المجد الغابر ظلت عالقة بأذهان يونان مصر ، فلما غزاها الرومان ازدادت نقمتهم عليهم ، وأنهم أي الرومان حرموهم من كثير مما كانوا يتمتعون به من مزايا فيها .

وتبين لنا الروايات التي تناولت الحرب « المثرداتية » الأولى (88 - 84 ق . م) الحد الذي بلغته كراهية اليونانيين للرومان ؛ فقد فتحت المدن اليونانية أبوابها لجيوش مثرداتس وأعلنت ولاءها له وللقضية التي نصب نفسه للدفاع عنها ، وقامت في يوم حدده لها وبناء على أمره ، بقتل كل من فيها من الإيطاليين رجالا كانوا أو نساء أو أطفالا . وقد بلغ عددهم ثمانين ألفا (88 . ق . م) . ويقول المؤرخ « إبيان »

---

(1) ول ديورانت ، قصة الحضارة ، الجزء الثالث ، المجلد الثالث ، صفحة 67 .

(2) المرجع السابق ، صفحة 138 .

إن الذي دفع اليونانيين إلى ارتكاب هذه الفظائع لم يكن خوفهم من مثرداتس فحسب بل كان أيضا كرههم للرومان .

فلولا غلبة الروح الإغريقية على سكان مصر في ذلك الوقت ما تحرك غير الإغريق الأصلاء للثورة على الرومان ولكن أن يقوم الجميع على الرومان فليس له من تفسير إلا أن يكون السكان الذين كانوا يقيمون بمصر وقت احتلال الإسكندر لها قد امتزجوا تماما في الإغريق الذين انسالوا إلى البلاد وأقاموا في كل مكان فيها .

وفي الثورة التي نشبت في مصر في عهد الإمبراطور الروماني « دقلديانوس » لم يكن زعيمها « مصريا » بل كان إغريقيا متمردا يدعى « أشيلس » نادى به المصريون إمبراطورا فلما ترامت الأنباء إلى « دقلديانوس » حضر إلى مصر في عام 294 م واجتاح النيل وأحرق « كوبتوس » معقل الثوار [1] . والأصل الإغريقي لزعيم الثورة واضح من اسمه « أخيل » وهو اسم أحد الأبطال اليونانيين القدماء .

كذلك هناك كثير من البراهين على اندماج المصريين في اليونانيين ، فضلا عن الزواج فيما بين الجانبين الذي يقول « هارولد بيلي » [2] بشأنه « إنه في القرن الأخير من حكم البطالمة ازداد اندماج المصريين واليونانيين بعد أن وصلوا إلى مركز أقرب ما يكون إلى المساواة مع اليونانيين ، مما كان حظهم من تلك المساواة في عهد البطالمة الأولين ، وإنا لنسمع بوجود مصريين قد وصلوا إلى مراكز لا بأس بها من حيث الأهمية والرفعة في السلكين المدني والعسكري » . وقد فرض هذا الاندماج على المصريين أن يتخلوا عن كثير من عناصر ثقافتهم القديمة وأن يحلوا محلها عناصر الثقافة الإغريقية ، وبالذات ما يتعلق منها بالعادات واللغة والفكر وهو ما سنبينه فيما يلي

---

(1) ب . ح . الجود ، مصر ، صفحة 47 .

(2) مرجع سابق ، صفحة 85 .

خامسا ـ العـــادات :

من عناصر الثقافة الإغريقية التي استعارها المصريون ، الزي اليوناني الذي اتخذوه لباسا لهم سواء منهم من كان ينتمي إلى الطبقة العليا أم من ينتمي إلى الطبقة الوسطى . أما الطبقة الدنيا أو عامة الشعب فإنها احتفظت بزيها القديم لا بدافع الوطنية ، فما كانت هذه الطبقة لتعي شيئا عن أصولها التي عفا عليها الزمن منذ قرون بعيدة وإنما لأن الزي الذي كانت تستخدمه كان بسيطا وقليلا لا يكلفها الكثير ، فضلا عن أنه كان يلائم حالة الطقس الذي يسود البلاد .

ولا يجب أن نعتد ، في هذا الصدد ، بما كان ملوك البطالمة يظهرونه من الحرص على ارتداء الزي الفرعوني الذي كان يتميز به الملوك في مصر القديمة ، وهو ما نراه بوضوح في الصور التي تمثل البطالمة والتي نقشت على جدران المعابد التي أقاموها ، وذلك لأن الملوك ، في كل زمان ومكان لا يرتدون ما يرتديه عامة الشعب من ثياب ، كما أن هؤلاء لا يرتدون ما يرتديه ملوكهم وبالتالي فليس لهذا الأمر دلالة من أي نوع فقد يكون ارتداء البطالمة للزي الفرعوني قد حدث بدافع من الرغبة في تقليدهم ليس إلا . وكذلك الحال بالنسبة لمراسيم البلاط الملكي وتقاليد الأسرة المالكة وأسلوب الحكم التي كانت جميعها مما يغري أي ملك لديه ميل إلى الأبهة والعظمة بالتمسك بها والحرص على اتباعها خاصة في مجتمع اعتاد تأليه الحاكم .

سادسا ـ اللغـــة :

لعل أوضح دليل على تأغرق المصريين هو اللغة ، فبعد فترة قليلة من دخول الإغريق إلى مصر بدأت اللغة المصرية في الاختفاء لتحل محلها اللغة اليونانية . ويقول الدكتور حسين مؤنس[1] إن المصريين في ذلك الحين لم تكن لهم لغة واحدة

---

(1) تاريخ الحضارة المصرية ، الجزء الثاني ، صفحة 369 .

يتفاهمون بها في كل مكان ، فقد كانت اللغة القبطية إذ ذاك في دور التكوين . كانت كلغات أوربا مثلا خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين : بقايا لهجات لاتينية منحطة تعرف بلاتينية العصور المتأخرة لا نحو لها ولا ضوابط ، أغارت عليها لغات الجرمان في كل ناحية ، واختلطت هذه بتلك وبدأت تنشأ لهجات في النواحي ، ثم أخذت اللهجات تتقارب حتى نشأت اللغة المحلية ، سواء أكانت فرنسية أو إسبانية أو جرمانية . والملاحظ أنه كانت توجد في العصور الفرعونية ثلاثة أنواع من الكتابة هي الهيروغليفية وكان يكتب بها على الأحجار والمعابد والمسلات ، والهيراطيقية وكانت خاصة بالكهنة يكتبون بها وحدهم أما عامة الشعب فقد كانت لهم كتابة خاصة بهم تسمى « الديموطيقية » التي كانوا يستخدمونها في كتابة العقود والخطابات والوثائق ، وهي اختصار للكتابة الهيراطيقية التي كانت بدورها مختصرة من الهيروغليفية . وكلمة « ديموطيقية » تسمية يونانية نسبة إلى « ديموس » بمعنى الشعب ، أطلقها هيرودوت في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد على كتابة المصريين في عهده وأصبحت تعرف بها في العصور اليونانية الرومانية التالية . وهي من حيث الأسلوب والقواعد مختلفة اختلافا كبيرا عن أسلوب العصور السابقة للغة المصرية ، وذلك بسبب عناصر التفكير الأجنبي والقواعد اللغوية والمصطلحات التي جلبتها العناصر الأجنبية وبخاصة العناصر اليونانية التي اختلط بها الشعب المصري ، وعلى ذلك جاء أسلوب الديموطيقية مختلفا عن أسلوب الهيراطيقية أو الهيروغليفية[1] ، التي بدأت في الاختفاء منذ حوالي القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد بعد أن أشرفت الحضارة المصرية على الاضمحلال فحلت الديموطيقية محلها .

ولذلك فإنه عقب الغزو اليوناني لمصر بادرت صفوة المصريين إلى تعلم اللغة اليونانية والكتابة بها ، بل والتخاطب أيضا ، في حين عمد البعض الآخر من المصريين إلى كتابة الديموطيقية بالحروف اللاتينية ، فسميت هذه الديموطيقية ذات الحروف اللاتينية بأنها لغة قبطية . وكان ذلك في العهد المسيحي ، مما يدل على أنه لم يكن

---

(1) الهيلينية في مصر صفحة 63 .

هناك قبل ذلك العهد لغة قبطية ، ولكن كانت هناك لغة أو قلم ديموطيقي بائد .

ويقول « هارولد بيلي »[1] لعل الشعب المصري في جملته قد قبل الوضع الجديد في شيء من الاستسلام . والكثيرون منهم تعلموا اللغة اليونانية ، في حين أن أفراد الطبقات العليا من بينهم ممن انطبعوا بالطابع اليوناني أخذوا في التزايد ، وإظهار الميل الشديد إلى الاختلاط بالمتوطنين من اليونانيين ، بل إن الكهنة أنفسهم أخذوا يستخدمون اللغة اليونانية ومنهم الكاهن « مانيثون » Manethon الذي قام بتصنيف تاريخ لمصر باليونانية ، جمعه مما وجده بسجلات المعابد ومما تواترت به التقاليد المصرية .

وقد لجأ رجال الدين إلى استخدام أحرف الهجاء اليونانية مع إضافة ستة حروف فقط مأخوذة من الكتابة الديموطيقية فكتبوا بها النصوص المصرية ، وهي التي أصبحت تسمى بالكتابة القبطية . ومع ذلك فإنه قبل أن يتقدم بنا العهد في القرن الرابع الميلادي أصبح الذين يستطيعون قراءة اليونانية أكثر بكثير ممن يقرءون الديموطيقية[2] .

ولنا أن نتساءل كيف يمكن اعتبار لغة ليس فيها من الحروف الأصلية سوى ستة حروف فقط لغة وطنية ، مع ملاحظة أنه لم تكن لها صورة ثابتة بعض الشيء إلا في بعض الكنائس وفيما كتبه بعض القساوسة . ثم إنها ، حتى في هذه الدوائر القليلة ، تأثرت تأثرا عظيما باللغة الإغريقية ، بل فضل بعض كتاب مصر أن يكتبوا بالإغريقية . وكانت الوثائق الرسمية تكتب بالإغريقية ، أي أن البلاد لم يكن لها لغة ثابتة ، لا في الكتابة ولا في الكلام[1] .

---

(1) المرجع السابق ، صفحه 56 .

(2) المرجع السابق ، صفحة 151 .

(1) الدكتور حسين مؤنس ، المرجع السابق ، صفحة 369 .

سابعاً ــ الفكــــر :

كذلك انعكس الإختلاط شبه التام بين الإغريق والمصريين على الفكر والثقافة التي أضحت هيلينية أو هلينستية[1] ليس بينها وبين الثقافة المصرية القديمة علاقة من نوع ما وعلى الرغم من وجود مظاهر للصراع بين المصريين والثقافة الهلينستية إلا أن ذلك لا يعني أن هؤلاء المصريين فعلوا ذلك حماية لثقافة أصيلة عدت عليها ثقافة دخيلة هي الثقافة الهلينستية ؛ فقد اختفت منذ قرون ثقافة المصريين القدماء وحلت محلها ثقافة خليط من عناصر مصرية وأخرى يونانية أخذت تبحث لنفسها عن مكان . وليس غريبا أن نلاحظ أن الذين تزعموا حركة التمرد على الثقافة الهلينية من أصل يوناني ويحملون أسماء يونانية ، أو مصريون تجري في عروقهم دماء يونانية . ذلك لأنهم كانوا بعد قرون من الحياة في مصر ، التي ولدوا فيها كما ولد آباؤهم ، قد أصبحوا مصريين .

كذلك فإن الحكم الروماني لمصر الذي دام قرابة ستة قرون (31 ق . م — 641 م) لم يؤثر بشكل من الأشكال في الثقافة الهلينية التي ظلت هي الثقافة السائدة ، ليس في مصر أو اليونان فقط بل في كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية . وبعد اعتناق الأباطرة الرومان للمسيحية أصبح الحكم الروماني في مصر إغريقي الروح ، بلاطه يوناني الصبغة ، لغته يونانية كذلك ، مشبعا بتقاليد اليونان وعاداتهم ، مسيحي الدين ، رومانيا في أساليب الحكم . ولم يكن سكان مصر يوصفون بأنهم مصريين إلا لكونهم يقيمون فوق أرض مصر ، بعد أن تناسل اليونانيون وتزاوجوا فيما بينهم وبين المصريين ، وأصبحوا بدورهم مصريين تماما. مثلما نرى الآن من أحوال المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية الذين أصبح الجيل الثالث منهم أمريكيا كاملا ، سواء في لغته أو عاداته أو تقاليده ، وعموما ثقافته التي تميزه بدرجة

---

(1) يفرق المؤرخون بين الثقافة الهلينية وهي الإغريقية بصفة عامة شاملة وللثقافة الهلينستية أي اليونانية بعد عصر الإسكندر

واضحة عن قريبه المقيم في اليونان أو إيطاليا أو لبنان أو مصر ، أو غيرها من الدول التي عرفت بكثرة المهاجرين منها إلى غيرها من الدول . غير أن هناك اختلافا هاما هو أن الإغريق كانوا هم الحكام وأصحاب السلطان في مصر ، كما أنهم كانوا من الكثرة والانتشار إلى الدرجة التي تجعلهم مصدر التأثير . تماما كما كان الوضع بالنسبة للإنجليز قبل استقلال الولايات المتحدة ، فهم ، رغم أنهم لم يكونوا يمثلون الأغلبية بين السكان ، إلا أنهم فرضوا لغتهم وثقافتهم على بقية العناصر الأخرى .

ويمكننا أن نلاحظ الطبيعة الهلينستية للثقافة المصرية في العصرين الإغريقي والروماني من استعراضنا للأفكار التي كانت سائدة ، ومتابعتنا لأصحابها الذين كانوا إغريقا متمصرين أو مصريين متأغرقين .

فقد كانت مدرسة الإسكندرية هي البوتقة التي انصهرت فيها الأفكار والفلسفات المصرية القديمة مع الأفكار والفلسفات الإغريقية ، ونشأ عن انصهارهما معا ظهور الأفكار والفلسفات والمذاهب الهلينستية الجديدة . وكان ذلك على أيدي الأساتذة الإغريق المتمصرين الذين نقلوا بجهودهم مركز الفكر العالمي من أثينا إلى الإسكندرية . ومنهم الفيلسوف السكندري « فيلون » ثم « كلسوس » و « بورفيريوس » . فلما ظهرت المسيحية في مصر نشأت مدرسة الإسكندرية اللاهوتية لتواجه نشاط المدرسة الوثنية ، وكان ظهورها أيضا على أيدي الفلاسفة الإغريق المتمصرين أمثال « بوسابيوس القيصري » و « جيروم » ثم من تلاهم ممن تولوا إدارتها وهم أيضا إغريق متمصرون مثل « أثيناغورس » و « بنتينوس » و « إكليمنتس » و « أوريجانوس » و « ديونسيوس » .

فقد كان « أثيناغورس » فيلسوفا يونانيا ولد في الإسكندرية ، وكذلك كان « بنتينوس » الذي خلفه في إدارة المدرسة ، ومثلهما « إكليمنتس » و « أوريجانوس » وغيرهما ممن تولوا إدارة المدرسة . كذلك فإن الفيلسوف « أمونيس سقاصي » واضع ما يسمى بالأفلاطونية الحديثة كان إغريقيا ومثله تلميذه بلوتينوس (أفلوطين) الذي ولد في أسيوط سنة 204 من أبوين إغريقيين متمصرين ثم رحل إلى الإسكندرية حيث تلقى دروسا في الفلسفة على يد أمونيوس سقاص لمدة إحدى عشرة سنة سافر

بعدها إلى روما سنة 245 حيث استقر بها وأنشأ مدرسة للأفلاطونية الجديثة وتوفي في روما سنة 270 ميلادية وخلفه تلميذه « بورفيريوس » الذي ما لبث أن خرج على المسيحية وهاجمها بعنف في كتبه التي بلغ عددها خمسة عشر كتابا حفلت بالنقد الشديد للمسيحية .

كذلك فإن القديسين الذين يوصفون بالمصريين لم يكونوا في الحقيقة مصريين من أصحاب الحق الأصلاء ولا من ذوي الدم النقي الذي لم يخالطه دم آخر ، وإنما كانوا إغريقا أو رومانيين ولدوا في مصر وانتقلوا وأقاموا فيها ، أو لم يقيموا فيها أبدا ومن هؤلاء القديس « مارمينا » الذي يوصف « بالعجايبي » لكثرة ما قيل إنه أتى به من المعجزات بعد موته [1] . فقد ولد هذا القديس في ولاية أفريقيا الرومانية (ليبيا) حيث كانت أسرته تعيش ، لأن أباه كان أحد موظفي الإدارة الإمبراطورية حسبما تقول الروايات . وكذلك القديس « مارجرجس » الذي كان قائد رومانيا .

وهكذا نلاحظ أن زعماء الكنيسة المصرية وقديسيها لم يكونوا ينتمون إلى الفراعنة وبالتالي لم يكونوا ورثتهم لأن الدماء الفرعونية النقية لم تكن تجري في عروقهم ، بل ولم يكن في هذه العروق نقطة دم واحدة منها ومع ذلك اعتبروا مصريين بالمولد أو بالإقامة ، ومع ذلك لم يقل لهم أحد إنهم غرباء ودخلاء لا يحق لهم أن يحظوا بشرف الانتماء إلى هذا البلد .

أما العلماء الذين وصفوا زورا بالمصريين ، فإنهم في الحقيقة لم يكونوا كذلك بل كانوا ، إما إغريقا أقحاحا ، أو إغريقا تمصروا مثل « هيروفيلاس » مؤسس علم التشريح ، و « أريستراتوس » مؤسس علم وظائف الأعضاء ، و « ديموكريتوس » صاحب نظرية الذرة ، وغيرهم من العلماء الإغريق الذين ولدوا أو أقاموا في مصر دون أن يكون في دمهم قطرة واحدة فرعونية ومع ذلك فإن من آثروا أنفسهم بنقاء الدم واحتكروا الجدارة بالحق والميراث مضوا يهللون لأولئك العلماء زاعمين أنهم مثلهم

(1) يوسف درة حداد ، مصادر الوحي الإنجيلي ، الجزء الأول ، صفحة 320 .

« أصحاب حق » ، فكأنهم أعطوا أنفسهم ، فوق ما أعطوا ، الحق في إضفاء شرف الانتساب إلى هذا البلد لمن يشاءون ، على شريعة أن لا يكون مغربيا أو تركيا أو شركسيا أو كرديا . إلخ إلخ إلخ ، على حد قول الدكتور لويس عوض ، الذي لم يشأ أن يذكر بقية الشعوب العربية ، ربما لاكتفائه بالمعيار الذي وضعه للتفرقة بين المصري وغيره وهو أن يكون من أصحاب الحق الذين تجري في عروقهم الدماء الفرعونية النقية ، وربما لأنه أراد أن يضرب إسفينا بين العرب وغيرهم من القوميات الأخرى التي ترتبط بالعرب برابطة الإسلام التي قامت عليها الدولة الإسلامية .

المراجـــــع

1 أباطيل وأسمار ، محمود محمد شاكر ، مكتبة دار العروبة ، القاهرة 1385 هـ .

2 اجناس البشرية ، م . نسترخ ، ترجمة يوسف ميخائيل أسعد ، سلسلة العلم للجميع الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة 1971

3 الأزهر جامعا وجامعة ، سلسلة البحوث الإسلامية ، السنة 17 الكتاب الرابع ، القاهرة 1406 هـ — 1986 م .

4 اضمحلال الإمبراطوية الرومانية وسقوطها ، إدوارد جيبون ، دار الكتاب العربي للتأليف والنشر ، القاهرة بدون تاريخ

5 الأقباط في الحياة السياسية المصرية ، دكتورة سميرة بحر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة .

6 أقباط مصر بين الماضي والحاضر ، القس داود عزيز كاهن كنيسة السيدة العذراء بأبي زعبل ، القاهرة ، بدون تاريخ .

7 إمبراطورية العرب ، الجنرال جلوب ، تعريب جمال حماد ، دار الكتاب العربي ، بيروت بدون تاريخ .

8 الإمامة والسياسة ، ابن قتيبة الدينوري ، الطبعة الأخيرة ، الجزء الأول ، مطبعة الحلبي ، القاهرة 1388 هـ — 1969 م .

9 أوروبا .. ومصير الشرق العربي ، جوزف حجار ، ترجمة بطرس الحلاق وزميله ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 1976 .

10 البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية للسيطرة عليه ، دكتور محمد عبد العال أحمد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1980 .

11 البداية والنهاية ، ابن كثير ، مكتبة المعارف ، بيروت 1980 .

12 بنوك وباشوات ، دافيد . س . لاندز ، ترجمة الدكتور عبد العظيم أنيس ، القاهرة 1966

13 بونابرت في مصر ، ج . كريستوفر هيرولد ، ترجمة فؤاد أندراوس ، دار الكاتب للطباعة والنشر ، القاهرة بدون تاريخ .

14 تاريخ الحروب الصليبية ، ستيفن رينسمان ، ترجمة الدكتور السيد الباز العريني ، دار الثقافة ، بيروت 1967 .

15 تاريخ الحركة القومية ، عبد الرحمن الرافعي ، الطبعة الرابعة ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1955 .

16 تاريخ الحضارة المصرية ، تأليف نخبة من العلماء ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة بدون تاريخ .

17 تاريخ الشعوب الإسلامية ، كارل بروكلمان ، الطبعة السادسة ، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت 1974 .

18 تاريخ الطبري ، المجلد الثاني ، روائع التراث الإسلامي .

19 تاريخ العالم ، نشره بالإنجليزية السير جون . ا . هامرتن ، الطبعة الثانية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة بدون تاريخ .

20 تاريخ العرب العام ، ل . ا . سيديو ، نقله إلى العربية عادل زعيتر ، الطبعة الثانية ، عيسى الحلبي ، القاهرة 1969 .

21 تاريخ الفكر المصري الحديث ، الدكتور لويس عوض ، كتاب الهلال ، الطبعة الثالثة ، القاهرة 1969 .

22 تاريخ الكنيسة المسيحية ، سميرنوف ، تعريب المطران ألكسندروس جحا ، حمص 1964 .

23 تاريخ المسألة المصرية ، تيودور رتشتين ، ترجمة عبد الحميد العبادي ومحمد بدران ، الطبعة الثانية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة 1936 .

24 تاريخ مصر ، فلندرز بتري .

25 تاريخ موجات الجنس العربي ودولها ومآثرها في وادي النيل ، محمد عزة دروزة ، المكتبة العصرية ، بيروت ، بدون تاريخ .

26 تاريخ النهب الاستعماري لمصر ، جون مارلو ، ترجمة الدكتور عبد العظيم رمضان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1976 .

27 تفسير القرطبي– الجامع لأحكام القرآن .

28 تفسير الكشاف ، للزمخشري .

29 تطور الفكرة العربية في مصر 1805 - 1936 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1972 .

30 تنسر المعروف بـ (كتاب تنسر) ، نقله إلى العربية دكتور يحيى الخشاب ، الناشر جماعة الأزهر للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة 1954 .

31 التوراة .

32 الثورة العقائدية في الشرق الأوسط ، ليونارد بايندد ، تعريب خيري حماد ، دار القلم ، القاهرة 1966 .

33 الثورة المضادة في مصر ، الدكتور غالي شكري ، كتاب الأهالي رقم 15 ، القاهرة 1987 .

34 الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ، شاكر أحمد أبو بدر ، الجامعة اللبنانية ، بيروت ، 1972 .

35 حسن المحاضرة ، السيوطي ، الجزء الأول ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ، القاهرة 1967 .

36 الحضارات السامية القديمة ، سبتينو موسكاتي ، ترجمة دكتور السيد يعقوب بكر ، دار الكتاب العربي ، القاهرة 1957 .

37 الحضارة العربية ، جاك . س . ريسلر ، ترجمة غنيم عبدون ، الدار المصرية للتأليف والنشر ، القاهرة ، بدون تاريخ .

38 حضارة العرب ، جوستاف لوبون ، نقله إلى العربية عادل زعيتر ، عيسى البابي الحلبي ، القاهرة 1969 .

39 الحياة الاجتماعية في مصر في عصر إسماعيل ، دكتور صالح رمضان ، منشأة المعارف ، الإسكندرية 1977 .

40 حياة الصحابة ، محمد يوسف الكاندهلوي ، مكتبة الدعوة بالأزهر ، القاهرة ، بدون تاريخ .

41 دائرة معارف الشعب ، كتاب الشعب ، القاهرة 1959 .

42 دراسات عن ابن عبد الحكم ، إعداد مجموعة من الأساتذة ، سلسلة المكتبة العربية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1975 .

43 الدعوة إلى الإسلام ، توماس أرنولد ، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور عبد المجيد عابدين ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة 1971 .

44 رحلة ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير ، منشورات دار ومكتبة الهلال ، بيروت 1986 .

45 رحلة إلى الشرق ، جيرار دي نرفال ، ترجمة الدكتورة كوثر عبد السلام البحيري ، دار الكاتب العربي ، القاهرة بدون تاريخ .

46 رسالة اليونسكو ، العدد 281 ، أكتوبر 1984 .

47 زاد المعاد في هدى خير العباد ، ابن قيم الجوزية ، المجلد الأول ، دار الكاتب العربي ، بيروت بدون تاريخ .

48 السلطان محمد الفاتح ، دكتور محمد مصطفى صفوت ، دار الفكر العربي ، القاهرة 1948 .

49 سيرة سيد المرسلين صاحب الشريعة الإسلامية ورسول الله النبي محمد ، محمود أبو الفيض المنوفي الحسيني ، نهضة مصر ، القاهرة 1971 .

50 سيرة القاهرة ، ستانلي لينبول ، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن وآخرين ، النهضة المصرية ، القاهرة 1950 .

51 شجرة الحضارة ، رالف لنتون ، ترجمة الدكتور أحمد فخري ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة بدون تاريخ .

52 شخصية مصر ، دكتور جمال حمدان ، دراسة في عبقرية المكان ، الجزء الأول ، عالم الكتب ، القاهرة 1980 .

53 الشعوب والسلالات الأفريقية ، الدكتور محمد عوض محمد ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة 1965 .

54 شمس العرب تسطع على الغرب ، زيغريد هونكه ، نقله عن الألمانية فاروق بيضون وكمال دسوقي الطبعة الثانية ، منشورات المكتب التجاري ، بيروت 1969 .

55 الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ، السيد أبو الحسن الندوي ، الطبعة الثالثة دار الأنصار ، القاهرة 1977 .
56 صحيح مسلم ، بشرح النووي ، دار الشعب ، القاهرة ، بدون تاريخ .
57 صحيح البخاري ، كتاب الشعب ، دار الشعب ، القاهرة بدون تاريخ .
58 صلات بين العرب والفرس والترك ، دكتور حسين مجيب المصري ، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة 1969 .
59 صلاح الدين الأيوبي ، دراسات في التاريخ الإسلامي ، السير هاملتون ا . ر . جيب ، حرره يوسف إيبشي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 1973 .
60 العادات الجنسية لدى المجتمعات الغربية ، الدكتور أحمد علي المجدوب ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة 1990 .
61 العالم العربي اليوم ، مورو بيرجر ، ترجمة محيي الدين محمد ، دار مجلة شعر ، بيروت 1963 .
62 العالم البيزنطي ، ج . م . هنسي ، ترجمة دكتور رأفت عبد الحميد ، الطبعة الثالثة دار المعارف ، القاهرة 1984 .
63 العرب ، إدوار عطية ، ترجمة محمد قنديل البقلي ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الأولى 1961 .
64 العرب والإسلام والخلافة العربية ، ى . ا . بليابيف ، نقله إلى العربية دكتور أنيس فريحة الدار المتحدة للنشر ، بيروت 1973 .
65 العرب قبل الإسلام ، جرجي زيدان ، دار الهلال ، القاهرة ، بدون تاريخ .
66 عصر محمد علي ، عبد الرحمن الرافعي ، الطبعة الثالثة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة 1951 .
67 عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية ، دكتور عبد العزيز محمد الشناوي ، سلسلة أعلام العرب ، دار الكاتب العربي ، القاهرة 1967 .
68 عيون الأخبار ، ابن قتيبة الدينوري ، سلسلة التراث للجميع ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة 1973 .

69 الغارة على العالم الإسلامي ، ا . ل . شاتليه ، لخصها ونقلها إلى العربية محب الدين الخطيب ، الدار السعودية للنشر ، الطبعة الثانية ، جدة 1387 .
70 فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ابن حجر الهيثمي ، دار الريان للتراث ، الطبعة الأولى القاهرة 1987 .
71 الفتح العثماني للشام ومصر ، دكتور أحمد فؤاد متولي ، دار النهضة العربية ، القاهرة 1976 .
72 فتح العثمانيين عدن ، دكتور محمد عبد اللطيف البحراوي ، مكتبة دار التراث ، القاهرة 1979 .
73 فتوح البلدان ، أبو الحسن البلاذري ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1978 .
74 فتوح مصر والمغرب ، ابن عبد الحكم ، تحقيق عبد المنعم عامر ، لجنة البيان العربي ، القاهرة 1961 .
75 فجر الإسلام ، أحمد أمين ، الطبعة الثانية عشرة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة 1978 .
76 الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ابن حزم الأندلسي ، مكتبة السلام العالمية ، القاهرة بدون تاريخ .
77 فكرة صائبة عن الأجناس والعنصرية ، فيليب ماسون ، تعريب الدكتور شوقي طموم ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة 1967 .
78 في المسألة المصرية ، صبحي وحيدة ، مكتبة مدبولي ، القاهرة بدون تاريخ .
79 في موكب الشمس ، دكتور أحمد بدوي ، الجزء الأول ، الطبعة الثانية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة 1955 .
80 قاموس المورد .
81 القبائل العربية في مصر ، دكتور عبد الله خورشيد البري ، دار الكاتب العربي ، القاهرة 1967 .
82 قدماء المصريين والإغريق ، جان فركونييه ، ترجمة محمد علي كمال الدين ودكتور كمال دسوقي دار النهضة العربية ، القاهرة 1960 .
83 القرآن الكريم .

84 قصة الحضارة ، ول ديورانت ، المجلد الثاني ، ترجمة محمد بدران ، لجنة التألف والترجمة والنشر ، القاهرة 1971 .

85 القومية المصرية الإسلامية ، دكتور إبراهيم جمعة ، القاهرة 1944 .

86 الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ، دار صادر ، بيروت 1982 .

87 كليوباترا ، سيرتها وحكم التاريخ عليها ، زكي علي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة بدون تاريخ .

88 لسان العرب ، لابن منظور .

89 لمحة عامة إلى مصر ، كلوت بك ، دار الموقف العربي ، الطبعة الثانية ، القاهرة 1982 .

90 لمحات من تاريخ الحياة الفكرية المصرية قبل الفتح العربي وبعده ، عبد الحميد عابدين ، الطبعة الأولى ، القاهرة 1964 .

91 مجالي الإسلام ، حيدر بامات ، نقله إلى العربية عادل زعيتر ، عيسى البابي الحلبي ، القاهرة 1956 .

92 المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور ، لابن إياس ، كتاب الشعب ، القاهرة 1960 .

93 مختصر دراسة للتاريخ ، أرنولد توينبي ، الطبعة الثانية ، ترجمة فؤاد محمد شبل ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة 1966 .

94 المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية ، طارق البشري ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة 1980 .

95 المسيحيون والقومية المصرية ، الدكتور زاهر رياض .

96 مصادر الوحي الإنجيلي ، يوسف درة حداد ، دراسات إنجيلية ، جونية ، لبنان 1967 .

97 مصر ، ب . ج . إلجود ، نقله إلى العربية دكتور راشد البراوي ، الأنجلو المصرية ، القاهرة 1946 .

98 مصر القديمة ، سليم حسن ، القاهرة 1957 .

99 مصر في عصر الرومان ، دكتورة آمال محمد الروبي ، القاهرة 1980 — 1981 .

100 مصر في العصر العتيق ، و . ب . مري ، ترجمة راشد محمد نوير ، النهضة المصرية ، القاهرة 1967 .
101 مصر في قيصرية الإسكندر المقدوني ، إسماعيل مظهر ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة 1937 .
102 مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي ، هـ . آيدرس بل ، نقله إلى العربية دكتور عبد اللطيف أحمد علي ، دار النهضة العربية ، القاهرة 1968 .
103 مصر ومجدها الغابر ، مرجيت مري ، ترجمة محرم كمال ، سلسلة الألف كتاب ، لجنة البيان العربي ، القاهرة 1957 .
104 مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس ، عبد الرحمن الجبرتي ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة 1961 .
105 معالم تاريخ الإنسانية ، هربرت جورج ويلز ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، الطبعة الثالثة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة 1967 .
106 معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت 1979 .
107 المعجم العربي الأساسي ، لاروس 1990 .
108 مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، شمس الدين محمد ابن طولون ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة 1962 .
109 موجز تاريخ العالم ، هـ . ج . ويلز ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة 1967 .
110 الموسوعة الإسلامية الميسرة ، أشرف على تحريرها هـ . ا . ر . جب ، وج . هـ . كالمرز ، ترجمة الدكتور راشد البراوي ، الأنجلو المصرية ، القاهرة 1985 .
111 موسوعة التاريخ الإسلامي ، دكتور أحمد شلبي ، الجزء الأول ، الطبعة الثانية النهضة المصرية القاهرة 1978 .
112 موسوعة تاريخ العالم ، وليم لانجر ، أشرف على الترجمة دكتور محمد مصطفى زيادة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة بدون تاريخ .
113 موسوعة تاريخ الأقباط والمسيحية ، زكي شنودة ، الجزء الأول ، الطبعة

الثانية ، القاهرة 1968 .
114 موسوعة تاريخ مصر ، أحمد حسين ، مطبوعات الشعب ، القاهرة ، بدون تاريخ .
115 الموسوعة الثقافية ، إشراف الدكتور حسين سعيد ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، دار المعرفة ، القاهرة 1972
116 الموسوعة العربية الميسرة ، الطبعة الثانية ، مؤسسة فرانكلين ودار الشعب ، القاهرة 1972 .
117 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ابن تغري بردي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة 1963 .
118 نعم .. أقباط – لكن .. مصريون ، دكتور ميلاد حنا ، مكتبة مدبولي ، القاهرة 1980 .
119 النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث ، دكتور غالي شكري ، الطبعة الثانية ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت 1982 .
120 نهضة مصر ، دكتور أنور عبد الملك ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1983 .
121 هيرودوت يتحدث عن مصر ، ترجمة الدكتور محمد صقر خفاجة ، دار القلم ، القاهرة 1966 .
122 الهلينية في مصر ، هارولد آيدرس بيلي .
123 وحدة تاريخ مصر ، محمد العزب موسى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ، 1972 .
124 وصف مصر ، دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين ، ج . دي شابرول ، ترجمة زهير الشايب ، الطبعة الأولى ، القاهرة 1976 .
125 يقظة العرب ، جورج أنطونيوس ، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس ، الطبعة الرابعة ، دار العلم للملايين ، بيروت 1974 .

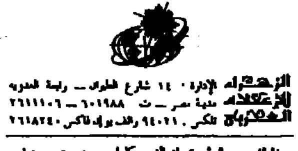
المراجـع الأجنبيـة

1. A. Z Manfred. A Short History of the World Volume 1, progress publisher Moscow. 1974 .
2. Barbara G. Walker, The Woman's Encyclopedia of Myths and Secrets, Harper and Row, publishers, San Francisco, 1983 .
3. C. C. J. Baron Bunsen, God in History. Translated from the Germany by Susanna Winkworth. Vol. 3. Longman's Green and Co. London 1870 .
4. E. H. Dance. Europe And the old World, British and Foreign History. Book 1, Longmans 1959 .
5. Hassan Dafalla, The Nubian Exodus, Khartoum University Press, 1975 .
6. Hazlitt, W. Carew, Faiths and Folklore of the British Isles, New York : Benjamin Blom, Inc., 1965 .
7. Howard Greenfeild. Gypsies, Crown Publishers, Inc. New York 1977 .
8. John Allegro, The Dead Sea Scrolls. Penguin Books 1964
9. Muhammad Hamidullah, Le Prophete De L'Islam. 2 edition 1975 Beyrouth .
10. Paul Johnson, A History of Christianity. Atheneum. New York. 1983 .
11. P. N. Holt. Egypt And the Fertile Crescent 1516 - 1922. Cornell University Press. London 1980 .
12. Thomas Bois, The Kurds, Translated From the French by Professor M. W. M. Welland, Khayats Beirut 1966
13. William G. de Burgh. The Legacy of the Ancient World. Pelican, 1967 .
14. Encyclopedia Americana
15. Encyclopaedia Britanica
16. Illustrated World Encyclopaedia. Bobley Publishing Corp. Woodbury New York, 1983 .

الفهـــرس

الموضـــوع | الصفحة

رقم الإيداع : ٨٩٠٩ / ١٩٩٢
الترقيم الدولي : ٣ ــ ١١٥ ــ ٢٥٧ ــ ٩٧٧



الزهراء للإعلام العربي
الإدارة : ١٤ شارع الطيران ــ رابعة العدوية
مدينة نصر ــ ت ٦٠١٩٨٨ ــ ٢٦١١١٠٦
تلكس . ٩٤٠٢١ رافت يو ان فاكس ٢٦١٨٢٤٠

المطابع : ٩ ش عماد الدين كامل ــ متفرع من عباس
العقاد ــ مدينة نصر ت : ٢٦٣٧٧٨٣
القاهرة

الوهم والحقيقة

في الفكر المصري الحديث

الذين سيقرءون هذا الكتاب ستعتريهم الدهشة وهم يرون أن أفكارا كثيرة كانوا يعتقدون أنها صحيحة وراسخة ، ليست في الحقيقة إلا أوهاما رددها البعض ، في أول الأمر على استحياء ، أو على سبيل جس النبض ، فلما لم يجدوا من يتصدى لها بالنقد والتفنيد ، تمادوا في غيهم ، فمضوا يرددونها ، تارة شفاهة وأخرى كتابة باعتبارها حقائق لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . وجاء بعدهم من جاراهم في جرأتهم ، بل ونافسهم في ضلالهم فرددها بدوره على أنها كذلك .

والهدف من هذا الكتاب : أن ندع المجاملات والعواطف جانبا ونواجه الحقائق بدون لف أو دوران حتى لا تفاجئنا العاصفة فتجتاح كل شيء . وأن نبدد الأوهام قبل أن يستفحل خطرها ، ونبين للأقباط والمسلمين على السواء أن لا أحد يمتلك من الحقوق في هذا البلد أكثر مما يملك غيره ، وأن اللعب بالتاريخ وتزييفه لا يعطي المزيفين أي حقوق يريدون بلوغها بالتزييف .

﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾

المؤلف

الزهراء للإعلام العربي